المدخل في

علم الاجتماع المعاصر

تأليف

دكتور غريب سيد أحمد

مدرس علم الاجتماع بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية

دكتور عبد الباسط محمد عبد المعطي

مدرس علم الاجتماع بكلية البنات
جامعة عين شمس

دكتور علي جلبي

خبير بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية
والجنائية بالقاهرة

١٩٧٤

دار الكتب الجامعية

المدخل فى

علم الاجتماع المعاصر

تأليف

دكتور غريب سيد أحمد
مدرس علم الاجتماع بكلية الآداب
جامعة إسكندرية

دكتور عبد الباسط محمد عبد المعطى
مدرس علم الاجتماع بكلية البنات
جامعة عين شمس

دكتور على جلبى
خبير بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية
والجنائية بالقاهرة

١٩٧٤

إهداء

إلى روح العالم الأستاذ الدكتور

أحمد الخشاب

اعترافاً بدوره الكبير في نمو علم الاجتماع بمصر
واعتزازاً بفضله في رعايتنا وتشجيعنا .

المؤلفون

مقدمة

تزايدت فى السنوات الأخيرة محاولات التأليف والترجمة فى علم الاجتماع ، وكلها محاولات هامة وضرورية لإثراء معرفتنا بهذا العلم واتجاهاته العالمية . ومع هـــذا ، فهناك ملاحظة يمكن لنا رصدها على المحاولات السابقة فى التأليف ، حيث أن عدداً غير قليل من محاولات التأليف هـــذه ، سارت على نهج تقليد كتاب أجنبى أو آخر ، بغض النظر عن لون الكتاب المقلد واتجاهه الفكرى . ويمكن أن تنسحب نفس الملاحظة على محاولات الترجمة ، فترجمتك لكتاب قد يكون أمراً هيناً يسيراً ، وأما إختيارك لموضوع هـــذا الكتاب ، فهذا هو الأمر الذى يحتاج إلى وقفة متأنية . ويزداد الأمر أهمية ، عندما تكون الترجمة أو التأليف منصرفاً نحو تعريف الطلاب المبتدئين بالعـــلم ، فى بساطة وسهولة دون تعقيد ، يحول بينهم وبين الإلمام بالخطوط العريضة والعامة لعلم الاجتماع من جانب ، وإختيار موضوعات يجمعها خط فكرى يتناسب وأوضاع هـــذا العلم الضرورية فى العالم الثالث من جانب آخر .

إن المشتغلين بعلوم الإنسان والمجتمع فى الدول النامية يواجهون - بل عليهم أن يواجهوا — مشكلة أساسية تتمثل فى الاختيار بين الاتجاهات النظرية ومداخل الدراسة التى نمت وتطورت فى مجتمعات أخرى . ويزايد الأمر صعوبة عندما تتكاثر هـــذه الاتجاهات والمداخل ، فى نفس الوقت الذى لم تكتمل لعلم الاجتماع فى دول العالم الثالث ، بعـــد ، مقومات صوغ تنظير خاص . ولذلك نتصور أنه لكى يكون الإختيار واعياً ومتفهما ، يجب أن يدعمه فهم وتعمق الظروف والملابسات التى صاحبت نشأة علـم الإجتماع وأثرت فى تطوره ، حتى

يدرك الباحث ، لماذا صاغ رائد أو مفكر معين ، فكرة بالشكل الذى خرج علينا به . وبعبارة أخرى ، فإن هذا يقتضى إعادة قراءة تاريخ العلم ، وأعمال رواده ، فى ضوء وجهـــة نظر جديدة تبين المضامين الايديولوجية فى هـــذه الأعمال ، حتى يكون الدارسون على بصيرة ، عنـــد اختيارهم بين وجهات النظر المتباينة والمتصارعة .

وانطلاقا من هـــذا ، يأتى الكتاب الراهن ، كمحاولة للجمع بين بساطة العرض ، ونوعية الموضوع الذى يتلاءم مع ظروف مجتمع نام كمجتمعنا . وإن بدا للبعض أن بعض موضوعات هـــذا الكتاب تكرر عرضها فى كتب عربية أخرى ، إلا أننا نتناول هذه الموضوعات من منظور جديد يحاول عرض وجهات النظر المتعارضة — ايديولوجيا — للانتهاء بوجهـــة نظر تتطابق وظروف مجتمعنا . وحتى نعطى القارىء أهم الاتجاهات والمداخـــل النظرية المتباينة، لكى يختار من بينها ما يتفق مع إطاره الفكرى وظروف المجتمع الذى يعايشه بل إن هناك من الموضوعات ما لم تهتم بها بعض محاولات التأليف بالعربية ، وإن أهتم بها البعض الآخر ، فهو أهتمام جانبى لم يقف أمامها مستفيضاً ومتعمقاً.

ويمكن أن نقسم موضوعات الكتاب الراهن إلى قسمين ، الأول يعرض إلى القضايا الأساسية التى تعمل على قيام علم الاجتماع المعاصر وتدعيمه ، سواء من حيث نظريته أو منهجه أو علاقته بغيره من علوم إنسانية . أما القسم الثانى فيعالج أهم الفروع الحـــديثة للعلم مثل علم اجتماع الجمـــاعات والتنظيم والحراك والثورة .

يعالج الفصل الأول نشأة علم الاجتماع وموضوعه فى ضوء الايديولوجيـــة ، حيث يركز على دور الايديولوجية فى تحديد مسارات الفكر الاجتماعي . بل

وفى تحديد تصور العلم ذاته سواء فى الاتحاد السوفييتى أو فى الولايات المتحدة ، ويعرض الفصل الثانى إلى العلاقة المتبادلة بين علم الاجتماع وغيره من علوم إنسانية ، وذلك من خلال وجهتى نظر متباينتين : السوفيتية والأمريكية . أما الفصل الثالث فيحدد معنى النظرية وأنواعها فى علم الاجتماعى المعاصر . موضحا الاتجاهات الأساسية لها واتجاهات التطور فيها . ويحـــدد الفصل الرابع مناهج البحث فى علم الاجتماع ، بالتفرقة بين المنهج والاسلوب وأداة جمع البيانات ، التى كثيراً ما يخلط المشتغلون بعـــلم الاجتماع بينها جميعا . ليأتى الفصل الخامس مؤكداً على الاتجاه العام للكتاب ـ ككل ـ حيث يعرض لعلاقة البحث بالنظرية السوسيولوجية ، والتأثير المتبادل بينهما .

والفصل السادس ، محاولة لوضع أسس عـــلم اجتماع الجماعات الاجتماعية ، واتجاهات الدراسة فيه ، ومناهج البحث التى يستعين بها ، كدعامات لبناء علم فرعى ينبثق من علم الاجتماع العام . ويعرض الفصل السابع لعلم اجتماع التنظيم وحدوده النظرية وأطره التصورية . وإذا كان الفصلين السابقين ـــ كمثال ـــ يركزان على وحدة البنـاء الاجتماعى فى طابعه الاستاتيكى العام ، كالجمـــاعات والتنظيم ، فان الفصلين الأخيرين ، يعرضان إلى دينامية البناء الاجتماعى . حيث يركز الفصل الثامن على سوسيولوجيا الحراك أو التنقل الاجتماعى ، ويركـــز الفصل التاسع والأخـــير على سوسيولوجيا الثورة ، كبناء نظرى يصلح أساساً لفهم قضايا العالم الثالث ، سواء من حيث التفسير النفسى أو الوظيفى أو المادى .

والكتاب نتيجة جهد مشترك ارتبط بخبرة كل مؤلف وتخصصه واهتمامه بموضوعات أكثر من غيرها . حيث قام الدكتور عبد الباسط محمد عبد المعطى باعـــداد الفصل الأول والثانى والتاسع . وقام الدكتور على عبد الرازق جلبى

باعداد الفصل الثالث الخامس والسابع . وقام الدكتور غريب محمد سيد احمد باعداد الفصل الرابع والسادس والثامن .

هذا ، ونرجوا أن نكون قد قدمنا جهداً متواضعاً تحتاجه المكتبة العربية بالفعل ، والله الموفق .

المؤلفون

أغسطس ١٩٧٤

محتويات الكتاب

الفصل الأول

نشأة علم الاجتماع وموضوعه

« في ضوء الايديولوجية »

مقدمة

أولا : الايديولوجية ونشأة علم الاجتماع .

- بعض جذور علم الاجتماع

١ ـ عبد الرحمن بن خلدون

٢ ـ أوجست كونت

٣ ـ كارل ماركس

٤ ـ إميل دوركايم

ثانيا : الايديولوجية وتعريف العلم وبعض مفهوماته .

١ ـ بعض نماذج تعريف العلم

٢ ـ بعض المفهومات المستخدمة في العلم

ثالثا : علم الاجتماع في أمريكا والإتحاد السوفييتي : وجهتان نظر متقابلتان .

مقدمة

شغل موضوع علاقة الايديولوجية بعلم الاجتماع أذهان عدد غير قليل من المشتغلين بالعلم على المستوى العالمي . ومع ذلك لم ينل القدر اللائم من الاهتمام على مستوى العالم الثالث عامة، ومجتمعنا بصفة خاصة، مع أنه من الأولى بنا بذل جهد إضافى لدراسة هذا الموضوع وتحقيقه وإلقاء بعض الضوء عليه . ذلك لأن العلم الحديث فى مجتمعنا ، سواء من حيث تاريخه الفعلى ، أو الإهتمام بتدريسه والبحث فى نطاقه ، يعد جديداً بمعنى من معانى الكلمة . . هذا فضلا عن أن مجتمعنا يعايش تغييرات إجتماعية متلاحقة ، ومحاولة الإجتهاد نحو تنظير جديد يواكب حركة هذا المجتمع ويسهم فى رسم أهدافه ، لاتزال ضنينة وعسرة. ومن ثم يلجأ الكثير منا سواء فى بحوثه أو فى دراساته ، إلى الاستعارة من الأطر النظرية الجاهزة، تلك الاستعارة التى تتبنى أحيانا نظرية لمعينة : كالمادية التاريخية أو البنائية الوظيفية ، أو تلجأ فى أحيان أخرى إلى نوع من التوفيق النظرى القائم على التلفيق من أكثر من إتجاه من الإتجاهات النظرية التى تعيش على مسرح علم الاجتماع المعاصر .

وحتى لايكون الإختيار بين الإتجاهات عشوائيا حسب ما يتراءى للباحث منا ، وحتى تمهد التربة للتنظير الجديد المنشود ، لابد من فهم التراث القائم وتحليله ، بعد عرضه وتفسير ما أحاطت به من ظروف إجتماعية وسياسية . لأن علم الاجتماع كنشاط فكرى يركز جانبا من إهتمامه فى دراسة علاقة الظروف والأوضاع بالأفكار، ليس إلا نشاطا فكريا إنسانيا أتى إنعكاساً لأوضاع أحاطت بالمفكرين والرواد ، الذين تأملوا وفكروا ، واستنتجوا وأبدعوا، وحددوا مواقفهم من تلك الأوضاع ، سواء بالاقرار والتأييد ، أو بالإنكار والتفنيد .

لتجاوز هذه الأوضاع ، إلى أخرى أكثر يسراً للمجتمع والجماعات والأفراد .

وإذا كان هناك من السوسيولوجيين من ينكر وجود تأثير للايديولوجيات على مسار إتجاهات التنظير فى العلم ، فالحكم على رأيهم هـذا ، توقيفيا حتى يتسنى تفحص بعض ملامح هذه العلاقة ، التى سوف تتم مناقشتها من خلال بعض الأبعاد الأساسية التى تتمثل فيما يلى :-

أولا : الايديولوجية ونشأة علم الاجتماع : وفى هـذا الصدد سوف يـكون التركيز على بعض رواد العلم الذين لايختلف إثنين على أن لهـم تأثيرات جليـة على نشأة العلم وبلورة ملامحه . ومن هؤلاء عبد الرحمن بن خلدون الذى ولد العلم على يديه . وأوجيست كونت الذى أعطاه الاسم والميلاد الرسمى، وكارل ماركس الذى بلور شخصيته وجعلها أكثر إستقلالا بين العلوم الاجتماعية الأخرى . وأخيراً ، دوركايم ، الذى يعد من الناحية التاريخية واضع أساس البنائية الوظيفية ، التى لم تزل تمارس نفوذاً وتأثيراً فى كثير من إتجاهات علم الاجتماع الأنجلو أمريكى. وفى عرض أفكار هؤلاء سوف نركز على نقاط ثلاثة :- توضح الأولى نشأة الرجل وما أحاطت به من أوضاع وظروف ، وتهتم الثـانية بتبيين أهم أفـكاره السوسيولوجيـة، وتركز الثالثة على إنعكاسات الأوضـاع على نوعيـة فكر الرجل .

ثانيا : تعريف العلم فى بعض الكتابات المعاصرة ، خاصة الكتابات الأمريكية والسوفيتية، التى تعكس كل منها موقفا إيديولوجيا متباينا ومتغـايراً . وتتشكل هذه النقطة بالوقوف إلى بعض مفهومات العلم لتوضيح عـلاقة هذه المفهومات بالايديولوجيات السائدة .

ثالثا : وأخيرا سوف نسـتعرض لآراء المفكرين السوسيولوجيين كل فى

الأخر ، لإلقاء مزيد من الضوء على جوانب تأثير الإيديولوجية فى مجالات العلم وبحوثه وموضوعات دراسته .

أولا : الأيديولوجية ونشأة علم الإجتماع :

يحفل عدد غير قليل من الكتابات الفلسفية والسوسيولوجية بمحاولات عدة ، لتحديد معنى الأيديولوجية ، وتوضيح مضمون مصطلحها ، وإستخداماته المتنوعة . وبعيداً عن الخوض فى سرد هذه المعانى ، وحصر تلك المضامين ، نشير إلى أن المعنى الذى سوف نستخدمه فى الفصل الراهن : هو الذى يعتبر الايديولوجية جماع الأفكار والآراء السياسية والاجتماعية التى تأتى إنعكاساً لمصالح فئة من الفئات ، أو طبقة من الطبقات الاجتماعية القائمة فى البناء الاجتماعى ، الذى يحيط بالباحث أو المنظر أو المفكر ، والذى يأخذ بدوره ، منها موقفاً ، سواء بالتبرير والإقرار ، أو بالرفض والإنكار . وإذا كان هذا التعريف ينطلق فى جوهره من المعنى الماركسى للايديولوجية ، فقد استرشد بوجهة نظر كارل مانهايم K. Mannheim حين أشار إلى معنى محدد ، للاستخدام فى مجال سوسيولوجيا المعرفة Sociology of Knowledge ، ركز فيه على منظور مفكر ما ، أى مجمل الصيغة التى يقوم عليها تصوره للاشياء من خلال تحدده بوجود اجتماعى معين وارتباطه بموقع تاريخى بعينه ، وتكون ذاته بفضل بيئة إجتماعيه بعينها [١] .

ولتوضيح تأثير الايديدلوجية فى نشأة علم الاجتماع وتطوره نصوغ العلاقة بين الإيديولوجية والعلم من خلال القضية التالية ، التى نحاول تحقيقها عبر الصفحات القادمة :

---

(١) لمزيد من التفصيل حول مفهوم الايديولوجية ، وتطوره وتباين معانيه أنظر : (د. عبد الباسط محمد ، فى نظرية علم الاجتماع ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ص ٢٢ — ٢٥)

« يؤثر أساس المجتمع فى بنائه الفوقى ، ونظرا لأن البناء الفوقى يحوى العلم الذى يعد علم الاجتماع أحد فروعه ، فإن هـذا العلم يتأثر بالبناء الفوقى الذى يعكس أساس المجتمع » .

وقبل التقدم خطوة لتوضيح القضية السابقة ومعالجتها ، لابد من الوقوف أمام مفهومين أساسيين فيها ، هما : الأساس والبناء الفوقى Basis and super-structure فالأساس الإقتصادى للمجتمع هو مجموع العلاقات الإنتاجية ، تلك العلاقات التى تشمل أشكال الملكية وما ينشأ عنها من علاقات بين الناس فى عملية الانتاج والتوزيع . ولكل مجتمع أساسه الذى يحدد نوع علاقات الإنتاج فيه ، وضع القوى المنتجة . فأى أساس لايمكن أن يظهر قبل أن تظهر فى داخل المجتمع القديم الظروف المناسبة — أو القوى المنتجة الضرورية لظهوره . وتأتى أهمية الأساس من كونه الأساس الحقيقى الذى يرتفع فوقه البناء الفوقى ، أى آراء المجتمع السياسية والإقتصادية والفلسفية والفنية والعلمية والتنظيمات التى تناسبها . وللبناء الفوقى دور كبير فى التطور الاجتماعى لأنه بعد ظهوره وفقـا لأساس إقتصادى معين ، يعبر فى النهاية عن موقف الناس — بما فيهم العلماء — تجاه هذا الأساس . وإن مختلف الافكار — ومنها أفكار رواد علم الاجتماع — تساعد فى البرهنة على ضرورة إقرار وتوطيد ، أو إنكار وتحطيم أساس ما. (1)

وإذا كانت علاقات البناء الفوقى تضم بينها الايديولوجية ، فعلى خـلاف علاقات الإنتاج التى تتشكل وتتكون مستقلة عن الوعى ، نجـد أن العلاقات الإيديولوجية لاتتشكل وتتكون إلا من خلال الوعى الاجتماعى ، وبالرغم من أن ظاهرات البناء الفوقى تتحدد بالأساس، فإن لها تطورها واستقلالها النسبى...

(1) V. Afanasyev, Marxist Philosophy — A popular outline, Progress Publishers, Moscow, 1963, pp. 196 — 197

والأمر الذى يجدر ذكره أن لكل تكوين إجتماعى إقتصادى Socio-economic Formation أساس محدد وبناء فوقى يطابق هذا الأساس.(١) وفى ضوء هذا يمكن القول إن كل فترة تاريخية حول تكوين معين من المجتمعات البشرية ، توجد فيهـا أفكار أيديولوجية ، يجد الباحث منها مزقفاً ، ويقدم آراءه من خلالها . وبلغة أكثر بساطة تحل القضية السابقة نقطة هامة ، تذهب إلى أن الظروف الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية والفكرية السائدة فى مجتمع من المجتمعات، تؤثر فى المشتغلين بعلم الاجتماع ، ولا يعنى هذا التأثير التبرير فقط، بل أيضاً النفى والإنكار . لأنه إذا كانت هناك أيديولوجيات محافظة تخدم على النظم القائمة وتبررها ، وتساعد على تأكيد مصالحها ، فهناك أيديولوجيات ثورية وراديكالية تنكر النظم القائمة وتنفيها وتعمل على تغييرها ، تغييراً جذرياً .

وجدير فى هـذا الصدد الإشارة إلى أن طريقة معالجة نشأة العلم على النحو المشار إليه آنفاً ، يدخل ضمن عمل علم الاجتماع ، وفى إطار واحد من فروعه يوسم سوسيولوجيا المعرفة Sociology of Knowledge . وهو فرع مهد له ماكس شيلر ونماه كارل مانهيم ،(٢) فى الفصل الخامس من كتابه «الايديولوجيا واليوتوبيا» . وهـذا الفرع يهتم بدراسة الصلة بين الأوضاع الإجتماعية لبعض من الشعوب والأفكار السائدة لديه فى فترة تاريخية معينة . فهو يبحث مثلا لماذا نادى الفيلسوف اليونانى «هراقليطس» بأن الحياة مد وجزر؟، ولماذا إعتنق أمراء

(1) M Rosenthal & p. yudin, (eds) Dictionary of philosofhy, progress publishers, moscow, 1967 pp 45-46.

(٢) ياكوب باريون ، ما هى الأيديولوجية ؟ ، تعريب د. أسعد رزوق، إفاق العلياء، بيروت ، ١٩٧١ ص ص ١٨ — ١٩ .

* See; K. Mannheim, Ideology and Utopia : An Introduction to Sociology of Knowledge, Kegan Paul. Trench & Co. L T d. London 1940.

ألمانيا فى النصف الأول من القرن الماضى ، المذهب القائل بأن القانـون ينشأ فى ضمير الشعب . والتدليل فى هذا المقام على أن الظروف والأوضاع تؤثر فى الفكر، نشير إلى أنه حوالى خمسمائة سنة قبل الميلاد ، قامت حروب بين الفرس واليونان . فنادى « هيراقليتس » بأن الحياة مد وجزر ، وكأنما يحث أهل بلده على مواصلة الكفاح . ومن أقواله المأثورة أن الشعب يجب أن يدافع عن حقوق دفاعه عن أسوار مدينته . وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر خلفت حروب نابليون إحساساً بالمرارة لدى الإنسان ، فيئس من المستقبل وهرب من الحاضر ولاذ بالماضى ، وظهر المذهب الرومانسى ، وغرق الكتاب والعلماء فى بحوث تاريخية ودراسات حول أعراف الشعوب ، ونادى الفقيه الألمانى « سافينى » بأن القانون ينشأ فى ضمير الشعب ويتكون عن طريق العادة ويتطور من تلقاء نفسه ، فلا داعى لتقنينه . فهل أمراء ألمانيا ، وكانت إذ ذاك مقسمة إلى دويلات ، لأن عدم تقنين القانون أو توحيده يعاون على بقاء ألمـــانيا مفككة ، ويحفظ للأمراء نفوذهم فى دويلاتهم الصغيرة (٢) وكل ماسبق يشير إلى تأثير الظروف والأوضاع فى الأفكار ويدلل عليه . وإذا كان عـــلم الإجتماع نفسه يهتم بدراسة الظروف والأوضاع الإجتماعية بالمعنى العام الكلمة ، أفلا يصح أن يدرس هو ذاته بإعتباره نتاجاً فكرياً إنسانياً فى ضوء هذه الظروف وتلك الأوضاع ؟ علما بأن مثل هذه الدراسة خليقة بتنمية معلوماتنا عن تراث العلم ، وإثراء أفكارنا وفهمنا لمحددات أفكار رواده والظروف التى أثرت فيهم وفى نشأة العلم وتطوره .

بعض جذور علم الاجتماع :

مع أن مؤرخى علم الإجتماع يرون أنه ولد على يد العلامة العربى ابن خلدون

(٢) د . عزت أنيس الأسيوطى « الصراع الطبقى وقانون التجار » ، دار النهضة العربية القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٧ — ٨ .

(١٣٣٢ - ١٤٠٦) وصله إسمه وكتبت شهادة ميلاده على يد أوجيست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) ؛ إلا أن التمهيد لهاتين العمليتين يضرب بجذوره إلى عهود خلت، وقرون مضت ، تكاد تصل إلى فكر الإنسان البدائى وترسمه إلى العصور البارزة فى تاريخ الإنسان : كالعصر الفرعونى والعصر الإغريقى ، وما تلاهما من عصور وحقب . ففى مجتمعات المشاعية البدائية، حيث طابع الحياة جماعياً ، فى ملكيته وإدارته ونظمه ، أتى الفكر الإجتماعى تبريراً ، بل وتدعيما لهذه الحياة ، وإسهاماً فى تحقيق الأهداف الماجلة والحاجات الضرورية المشيرة (١). وفى أزمان الدولة الفرعونية المصرية ، حيث كان المجتمع مقسماً إلى طبقات إجتماعية يعلوها الإله الملك الفرعون ، الذى تركزت أيديولوجيته فى تبرير الأوضاع القائمة على أساس دينى ، أتى الفكر الاجتماعى مواكبا لهذه الأوضاع ، ومبررا لوجودها ، من خلال نظرة تبريرية متكاملة لفكرة تأليه الحاكم السياسى وقيام حكومة تستمد دعائم قوتها من الطبيعة اللاهوتية للطبقة الحاكمة (٢). وعندما عرفت المجتمعات النظام الإقتصادى الإقطاعى ، ظهرت نظم فكرية ودينية عبرت عن مصالح المستفيدين من هذا النظام . وظهر من المفكرين الإجتماعيين فى هذه الأوقات : القديس أوغسطين St. Augustine ، وتوماس الأكوينى Thomas Aquinas . وعندما بدأ النظام الإقطاعى يتداعى، وظهرت من خلال تناقضاته ؛ الرأسمالية ، أتى الفكر الاجتماعى كرد فعل لوجهة النظر الثيولوجية - الدينية - فى التاريخ عبر عنها ميكيا فيلى(٣).

---

(١) د. أحمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى - دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ص ٤٩ - ٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٨٥ - ٨٦ .

(3) M. Rosenthal, S P. Yudin, (eds), op cit, pp. 419 – 421.

عبد الرحمن بن خلدون :

سوف نعالج دور إبن خلدون وآرائه السوسيولوجية من خلال نشأته وما أحاط به من ظروف ، ثم أهم آرائه وأخيراً إنعكاسات الظروف على أفكاره .

الرجل والظروف :

نشأت أسرة بن خلدون بمدينة « قرمونة » بالأندلس ، التي إستقر بها جدهم « خالد بن عثمان » ثم نزحوا منها بعد ذلك إلى « أشبيلية » . وبدأ نجم أسرته يسطع في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأموى . وذلك أنه في أثناء ولاية هذا الأمير إضطربت الأندلس . وكانت « أشبيلية موطن بني خلدون » في مقدمة المناطق الثائرة ، وإشترك في قيادة الثورة ولدان من حفدة خلدون، منهما « كريب بن عثمان بن خلدون » الذي إستبد بالأمر وإستقل بإمارة « أشبيلية » ، ولكن حدثت في عهده عدة ثورات إنتهت بقتله . وسطع نجم الأسرة ثانية في عهد « الطوائف » ورقى بعض أفراد الأسرة إلى مراتب الرياسة والوزارة في عهد إبن عباد . ولما ضعفت دولة الموحدين ، ترك بنو حفص «أشبيلية» ونزحوا إلى إفريقية (تونس وما إليها) حيث دعوا لأنفسهم ضد ولاتها من الموحدين ، وإنتهى الأمر بنجاح دعوتهم وإستيلائهم على قسم كبير من البلاد ، وتبعهم « بنو خلدون » فأكرم الحفصيون وفادتهم ، وعطفوا عليهم . وتولى الجد الثاني لابن خلدون شئون دولتهم بتونس ، كما ولي جده الأول شئون الحجابة (١).

وبهذا فقد كانت أسرته قريبة من الطبقات الحاكمة ، بطريقة أو بأخرى ، الأمر الذي جعلها دانية منها ، واعية بمصالحها وداعية لها .

ويشأن أبرز ملامح أساس المجتمع الذي أحاط بإبن خلدون ، فهي تتمثل في

(١) د. علي عبد الواحد وافي ، عبد الرحمن بن خلدون ، أعلام العرب ، عدد ، وزارة الثقافة ، ص ص ٢٠ – ٢٤ .

الإقطاع المحتفظ ببقايا من النظام المشاعى المتفسخ . وكان نظام الإقطاع آخذاً فى الاتساع مؤدياً إلى فقدان مركزية الدولة ، ومعمقاً من التناقضات الإجتماعية ، خاصة فى البيئـات الريفية . هذا فضلا عن عدم تأثر الإنتعـاش الإقتصادى فى البـلاد برغم إرتبـاط المغرب بحوض البحر المتوسط . كما أدى تعاظم دور المدن الساحلية وإتساع التجارة الخارجية ، إلى تطور الإنتاج الإقتصادى وتعزيز العلاقات البضاعية النقدية ، مما أحدث بعض التغيرات فى التركيب الطبقى . والمهم أنه فى هذا العصر الملىء بالتناقضات الحادة نشأ إبن خلدون ، وهو وإن كان إقطاعى الإنحـدار إلا أنـه أراد أن يعبر عن الفئـة المثقفة داخـل الطبقة الإقطاعية المسيطرة (١).

وأما عن نشأته فقد ولد فى ٢٧ مايو ١٣٣٢م ، ولما بلغ سن التعلم بدأ بحفظ القرآن وتجويده . وفى تونس قـرأ القرآن وجوده ودرس العلوم الشرعية على المذهب المـالكى ، ودرس العلوم اللسانية والمنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره إنقطع عن التعليم بسبب إنتشـار الطاعون ، وهجرة معظم العلماء والأدباء من الوباء الجارف ، وأخذ يتطلع إلى تولى الوظائف العامة والسير فى الطريق نفسه، الذى سار فيه جداه الأول والثانى وكثير من قدامى أسرته (٢).

ولقد كان بالرجل نزوع إلى المغامرات السياسية، الذى ربما ورثها عن أسرته ، لأن كثيرا من أفـرادها إشتغلوا بالسياسة . فهـو شخصياً دخل فى خدمة أمير تونس قبـل أن يتم العشرين من عمره ، حيث تولى لديه منصب « كتـابة العلامة » ، أى « ديوان الرسائل » ثم إنتقل إلى مراكش وإتصل بسلطانها ،

(١) د. أحمد الخطاب ، المرجع المذكور ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢) د. على عبد الواحد وافى ، المرجع المذكور ، ص ٢٤ - ٣٩.

ثم انتقل إلى سلاطين المغرب وأسبانيا ، يرفعه غمار السياسة وكيد المؤامرات ، حيث كان من طباعه إنتهاز الفرص والدسيسة ، يبادر كعادته إلى الإنضواء تحت ألوية ذوى السلطان والوزراء والحكام . والمهم أن المؤامرات والسياسة كانا يرفعانه تارة حتى يجعلاه وزيراً أو حاجبا ، وهو منصب يعادل رئيس الوزراء اليوم ، ويخفضانه أخرى حتى يدفعا به إلى أعماق السجن [1] .

آراؤه فى علم الاجتماع :

أولا: كان أول من تنبه إلى ضرورة قيام علم جديد هو العمران أو الاجتماع الانسانى . وأنه حدد موضوعه بالحياة الاجتماعية وكل ما يعرض فيها من حضارة مادية وعقلية ، فبين أعمال الناس وكيفية تحصيلهم لأقواتهم وسبب تنازعهم ، وإنشائهم لجماعات تخضع لأحكام وعادات وقوانين متباينة ، كما أنه حاول أن يعلل الضرورة الاجتماعية ومظاهر تطورها من حياة البدو إلى حياة التحضر[2] .

ثانيا : رأى أن المجتمع الإنسانى أمر طبيعى وضرورى ، فالإنسان مدنى بطبعه، بمعنى أنه لايستطيع أن يعيش إلا فى مجتمع . وتنعكس الضرورة الاجتماعية فى هذا من خلال حاجة الأفراد إلى التعاون لسد الاحتياجات الاقتصادية والدفاعية . فالأفراد لابد أن يتعاونوا من أجل الحصول على قوتهم ، ودفع الحيوانات المفترسة عنهم .

ثالثا : ركز على السلطة وأبرز أهميتها فى الحفاظ على المجتمع وبقائه واستمراره، وفى هذا رأى أنه متى تحققت الضرورة الاجتماعية عند الناس، وتعين الافراد فى

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، نشرها وضبطها ، د. على عبد الواحد وافى ، جـ ١ ، الطبعة الأولى ، لجنة البيان العربى ، ١٩٥٧ ، ص ص ٤٨ ، ٨١ .

وأنظر أيضا : د. عبد الكريم اليافى ، تمهيد فى علم الاجتماع ، مطبعة الجامعة السورية دمشق ١٩٥٧، ص ٧٠

(٢) د. أحمد الخشاب ، مرجع مذكور ، ص ٢٩٨

سبيل إتمام حكمة الله فى بقاء الجنس البشرى ، تحقق لهم ضرورة قيام السلطة فى المجتمع حتى تنظم علاقاتهم تنظيما يكفل إستقرار المجتمع وإستمرار بقـــائه ويتجسد قيام السلطة لديه فى قيام الملك ... فليست آلة السلاح التى جعلت دافعة لعدوان الحيوانات عنهم ، كافية فى رفع العدوان بينهم ، لأنها موجودة لجميعهم ، فلابد من شىء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ... فيكون ذلك الوازع واحداً منهم ، يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة ، حتى لايصل أحد إلى غيره بعدوان (١) هذا هو معنى الملك ، الذى يحفل فكره السياسى به ، تأييداً وإقراراً ، بل وتبريراً فهو يقول « إن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون فى كل إجتماع إلى وازع حاكم يزع بعضهم عن بعض لابد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية ، وإلا لم تتم قدرته على ذلك . وهذا التغلـــب هو الملك ، وهو أمر زائد على الرياسة ، لأن الرياسة إنما هى سؤدد ، وصاحبها متبوع ، وليس له عليهم قهر فى أحكامه . وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر ، وفى موضع آخر من مقدمته يشير إلى « أن الملك منصب طبيعى للانسان ... وهو مما خصه البارى سبحـــانه بالمحافظة فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض . وإحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم . وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ... وهذا الملك كما تراه منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج إلى المدافعات ... وليس الملك لكل عصبية . وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ، ويجبى الأموال ، ويبعث البعوث ، ويحمى الثغور ، ولا تكون فوق يده يد قاهرة ، وهذا معنى الملك وحقيقته فى المشهور (٢) ويـــكاد يصل تبريره للملك والسلطة السياسية والأوضاع القائمة ذروته عندما برر الأوضـاع

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٩٩ — ٣٠٠

(٢) د. عبد المعز نصر «فلسفة السياسة عند ابن خلدون» بحث مقدم لمهرجان ابن خلدون. منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة ٢-٦ يناير ١٩٦٢ ، ص ص ٢١٨-٢٠٥

والفوارق الطبقية وعدها أمراً طبيعيا محتوما وفى هذا يقول « إن الجاه متوزع فى الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة، ينتهى فى العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية ، وفى السفل إلى من لا يملك ضراً ولا نفعا بين أبناء جنسه ، وبين ذلك طبقات متعددة ، حكمة الله فى خلقه بما ينظم معاشهم ، وتتيسر مصالحهم ... فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالاذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم» (١).

رابعاً : إعتبر التطور خاصية هامة وأساسية من خواص المجتمع الانسانى، وفسر إبن خلدون هذا التطور بإختلاف نظم الحكم وتغير الأسرات الحاكمة ، والميل الطبيعى لدى المحكومين إلى تقليد الحاكين . وفى هذا دعوة إلى طاعة الحاكم والتفانى فى خدمته . فالسبب الشائع فى تبدل الأحوال والعوائد ، أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه ، كما يقال فى الأمثلة الحكمية « الناس على دين ملوكهم ... » (٢) .

خامساً : وإذا أردنا توضيح أبرز ملامح منهجه فى البحث يمكن إيجازها فيما يلى :ـ (٣)

١ ـ على الباحث ألا يقبل شيئا على أنه حق ، إلا بعد أن يتأكد بوضوح أنه كذلك ، أى يجدر به ألا يتأثر بأهوائه الذاتية وآرائه المذهبية أو أن يتخذ من الأساطير الوهمية وآراء الآخرين غير المؤكدة أساساً لدراسته .

---

(١) المرجع السابق ، نفس الموضع

(٢) د. على عبد الواحد وافى، عبد الرحمن بن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٢١٦ وأنظر أيضا : المقدمة مرجع مذكور ، ص ٢٥٣.

(٣) د. أحمد الخشاب ، مرجع مذكور ، ص ص ٣٠١ـ٣٠٨ .

٢ ـ نادى بضرورة إستخدام منهج المقارنة بين ماضى الظاهرة وحاضرها، ودراسة تطور الظاهرات والنظم العمرانية ، دراسة ديناميه تاريخية ، ذلك لأن الظاهرة العمرانية ظاهرة متطورة متبدلة .

٣ ـ يؤمن بنسبية الظاهرات العمرانية ، ولذلك فهو ينصح الباحثين بمراعاة هذه القاعدة .

٤ ـ أبرز جبرية الظاهرة الإجتماعية وإلزامها وما يترتب على مخالفتها أو الخروج على مقتضياتها من عقوبة إجتماعية .

٥ ـ يؤمن بالحتمية بالنسبة للمجتمع وتطوره، إذ يقرر أن للمدنية والعمران البشرى قوانين ثابتة يسير عليها. وفى هذا الصدد يرى أن الظاهرات الإجتماعية لا تشذ عن بقية ظاهرات الكون ، وأنها محكومة فى مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التى تحكم ماعداها من ظاهرات الكون ، كظاهرات العدد والفلك والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات[1]

٦ ـ يركز على أهمية الملاحظة المباشرة التى تتم بطريقة علمية فهو فى بحثه للظاهرات الاجتماعية يجتاز مرحلتين: تتمثل الأولى فى ملاحظات حسية وتاريخية تتمثل فى جمع المواد الأولية لموضوع بحثه من المشاهدات ومن بطون التاريخ . وأما المرحلة الثانية فتتمثل فى عمليات عقلية يجريها على هذه المواد الاولية ويصل بفضلها إلى الغرض الذى قصد إليه من هذا العلم وهو الكشف عما يحكم الظاهرات الإجتماعية من قوانين[2].

---

(١) د. على عبد الواحد وافى «ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع» بحث مقدم إلى مهرجان ابن خلدون ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية من ٢ ـ ٦ يناير ١٩٦٢ ، ص ص ٦٤ ـ ٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الموضع .

موقف الرجل من الظروف :

حدد الرجل موقفه من الظروف والأوضاع التى عايشها وأحاطت به من خلال آرائه فى علم الإجتماع . حقيقة أن عقليته المبدعة جعلته يؤمن بضرورة إنشاء علم جديد هو «علم العمران» الذى سماه « كونت» بعد ذلك «علم الاجتماع» وحقيقة أنه وضع لبنة أساسية فى إنشائه وفى أفكاره صوب المجتمع والإنسان، ومع ذلك يمكن القول أن علم الاجتماع لديه أتى علمياً « تبريرياً » للظروف والأوضاع السائدة، بل ومفضياً إلى تدعيمها واستمرارها وبقائها وذلك يكشف عن نفسه مما يلى :

١ ـ أن تطور المجتمع لديه يسير فى قوانين طبيعية ثابتة لا تتغير ، هى أشبه بقوانين علم الحياة التى تفسر بقاء وإستمرار الكائن الحيوى العضوى. ويدل على هذا أن قانون الحركة والتطور، أهم القوانين عند إبن خلدون، شبيه بقوانين الكائنات الحية فى العالم الطبيعى ، الأمر الذى جعل نظريته تأخذ شكلا حيويا بيولوجيا يقارن فيه المجتمع وحياته بالجسم الحى والكائن وحياته. ذلك الكائن الذى لا يدوم نموه وارتقاؤه ، وإنما لابد له من أن يضعف ويضمحل ثم ينتهى بالموت قطعاً . والمجتمع البشرى لديه يتبع نفس هذا الإتجاه الحركى فهو يولد كالطفل ثم يشب وينمو ويقوى ويترعرع ثم يضمحل . وأن هذا التطور أمر طبيعى لابد من حدوثه ولا سبيل إلى منعه، وأنه يتحرك فى نظام حتمى يجعل من دورته قانونا لا مرد لحركته (١) وفى هذا دعوة صريحة وضمنية للامتثال لهذه القوانين

(١) د. عبد العزيز عزت « تطور المجتمع البشرى عند إبن خلدون فى ضوء البحوث الاجتماعية الحديثة » بحث مقدم لمهرجان إبن خلدون ، مصدر مذكور ، ص ص ٤١ - ٦٣ .

وقبولها ، مادامت هى قوانين حتمية وملزمة . وهى من جانب آخر تقف عثرة أمام حرية المجتمع وحرية الإنسان . فالتغيير ضد طبائع العمران ، الذى يسير تلقائياً دون تدخل ودون ترشيد .

٢ ـ هام بالسلطة السياسية وأكدها ، بل ودعمها فكراً وعلماً . لأنه ينظر إلى السلطة السياسية ، نظرته إلى عامل أساسى وهام فى تطور المجتمع وانتقاله من حالة إلى أخرى .

٣ ـ يترتب على النقطتين السالفتين خنق العمل الإجتماعى ، والحركة الإجتماعية ، فالمجتمع يسير فى قوانين لا تتغير ، والمحكومين عليهم طاعة الحكام ، والسلطة السياسية تعلو فوق كل شىء ، بل تكاد تصل إلى حد الألوهية فوق المجتمع والإنسان . فضلا عما فى الظاهرة العمرانية من إلزام وجبرية ، وتهديد بالعقوبة الإجتماعية للخارجين على قواعدها .

٤ ـ تركيزه على الملاحظة المباشرة فى البحث والدراسة ، يعنى بطريق أو بآخر ، تسويقا للوعى الإجتماعى الجماهيرى ، فمن شأن الملاحظة تركيز الفكر والفعل فى لحظة معينة ، تحول دون مقارنتها بماضيها ، أو التطلع إلى مستقبلها ، الأمر الذى يخشى منه على تقدير الأوضاع التى تخضع للملاحظة .

وإيجازا ، ففى ضوء نشأته ، وإنتمائه الأسرى والطبقى ، وما أحاطت به من ظروف جعلته قريبا من السلطة السياسية فكرا وممارسة ، أتى موقف الرجل من النظام القائم ، موقفاً تبريريا محافظاً . حقيقــة أنه نادى بضرورة إنشاء العلم ، وأبرز بعض محاور المنهج العلمى وأسس البحث فى علم الإجتماع ، إلا أن هـــذه الإتجاهات جعلت علم الاجتماع لديه بعيداً عن آداء الوظيفة الاجتماعية الثورية للعلم .

أوجيست كونت

الرجل والظروف :

عاش أوجيست كونت فى الفترة ما بين ١٧٩٨ - ١٨٥٨ م . وهو فرنسى ولد بمدينة « مونبيلييه » لوالدين كاثوليكيين . حصل على مكان بمدرسة الفنون التطبيقية بباريس فى عام ١٨١٢ ، لكنه كان من صغر السن بحيث لم يصلح للالتحاق بها حتى عام ١٨١٤ . وفى عام ١٨١٦ تزعم حركة عصيان قام بها الطلاب وكان من نتيجتها أن طرد وبقية زملائه فى نفس السنة الدراسية . وفى عام ١٨١٧ أصبح سكرتيراً لسان سيمون الكاتب الاشتراكى الذى أثر فى كونت لحد بعيد . وفى عام ١٨٢٥ تزوج من كارولين ماسان التى إلتقى بها لأول مرة عندما كان يفيد من خدماتها وهى بغى . وبدأ كونت فى عام ١٨٢٦ القاء سلسلة من المحاضرات العامة فى فلسفته الوضعية . واضطر إلى الإنقطاع عن هذه المحاضرات بسبب مرضه العقلى . وفى العام التالى حاول أن ينتحر غرقاً فى نهر السين ، لكنه عاد فى ١٨٢٩ فى القاء محاضراته التى نشرها فى ستة أجزاء فى الفترة من ١٨٣٠ - ١٨٤٣ بعنوان « محاضرات فى الفلسفة الوضعية » وفيها يبسط نظريته فى المعرفة وفى العلوم ويضع أسس العلم الجديد الذى أسماه فى بادىء الأمر « الفيزياء الإجتماعية » ثم أسماه بعد ذلك « علم الاجتماع » (١)

ويعد كونت ابن عصر النهضة ، جرى على تقليد وتراث فلاسفة التقدم فى أواخر القرن الثامن عشر ، خاصة ذلك التراث الذى قدمه تيرجو Turgot وكوندرسيه Condercet . وفزع كونت من تحطيم النظام الاجتماعى فى أيامه .

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمة فؤاد كامل ، جلال العشرى وعبد الرشيد صادق ، الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

فدعا كشأن المفكرين التقليديين إلى إعادة بناء المجتمع الأخلاقى ، وكان جاداً فى طلب الوحدة والنظام اللذان كانا يرفرفان على كل أعماله . وقد كان « ليبراليا » تأثر بالمفكرين الليبراليين، خاصة رجال الاقتصاد السياسى ابتداء من آدم سميث Adam Smith . وعرف بعض كتابات إمانوئيل كانت I. Kant الذى أعتبره كونت أكثر الميتافيزيقيين قربا من الفلسفة الوضعية .(١)

وعن أوضاع الأساس الإقتصادى للمجتمع الذى عاش فيه « كونت » ،فيمكن القول بشأنها أنه ولد فى أوقات الثورة الفرنسية وقبل التمهيد لديكتاتورية حكم الفرد بقليل ، أو ما يعرف فى تاريخ فرنسا بعصر نابليون . وأدرك سنوات الصبا والشباب ، فى فترة تمت فيها الإمبراطورية الفرنسية (١٨٠٤ - ١٨١٥) وما واجهته هذه الامبرطورية من أزمات أنتهت بغزو فرنسا (١٨١٢ - ١٨١٤). وقــدر له أن يعايش ثورات هامة فى تاريخ فرنسا كثورة ١٨٣٠ ، وثورة ١٨٤٨ . ويجانب هذه الحوادث الهامة وجــد مايسميه المؤرخــون بالإرهاب الأبيض ، الذى يقصدون به تلك الحوادث الدامية التى وقعت فى فرنسا بعدعودة الملك إلى باريس سنة ١٨١٥ ، وحيث قتل كثيرون من رجال الثورة القدامى ومن البونابرتيين . ولم تتردد حكومة الملك الراجع فى الانتقام من رجال العهد الماضى، لاسيا أولئك الذين حشوا فى عين الولاء للملك لويس الثامن عشر وإنضموا إلى نابليون . وفى وسط هذه الموجة من الإرهاب تم انتخاب المجلس الأول فى أغسطس سنة ١٨١٥ فدخل المجلس عدد عظيم من مؤيدى الملكية الراجعة ، عرفوا باسم الملكيين المتطرفين ، وبلغوا فى حماستهم للملكية حدا جعل لويس الثامن عشر يسمى

---

(1) Lewis Coser, Masters of Sociological thought – Ideas in Historical and Sociological Context. Harcourt Brace, Jovanavich, Inc. N. Y. 1971, pp 20 – 21.

مجلسهم ، بالمنقطع النظير ، وخلال الفترة من ١٨١٦ – ١٨١٨ كانت ثلاثة أحزاب ظاهرة هى : حزب اليمين وهم الملكيون المتطرفون وشعارهم «الحرب ضد الثورة» ، وحزب الوسط من الملكيين المعتدلين الذين حاولوا التوفيق بين الملكية والثورة ، وحزب اليسار من الأحرار . وكان أصحاب السطوة والنفوذ عند عودة الملكية الراجعة ، الملكيون المتطرفون ، الذين كان برنامج عملهم يستند إلى فكرة أساسية ، هى إحياء النظام القديم ، ولكن مع تعديلات تتفق قبل كل شىء مع مصالح طبقة النبلاء والاشراف التى هى طبقتهم . وقد وجدوا أن خير وسيلة لتحقيق هـــذه الغاية هى إرجاع الكنيسة الكاثوليكية إلى سابق سطوتها ، ، وعقد محالفة وثيقة بين الكنيسة والدولة . وأرادوا أن تستعيد الكنيسة جميع الأملاك التى اغتصبت منها أيام الثورة وأعطوا رجال الدين حق الاشراف على التعليم . وكان كل هذا بقصد تمكين حزب الكنيسة من إعادة بناء النظام السياسى والإجتماعى فى فرنسا تحت ستار العناية بحياة الأمة الروحية والخلقية ، فتتاح الفرصة لبذر بذور الرجعية(١).

وإيجازا عاش « كونت » فترة تقلبت فيها أمور فرنسا بين الثورة والردة نحو الرجعية ، وبين الحرية والديكتاتورية وسيطرة الحاكمين ومقاومتهم لأى تغيير بل ومحاولة القضاء على آثار الثورة الفرنسية ، ففى خـــلال خمسين عاما عايشت فرنسا سبعة نظم سياسية ، عدا عدد من أنواع التمرد . ومع سلسلة القلاقـــل والتقلبات وجدت فترات قصيرة نسبيا من الهدوء ، وقد انعكس كل هذا على أساس المجتمع وأصاب إقتصاده بالاضطرابات والتغيرات الاجتماعية والسياسية السريعـــة .

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى ، الصراع بين البورجوازية والاقطاع ، المجلد الثانى ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٨ ، ص ص ٤٨٣–٤٩٥ .

آراؤه فى علم الاجتماع :

أولا : صنف العلوم فى ضوء فلسفته الوضعية إلى خمس مجموعات ، ورتبها من الأبسط إلى الأكثر تعقيدا بادئا بالفيزياء السماوية والارضية، ثم الميكانيكية والكيمائية ، تليها العضوية ، فالفيزياء النباتية والحيوانية ، ويكمل حلقات سلسلة علوم الملاحظة بعلم الفيزياء الاجتماعية أو علم الاجتماع [١] .

ثانيا : قسم موضوعات علم الاجتماع الى اثنين : الحركة الاجتماعية أو الديناميك الإجتماعى الذى يهتم بدراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلى للمجتمعات الانسانية والكشف عن مدى التقدم الذى تخطوه الإنسانية فى تطورها. وأما الموضوع الثانى فيهتم بدراسة الجوانب الثوابت من المجتمعات الإنسانية أو ما يسمى بالإستاتيك الإجتماعى الذى يدرس المجتمعات فى استقرارها ، وباعتبارها ثابتة فى فترة زمنية معينة من تاريخها ، ويدرس كذلك المجتمع الانسانى فى تفاصيله وجزئياته [٢] . وبهذا فإن موضوع علم الاجتماع لدى كونت ، يهتم بدراسة المجتمع البشرى فى ثباته وحركته وما يطرأ عليه من تطورات .

ثالثا : يقوم الاطار التصورى لدى « كونت » على الفلسفة الوضعية التى يتمثل أول طابع لها فى نظرتها إلى جميع الظاهرات على أنها خاضعة لقوانين طبيعية لا تتغير . وفى هذا يشير صاحب الفلسفة الوضعية إلى أنه لما كنا ندرك مدى عقم ما يسمى بالعلل الأولى منها أو الغائية فى أى بحث ، فإن مهمتنا هى السعى إلى كشف

---

(١) هنرى أيكن، عصر الايديولوجية ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، مكتبة الأنجلو ١٩٦٣، ص ص ١٦٠–١٦١.

(٢) د. مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الأول ، تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦، ص ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

هذه القوانين بدقة، بغية إختصارها إلى أقل عدد ممكن. أما التأمل النظرى المطلق فلا يؤدى إلى حل أى مشكلة متعلقة بالاصل والغرض ، ومهمتنا الحقيقية هى أن نحلل بدقة ظروف الظاهرات ونجمع بينها عن طريق علاقات التشابه والتعاقب الطبيعية. وأفضل مثال على ذلك يتبدى فى فكرة الجاذبية ، فنحن نقول أنها تفسر الظاهرات العامة للكون ، لأنها تجمع كل الوقائع الفلكية الهائلة التنوع تحت باب واحد(١) . والنقطتان السابقتان تجليان معا موضوع علم الاجتماع وصورته ، فهو اذن العلم الذى يهتم بدراسة المجتمع فى ديناميته وثباته بقصد الكشف عن القوانين الطبيعية التى يسير وفقا لها المجتمع وتحكم حركته .

رابعا : تصور المجتمع تصورا عضويا طبيعيا ، فالكائن الإجتماعى مثله ، مثل الفرد ، يتكون من عناصر متمايزة ومتساندة ، وتعمل هذه العناصر معا لهدف مشترك . ولقد تصور «كونت» التقدم التاريخى من خلال مراحل ثلاثة متعاقبة: هى : الدينية أو الثيولوجية ، والفلسفية أو الميتافيزيقية ، والعلمية أو الوضعية ، ويمر الشعور والعقل فى مراحل تقابل المراحل الثلاثة السابقة ، ومعنى ذلك أن لكل مرحلة خصائص معينة تنعكس على الشعور والأفعال التى يقوم بها الناس والطريقة التى يفكرون على أساسها . ويرى أن المشاعر تهيء القوة الدافعة للتقدم الاجتماعى ، بينما يهيء العقل المبدأ الموجه والمرشد .

خامسا: وعن نظرته لموضوع التغير الاجتماعى Social change يمكن القول، إن إسهامه فى دراسته قليلا نسبيا ، ومع هذا يلحظ أن ما تحتويه كتاباته من تفسيرات التغير ، تتركز فى التفسيرات الأخلاقية والسياسية ، فقانونه عن الحالات

---

(١) هنرى ايكن ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ ، ويحوى هذا الكتاب تلخيصا لكتاب « كونت » دروس فى الفلسفة الوضعية .

الثلاث ليس إلا تحليلا للتطور الفكرى . وأما فى المجال الهام للعلية أو السببية الاجتماعية Social causation، فقد وجد العوامل الأساسية فى العنصر أو السلالة وفى المناخ والعمل السياسى (١) .

سادسا : ينبع منهجه البحثى من فلسفته الوضعية التى تضع علم الاجتماع من خلال ما يربطه بالعلوم الوضعية الأخرى، التى تمده دواما بنتائج وحقائق تفيده فى ميدان بحثه . وإذا كان قد أشار إلى أهمية الملاحظة والتجربة والمقارنة ، فإنه يضع الملاحظة فى مقدمتها لأهميتها . ويدلل على ذلك أن علومه التى قام بتصنيفها يطلق عليها علوم الملاحظة .

موقف الرجل من الظروف :

لقد أطلق كونت على العلم «الفيزياء الإجتماعية» ، ثم عاد وأعطاه اسم علم الاجتماع ، وفى ضوء ما مر به المجتمع من حوادث وثورات وتقلبات ، وما تعرض له من أنواع التفكك . وفى ضوء فهمه هو للطبقات المسيطرة ومصالحها، حدد موقفه من خلال آرائه السوسيولوجية التى أتت محافظة بكل ما تحمله الكلمة من معانى . وليس من دليل أبلغ من المعنى الأساسى لفلسفته الوضعية Positivism التى تعنى حرفيا، موقفا ايجابيا مما يحيط به من أمور وأبعاد اجتماعية .

وحتى يتضح هذا الحكم نشير إلى الأدلة التالية :

أولا : ربط علم الاجتماع بحقائق النظام الاجتماعى القائم حوله ، والمحيط به، فقد استبعد أية حركة ترمى إلى قلب النظام ، الأمر الذى جعل الإتجاه الفكرى

---

(١) د. محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع ، جـ ١ النظرية والمنهج والموضوع ، دار المعارف ١٩٦٦ ، ص ص ٣٥ — ٣٨ .

العلم لديه إتجاها تبريريا . فهو من الناحية المنهجية يرى أن الذى يميز الروح العلمية هو جعل الخيال تابعا للملاحظة ، والفعل للوقائع . وهذا يختلف تماما عن تصور القرن التاسع عشر الذى عد فيه الفعل والملاحظة وظيفتين أساسيتين من وظائف المنهج العلمى . ومن وجهة نظره أيضا أن التنبؤ العلمى أو الالهام ، كما يحلو له أن يسميه . هو الذى ييسر من الضبط الاجتماعى ، وهو هدف أو غاية أساسية فى مذهبه الوضعى . وفى هذا يشير إلى أنك تتنبأ لكى تضبط [1] .

ثانيا : نتيجة لتصوره لتطور المجتمع ونتيجة لإهتمام فلسفته بالقوانين الطبيعية التى لا تتغير ، يخال المرء أن العلم الطبيعى والتطور الحيوى أصبح إنموذجا على النظرية الاجتماعية أن تسير فى ركابه . وإذا كان الهدف هو البحث فى القوانين الإجتماعية الثابتة المشابهة للقوانين الطبيعية ، فهذا يعنى خنق العمل الإجتماعى ، لا سيما حين يتعلق الأمر بتغيير النظام القائم [2] ، لأن التغيير فى ضوء نوعية هذه القوانين يصبح غير ذى معنى . هذا فضلا عن تغافل ، بل وتجاهل طبيعة العلم الإجتماعى الذى يدرس الانسان وماله من صفات نوعية متجددة ، ومتغايرة عن تلك التى يوصف بها الكائن الحيوى .

ثالثا : يعد لفظ « الإستسلام » لفظاً رئيسياً فى كتابات « كونت » مستمداً مباشرة من قبول قوانين اجتماعية ثابتة لا تتغير ، ان الاستسلام الحقيقى أى النزوع إلى تحمل الشرور الضرورية بثبات ودون أى ملل فى تعويضها لا يمكن

---

1 – Irving M. Zeitlin Ideology and the Development of Sociological Theory, Prntice-Hall of India, New Delhi, 1969. P. 76.

(٢) هربرت ماركيوز ، العقل والثورة ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ٣٢٩ .

أن ينتج إلا عن شعور عميق بالقوانين الثابتة التى تحكم الظاهرات المتنوعة ولا يمكن أن يتطرق الشك إلى المرء فى الجماعات والأهداف الإجتماعية التى يدعـــو كونت بإسمها إلى الإستسلام ، والحق أنه ندر أن نجد فى الماضى فلسفة تطـــالب بمثل هذا الإلحاح ، وبمثل هـذه الصراحة ، بأن تستخدم فى الحفـاظ على السلطة القائمة ، وحماية المصالح الموجـودة من كل هجوم ثورى [١].

رابعا : عندما نحلل نظرته إلى الدراسة السكونية ، والديناميه للمجتمع ، نجد أن الأولى تركز فى تصنيفين : أن الناس يحتاجون إلى العمل من أجـــل سعادتهم وأن كل الأفعال الاجتماعية تظهـــر أن أهم الدوافع المتحكمة فيهم هى الدوافع الأنانية . وقد نالت هذه الدراسة إهتمامه نتيجة لسيادة تصور النظام لديه . لقد رأى أن الوظيفة الأساسية للعلم السياسى ، هى تحقيق التوازن الصحيح بين مختلف أنواع العمل الواجب آداؤها ، وإستخدام حب الذات ببراعة من أجل الخير العام. وفى هذا الصدد يؤكد الحاجة إلى السلطة ، لأن الناس يجدون فى المجال المعنوى فضلا عن المادى ، حاجة ماسة إلى يد عليا موجهة ، قادرة على ضمان إستمرار نشاطهم ، ولم يكف «كونت» عن تقديم المديح والخضوع للقيادة . فما أجمل أن نطيع عندما يمكننا الإستمتاع بالسعادة التى يجلبها القادة الحكماء لنا ، من المسئولية الملحة المتعلقة بالبحث عن إتجاه عام لسلوكنا . وأما عن تصوره للدراسة الديناميه فإتجاهه العام فيها يهدف أساسا إلى تصور كل حالة للمجتمع على أنها النتيجة الضرورية للحالة السابقة ، والمحرك الذى لا غناء عنه للحالة اللاحقة [٢] . وبعبارة أخرى فإن النظام والتقدم هما الجوانب الثابتة والحركية للمجتمع ، فالنظام يشير إلى الانسجام الذى يسود كل الظروف القائمة ، فى حين أن التقدم يشير إلى تقدم منظم للمجتمع

(١) هربرت ماركيوز ، مصدر سابق ، ص ٣٢٣.

(٢) المصدر السابق ، ص ص ٣٣٥-٣٣٦.

وفق قوانين إجتماعية طبيعية ثابتة ، وبهذا نجد تداخلا وترابطا بين سائر النظم فى المجتمع ، ومن أجل أغراض التحليل يجب ألا تفصل العناصر الاجتماعية عن بعضها، لأن كل أجزاء المجتمع تكون كلا منسجما . وهذا يعنى تجريد المجتمع من العناصر المتصارعة والمتناقضة والمتعارضة ، فى الوقت الذى أكد فيه على أن الإنسجام يقيم نفسه تلقائيا من خلال الشعور ، ونادى بوجوب التكيف والتوافق دوما مع القوانين الاجتماعية الطبيعية.

وبجملة أخيرة إذا كان كثير من المؤرخين لعلم الاجتماع يؤكدون على أن « كونت » هو الذى أوجده، فإن هذا الوجود أتى مشوها، بل وتابعا للنظام الذى كان قائما حول « كونت ». فغاية العلم لديه تبريرية، وأيديولوجيته التى تفصح عنها أفكاره وآرائه ، محافظة . وفكره فى جملته لا يشكل ما يسمى بالنظرية الإجتماعية بالمعنى المعروف ، بل هى آراء فى المجتمع وفى ظاهراته وفى علم الاجتماع ، أتت ضمن فلسفته الوضعية . وإذا كان قد أعطى العلم الإسم وتصور الغاية منه فإنه لم يطبق ما نادى به (١) . على أنه يتبقى عنصر إيجابى فى فكر « كونت » يتمثل فى إقراره لحتمية التطور الإجتماعى . وهذا ما يميزه عن كثير من المشتغلين بالعلم الذين لحقوا به . غير أن كونت كان أيضا بعيدا فى تفسيره لهذا التطور عن الفهم العلمى لقانون ومنطق التاريخ كما كان يعتبر الوضعية Positivisme المرحلة الأخيرة للمجتمع وخاتمة التاريخ (٢) .

---

(1) H. Becker & A. Boskoff, (eds). Modern Sociological Theory in continuity and change, The Dryden Press, N.Y. 1957, p. 7.

(٢) س. ى. بوبوف، نقد علم الاجتماع البورجوازى المعاصر ، ترجمة نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ ، ص ص ١٣—١٤

كارل ماركس

الرجل والظروف :

ولد « كارل ماركس » فى ١٨١٨ ومات سنة ١٨٨٣ ، وكان ميلاده بمدينة « تريف » . إنحدر أبواه من خط طويل من الحاخامات اليهود وقد كان والده أول من تلقى من عائلته تعليما علمانيا . وأما عن أوضاع أسرته فقد كانت بصفة عامة أسرة بورجوازية . وإذا كان « ماركس » قد أدرك سن الرجال فى منعطف وعر من التاريخ ، فشبابه كشباب جميع رجال عصره ، وسم بالملحمة الكبرى للثورة الفرنسية والمسيرة العميقة لتأثيراتها عبر القارة الأوروبية . كان والد « ماركس » فرنسياحقيقيا من القرن الثامن عشر ، يحفظ عن ظهر قلب كلمات « فولتير » و « روسو » ويقتبس عن « كانط » مبدأ سيادة الشخص، وحق جميع أفراد الأمة فى تسيير شئون الدولة . وقد قادت هذه الأفكار والده لأن يصبح موضع شبهة الحكومة . وعندما خطب « ماركس » فى عام ١٨٣٧ البارونة « جينى فون وستفالن » ، لم يدخل أبوها فى قلبه حب «شكسبير» و «هوميروس» فحسب بل أيضا حب سان سيمون .وعندما سجل بجامعة برلين فى خريف١٨٣٦ لم يكن قد بلغ العشرين من العمر بعد . وهناك فى هذه الجامعة وجهه أساتذته فى نفس الإتجاه ، وخاصة أستاذه « جانس » الليبرالى تلميذ «هيجل» وهكذا قدر لماركس الشاب أن يعيش فى الأسرة وفى الجامعة وضعا كان آنذاك وضع المانيا ، المتخلفة إقتصاديا والمجزأة من وجهة النظر القومية والخاضعة سياسيا للرجعية البروسية.

ويمكن تلمس الأوضاع الإقتصادية الاجتماعية المحيطة به، إذاما نظر نامتلا إلى مقاطعة « البالاتينا » سنة ١٨٣٢ حين نظم ٢٥ ألف ليبرالى فى ١٧ مايو من نفس العام مظاهرة تأييد للوحدة الألمانية والنظام الدستورى . والمهم فى الأمر أن التطور الاقتصادى فى المانيا الذى مهد له السبيل الإتحاد الجركى فى ١٨٣٤، راح

يخلق الظروف الملائمة لصراعات عمالية متعاظمة . وإذا كانت الحكومة قد تمكنت من سحق الإضرابات العمالية فى عامى ١٨٢٣ — ١٨٢٨ فى مقاطعة « ريتانيا » فإن هذه الإنتفاضات كانت إشارة بدء الصدامات الطبقية الأولى بين البرجوازية والطبقة العاملة . ولم يكن « ماركس » علك تجربة مباشرة عن الحياة فى المناطق الصناعية لأنه ولد فى منطقة زراعية لم تكن تخشى فيها البورجوازية من الطبقة العاملة بنفس القدر الذى كان فى المناطق الصناعية . وإبان السنة التى قضاها صاحبنا « ماركس » فى بون سنة ١٨٣٥ ، أتيح له أن يشهد بعينيه سوط القمع ينهال على الطلاب الليبراليين : تجسس واعتقالات وفصل من الجامعة، وغير ذلك من الأعمال التى كانت تتكاثر ، وتميط اللثام عن الوجه الحقيقى للحلف الأوروبى المقـــدس والرجعية البروسية [١] . ويجدر هنا الاشارة إلى أنه كان قد التحق بجامعة «بون» ليدرس القانون ، لكنه يتركها سنة ١٨٣٦ إلى « برلين » التى كان الذهاب إليهـا نقطة هامة فى تاريخ سلوكه العلمى .

فعندما دخل جامعة « برلين » كان « هيجل » قد وافته المنية ، لكن روحه وفكره ، كان مازالا مسيطرين، وتجسدت سيطرتها فى وجود «الشبيبه الهيجلية» وبعد فترة من المقاومة دخل هذه الجماعة ، وقرأ مؤلفات « هيجل» كلها ، جاعلا منه على حد تعبيره «صنمه المعبود» وفى عام ١٨٤١ أنجز دراسته بتقديم أطروحته الجامعية للدكتوراه حول « فلسفة أبيقور » . وأما عن مفهـــومات « ماركس » وتصوراته فقد كانت حتى ذلك الوقت مفهومات هيجلى مثالى . وإنضم إلى حلقة الهيجليين اليساريين — برنوباور وغيره — الذين حاولوا أن يستخلصوا من فلسفة هيجل إستنتاجات ثورية . وعندما أسس البورجوازيون الراديكاليون فى «ريتانيا» جريدة المعارضة باسم الجريدة الريتانية ، ابتداء من يناير ١٨٤٢ ،

(١) روجيه جـارودى ، كارل ماركس ، ترجمة جـورج طرابيش ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٠ م ص ص ١١ـ١٨ .

دعى « ماركس » و « برنوباور » إلى العمل محررين أساسيين فيها ، وليصبح « ماركس » فى سنة ١٨٤٢ رئيس تحريرها .

وفى الأعوام من ١٨٤٣ — ١٨٤٥ ، ذهب إلى باريس التى كانت مركزا للنشاط السياسى والاجتماعى والفنى ، ومكانا لتجمع الراديكاليين والثوريين من كل أوروبا . وهناك إنكب على دراسة كل النظريات الإصلاحية والإشتراكية المختلفة ، حيث قرأ لبوردون ولويس بلان وفورييه وسان سيمون ، وقابل عددا من الراديكاليين من أمثال الثائر الروسى ميشيل باخوفين والشاعر الألمانى هنرش مين . وبدأت فى باريس أيضا صداقته بفردريك إنجلز ، الذى عرف من خلاله أحوال الطبقة العاملة وليسها معا بأشد الحماسة فى الحياة المحسومة للجماعات الثورية التى كانت آنذاك فى باريس . وفى سنة ١٨٤٥ طرد « ماركس» من « باريس » بسبب ثوريته فلجأ إلى « بروكسل » وأقام فيها وإنتمى الصديقان سنة ١٨٤٧ إلى جمعية سرية ، هى « عصبة الشيوعيين » وقاما فيها بنشاط بارز، خاصة فى المؤتمر الثانى لهذه العصبة . ووضع الرفيقان فى نوفمبر سنة ١٨٤٧ بيان الحزب الشيوعى المشهور ، بناء على تكليف من المؤتمر . وعندما إنفجرت ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ طرد « ماركس» من بلجيكا فعاد الى باريس، ليتركها بعد ثورة مارس ويعود الى كولونيا بألمانيا حيث صدرت منذ أول يونيو سنة ١٨٤٨ الجريدة الريانية الجديدة التى كان « ماركس » رئيس تحريرها . وبعدها قدم للمحاكمة لينفى من ألمانيا فى مايو سنة ١٨٤٩ ، إلى باريس التى طرد منها أيضا فى يونيو من نفس العام، وليأتى به المطاف الى لندن حيث عاش حتى آخر أيامه (١).

---

(١) لينين ، ماركس إنجلز ، الماركسية ، دار التقدم موسكو ١٩٦٨ ، ص ص ٦—٧.

وبصفة عامة فقد عاش ماركس أوضاعا إجتماعية واقتصادية متقلبة ، حافلة بالثورات . وعاش بين أكثر من مدينة وعاصمة أوروبية الأمر الذى وسع نطاق مسرح ملاحظاته . وهو وإن كان قد نشأ نشأة بورجوازية أوشبه بورجوازية، فقد مات مطاردا من السلطات السياسية والأنظمة الحاكمة فى أوروبا ، وعاش فقيرا عانت أسرته من الفاقة والبؤس . وهو وإن كان قد تأثر كشأن معاصريه بالأوضاع الاقتصادية والفكرية السائدة ، إلا أنه يتميز عن معاصريه بأنه تحرر منها على التوالى . فالدرب الذى سيقوده إلى إنشاء المادية التاريخية لب علم الاجتماع وموضوعه الاساسى، يمر عبر تجاوز جدل « هيجل » ومادية فويرباخ. وفى كل حالة ترى ماركس يسلك سبلا أصيلة مطبوعة من البداية بطابع عبقريته ، إن تطوره الفكرى سار جنبا إلى جنب مع تطوره السياسى الذى قاده من الديموقراطية الثورية إلى الاشتراكية (١) فهو من الناحية الفكرية قد أفاد من الفلسفة المثالية الالمانية والاقتصاد السياسى الانجليزى والاشتراكية الفرنسية ، بشكل جعل « لينين » يشير إلى أن الماركسية أتت النتيجة المباشرة والفورية لمذاهب أعظم ممثلى الفلسفة والاقتصاد السياسى والاشتراكية (٢) .

آراؤه فى علم الاجتماع :

يثير موقف « ماركس » من علم الاجتماع تساؤلا فى بعض الأذهان ، وهذا التساؤل يتمثل فيما يلى : كيف يكون « ماركس » إسهاما واضحا ومحددا فى العلم، مع أنه لم يستخدم كلمة علم الاجتماع أو إصطلاحه ؟ والرد على هذا يفضى إلى القول بأن المسميات والشكليات ليست أدلة مباشرة على إهتمام مفكر ما ، أو باحث معين،

---

(١) كارل ماركس ، مخطوطات ١٨٤٤ ، تقويم وترجمة اميل بوتيغلي ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٧٠ ، ص ٢٨ .

(٢) لينين ، مرجع مذكور ص ٦٩ .

بالعلم ودوره ووظيفته لأن المهم والذى يعنى أى باحث أو دارس هـو مضامين الآراء ، والإنتاج الفكرى الذى خلفه لنا هـذا المفكر أو ذاك ، فالمفكر العـربى عبد الرحمن بن خلدون لم يستخدم مصطلـــح علم الاجتماع ، ومع ذلك فهـو مؤسسه الاول ، وأرسطو أبو المنطق ومؤسسه لم يستخدم إصطلاحه ومـع ذلك لايكاد يخلو كتاباً اهتم بالمنطق وأرخ لتطوره من إشارة صريحة وواضحة إلى دور « أرسطو » واسهامه فيه . وحتى لاتكون المناقشة عامـة نوجـز بعض آراء ماركس فى علم الاجتماع فيما يلى : ـ

أولا : إذا تفحصنا ، المادية التاريخية بدقة ، بإعتبارها الإطار الأساسى لعلم الاجتماع فسوف يتجلى لنا بوضوح أن موضوع العلم هو المجتمع والانسان معـا ، دونما فصل أو تعالى للمجتمع على الفرد ، أو على الانسان ، كما يتضح من كتابات ابن خلدون وأوجيست كونت . فالمادية التاريخيـة بإعتبارها مكونا أساسيا من مكونات النسق الفكرى الماركسى ترى الوجود الاجتماعى كواقع موضوعى مستقل عن الوعى الاجتماعى للانسانية . فالسؤال الاساسى فى هـذه المادية التاريخية هـو ذلك الذى يهتم بتحليل العلاقة بين الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى ، أى أنه يحتل فى المادية التاريخية نفس المكان الذى يحتله سؤال العلاقة بين الوجود والوعى فى المادية الجدلية . وبهذا ففروض الأولى تطور وإستمرار المادية الجـدلية ، فى انطباقها على الحياة الاجتماعية . وبذلك ترتبط كل منهما إرتباطا وثيقا . وبالرغم من أن المادية التاريخية مكون متكامل مع بقيـة مكونات الماركسية ، إلا أن لهـا موضوعها الخاص . ففى الوقت الذى تبحث فيه المادية الجدلية العلاقة بين الوجود والوعى ، وتجيب على الاسئلة الخاصة بماهية العلم ، والقوانين العامة للتطور . فإن المادية التاريخية تقدم إجابات مماثلة تتعلق بالمجتمع . وبذلك فموضـــوع المادية التاريخية الذى هو موضوع علم الاجتماع ، هو المجتمع الإنسانى والقوانين العامـة

لتطوره وتغيره (١) ففى النقطة العاشرة فى الرد على « فويرباخ » يرى ماركس وانجلز أنه إذا كانت المادية القديمة تركز على المجتمع المدنى فالمادية الجديدة تركز على المجتمع البشرى أو البشرية المندمجة فى مجتمع . (٢)

ثانيا : إذا كانت مهمة علم الاجتماع لدى ابن خلدون وأوجيست كونت هى البحث فى القوانين الطبيعية الثابتة للمجتمع . وإذا كان « كونت » قد أشار صراحة انك تتنبأ لكى تضبط، بمعنى أن مهمة العلم هى الدراسة بقصد الضبط والمحافظة، فان العلم لدى ماركس لم يكتف بالرصد والتحليل والوصف والتفسير بل يتعدى كل هذا ويتجاوزه لانه يشمل أيضا التغيير. وفى هذا يشير مؤسسوا الماركسية فى ردهم الحادى عشر على فويرباخ لقد اكتفى الفلاسفة بتفسير العالم على أنحاء عدة غير أن المهم فى الامر هو تغييره (٣) .

ثالثا : لقد أدرك ماركس خلو المادية القديمة من المنطق فإقتنع بأنه يجب جعل علم المجتمع منسجما مع الاساس المادى وإعادة بناء العلم بالإستناد الى هذا الأساس . واذا كانت المادية بوجه عام تفسر الوعى بالكائن وليس العكس فهى تتطلب عند تطبيقها على الحيـــاة الإجتماعية تفسير الوعى الاجتماعى بالكائن الاجتماعى . يقول ماركس « إن التكنولوجيا تبرز أسلوب عمل الانسان تجـــاه الطبيعة ، أى العملية المباشرة لإنتاج حياته ، وبالتالى الظروف الاجتماعية لحياته والافكار أو المفاهيم الفكرية التى تنجم عن هذه الظروف وقد أعطى «ماركس» صيغة كاملة عن الموضوعات الأساسية للمادية التاريخية فى تطبيقهـــا على المجتمع البشرى وعلى تاريخه ، وذلك فى مقدمة كتابه « مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى»

(1) G, Glazerman; The Laws of Social Development, Foreign Language, Publishing Hause, Moscow, pp. 70-72.

(٢) ، (٣) هنرى أيكن ، مصدر مذكور ، ص ٢٤٠.

حين قال إن الناس أثناء الإنتاج الاجتماعي لحياتهم يقيمون فيما بينهم علاقات ضرورية مستقلة عن تطور قواهم المنتجة المادية . ومجموع علاقات الإنتاج هذه تؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع ، أي الأساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي ، تشريعي وسياسي ، وتطابقه أشكال معينة من الوعي الاجتماعي . إن أسلوب إنتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بصورة عامة . فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم بل على العكس من ذلك فإن وجودهم هو الذي يحدد وعيهم (١) .

رابعا : اذا كان «أوجيست كونت» قد جاء غامضا في تحليله لمكونات المجتمع وبنائه الإجتماعي، فإن ماركس كان أكثر وضوحا عندما حدد المجتمع وبنائه كجماع عضوي للعلاقات بين الناس . وفي الوقت الذي وجد فيه كونت جوهر الظاهرة الاجتماعية في الأسرة وأخيرا في الدين ، فإن « ماركس » وجد ذلك في تحليل البناء الاقتصادي للمجتمع ، أو أساسه المادي. وهذا هو الفرق بينهما في محور تفسير الوجود الاجتماعي .

خامسا : إن تصور الإنسان في المادية التاريخية يجعله صانع التاريخ ؛ نظرا لأنه إنسان مبدع خلاق. فالانسان يخلق لنفسه حاجات جديدة بتلبيته لحاجاته ، وبإنتاجه وسائل فنية لتلبية هذه الحاجات . وهذا الخلق والإبداع يميز الانسان عن سائر الأنواع الحيوانية الأخرى، ففي حين أن دائرة حاجات الحيوان تظل ثابتة تقريبا وتعتمد على تكيف الحيوان مع الطبيعة، فان دائرة الانسان تتسع بلا توقف . فهو الذي يحول الطبيعة بدلا من الإكتفاء بالتكيف معها . ولعل هذا التصور للانسان كمبدع خلاق ، صانع التاريخ ومحركه من أهم ماتتميز به المادية

(1) K. Marx & F. Engles, Selected works, VoL, 1, Foreign Language, publishing House, Moscow, 1962. pp. 362–363.

التاريخية عما سبقها من أفكار سوسيولوجية جعلت المجتمع فى منزلة الإله ، وليتها قصدت من المجتمع كافة نظمه وفئاته وطبقاته،وإنما كانت تعنى فى مضامين فكرها من المجتمع بالسلطة القائمة والمصالح السائدة المسيطرة .

سادسا : يشغل التغير الاجتماعى مكانة بارزة فى فكر « ماركس » وهو ليس تغيرا على غرار ما يحدث فى العوالم البيولوجية وإنما تغيير إنسانى كيفى يمثل إنعطافات فى تاريخ الانسان وتحولاته . وإذا كان الأساس الاقتصادى لأى مجتمع يتألف من قوى الانتاج، فإنالقوى المادية المنتجة للمجتمع تدخل فى مرحلة من مراحل تطورها فى صراع مع علاقات الانتاج القائمة — علاقات الملكية وما اليها . ومن خلال تطور القوى المنتجه تتغلب هذه العلاقات علىمنقيودهاومن ثم تبدأ مرحلة الثورة الاجتماعية. وعلى هذا فإذا كان تفسير التغيرلدى إبن خلدون يجمع بين السلطة السياسيه وأحوال المعاش ويتركز لدى « كونت » فى الافكار والحالات العقلية،فهو لدى « ماركس » يأتى من أساس المجتمع الذى يحتوى العوامل الموضوعية البيانية للتغير والصراع .

سابعا : يفسر « ماركس » ظاهرات المجتمع فى ثباتها وتغيرها،بأسلوب الحياة المادية ، وهذا لايعنى إستنادالمادية التاريخية على تفسير علىحتمى أحادى الجانب لأن ماركس لم يقل مطلقا بأن العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد . فالأساس الاقتصادى يتألف من مجموعة من المتغيرات التى تشمل بين ما تشمل قوى الإنتاج وعلاقات الانتاج وما بينها من حركة دينامية وعلاقات جدلية . ففى رده على « برودون » فى كتابه بؤس الفلسفة يشير « ماركس » إلى أن«برودون» بإعتباره رجل إقتصاد يفهم جيدا أن الناس يصنعون الملابس من خلال علاقات إنتاج محددة ، ولكن الذى لم يفهمه أن هذه العلاقات ينتجها الناس وترابط عن طريق قوى الانتاج ، وفي طلبهم لقوى جديده يغيرون أسلوبهم فى الإنتاج،وفى تغيير

هذا الأسلوب يغيرون الطريقة التي يحفظون بها حياتهم ، وهذا لايعني أنهم يكونون كل علاقاتهم الاجتماعية بما يتسق وإنتاجيتهم المادية ، لأنهم ينتجون أيضا الأسس والأفكار التي تتسق وهذه العلاقات (١) ولقد أكد إنجلز وبوضوح في خطابه إلى «جوزيف بلوخ» تبعا للتصور المادي للتاريخ فإن العنصر الأساسي هـو إنتاج وإعادة إنتاج الحياة الحقيقيه وأكثر من هذا فلا أنا ولا ماركس أكدنا مطلقا أن الإقتصاد هو الوحيد، ولـكن العناصر المختلفة للبناء الفوقي لها تأثـير على مسار الصراعات التاريخية . وهـذا يعني أن الأساس الإقتصادي ليس عامـلا وحيدا ، لكنه هاما وليس تفسير الظاهرات في ضوئه تفسيرا حتميا ميكانيكيا ، وانما هـو موجه ومرشد للدراسة ومرتبط بالظروف والأوضاع الاجتماعيـة والاقتصادية لمجتمع معين وفي فترة معينة من فترات تاريخه .

موقف الرجل من الظروف :

توضح لنا آراؤه في علم الاجتماع رغم إيجازهـا أن موقف الرجـل لم يكن موقفا مناهضا لما كان حوله بل كان سالبا له ، ناقـدا ومحللا وشارحا ومفسرا . جمع في محاور فكره بين الموقف الثوري وبين العمق الأكاديمي والتأصيل النظري والإستقراء التاريخي . والبرهان على ذلك تشير اليه النقـاط التالية :

أولا : لم ينظـر إلى العلم بإعتباره حبيس الوقائع وسجـين أسوارها بل يحللهـا ويفسرها لا ليدعمها ولكن لتجاوزها وتغييرها الى أخـرى أكـثر إشراقا وأقـل تناقضا . وبهذا فعلم الاجتماع لديه ليس في خدمة النظام القائم أو هو يبرره ليؤكده وانما هو علم ثوري يسعى نحو التغيير إلى الأفضل.

---

(1) K. Marx, The Poverty of philosophy, Third Press, Progress, publishers, Moscow, 1966, p. 95.

ثانيا : الإنسان لديه هو الغاية وليس مجرد وسيله ، فهو صانع التاريخ، وبهذا أدرك الطبيعة النوعية للانسان، التي تميزه عن سائر المخلوقات . لقد عد ماركس الإنسان أولا جزءا من الطبيعة نتيجة لتطوره ومن ثم فهو يخضع في تطوره لقوانين عامة التطور . وعده ثانيا جزءا من المجتمع ونتاجا لتطوره ومن ثم فهو يخضع في تطوره القوانين النسبية النمو . وعده ثالثا نتاجا للخلق الذاتي، بمعنى أن الانسان صانع التاريخ عندما يغير ظروف وجوده كإنسان اجتماعي فإن ذلك يكون مشروطا بشروط الطبيعة والمجتمع (١) .

ثالثا : أن جميع تصورات « ماركس » ومفهوماته تصـــورات إجتماعية وإقتصادية وفي هذا إبراز للمفهومات السوسيولوجية وتحقيق لشخصية عـــلم الاجتماع وإستقلاله .

رابعا : اذا كان كونت قد نادى بتخليص العلم من أسار الفلسفة فإن نداءه هذا وإن كان قد أدى ـــ إلى حد ما ـــ إلى تحقيق قدر من إستقلال العلم، فإنه وصد أبواب الإبداع والتأصيل النظريين أمام علم الاجتماع . فالفلسفة وإن كانت أم العلوم وإن كانت العلوم كالأبناء تنسى أصولها ، فعلم الاجتماع بإنفصاله عن الفلسفة كاد أن يهيم بالوقائع وكأنها الغاية والمطاف، ولذلك جمع ماركس لعلم الاجتماع بين الأسس الفلسفية العلمية والركائز الموضوعية الميدانية بكشفه العظيم لقوانين المادية التاريخية التي تنطلق من الأبعاد المادية للحياة الاجتماعية . (٢)

---

(١) آدم شاف « ماركس والمذهب الانساني المعاصر » ترجمة ماهر شفيق ، ديوجين مصباح الفكر نوفمبر ١٩٦٨ ص ١١٩.

(٢) أنظر لمزيد من التفصيل حول المادية التاريخية ، وعرضها وقوانينها ، كتابنا « في نظرية علم الاجتماع » دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٣ الفصل الثاني .

خامسا : أبرز « ماركس » ديناميات البناء الاجتماعي وتناقضها ودورهـــا الوظيفي في تغيير المجتمع والوصول به إلى حالة كيفية غير التي هو عليها .

سادسا : مما يدعم شخصية علم الاجتماع وإبراز خصائصه ، إهتمام « ماركس » بوحدة أساسية في الوصف والتفسير ، هي الطبقة الاجتماعية ، وهـذا يبرز إهتمام علم الاجتماع بما هو إجتماعي .

سابعا : إذا كان العلماء الإجتماعيون يهتمون بتفصيلات تتعلـــق بأوساط إجتماعية محددة أو أشكال سوسيولوجية صغرى فإن « ماركس » لم يغفل هـذه التفصيلات ، بل كان يدرسها دوما ومن خلال البناء الاجتماعي للمجتمع ككل ، وهذا هو محور وجهة نظر علم الاجتماع . وإذا كان هؤلاء العلماء لا يعـــرفون عن التاريخ إلا النذر اليسير فقد إستخدم ماركس المادة التاريخية ووظفها بتألق بارع.(١)

ثامنا : لا يفسر ماركس التغير الاجتماعي بعوامل غـــير إجتماعية كالبيئة الجغرافيه والمناخ والأفكار كما فعل السابقون خاصة أوجيست كونت ، وإنما بعوامل إجتماعية . لقد تعلم ماركس الإتجاه الكلي من هيجل ومونتسكيو ومن ثم رأى المجتمع ككل مترابط بنائيا ، فبالنسبة له لا يمكن فهم أي جانب من جوانب هذا الكل بنفسه ، هذا فضلا عن أن المجتمع ليس فقط كلا بنائيا وإنما أيضا كلا متطورا .

إيميل دور كايم

الرجـل والظروف :

عاش « إيميل دور كايم » في الفترة ما بين ١٨٥٨ — ١٩١٧ . وهـو أول

(1) C. Wright Mills, The Marxists, Bell publishing. Co. Inc., N.Y: 1962, pp. 10-11

عالم أكاديمى ، أثر وضعه هذا ، فى نشاطه وأفكاره ، وإهتماماته ، حيث جعله يواجه نوعاً من الظروف الخاصة المغايرة عن سابقيه ، كإبن خلدون وكومت وماركس الذين كانوا رجال فكر وحياة عامة ، ليست أكاديمية بالمعنى الذى خابره دوركايم . لقد ولد هذا المفكر فى إبينال Epinal باللورين ، ـ المقاطعة الشرقية الفرنسية . وكان هذا الميلاد فى الخامس عشر من إبريل عام ١٨٥٨ . كان إبن حاخام يهودى أراد له والده أن يسير عـلى نهج الأسرة ، وأراد دوركايم لنفسه أن يكون كذلك ، ومن ثم درس العبرية وقرأ كتاب العهد القديم ـ التوراه ـ والتلمود الذى يحوى تعاليم الأحبار الربانية الموسويين ، وفى نفس الوقت درس العلوم العلمانية وسار فى التعليم الحكومى . وبعـد محاولتين فاشلتين تم قبوله بالمدرسة العليا سنة ١٨٧٩ ، وفيها التقى بعدد من الرجال الذين تركوا آثاراً واضحة على الحياه الفكرية فى فرنسا ، من أمثال هنرى برجسون الفيلسوف ، وبيير جانيت Pierre Janet السيكولوجى ، وجوبلو Goblot الفيلوف . وكان من أكثر أساتذة المدرسة تأثيرا فيه فيستيل دى كولانج Fustel de Coulange مؤلف كتاب المدينة القديمة Ancient City الذى أصبح فيما بعد مدير المدرسة (١)

وبالرغم من تأثر دوركايم بالفكر الإجتماعى الألمانى والإنجليزى ، فقد كان تأثره عميقاً بالفكر الفرنسى ، خاصة فلاسفـة عصر النهضة من أمثال روسو ومونتسكيو . ومع أنه تأثر فى نظرته الكلية Holistic نحـو البناء الاجتماعى بمونتسكيو ، فإنه تأثر ـ ولو جزئيا ـ فى فكرته عن التضامن الاجتماعى بقراءته لكتاب « العقد الاجتماعى » . وأما تأثره بكومت وسان سيمون فقد كان عظيما ، وإن عدهو « سان سيمون » أستاذه الفكرى(٢) وتلك نقطة سوف نعود اليها فيما بعد

(1) L. Coser, opcit, pp. 143–150.

(2) I. Zeitlin. op cit. pp. 236–240.

وعن المؤثرات التي تركت علامات عـــلى فكر دوركايم يشير ج . هـ . إبراهام J. H. Abraham في كتابه « أصول علم الاجتماع وتطوره » إلى أن هناك ثلاثة مؤثرات شكلت فكر دوركايم : تمثل الأول في التراث الديكارتي الخاص بالعقلانية والتبرير، والذى سيطر على إطار دوركايم التحليلي . ويأتى الثانى من عصر التنوير بوعده غير الكافى وغير المتبلور ، لعهد جديد، من خلال الإستخدام غير المتقيد وغير المحدود للعقل . وأما الثالث والأخير فيتمثل فى وضعية كونت التى إنطلقت نحو إقامة علم جديد للمجتمع يستطيع بمنهجيته ، ووجوده بجانب العلوم الأخرى؛ إكتشاف القوانين ، وإقامة التعميمات ونسج خيوط التنبؤات . وبجانب هـــذه المؤثرات يرى إبراهام أن النظرية التطورية التى كانت سائدة فى زمان دوركايم، لم تفشل فى أن تضع بصمة وعلامة على فكر دوركايم ، فجعلته يتصور المجتمع من خلال إصطلاحات النمو العضوى والأجزاء المتساندة (١) .

ومع أن فرنسا كانت تموج فى القرن التاسع عشر ، بثورات وفورات وكانت الجمهـــورية الفرنسية الثالثة تعانى من الإضطراب، إلاأن المســـرح السياسى فى تسعينيات القرن التاسع عشر كان هادئا نسبيا . وأما مجتمعه الذى قضى فيه سنوات الطفولة والتنشئة الإجتماعية الأولى ، فقد كان مجتمعاً يهودياً محافظاً ، ومتضامنا تضامناً آليا ، تسوده روابط شبه جماعية بسيطة ومباشرة .ومـــع أنه إنتقل بعد ذلك إلى العاصمة ، باريس ، حيث المجتمع الذى يســـوده التضامن العضوى القائم على تقسيم العمل، فإنه لم ينس إرتباطاته الأولى وجذور نشأته ، والقيم التى أحاطت به أيام صباه . ويتبدى كل هذا من وعيه بمجتمعه الذى عاشه،

---

(1) J. H. Abraham; Origins and Growth of Sociology; Penguin Books; 1973; p. 95.

وهيامه بالوحدة والنظام ، والدعاوى الأخلاقية من أجل تضامن هذا المجتمع[1].

ويقتضينا فهم تصوره لعلم الاجتماع ، كشأن معاصريه، تفحص علاقته بالفكر الإشتراكى وبالحركة الإشتراكية ، فى زمانه . لقد بدأ دوركايم يهتم مبكراً ، سنة ١٨٨٣ ، بالفكر الإشتراكى ، وبمشكلات الإشتراكية ، وهو نفس الوقت الذى خط فيه التصور الأول لدراسته الشهيرة عن تقسيم العمل Division of Labor وإنتقل إهتمامه بعد ذلك من الإشتراكية إلى علم الإجتماع ، ليحط أخيراً على دراسة المشكلات الاجتماعية . ومع أنه أحاط بالتراث الإشتراكى بما فى ذلك فكر « ماركس » ، إلا أن دوركايم ظل يعارض الاتجاه الاشتراكى وملامحه . وأهم ما كان يعارضه من هذه الملامح كما يشير « مارسيل موس » الطبيعة العنيفة للاشتراكيه ، وسمتها الطبقية ، ونغمتها السياسية . ونتيجة لمعارضته ، بل ومقاومته لتصور المجتمع وتغير بنائه الاجتماعى ، القائم على الطبقات والصراع الطبقى ، وضع نظرية فى التضامن العضوى Organic Solidarity تجاهلت الطبقات ، ورأت أن التغير الخير ، هو الذى يفيد كل المجتمع ، وفئاته[2] .

آراؤه فى علم الاجتماع :

أولا : نادى بوجوب دراسة علم الإجتماع للمجتمع ، بإعتبار هذا المجتمع نوعا خاصاً من الواقع الروحى Spritual realit الذى تختلف قوانينه عن قوانين علم النفس الفردى . لأن كل مجتمع يقوم لديه على أفكار وتصورات جمعية . ولذلك يجب على العالم الإجتماعى أن يركز إهتماماته فى دراسة الوقائع

---

(1) Coser; opcit; pp. 143-163.

(2) Zeitlin; opcit; pp. 234-235.

الاجتماعية ،والتصورات الجمعية، كالقانون والأخلاق والدين والعادات... الخ)(١) وهذه الوقائع ، وتلك التصورات ، هى التى ترسم الخط الأساسى لموضوع علم الإجتماع لديه ، ومجاله الذى يؤكد من خلاله على ضرورة دراسة هـذه الوقائع كأشياء ، أو موضوعات خارجة عن ذو اتناولها طبيعتها الخاصة(٢).

ثانيها : نسجت العضوية والوضعية خيوط إطاره النصوى من خلال تأثره بأوجيست كونت وهربرت سبنسر وإسبيناس Espinas . ويرى « رادكليف براون » أن دوركايم هـو أول من أقام المماثلة بين المجتمع والحيـاة العضـوية على أساس وظيفى . فكما أن حياة الكائن العضوى تعبير وظيفى للبناء العضوى ، فإن الحياةالإجتماعية تعبير وظيفى للبناءالإجتماعى (٣).

ثالثا : إهتم بإبراز الخصائص النوعية للظاهرة الإجتماعية : كتلقائيتها التى تعنى نشأتها المستقلة عن إرادة الأفراد المكونين للمجتمع ، وموضوعيتها أو واقعيتها، التى تعنى أنها خارجة عن ذواتنا بما يجعلها حقائق واقعية تدرس موضوعيا كشأن الأشياء ، وإلزاميتها الذى يعنى أن لها ضغط إجتماعى يجعل الأفراد ينظرون إليها وكأنها ضرورة محتومة أو سلطة لها هيبتها ، ولا مفر من إحترامها (٤).

رابعا : ربط التطور الإجتماعى بثلاثة عوامل أساسية هى: كثافة السكان Density of Population ، ووسائل الإتصال ، والنقل الجغى . وكل مجتمـع

(1) M. Rosenthal: & P. Yudin. opcit. p. 131.

(2) V. Preston, S V. Bonita. «General Sociological Theories of Current refrence» in. H. Becker S A. Boskoff (eds) opcit. pp. 83-84

(٣) د. أحمد أبوزيد ، البناء الاجتماعى ، مدخل لدراسة المجتمع ، جـ ١ ، المفهومات، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ٧١ .

(٤) أحمد الخشاب ، مرجع سابق ، ص ص ٨٧ ـ ٨٠٦٠ .

لديه يتميز بنوع خاص من التضامن الإجتماعى . فالمجتمع البدائى يسوده التضامن الآلى Mechanical Solidarity لأنه يقوم على روابط الدم والعلاقات المباشرة، والمجتمع الحديث يسوده التضامن العضوى Organic Solidarity لأنه يقوم على تقسيم العمل (١)

خامسا : يلعب الدين لديه دوراً هاماً فى حياه المجتمع ، ولذلك وضع علم الإجتماع الدينى على رأس قائمة فروع علم الاجتماع (٢) .

سادسا : يتلخص منهجه الأساسى فى البحث : فى ضرورة دراسة الظاهرات الاجتماعية كأشياء ،وضرورة تحرر الباحث من كل فكرة يعرفها عن الظاهرة موضوع الدراسة ، وتعريف الظاهرة التى تتخذ مادة للدراسة ، وملاحظتها فى الصورة التى تبدو فيها مستقلة عن صورها وتجسداتها الفردية . وأما عن خطواته المنهجية فيحددها فى : دراسة نشأة الظاهرة ، وتطورها ، وعلاقتها بغيرها من الظاهرات ، والانتفاع بمنطق المقارنة ، والكشف عن وظيفتها ، وتحديد القوانين التى يصل اليها الباحث من دراسته (٣) .

موقف الرجل من الظروف :

كان إيميل دوركايم محافظاً فى نظرته إلى المجتمع البشرى ، وتطوره ، ومحافظاً فى نظرته إلى علم الإجتماع ودوره ووظيفته فى المجتمع . ومحافظاً فى تحديده لخصائص ظاهرات الحياة الاجتماعية . وكل هذا تؤيده لنا الشواهد القائمة على مضامين فكرة وتصوراته ، والتى نشير منها إلى ما يلى :

---

(1) M. Rosenthal. opcit, Loc cit.

(٢) د. مصطفى الخشاب ، مرجع مذكور ، ص ٣٠٩ ، حيث يحوى عرضا تفصيلا لأفكار ومنهج دوركايم .

(٣) المرجع السابق، ص ص ٢١٠–٢١٢.

أولا : كان دوركايم يقول « إن علم الإجتماع لا يستحق ساعة من العناء إذا لم يساعد فى حل المشكلات الاجتماعية (١) . وهذا يعنى جوهرا أن هدف علم الاجتماع ، هو حل المشكلات الاجتماعية ، وعلاجها ، ومنع أى صدع يحدث للبناء الاجتماعى ونظامه السائد . وهو هدف لا يختلف كثيرا عن هدف علم الاجتماع الأمريكى المعاصر الذى يخدم على النظام القائم ويسعى إلى التخفيف من تناقضاته، ويركز على المشكلات الجزئية كالجريمة والإنتحار والسلوك الإنحرافى والتمرد ما إلى ذلك .

ثانيا : يتبدى إتجاهه المحافظ من موقفه من الفكر السوسيولوجى الذى سبقه، والذى يتمثل فى تنميته النزعة المحافظة فى فكر سان سيمون ، وتجاهله للاتجاه الراديكالى فى فكر « ماركس » ، ويتضح هذا من إدراك دوركايم للتكامل وصوغ الأفكار الاخلاقية الملائمة له . وهذا مانجده واضحا لدى سان سيمون ، فكل شىء لدى سان سيمون ودوركايم يعتمد على إمكانية تطوير النظام الأخلاقى بما يتلاءم وأهداف الظروف الإجتماعية، ولذلك جعل دوركايم تقسيم العمل سياجا للمجتمع من الأنومى Anomie والتفكك الاجتماعى ، هذا فضلا على أن المجتمع لديهل سان سيمون ودوركايم — مجتمع من الأفكار، لأن تماثل الأفكار الأخلاقية الوضعية وتشابهها وتكاملها، هو الرابط الوحيد الذى يؤدى الى توحيد الناس فى المجتمع . وبالرغم من أن دوركايم بدأ إهتمامه العلمى بالاشتراكية ، فقد ظل طيلة حياته يعارضها ، فبنى تصورة للمجتمع على التضامن ، وتجاهل التدرج الإجتماعى والطبقات ووسائل القوة والصراع السياسى . وهى كلها مسائل لم تلعب أى دور فى فكرة الاجتماعى . ولعل إهتمامه بالتضامن يعكس من جانب آخر تخوفه من

(١) ريموت آرون ، ثمانية عشر درساً حول المجتمع الصناعى ، ترجمة لديم محرم ، عالم الكتب، ١٩٦٨ ، ص ١٥ .

الصراع السياسى الذى أحاط به ، ويرتبط بالموقف الوسيط الذى حاول أن يتخذه بين فكر أوجيست كونت وماركس وقبلهما سان سيمون . على أن المهم فى الأمر أنه مع معارضته الواضحة والمستمرة «لماركس» فقد أخذ عنه فكرة «الوجود والوعى» ووظفها لحسابه الخاص، بما يتسق وأهدافه. وهذا ما تفصح عنه دراسته الشهيرة عن «الصور الأولية للحياة الدينية [1] .

ثالثا: إن دوركايم بتركيزه على المجتمع ورفعه إياه فوق إرادة الفرد والإنسان، وباعتباره المجتمع ووقائعه ذوات طبيعة خاصة ، وبإبرازه لصفة الإلزام فى الظاهرة الإجتماعية ، يقلل من إرادة الإنسان ان لم يكن يلغيها [2] . وهذا فى جوهره يؤكد نزعته المحافظة نحو ما يحيط به من نظم ومصالح طبقية . أراد من الإنسان بفكرة أن يخضع لها ويلتزم بها ويسير فى ركابها .

تلك هى أهم ملامح فكر أربعة من الرواد الأساسين فى الفكر السوسيولوجى والتى يتضح منها ، ارتباط العلم بالايديولوجية، ووضوح تأثيرها عليه. وأن كان هناك من نتائج يمكن الإفادة منها، فإننا نوجز بعض الدروس أو بعض الاستخلاصات الأساسية ، التى تلقى الضوء على وضع علم الإجتماع ووظيفته العلمية والإجتماعية :ـ

أولا :إشتق رواد العلم موضوعه ومجاله من المجتمعات التى لاحظوها ، ومن الظروف الإجتماعية التى عايشوها ، ومن المواقف الايديولوجية التى إتخذوها. وأثر حجم المسرح الاجتماعى المحيط بالمفكر فى كم ملاحظاته وكيفها فى آن واحد . والرواد الأربعة الذين عرضنا لهم يدللون على هذا . فإبن خلدون وكونت

(1) Zeitlin. opcit. pp. 234-236

(2) Robert Nisbet «Conservatism and Sociology» in American Sociological Review. VoL. 58. No. 2. 1952. pp. 167-175.

ودوركايم كانو امحافظين ، وأما ماركس فقد كان ثوريا وراديكاليا، وأقرب الى طبيعة المجتمع ، وطبيعة علم الإجتماع لما يلي : —

١ — لم يقصر وظيفة علم الاجتماع ، مثلهم على الرصد والتحليل ، بقصد الضبط أو الحفاظ على السلطة أو حل المشكلات ، وانما جعل له وظيفة ثورية تسهم في تجاوز الواقع المعطى، إلى آخر أكثر سعادة للانسان . وإعتبر التغيير الثورى سبيلا أساسياً لذلك .

٢ — لم يخنق الفعل الاجتماعى فى ضرورات محتومة ، وقوانين طبيعية لا تتغير، بل قدم قوانين نوعية قائمة على الطبيعة النوعية للانسان لا تميزة عن سائر المخلوقات والكائنات .

٣ — لم يضع المجتمع فى مكانة متعالية فوق الانسان، بل أبرز إرادة الإنسان وقدرته الخلاقة على تحريك التاريخ .

٤ — لم يحول العلم إلى حلة أخلاقيه ، تهيم بالافكار ، وتعتبر الفكر والوعى محركا للوجود ، كما فعل كونت بقانونه ذى الحالات الثلاث ، أو كما فعل دوركايم بمفهومه عن التصورات الجمعية .

٥ — لم يختصر العلم إلى دراسة سكونية، للثوابت الإجتماعية، وإنما أبرز تناقضات البناء الاجتماعى وديناميأته من خلال الصراع الطبقى .

٦ — لم يفسر الظاهرات الإجتماعية بعوامل غير إجتماعية ، شبه غيبية كالأفكار والمعتقدات والشعور ، ، وإنما أبرز العوامل الموضوعية البيانية التى تخضع للدراسة والقياس ، والتى تكسب العلم طابعا علميا ، وذلك بتركيزه على الأساس الموضوعى للبناء الاجتماعى وما يحويه من أبعاد إقتصادية .

ثانيا : إن فكر الرواد بإستثناء « ماركس » ، نبع من فلسفة محافظة

إهتمت بالجماعة والمكانة والتكامل والوظيفة الاجتماعية . وكانت هذه الفلسفة رد فعل فى وجه الثورة الفرنسية والتصنيع ، إنتقلت من كونت إلى « لو بلاى » Pierre Frederic Le play ١٨٠٦ — ١٨٨٢ ومنها إلى « دوركايم » الذى أراد أن يدثر النزعة المحافظة برداء علمى هام بالتضامن المثالى وأغفل التناقض والصراع مع أن الأخيرة ظاهرات أساسية ملازمة لحياة الكائن الإنسانى .

ثالثا : لقد إستمر المضمون النظرى للنزعة المحافظة وإتصل من إبن خلدون لكونت ، لدوركايم ، ولم تزل تواصل هذه النزعة تأثيرها فى علم الاجتماع الغربى ، الرأسمالى ، وهى نزعة تبدى فى الإتجاهات المعاصرة فى العلم الغربى ، والتى تتبارى فيما بينها من أجل المحافظة على النظم القائمة . فأصحاب البنائية الوظيفية ، وأنصار علم الاجتماع الإمبريقى ودعاة المالثوسية الجديدة ، يرى جميعهم فى مذاهبهم وإتجاهاتهم دليلا عميقا على خصوبة المجتمع الرأسمالى الذى يعيشون فيه (١) وهذا يجعلنا نستنتج أن المضامين النظرية للعلم لم تتغير كثيرا وانما الذى تغير هو المضمون المنهجى العلمى الذى يتجه نحو الدقة والأناقة والهيام بالكم من بعد تدليله وإغفال الطابع الكيفى والنوعى للتجربة الانسانية الاجتماعية (٢) .

رابعا : لعلنا نتفق مع « إرفنج زيتلن » حينما أشار فى كتابه «الايديولوجية وتطور النظرية السوسيولوجية » ، إلى أن أفكار الرواد الذين جاءوا بعد عصر التنوير ، جاءت رد فعل لهذا العصر ويخص من هؤلاء « أوجيست كونت » . كما جاءت أفكار الرواد الذين أتو بعد «ماركس» كرد فعل له خاصة أفكار دوركايم

---

(١) س. بوبوف ، مصدر مذكور ، مواضع متفرقة ، خاصة ص ص ٣ — ١٠

(2) R. Nisbet, opcit. Loc. cit.

وما كس فيـــبر وكارل مانهيم وباريتو فنهم من قلد وردد ومنهم من خـالف محاولا توجيه سهام النقد لفكره . ومنهم من حاكى الأفكار على أنحاء مخالفة ، (١) كما فعل دوركايم ولو بلاى . فالأول عكس علاقة الوجود بالوعى . وأما الثـانى فقد وضع القرابة فى مكانة الطبقة الاجتماعية لدى ماركس ، وإعتبر الملكية الخاصة أساساً للنظام والحرية (٢) .

خامسا : لقد أتت نشأة العلم تبريره ، واصلت نموها مع نموه ، ومن المتصور أن هذا أثر فى العلم كثيرا ، وجعله أقرب الى المحلية ، من العالمية، وطبعه بطابع الحقب والأوضاع التاريخية ، وجعل فيه أكثر من إتجاه نظرى ، وأكثر من موقف أيديولوجى ، الأمر الذى ينسج فى النهاية مشكلة نظرية ملحة وهـامة أمام المجتمعات التى لم يزل العلم فيها فى أطوار النشأة والتـكوين . وهى مشكلة تجمع بين البحث الموضوعى فى مـبررات الإختيار بين الاتجاهـات ، وبين أسس إقامة تنظير جديد .

ثانيا : الايديولوجية وتعريف العلم وبعض مفهوماته :ـــ

يطالعنا « ريمون آرون » فى كتابه « ثمانية عشر درسا حول المجتمع الصناعى » بأن علم الاجتماع ، يتميز بأنه يبحث دوما عن نفسه ، وبأن علمائه والباحثين فيه يتفقون على نقطة أساسية ، وهى عدم الإتفاق على وضع تعريف أو تحديد للعلم ومجاله وغاياته (٣) . ويؤكد ستيفن كوتوجروف Stephen Cotgrove عـــلى نفس المعنى الذى يذهب اليه « آرون » ، حيث يشـير الأول إلى أن هناك قـدراً

(I) Zeitlin, opcit.

(2) R. Nisbert, The Sociological Tradition. Basic Books. Inc.. Publishers. N.Y:. 1966. pp. 66–67.

(٣) ريمون آرون ، المرجع السابق ، ص ٦

واضحا من الإختلافات بين آراء أولئك الذين يطلقون على أنفسهم مشتغلون بعلم الاجتماع(١). والنتيجة الهامة التي نصل اليها من هذين الرأيين هي أنه بالرغم من مرور أكثر من قرن من الزمان، منذ أن إصطلك «كونت» تسمية العلم، فإن السؤال المطروح حتى اليوم، ماهو علم الاجتماع ؟ . والبحث عن إجابة لهذا السؤال تحفل بكثير من الآراء ووجهات النظر حول العلم وموضوعه، تتراوح بين مدى مستويات التحليل، وأغراض الدراسة والتفسير . وتفسير ذلك يلقى أضواء على أشياء كثيرة، ومتغيرات متعددة، من المؤكد أنها تحتوى بينها بعداً أو متغيرا هاما، يكشف عن تأثير الأيديولوجية في العلم، ويرجع إلى أن كل رائد أو باحث حاول تحديد معنى العلم، إرتبط بالظروف والأوضاع المجتمعية في حوله، والتي جاهد من جانب آخر لتطويع موضوع العلم لخدمتها . ويتبدى تأثير الأيديولوجية في هذا الصدد من تباين محاولات تعريف العلم وبعض المفهومات المرتبطة به .

٣ - بعض نماذج تعريف العلم :—

(أ) النموذج الأمريكي :—

ونوضحه من خلال مثالين :—

المثال الأول : ويقدمه بروم و سلزنيك Broom & Selznick ، حين ذهبا إلى أن علم الاجتماع واحد من العلوم الإجتماعية التي تهدف إلى كشف البناء الأساسي للمجتمع الإنساني، وتعيين القوى الأساسية التي تساعد على ترابط

(I) Stephen Cotgrove. The Science of Society : An Introduction to Sociology; George Allen & unwin L T D. London 1969. p. II

الجماعات معاً أو تضعف من هذا الترابط ، بجانب تعلم الظروف التي تحول الحياة الاجتماعية (١)

المثال الثاني : ويقدمه « ميلتون بارون » M. Barron ، الذي عرف العلم بأنه علم اجتماعي يجد في طلب في معرفة علمية حول أنماط التفاعل الاجتماعي ، وتأثير الإنساق الاجتماعيـــة على الاستجابات العقلية والانفعالية والسلوكية الإنسانية (٢) وهناك بجانب هذين التعريفين عشرات التعريفات للعلم ، التي تتراوح بين الإتساع الشديد ، وبين التحـديد والتضييق فعالم الاجتماع الامريكي هـنرى فير تشايلد H. Fairchild يعرف علم الاجتماع بأنه « الدراسة العلمية للظاهرات الناشئة عن العلاقات التي تقوم بين مجموعات من البشر . إنه دراســة الإنسان وبيئته البشرية وعلاقتها ببعضها البعض . وهــــذا يعني أن على علم الاجتماع أن يدرس أشكال العلاقات البشرية . وهناك أيضا تعريفات حاول أصحابها تضييق نطاق العلم وقصره على دراسة السلوك داخل الجماعة الاجتماعية كما يذهب إلى ذلك كل من سميث S. Smith ويونج K. Yaung وجونسون H. Johnson وغيرهم كثيرين (٣) .

(1) Leonard Broom & Philip Selznick, Sociology, A text with adapted readings, Harper & Row, Publishers, N.Y. 1963, p. 3

(2) M. Barron, (ed) Contemporary Sociology, Dadd, Mead & Company, N.Y. 1965, p. 2

(٣) ج. أوسيبوف ، قضايا علم الاجتماع ، ترجمة د. سمير نعيم ، د. فرج أحمد ، دار المعارف ، ص ص ٨٨ — ٩٣

٥ ـ النموذج السوفيتى :

ونوضحه أيضا بمثالين : ـ

المثال الأول : ويقدمه أوسيبوف G. Osipove حين عرف العلم بأنه ذلك العلم الذى يدرس البناء الاجتماعى S. Structure للمجتمع وما يحويه من علاقات داخل الطبقات الإجتماعية وبينها ، والنظم الإجتماعية التى تنظم هـذه العلاقات ، بجانب دراسة تطور وتفاعل الأنساق والتنظيمات داخل المجتمع (١).

المثال الثانى : ويقدمه ف كونستانتينوف F. Konstantinov و ف كيل V. Kell حيث حددا العلم من خلاله بأنه الذى يدرس المجتمع ككل متطـور تاريخيا ، كما يدرس القوانين التى تحكم التكوينات الإجتماعية الاقتصادية . بجانب إهتمامه بالبحث فى العلاقات الداخلية بين الجوانب المختلفة للحياة الإجتماعية وظاهراتها . (٢)

وإذا نظرنا إلى النموذجين السابقين، نجد أنه مع وجود اتفاقات بديهية بينهما الا أنهما يختلفان اختلافا واضحا فى الموضوع والغاية فالمثالان الأمريكيان يكملان بعضها ، ليوضحا أن الإهتمام مركز على الجماعات والسلوك والعمليات النفسية ، والنفسية الاجتماعية ، دونما ابراز البعد التاريخى، والطبقى ، كما هو الحال فى المثالين السوفيتين . وهذا أمر يعكس صدى الأوضاع السائدة فى كلا المجتمعين. فالمجتمع الإمريكى رأسمالى ، والطبقة المسيطرة فيه هى البورجوازية

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧

(2) F. Konstantinov & V. Kell «Historical Materialism — Marxist Sociology» trans. in Current Bigert of the sovit Press, Vol . 17, No. 8, March 17, 1965, pp. 3-8

التى تهتم بتأكيد سيطرتها ، ومن ثم فدراسة الطبقات ، والاهتمام بالتاريخ ، من الامور التى تهدد مصالحها لانها تكشف القناع عن تناقضات البناء الاجتماعى للمجتمع الأمريكى . بعكس السوفييت الذين يتبنون المادية التاريخية : التى ترى فى الطبقات مقولة هامة وأساسية فى وصف الواقع الإجتماعى وتفسيره بقصد الوصول الى القوانين التى تحكم التطور الاجتماعى . ولمزيد من الإيضاح للفرق . يمكن القول أن العلم فى الولايات المتحدة ، أقرب الى علم النفس الإجتماعى ، هروبا من أوضاع معينة لو أدركها الباحثون السوسيولوجيون لهددوا مصالح الرأسماليين . وتتجلى تأثيرات الآيديولوجية فى العلم لو أخذنا تحديدا آخر لمجاله، عن المشتغلين بالعلم من الإسرائيليين فالباحثة الإسرائيلية ســرايا شابيرو Sraya Shapiro تحدد موضوع العلم بالفكر السياسى بتركيزها على أنه يهتم بدراسة النظريات المتغيرة للدولة (١) . وهذا التركيز على نظام الدولة فى اسرائيل يرجع الى ظروفها ، فهى ليست مجتمعاً تاريخياً بالمعنى المعترف به سوسيولوجيا . وانما دولة نشأت ، نشأة صناعية مفتعلة بناء على الايديولوجية الصهيونية التى خلقتها الأوضاع الإقتصادية الأوروبية ، والفكر الصهيونى والامبريالى الرأسمالى . وإذا عدنا ثانية إلى علم الاجتماع فى أمريكا باعتباره مثـــالا بليغاً على تأثر العلم بالإيديولوجية ، لوجدنا أن العلم منذ ولادته فى هذا المجتمع ، أتى تابعـــاً للفكر الرأسمالى والآيديولوجية الرأسمالية . فرواده الأول من أمثال « ليستر وارد » ، و « جيدنجز » ، و « ألبيون سمول » و « ريزلى » وغيرهم . جاء فكرهم السوسيولوجى ، بطريق أو بآخر ، إنعكاساً لمصالح أحاطت بهم ، وجاهدوا فى الحفاظ عليها وتأكيدها . فليستر وارد فى كتابه سوسيولوجيا السعـــادة

(I) M. Barron, op. cit, p. I0

Sociology of Happiness إعتبر السعادة فى النقود ، وفى الملــكية الخاصة . و « جيدنجز » الذى كان أول أستاذ لـكرسى الإجتماع بجامعة كولومبياسنة١٨٩٤ ذهب إلى أن الإستعمار أساس النمو . وأما « اليبون سمول » فقد كتب مقــالا فى سنة ١٩٢٥ بالمجلة الأمريكية لعلم الاجتماع جعل عنوانه «سوسيولوجيا الأرباح» أفرد صفحاته للدفاع عن الرأسمالية ، وأبدى تعاطفا واضحاً تجاهها ، وهذا بسبب سيطرة الرأسماليين على جامعة شيكاغو التى كان يعمل « سمول » بهــا . وبذل « إدوارد روس » فى كتابه « علم الاجتماع العام General Sociology جهــداً كبيراً لتبرير وجود الرأسمالية كنظام مثالى كفيل بتخليص المجتمع الأمريكى من المشكلات التى يعانى منها (١). هذا ولم تتخلف وظائف العلم المعاصر عن التخديم على الأيديولوجية السائدة ، فالعلم الآن لا يعــدو وسيلة من وسـائل الضبط الاجتماعى ، ودفع الانتاج إلى أقصى غاية بقصد تحقيق الربح المنشود للرأسماليين. فعلم الاجتماع ليس إلا سلعة يبيعها الباحثون للرأسماليين ، كى يزيدوا من الإنتاج ، ويحافظون على سيطرتهم الطبقية على العمال ، بحســاب إسهام العلم فى تزييف وعى الإنسان حتى لا يدرك حقيقة أوضاعه .(٢) . وهم بذلك لم ينسوا قولة أوجينت كونت الشهيرة « إنك تدرس لكى تضبط » والمقصــود هنا ضبط ما هو قائم والحفاظ عليه .

---

(1) Durky Smith, « Sociology and The Rise of Corporate Capitalism» in Science & Society, VoL. 29. No. 4. 1965, pp. 401 – 418 .

(2) N. Novikov, organizational Society; Social Mechanisms and Ideology, Novasti Press Agency Publishing Hause, Moscow, 1972 pp. 51 – 56.

٢ — بعض المفهومات المستخدمة فى العلم :ـ

مفهوم المجتمع : Society

تحوى المؤلفات الأمريكية محاولات كثيرة ، لتحديد مفهوم المجتمع ، باعتباره مفهوما أساسياً من المفهومات التى تساعد فى توضيح موضوع العلم والأرضية التى يتحرك عليها . فمثلا يعرف هذا المفهوم من وجهة النظر البنائية الوظيفية ، التى تمثل إتجاهاً أساسياً وبارزاً فى علم الاجتماع فى أمريكا، كمركب من الجماعات الاجتماعية Social groups ،التى تتفاعل سوياً من خلال علاقات إجتماعية قائمة بينها . وتتمثل وظيفة هذا المركب فى أنه يساعد الكائنات الإنسانية على القيام بنشاطات حياتها ، وإنجاز كل منها لرغباته الخاصة التى تتكامل وتترابط مع مصالح قرنائه [1] ويحتل عنصر الترابط والتساند بين العلاقات الاجتماعية بين مكونات المجتمع، مكانة بارزة فى الفكر الوظيفى، فكنجزلى دافز K. Davis فى تعريفه للمجتمع ، حرص على أن يؤكد أن المجتمع ظاهرة طبيعية ، تمثل مستوى من مستويات الترابط الاجتماعى الذى يتضمن نسقاً للتفاعل الاجتماعى[2] على أن الأمريكيين بصفة عامة ، والوظيفيين بصفة خاصة ، يبرزون فى محاولات تعريفهم للمجتمع عنصراً آخر يتمثل فى وجود قيم ومعتقدات ومصالح مشتركة كأساس من أسس قيام المجتمع . فهذا أرنولد جرين A. Green يشير إلى أن أى مجتمع بشرى يتألف من السكان والتنظيم الإجتماعى ، والزمان والمكان ،

---

(1) Haridas T. Muzumdar, The Grammar of Sociology-Man in Society, Asia publishing House, N.Y. 1966, p. 44

(2) K. Davis, Human Society, The Macmillan Company, N.Y. 1969. pp. 23&28.

والمصالح والأهداف والقيم المشتركة[1] .

وأما الباحث السوفيتى « أوسيبوف » فيعرف المجتمع بأنه نظام ثابت نسبيا من الإرتباطات والعلاقات الإجتماعية لمجموعات كبيرة من الناس تدعمه قوة القانون والعادة الجمعية والتقاليد .. الخ ، وهو قد تكون فى نمو تاريخى ، ويقوم على أسلوب إنتاج معين يظهر كرحلة فى النمو التقدمى للانسان [2] . وإذا كان الباحثون السوسيولوجيون السوفييت لايحرصون كثيراً على تضمين مفهوم « المجتمع » بين مفهوماتهم ، لأنهم يستخدمون بدلا منه مفهوم التكوين الإجتماعى الإقتصادى Socio Economic Formation الذى يعنى نموذجا تاريخياً للمجتمع ، يقوم على أسلوب محدد للانتاج ، ويظهر كرحلة فى التطور التقدمى للانسانية إبتداء من المشاعية البدائية وحتى الشيوعية .[3] ، فإن الأمر المتفق عليه فى أى محاولة لتوضيح مفهوم المجتمع ، فى الفكر السوفيتى ؛ تحرص على وضع البعد التاريخى ؛ وأسلوب الإنتاج ؛ فى الإعتبار ؛ بالإضافة إلى التمييز بين الأساس والبناء الفوقى للمجتمع ؛ وذلك لأنهم يلبنون ـ مهما إختلفت درجة التبنى ـ المادية التاريخية.ويمكن لنا توضيح ذلك من وضع أيدينا على تحليل ف . كيل V. Kell وكوفالزون M. Kovalson لمفهوم المجتمع فى ضوء المادية التاريخية . فالمجتمع نسق إجتماعى له وجود وتطور موضوعى ؛ وله خصائصه المميزة التى لا تعزله عن الطبيعة من جانب وتميزه عنها من جانب آخر ، وذلك

---

(1) Arnold Green, Sociology, McGraw-Hill Book Company Inc., N.y. 1960, p. 31

(٢) أوسيبوف ، المرجع المذكور ، ص ١٦٤

(3) M. Rosenthal &p. Yudin, op. cit, p. 941

لأن للمجتمع موضوعه ومادته الخـــاصة به . ومن هنا وجب على علم الاجتماع العلمى ألا يدرس المجتمـع فقط باعتباره نسقاً من العلاقات الإجتماعية وبإعتبار الانسان عنصراً فقط داخل النسق الإجتماعى ، وإنما على هــــذا العلم أن يدرس موضوع كل هذه العلاقات وجوهرها ،أى علاقة المجتمع بالبيئة الطبيعية، وعلاقة مكونات المجتمع ببعضها ، بل والعلاقة بين المجتمعات الإنسانية (١) .

• • البناء الاجتماعى : S. Structure

يذكر ماريون ليفى M. Levy أحد الوظيفيين المعاصرين ؛ أن مفهوم البناء كثيراً ما يستخدم كرادف لمفهوم النمط Pattern ؛ أو لمفهوم البناء الميسر enstructure ؛الذى يغطى مجالا أ كبر من الممكنات إبتداء من الأشكال الثابتة والأكثر ثباتاً إلى تلك التى تكون سريعة الزوال. وهو يعنى فى معناه العام نمط من العلاقات المتداخله بين أجزائه أو مكوناته (٢) وأما تالكوت بارسونز T. Parsons عميد الوظيفيين المعاصرين فيكاد يختزل البنـــاء الاجتماعى قاصراً إياه على العلاقات الاجتماعية بين أجـــزائه ، بالاضافة إلى الأدوار الاجتماعية المتباينة، والكيفية التى توزع بهـا داخل النسق الاجتماعى ، وكيفية تكامل هـذه

---

(1) V. Kell: & M. Kovalson, Historical Materialism – An outline of Marxist Theory of Society, Progress Publishers, Moscow 1973; pp: 33–34

(2) Marion Levy. « Structural Functional Analysis » in International Encyclopidia of the Social Science ed. by D. Shills The Free Press: N.Y. 1968 Vol. 6 P.P. 21–29

الأدوار الإجتماعيه ، بغية القيام بالوظائف التى يتطلبها النسق الاجتماعى [1] .
والذى تجدر الاشارة إليه فى هذا المفهوم ، هو إهتمام الوظيفيين بعناصر وأبعاد أساسية فى تحديدهم لمعنى البناء ، خاصة الثبات ، والتوازن ، والتكامل ، وهى عناصر مستمرة وقائمة فى المفهومات الوظيفية ، وقد لوحظت عند تحديد معنى المجتمع .

وأما فى الفكر السوفيتى ، الذى يعد المادية التاريخية موجهاً ومرشداً له ، فيعرف باحثوه بناء المجتمع من خلال علاقات الإنتاج ، التى ينطبق عليها المحك العلمى للتكرار .وبناء المجتمع من هذه الوجهة من النظر وحدة لا تنفصم بين جانبى العلاقات الاجتماعية ـ المادية والأيديولوجية . [2] وإذا كان السوفيت لا يفضلون إستخدام البناء الاجتماعى ، فإنهم يفضلون إستخدام مفهومى الأساس والبناء الفوقى Basis and superstructures . الذى يعنى المفهوم الأول منها حصيلة علاقات الانتاج التى تقيم البناء الإقتصادى للمجتمع . فى حين أن الثانى يعنى التنظيمات والنظم والأفكار .والمفهومان معاً يوضحان الإرتباط القائم بين العلاقات الاجتماعية الاقتصادية وغيرها من علاقات قائمة داخل أى مجتمع من المجتمعات البشرية .

... الثقافة Culture : ـ

يحظى مفهوم الثقافة باهتمام واسع بين الأوساط السوسيولوجية الغربية ،

(1) T. Parsons. The Social system. tavistack Publications L.Td., 1952, pp. 2b and 114.

(٢) أوسيوف : المرجع المذكور ص ١٢٣
* أنظر الفصل الأول من الكتاب الراهن .

والأمريكية منها بصفة خاصة . ويكاد يبلور لنا هذا الإهتمام ماذكره « كينجزلى دافيز » عندما أشار إلى أنه لو أن هناك عاملا وحيداً لتفسير تفرد الإنسان، فهذا العامل ، يتمثل فى ثقافته . فذكاء الإنسان وحديثه وكلامه ، تحكمه الثقافة ، التى تجسد كل طرق التفكير والسلوك وأساليبها ، من خلال التفاعل والاتصال . والثقافة لا تكسب الإنسان تفرده فقط ، بل هى أيضا التى تكسب مجتمعه تفرده وتميزه ، وكل العلوم التى تسمى علوماً إنسانية ، هى بمعنى أو بآخر علوم الثقافة(١). ويحدد « أرنولد جرين » أحد المشتغلين بعلم الإجتماع من الأمريكيين الثقافة باعتبارها نسقاً إجتماعياً يتميز بخاصية الانتقال ، ويتألف من الأساليب والطرائق المثالية فى المعارف ، والممارسات ، والمعتقدات (٢) .

ويحاول القاموس الفلسفى السوفيتى الذى أعده « روزنثال » و « وادين » تعريف الثقافة بإشارته إلى أنها عبارة عن كل القيم المادية والروحية ، ووسائل خلقها وإستغلالها ، وإقرارها ، التى يخلقها المجتمع فى مسار التاريخ . والثقافة من المنظور المادى التاريخى ظاهرة تاريخية يتحدد تطورها بتوالى التكوينات الاجتماعية الاقتصادية وتعاقبها. وعلى خلاف النظريات المثالية التى تنكر الأساس المادى للثقافة ، معتبرة إياها - الثقافة - نتاج عمل الصفوة Elite ، ترى المادية التاريخية إنتاج السلع والقيم المادية ، أساساً ومصدراً للثقافة الروحية وبذلك فهى نتاج نشاط الجماهير .ومع أن هذه الثقافة الروحية تتحدد بالظروف المادية، فإنها لا تقتضى أثر التغيرات فى الثقافة المادية بطريقة أوتوماتيكية ، لأن لها إستقلالها النسبى (٣). ويسير « أوسيبوف » فى نفس الإتجاه عندما أشار إلى أن

(1) Kingsley Davis, op.cit, pp. 3-4

(2) Arnold Green, op.cit, p. 75.

(3) M. Rosenthal & p. Yudin (eds) op.cit, pp. 106-107.

الثقافة جماع القيم المادية والروحية التى يخلقها الانسان فى مجرى النمو الاجتماعى التاريخى . وهى تصور مستوى التقدم التكنيكى والانتاج والتعليم والعلم والأدب والفن الذى وصل إليه المجتمع فى مرحلة معينة من النمو الاجتماعى (١) ويعلق كيل وكوفالزون على هـذا المفهوم بإشارتها إلى أن الثقافة ليست شيئاً متميزاً عن الظاهرات الاجتماعية الأخرى ، كما أنها تحوى قدراً من التمييز عن هذه الظاهرات . بمعنى أن مفهوم الثقافة مفهوم مركب يشير إلى كل الانجازات المادية للنشاط الانسانى ، بجانب إشارته إلى الانجـازات الاجتماعية والروحية التى تحددها الانجازات المادية ، التى يمكن تصورها من وجهة نظر الكيفية التى يعبر بها الانسان عن هـذه الانجازات من خلال حياته وطرائقه فى التفكير والتصرف والسلوك(٢).

الجماعة الاجتماعية : Social group

يذكر بروم وسليزنيك ،فى كتابهما « علم الاجتمـاع » أن إصطلاح الجماعة يستخدم فى مدلوله العام للاشارة الى جمع من الاشخاص ، يرتبطون سويا ، بنوع متميز من العلاقات الاجتماعية التى تستند على التشابه فى الدخل أو العمـر أو طريقة الحياة ، أو ادراك وضعهم الاجتماعى فى المجتمع ، أو بعبارة أخرى يكون الناس جماعات على أساس وعيهم (٣) . ويحافظ « أرنولد جرين » على الخط العام فى المعنى السابق عندما نظر للجماعة بإعتبارها تجمعاً من الافراد ، له صفة

---

(١) أوسيبوف ، المرجع المذكور ، ص ١٣٦ .

(2) Kell & Kovalson, op cit, p. 132.

(3) Leonar Broom & Philip Selznick, op.cit, p: 31

الاستمرار، وله مصالح وأنشطة مشتركة منظمة، وإجراءات رسمية وغير رسمية، ومكانات تضبط العلاقات الاجتماعية وتنظمها (١) .

ويعرف « أوسيبوف » السوفيتي ، الجماعة الاجتماعية بأنها مجموعة من الناس تربطها مجموعة من الاهداف والمصالح والجهد المشترك من أجل تحقيقها ، وهي عنصر في البناء الاجتماعي لنظام محدد من العلاقات الاجتماعية (٢) . وهذا التعريف ، يحتفظ بعنصر جوهري أساسي، وهو العلاقات الاجتماعية التي تتحدد بأسلوب معين للانتاج ، وهو عنصر لم يتخلف عن الحضور في كل تحديد المفهومات من وجهة النظر السوفيتية .

هذه هي بعض أمثلة لتحديد معاني بعض المفهومات المستخدمة في علم الإجتماع في كل من الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي الإتحاد السوفيتي . والتي تبرز لنا وبوضوح ، وجود نقاط إرتكاز ومحاور متباينة بين كل محاولة من المحاولتين السابقتين . فالمفهومات الأمريكية ، تركز في معظمها ، إن لم تكن جميعها ، على الإشتراك ، والتكامل ، ودور الوعي في ضبط السلوك ، بل وضبط الواقع الإجتماعي ، في حين أن المفهومات السوفيتية ، تضع في حسبانها ، بعد التاريخ ومساره ، وتطور المجتمع وإنتقاله من تكوين إجتماعي إقتصادي إلى آخر ، وتضع في حسبانها أيضا أسلوب الإنتاج السائد باعتباره محوراً هاماً لتفسير كثير من الظاهرات الإجتماعية ، بما فيها الوعي الإجتماعي .

فمحور التفسير في البنائية الوظيفية ، الثقافة ، وعناصرها المشتركة ، أو بجملة عنصره الوعي وإنعكاساته على الواقع . في حين أنه في المادية التاريخية،

---

(1) A. Green, op. cit, p.43

(٢) أوسيبوف ، مرجع مذكور ، ص ٢٥

اسلوب الإنتاج ، فى مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع ، أو بجملة مختصرة الوجود الإجتماعى . والسؤال الآن ، لماذا هذا الإختلاف ؟ إنه يرجع إلى نوع التوجيه النظرى ، الذى يعكس بين ما يعكس الظروف الأيديولوجية التى تحيط بالباحثين سواء فى المجتمع الأمريكى أو السوفيتى .

ثالثا : علم الاجتماع فى امريكا والاتحاد السوفيتى – وجهتان نظر متقابلتان :–

يتركز هدف هذه الفقرة فى محاولة عرض وجهة نظر الباحثين السوسيولوجيين فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى الإتحاد السوفيتى ، كل منها فى عمل الآخر ، حتى نلقى مزيدا من الضوء على إنعكاسات الإيديولوجية على العلم ومجالاته ، من خلال مقابلة الإيديولوجيتين الأساسيتين فى العالم ببعضها .

١ – وجهة النظر الامريكية فى علم الاجتماع السوفيتى :–

فى دراسة الباحث السوسيولوجى الأمريكى جورج فيشر G. Fischer حلل فيها الأعمال السوسيولوجية السوفيتية المتداولة فى ضوء سوسيولوجيا المعرفة وصنف هذه الأعمال إلى أقسام ثلاثة: يهتم الاول بتدعيم البحوث الكمية التى يرى « فيشر » أنها مازالت محدودة ، سواء فى طريقتها أو فى مضمونها . ويهتم الثانى بانتقاد علم الاجتماع الغربى . ويهتم الثالث بالتعامل مع الانساق الفكرية التى توجه حاضر المجتمع نحو مستقبله . وبعد عرضه لكل إتجاه من هذه الاتجاهات وصل « فيشر » إلى أن ثمة إتجاهين يسيطران على علم الاجتماع السوفيتى : يتعلق الأول بوجود إتجاه توجيهى وترشيدى نحو المستقبل ، وأما الثانى فيتعلق بالبحوث السوسيولوجية الواقعية الراهنة ، أو المتعلقة بالمشكلات المعاصرة . ويضيف الباحث إلى أننا إذا وضعنا أمام أعيننا نوع المعرفة التى يظهرها هذان الإتجاهان

فإن مانصل إليه ، هو أن كليها ينتمي إلى نوع من المعرفة الأيديولوجية . وينطبق هذا على الباحثين السوفيت . سواء كانوا يقومون ببحوث سوسيولوجية كمية حول مشكلات منتقاه ، أو كانوا يضعون أمامهم شواهد عشوائية تحركها الحياة اليومية نحو المستقبل المثالي المنشود . وهذا يعني أنه إذا كانت النظرية الاجتماعية تتأثر بالأيديولوجية ، فلا شك أن مثل هذا ينعكس على الأسس المنهجيـة . على أن هناك نقطة التقاء بين الباحثين السوفيت ، ورجال الدولة ، في وجهه النظـــر الايديولوجية حول الكيفية التي ينبغي أن تحلل بها المجتمعات وتدرس . وفي داخل إتجاه الدراسات الخاصة بمستقبل المجتمع السوفيتي ، نجد الاطار الموجه لما هو مستقبل المجتمع وليس حاضره ، على إعتبار أن الحاضر ، كتبرير أيديولوجي ، ليس إلا محطة تفضي إلى المستقبل المثالي للمجتمع . وفي هذا إغفال للطبيعة الكليـة للبناء الإجتماعي السوفيتي في الوقت الراهن . وهذا يثير في الذهن بعض الأسئلة حول إمكانية تحرك الباحثين السوفييت من المسوح الوصفية المحدودة إلى تلك التي تهتم بالتحليل السببي ، وحول قدرتهم على التحول من دراسة الاستجابات الفردية إلى البيئة الاجتماعية ، وإلى التحليل البنائي ويجيب « فيشر » إلى أن الاجابة على مثل هذه الاسئله ذات صفة سياسية . ففي أوروبا الشرقية تقدم دول اشتراكية كثيرة التصديق الشرعي ، الصادر عن السلطة للموضوعات التي يختارها الباحثون السوسيولوجيون (١) والنتيجة الأساسية التي وصل اليها الباحث والتي تهم موضوعنا ، أن علم الاجتماع السوفيتي ، يتأثر بالأيديولوجية الرسمية المفروضة

(1) George Fischer, «Current Sovit warks in Sociology: A note in the Sociology of Knowledge» in Paul Hollander (ed) American And Sovit Society—A Reader in Comparative Sociology and Perception, Prentic-Hall, Inc. N. Jersey, 1969, pp. 537-547.

السوفيتية بطريقة مباشرة حتى أن الآراء الأساسية فى العلم يعلم بها الحزب قبل جواز نشرها .

٢ - وجهة النظر السوفيتية فى علم الاجتماع الامريكى :-

يرى الباحثان السوفيتيـــان « كونستانتينوف وكيل » أن علمـــاء الاجتماع البورجوازيون فى الولايات المتحدة الأمريكية يقسمون العلم إلى عدة عـــلوم إجتماع وليس علما واحدا . وأن هـذه العلوم تختلف فيما بينها إختلافا بينـــا . ويعتمد الباحثون فى تقسيماتهم هذه على موضوع البحث الذى يدرسوه : كالعمـل والأسرة والقانون والطب والفن والجريمة والبناء والمدينة والقرية .. الخ وهذه الدست من العلم ، تتصور الجوانب والأبعاد المختلفة للحياة الإجتماعية وظاهراتها تصورا خارج السياق الكلى للبناء الاجتماعى ، وذلك لأن الباحثين السوسيولوجيين البورجوازيين لا يملكون نظرية سوسيولوجية واحدة متجانسة . فهم يجمعون أكواما هائلة من البيانات المتنوعة التى تكون فى بعض الأحيان قيمة ، وفى معظم الأحيان غير ضرورية ، بل وغير سليمة . على أن الشيء الرئيسى فى كل الإحوال هو أن تلك البيانات لا تصلح أساساً لفهم الجوهر الاجتماعى للظاهرات والعمليات المدروسة ، لأن العلم الاجتماعى البورجوازى ، لا يهتم بذلك ، ولا يحدق طالب نظرية علمية ومنهج علمى ، لتعميم ذلك الحشد من البيانات[1] . ويشير الباحث السوفيتى « أوسيبوف » إلى « أن علم الاجتماع الغربى علم « ملتزم » فى خدمة الاحتكارات ... إن معظم علماء الاجتماع الغربيين بما فى ذلك البارزون منهم من أمثال كونينج R, Konig ولازرسفيلد P. Lazarsfeld وروبرت ميرتون R. Merton وتالكوت بارسونز T. Parsons يعتبرون أنفسهم علماء أكاديميين، يجرون بحثا

(I) F. Konstantinov & V. Kell. op.cit. Locit.

تجريبيا ونظريا ، فى خدمة العلم الخالص الذى لا صلة له بالسياسة،وسواء اعترفوا أو لم يعترفوا بالصلة بين بحوثهم وبين السياسة ، إلا أن عملهم يخدم فى نهاية الامر مصالح المجموعات الاجتماعية الحاكمة فى المجتمع الرأسمالى (١) .

مما سبق يتضح أن كل إتجاه — الأمريكى والسوفيتى — يتهم الآخر بأنه فى خدمة السياسة السائدة والايديولوجية القائمة حول الباحثين فى كل مجتمع من المجتمعين الامريكى والسوفيتى . وأيا كانت وجهة الاتهام ووجهته ، فهى لا تخلو من تدليل على الارتباط بين الايديولوجية والعلم ، وتأثيرها فى مساراته ، واتجاهات التنظير فيه ، والبحوث التى تمت من خلاله .

وكخاتمة للفصل الراهن يمكن لنا الوصول الى عدد من النتائج الهامة التى تتعلق بوضع العلم ، ووظيفته ، وما تثار داخله من مفهومات ، وقضايا وتساؤلات. وأهم هذه النتائج:—

أولا : أن ليس هناك عدم إتفاق على موضوع علم الاجتماع ومجاله .

ثانيا : أن هنالا أكثر من اتجاه داخل علم الإجتماع ، يمكن تسمية كل منها بنوع التوجيه النظرى ، كأن تقول الاتجاه المادى التاريخى ، والاتجاه البنائى الوظيفى . وغير ذلك من اتجاهات .

ثالثا : أن محاولات التنظير فى العلم،أتت انعكاساللمسرح الاجتماعى والسياسى الذى أحاط بالمفكر أو المنظر ، وتمثل هذا الانعكاس فى تحديد وظيفة العلم ومجاله ومهمته ، وأن من أدرك منهم ، واقعا أكثر رحابة من واقع مجتمعه المحدد ، أدرك وظيفة العلم على نحو آخر كما يفصح ذلك عن نفسه فى كتابات « ماركس » .

---

(١) ج . أوسيبوف ، المرجع المذكور ، ص ٦٤

رابعا : أن علم الاجتماع يتأثر بنوع الفكر الايديولوجي السائد ، ولا ينفي هذا أن للعلم ونظرياته تأثير في الايديولوجيات السائدة ، بإكسابها معاني ، ومضامين أكثر علمية .

خامسا : وهنالا نتيجة لا تخلو من أهمية ، وهي أنه إذا كان كل مفكر ، أو منظر ، قد إلتزم بصورة أو بأخرى ، بقضايا معينة في مجتمعه ، فإن هذا يلقي على الباحثين في كل مجتمع ، خاصة مجتمعات العالم الثالث ، مهمة البحث الجاد عن دور علم الإجتماع في مجتمعاتهم ، ووظيفته ، ونوع التوجيه النظري المطلوب .

سادسا : أن عدم الإتفاق يعزى في جانب منه ، إلى عدم صوغ مشكلة العلم ، صوغاً صحيحاً ، يوازن بين الحاجات المجتمعية ، والمتطلبات العلمية والمنهجية .

سابعا : أن العلم نشأ في أحضان الأيديولوجية ، ولا يزال ، يتمتع بصورة أو بأخرى برعايتها ، ومن ثم الإلتزام بخدمتها .

ثامنا : أنه إذا كانت الغاية التبريرية قد ظلت ملازمة للعلم ، ومضامين نظرياته ، فإن الذي يتغير دوما كما أشار « روبرت نيسبت » هو الإتجـــاه المنهجي ، والمعرفة المنهجية .

الاتجاه المنهجي والمعرفة المنهجية .

تاسعا : أن تباين توجهات النظر في علم الاجتماع وداخله ، لا ينفي لحد ما صفة العلم ، والحقيقة العالمية ، لأن كل اتجاه ، ولو اقتصر على مجتمع بعينه ، يتكامل في النهاية لفهم الإنساني للمجتمع الإنساني ، ويثري خبرة الباحثين ، ويحيطهم بتجارب ونوعيات كثيرة .

عاشرا : أن الإلتزام بأيديولوجية معينة ، وقيمها المعينة ، لا يضر بالعلم ،

وهدفه ، مادام الباحث مدركا للمصلحة العامة للجماهير ، ومراعيـــا الظروف الإجتماعية للوجود الإجتماعى ، ومتمسكا بالمنهج العلمى فى تنـاول الظـــاهرات الإجتماعية ، سواء فى وضعها ، أو التحدث عنها ، بلغة العلم ، ومفهوماته .

حادى عشر : أن من المسـائل التى تكسب علم الاجـــتماع صفتـه العلميـة ، تناوله للوجود الإجتماعى ، فى ضوء تجسداته الموضوعية العيانية ، دون إغراق فى غيبيات ، وأبعاد غير مرئية ، تستعص على الدراسة والقياس العلمى ، وتقف بالعلم عند حدود وعيه الواقف بالقضايا والمشكلات الإجتماعية . كما هو الحال فى مفهومات الشعور والوظيفة الكامنة وما إلى ذلك .

الفصل الثاني

علم الاجتماع والعلوم الإنسانية

مقــدمة

١ ــ وجهة النظر الامريكية

٢ ــ وجهة النظر السوفيتية

مقدمة

ما زال سؤال العلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الإنسانية الأخـــرى ، يمثل مكانة واضحة فى كثير من كتب ، العلم ، خاصة ، المداخل ، أو المقدمات إليه . وقد يثير مثل هـــذا السؤال دهشة الكثيرين ، خاصة أولئك الذين ينتمون إلى تخصصات إجتماعية وإنسانية أخرى . لكن هـذه الدهشة ربما تزول ، لو أدرك هؤلاء ظروف العلم ، خاصة تلك التى تتعلق بنشأته وتطوره وما إرتبط بهما من مؤثرات . فقد تبين لنا فى الفصـــل السابق كيف إرتبط كل رائد من الرواد بما أحاطت به من ظروف ، الأمر الذى جعل كل منهم يرى موضوع العلم ، وهدفه ، ووظيفته على نحو مغاير لما يراه الآخـــرون . ولم يكن هذا ، موقف الرواد وحدهم ، بل جاء أيضاً موقف الأجيال التى لحقت بهم ، مشابهاً لهم ... فروبرت ميرتون ، أحـــد علماء الاجتماع الأمريكين البارزين يشير إلى أنه يوجد فى الولايات المتحدة خمسة آلاف عالم اجتماع ، وأن لكل منهم ، علم الاجتماع الخاص به » . وأعلن الباحث السوسيولوجى الأمريكى س . هيوج C. Hughes فى المؤتمر الدولى الخامس لعلم الاجتماع ، أنه لا يوجد علم اجتماع واحد ، بل هناك علم اجتماع أمريكى ، وآخر سوفيتى ، ويوغسلافى وصينى ، وغير ذلك[1] ، وهذا يعنى مبدئيا أن ليس هناك إتفاقاً على موضوع العلم . وبعبارة أخرى يرتبط سؤال العلاقة بين العلم وأشقائه من العـــلوم الأخرى التى تدرس الإنسان والمجتمع ، بتحديد موضوع العلم نفسه ، وتحديد موضوعات هذه العلوم الأخرى ، الأمر الذى يقف بنا إلى أكثر من وجهه نظر ، وأكثر من إتجاه لتحديد موضوع العلم

---

(١) ج . أوشيبوف ، قضايا علم الاجتماع ، مصدر سابق ، ص ٦٤

وبالتالى علاقته بالعلوم الأخرى. هذا من جانب ، وأن هناك ظروفاً أخرى ، أثرت بطريق أو بآخــــر فى تحديد علاقة العلم بغيره ، أبرزها مكانة العلم ، والاعتراف به ، والإقتناع بدوره ، من جانب آخر . فلم يكن العلم ، يدرس مثلا ، ولوقت قريب ، على نطاق واسع فى الجامعات البريطانية [1] وإذا كان العلم يلقى الآن إهتماماً ، أدى إلى نموه ، إلا أنه ليس نمواً كبيراً ، على نطاق واسع . فلا يزال البعض يتخوفون من فحص المجتمعات ودراستها ، خشية أن تسلط الأضواء ، على أشياء ، من الأحسن أن تظـــل خارج دائرة الضوء . ولايخلو الأمر من النظر إلى العلم، على أنه يعلم الطلاب والدراسين كيف يكونوا راديكاليين ، أو على أقل تقدير ، نقاداً لمجتمعاتهم . ومن هنا كان إعتقاد البعض فى المجتمعات الرأسمالية بأن العلم نوع من الترادف الأكاديمى للاشتراكية ، فى الوقت الذى عد فيه البعض فى البلدان الإشتراكية ،العلم ، نوعاً من الأيديولوجية البورجوازية[2] . وتلك نقطة أثرت فى نمو العلم، وتطوره ، ومكانته الرسمية. وبجانب مسألة تأثير الأيديولوجية فى العلم ـ وأيضا مكانته ، توجد مسألة موضوع المشكلة الخاصة بموضوع العلم ، الذى تراوح جهد الباحثين فيها ، بين التوسيع الشديد ،وأيضاً التضييق الشديد. فقد أشار رئيس الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع، فى إجتماعها السابع والخمسين الذى عقـــد فى سنة ١٩٦٢ ، إنك أينما واجهت إتصالا بين الإنسان وبيئته ،فإنك تواجه مظهراً أو جانبا من المظاهر أو الجوانب التى تقع فى نطاق عمل علم الاجتماع [3] وهذا يعنى مقابلة علم الاجتماع بالعلوم

---

(1) Stephen Cotgrove, The science of society, op cit, p. II

(2) Peter Worsley, et. al., Introducing Sociology, Penguin Books, London, 1972., pp. 19 – 20

(3) M. Barron, op. cit. ; loc. cit.

الاجتماعية كلها ، الأمر الذى يضعف من دوره ، ومن أدوار هذه العلوم . وإذا كان توسيع نطاق العلم لا يخلو من خطأ ومخاطرة ، فنفس الأمر ينطبق على حصر نطاقه وتضييقه، وقصره على دراسة ظاهرة الدولة مثلا كما فى بعض إتجاهات العلم فى إسرائيل ، كما سبق وأشرنا .

وجهة النظر الأمريكية :

سبق وأشرنا أن ثمة علاقة بين تحديد موضوع العلم ، وتحديد علاقته بغيره من العلوم الإنسانية . وتتبع الميل الأمريكى فى هذا الصدد يجلى لنا حقيقة لا تخلو من أهمية وهى أن جهود الباحثين فى هذا المجتمع إنكبت على تطوير العلم أكثر من إهتمامها بمناقشة ما الذى يجب أن يكون عليه العلم . كما يمكن الزعم بأن الإتجاه الأمريكى يذهب إلى تفضيل البحث التطبيقى على النظرية ، والفعل action على التأمل الفكرى [1] . ويفيد هذا فى توضيح أساس تصنيف العلوم الإنسانية بما فى ذلك علم الاجتماع . فما دام الجهد مركز على الفعل ، فلا شك أن التصنيف سوف يرتبط به ، بصورة أو بأخرى. ولنوضح أولا أسلوب توضيح العلاقة بين هذه العلوم ، ثم نحاول تحليلها :

يشير « ميلتون بارون » فى كتابة علم الاجتماع المعاصر [2] ، إلى أن علم الاجتماع اليوم لم يعد مرادفاً للعلوم الاجتماعية فى جملتها ، لأنه فقط واحداً منها . كما يجب عليه ألا يتضارب مع أى علم إنسانى آخر . وعموماً تتركز مهمة العلم فى الجهد فى طلب معرفة علمية حول أنماط التفاعل الإجتماعى Social

(1) Adolph S. Thomass ; op.cit, p. 501.

(2) M. Barrón, op. cit, pp. 1 – 4.

interaction ، وتأثير الأنساق الإجتماعية Social Systems على الإستجابات العقلية والإنفعالية والسلوكية للكائنات البشرية . وهو فى هذا يختلف عن علم النفس مثلا فى جانبين على الأقل :ـ

أولا : فإذا كان علم النفس يهتم بأنماط السلوك الفردى للانسان والحيوان ؛ فإن بؤرة إهتمام علم الاجتماع ؛ تركز على أنماط السلوك الإنسانى والجماعى . فالناس من منظور علم الاجتماع يميلون إلى سلك طريق متوقع منهم أن يسلكوه إجتماعيا . وبعبارة أخرى ؛ فإن أى دراسة للكائنات الانسانية من وجهة نظر علم الاجتماع ، ترتكز على إفتراض مؤداه « أن المجتمع شىء أكبر من مجموع الأفراد الذين يؤلفونه » .

ثانيا : إذا كانت بؤرة إهتمام علم الاجتماع لا تتعدى نطاق الانسان ومجتمعه ، فإن علم النفس ، يهتم بالسلوك الحيوانى وسيكولوجيا الحيوان animal Psychology ، وهناك أحد فروع الأنثروبولوجيا ، يسمى الأنثروبولوجية الفيزيقية Physical Anthropology التى تنضوى تحت لواء العلوم الحيوية . ويضيف « بارون » أنه إذا كانت الوحدة الاجتماعية Social unit هى المتغير المستقل ، والتفكير الانسانى ، هو المتغير المعتمد أو التابع ، فالأمر يختلف فى بعض العلوم الأخرى كعلم النفس الفردى مثلا . ويهتم الباحثون السوسيولوجيون أيضاً بأبعاد قد تكون مشتركة أو غير مشتركة مع العلوم الاجتماعية الأخرى ، خاصة العلوم السلوكية العامة ، كالأنثروبولوجيا أو علم النفس . إلا أنه مع بعض الاستثناءات يركز علم الاجتماع على طبيعة البناءات الاجتماعية Social Structures وتأثيراتها على السلوك الانسانى فى الجماعة أو المجتمع . فالسوسيولوجيون الأمريكيون ركزوا إهتماماتهم فى المجتمع الامريكى ، ثم

طوروا ما يسمى بعلم الاجتماع الأمريكى ، وبنفس الطريقة تطور علم النفس باستخدام للملاحظات والبيانات التى جمعها السيكلوجيون حول السلوك الفردى فى مجتمعاتهم . وأما الأنثروبولوجيون فقد ساروا فى إتجاه آخر ، حيث ذهبوا إلى خارج مجتمعاتهم مفضلين المجتمعات البدائية . والشىء العام هنا هو أن علم الاجتماع والأنثروبولوجى وعلم النفس ، علوم تعميمية . لأن علم الاجتماع لا يهتم بالوقائع الفردية الفريدة المحددة ، إلا بالقدر الذى تسهم فيه فى صوغ تعميمات حول الناس والأنماط المتكررة والمطردة للسلوك، والتنظيم الاجتماعى.

وأما عن علاقة علم الإجتماع ببعض الفروع المعرفية الأخرى ، كالخدمة الإجتماعية Social wark والطب النفسى العقلى Psychiatry فهذه الفروع ليست علوماً وإنما نظم فكرية مساعدة ، تطبق نتائج العلوم الاجتماعية الأخرى فى حل مشكلات الإنسان الإجتماعية .

ويذهب « بروم وسلزنيك » وهما أيضا أمريكيان فى تحديدهما لعلاقة علم الاجتماع بالعلوم الإنسانية الأخرى ، إلى أنه ـ أى علم الاجتماع ـ يشارك هذه العلوم ، وبخاصة الأنثروبولوجيا والإقتصاد والسياسة وعلم النفس الإجتماعى ، مهمة كشف السلوك الإنسانى وإستقصائه ، وما تصدر عنه من مظاهر . وبالرغم من عدم وجود خطوط فاصلة ، كما يجب ألا تحدث هذه الخطوط بين هذه العلوم ، نظراً لحاجة كل منها إلى العلوم الأخرى ، وبرغم هذا فهناك فروق هامة بين بعضها والبعض الآخر .

فعلم النفس الاجتماعى يهتم ، بصفة عامة ، بما هنالك من إرتباط بين خبرة الجماعة : وسيكلوجية الفرد ، وهذا يمثل مجالا يسهم فيه كل من علم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعى . فالباحثون فى علم النفس الاجتماعى فى محاولاتهم ، لفهم

السلوك الفـــردى ، والشخصية ، يدركون الحاجة إلى معرفة تأثير العلاقات بين الأشخاص ، والعضوية فى الجماعات الاجتماعية ، الأمر الذى يتطلب منهم دراسة الأدوار الإجتماعيـة Social Roles ، وتجسدات الشخصية من خـلال التفـاعل الاجتماعى ، وتحليـل الاتجاهـات attitudes ، ودراسة الجمـــاعات الصغـيرة small groups ، وبجملة عامة يكون التركيز فى علم النفس الاجتماعى على التأثير المباشر للجماعة على الشخص .

وأما إذا وقفنا أمام الأنثروبولوجيا ، فنجـــد أنها جزئيا ، علم بيولوجى ، وجزئيا ، علم إجتماعى . فالأنثروبولوجيا الفيزيقية تهتم بالأصـول البيولوجيـة الحيوية للانسان ، وتباين الكائنات البشرية وتغايرها، بما فى ذلك دراسة السلالات والأجناس. وأما إذا نظرنا إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، والثقافية ،فنجدهما تسهمان فى تحليل المجتمع تحليلا مقارنا . من خلال إظهار طرق الحياة وأساليبها ، خاصة السائدة فى المجتمعات البدائيـة . وتجدر الاشارة إلى أن عـــلم الاجتماع ، والأنثروبولوجيا ، إزداد قرباً فى السنوات الأخـيرة ، خاصة بعد أن بـدأت الانثروبولوجيـا تهتم بالمجتمعات الحـديثة والمعاصر . على أن الاهتمام الرئيسى فى تحليل الثقافات ، مازال قائما،ومستمراً،كملمح أساسى فى التفسير الانثروبولوجى.

وإذا كان الإقتصاديون يهتمون بظاهـــرات السعر ، والاستثمار ، والتكلفة والعرض والطلب ، من خلال صوغ إفتراضات حول الأهـداف التى يود الناس تحقيقها فى حياتهم الإقتصادية ، فإن هؤلاء الباحثين ، يفيـدون من دراسات علم الاجتماع ،نظراً لإرتباط النظام الاقتصادى بقوى غير إقتصادية ، كالحـكومة ، والرأى العام ، والأسرة .

ونفس الحاجة نجدها لدى الباحثون فى الظاهرات السياسية ، فهم وإن كانوا

يركزون إهتمامهم فى ظاهرة الحكومة والإدارة ، والقرار السياسى ، فهم فى حاجة إلى فهم العوامل المؤثرة فى الظاهرات التى يدرسونها ، كالأسرة والتعليم والقيم والثقافة . . وما إلى ذلك من ظاهرات تدخل نطاق عمل علم الاجتماع (١)

ونظراً لتداخل العلاقات ، وتداخل الموضوعات بين علم الإجتماع والعلوم الإنسانية الأخرى ، يطرح سؤال ، مؤداه ، ما الذى يفرق ، علمنا أو يميزه عن غيره ؟ . لقد حاول « أدولف تومارس » تقويم إجابة على هذا السؤال ، وجد أنها تأتى من تطور العلم ، وتاريخ نشأته . فقد تطور العلم تطوراً إرتبط بهدفه ، من خلال تطوير النظرية السوسيولوجية ، بإعتبارها صياغة منظمة للعلم . وفى هذا الصدد بدأ العلم بمعرفة أنه من الضرورى القيام بدراسات موضوعية للمجال الاجتماعى Social Realm ، بل محاولة جعله مناظراً لمجال العلوم الطبيعية . وكانت هذه البداية متمثلة فى التسمية الكونتية ـ نسبة إلى أوجيست كونت ـ لعلم الاجتماع باعتباره علماً للفيزياء الاجتماعية . ومن هنا أصبح العلم ، علماً للحياة الاجتماعية ، يدرس كل شىء يقع داخل نطاق المجتمع وبالنظر إلى العلوم الاجتماعية النوعية القائمة بالفعل ـ الاقتصاد ، السياسة ، اللغويات ، الدين المقارن Comparative religion ـ كان الاتجاه يذهب إلى أن هناك دراسات متخصصة ، تهتم كل منها بدراسة جزء من أجزاء النظام الاجتماعى العـــام . ولكن الا تغنى هذه العلوم مجتمعة عن قيام علم الاجتماع ، طالما أن كل منها يدرس مجالا ، من مجالات الحياة الاجتماعية ؟ والجواب أن كل العلوم الاجتماعية المتخصصة لاتكون علماً للمجتمع ، لأن تكامل الأجزاء فى النظـام الاجتماعى العضوى ، يظـل ناقصاً ، ومن هنا كان

---

(1) Leonard Broom & Philip Selznick, opcit; pp. 6 – 7.

(2) Adolph S. Thomars; opcit, pp. 504 — 505.

دور علم الاجتماع ، الذى يتمثل فى تحقيق التكامل المعرفى حول الحياة الاجتماعية. والنتيجة أنه فى ضوء هذا الهدف السبنسرى ـ نسبة إلى هربرت سبنسر ـ كان علم الاجتماع ، علماً تركيبياً للمجتمع ، يتمثل هدفه فى تحقيق التكامل المعرفى للعلوم الاجتماعية ، فى علم عام واحد للمجتمع ، هـو علم الاجتماعى الانسكلوبيدى أو الموسوعى.

ونتيجة للصعوبات التى واجهت هذا الهدف ، وتحقيقه ، كان على العلم ، إعادة تقييم الموقف . لقد ظل العلم بعد ذلك علماً للمجتمع ، أو كان متصوراً كـذلك ، غير أن الذى تغير ، هو إعادة تحديد ماالمقصود بالمجتمع وما المقصود بالاجتماعى ، حيث تم تعريف هـذه المفهومات كبناءات للعلاقات الاجتماعيـة ، والجماعات الاجتماعية . وبالتالى لم يعد إهتمام العلم بكل ما يحدث داخل المجال الاجتماعى والحيـاة الاجتماعية ، وإنما أصبح الاهتمام بطبيعـة السلوك الاجتماعى الانسانى وصوره وأشكاله ، مع إعطاء أهمية خاصة للنظم والجماعات الاجتماعية . وأفضى مثل هذا الاتجاه إلى أن أصبح العلم ، علماً خاصاً ، داخل إطار محدد . ولم يعد الاهتمام بالدين كدين ، وبالاقتصاد كاقتصاد ، وإنمـا أضحى الاهتمام بهـا ، باعتبارها نظماً تمثل أنماطاً للبناء الاجتماعى .

ولتتضح الصورة أكثر، يشير بعض الكتاب الغربيين من أمثال «بيتر ويرسلى» وآخرين ، إلى أن الذى يميز علم الاجتماع عن أشقائه من العلوم الإنسانية الأخرى ليس الموضوع وحده ، لأن ليس بالموضوع يتحـدد العلم ، وإنما أيضا بطريقـة التناول أو المدخل العام وكـذلك الهدف . فاذا أخذنا مثلا موضوع الدراسة العلمية للمصانع ، سوف نجد أن رجل الاقتصاد يهتم أساساً بقوة العمل، باعتبارها مصدراً هاماً للعمل بالمصنع ، فى حين أننا نجد رجل الاجتماع يهتم بأبعاد أخرى للعمل والعمال . فهـو يركز ملاحظاته على العـلاقات الاجتماعيـة داخـل المنشأة ،

أو المشروع الصناعى ، وما هنالك من تأثيرات متبادلة بينها وبين العلاقات الاجتماعية القائمة خارج المنشأة أو المشروع الصناعى . وهذا يعنى أن رجل الإقتصاد يدرس نفس الموضوع الذى يمكن أن يدرسه رجل الاجتماع ، ولكن من خلال منظورات ، نظرية معينة . ولعل منظور العلم ، أو رؤياه ، من الركائز التى توضح أهدافه . فالانثروبولوجيا أوسع نطاقا من علم الاجتماعى ، حيث تهتم بالثقافة ومقارناتها أكثر من إهتمامها بالتطور الاجتماعى، الذى يمثل أهمية واضحة فى المنظور السوسيولوجى (١) وإيجاز هذا فى جملة مفيدة ، يوضح ، أن التمييز بين علم الإجتماع والعلوم الأخرى ، لا ينفى الصلات والعلاقات المتبادلة بينها جميعا ، بقصد الوصول إلى تكامل معرفى حول الانسان والمجتمع . وأن هذا التمييز يكمن فى الفرق فى المنظور الذى يستوجب ملاحظة ظاهرات معينة، بطريقة معينة تتفاوت بين علم وآخر . فإذا كان الباحث السيكلوجى يهتم بالفرد، والأساليب التى يتعلم بها ، ويتفاعل بها مع الآخرين . فإن الباحث السوسيولوجى يهتم أيضا بهذه الأمور ، ولكن بالقدر الذى تسهم به دراستها ، فى دراسة التفاعل الإجتماعى — لا الفردى — فى المواقف الاجتماعية . وإذا كان كل من علم الإجتماع وعلم النفس يهتم بالفرد ، كوحدة للتحليل ، فعلم الإجتماع ينظر للفرد كعنصر فى نسق إجتماعى Social system ، ويركز على الطريقة أو الأسلوب الذى يتصور به الفرد الموقف الإجتماعى ويدركه ، لأن ذلك يؤثر فى رد فعله فى هذا الموقف ، وتفاعله مع بقية مكونات الموقف وعناصره الاجتماعية . وهو من خلال هذا المنظور يترك دراسة ميكانيزمات الإدراك Perception السيكلوجى وبهذا فعلم الاجتماع يحاول بناء نسق نظرى لتفسير سلوك الانساق

(I) Peter Warsley; opcit, pp. 28 – 30.

الإجتماعية فى حين أن علم النفس يهتم بتفسير سلوك الأفراد .[1]

وجهة النظر السوفيتية :

تأخذ علاقة علم الاجتماع والعلوم الإنسانية ، فى ضوء المادية التاريخية ، محور إرتكاز الباحثين السوفيت بعداً آخر غير الذى تحتله علاقة العلم بالعلوم الأخرى من وجهة النظر الأمريكية . فعلى السوفييت أولا توضيح علاقة علم الاجتماع الماركسى ، بالمادية التاريخية ، من جانب ، وبفروع علم الاجتماع ، كالإجتماع القانونى والسياسى والاقتصادى من جانب ثان ، والعلوم الانسانية كالجغرافيا والتاريخ وعلم النفس من جانب ثالث. وكمحاولة لتوضيح هذه العلاقات يشير الباحثان السوفيتيان كونستانتينوف ، وكيل ، فى مقالها ، المادية التاريخية - علم الاجتماع الماركسى [2] ، إلى أن العلم الاجتماعى الحقيقى ، هو فقط العلم الذى يأخذ مواضع تنسق والمادية التاريخية ، وبنائها ، ومعطياتها ، وقوانينها الأساسية وهى أيضا العلم الذى يرتبط بالممارسة العملية للبناء الشيوعى السوفيتى، حيث يهتم بدراسة كل شىء جديد وتقدمى ، هذا العلم هو القادر على انجاز وظيفته الإبداعية . ويضيف هذان الباحثان أن تطور المعرفة العلمية بالمجتمع يرتبط بعدة عمليات مركبة من تمايز العلوم وتكاملها ، وإقامة صلات متبادلة بينها . وبتطور البحوث السوسيولوجية الواقعية ، ظهرت تساؤلات حول الوضع الذى يجب أن يشغله علم الاجتماع الماركسى فى نسق المعرفة الخاصة بالمجتمع ، وحول ما يجب أن تكون عليه هذه العلاقة فيما يتعلق بعلاقة البحوث السوسيولوجية والمادية التاريخية .

---

(1) Stephen Cotgove, The science of Society. opcit, pp. 19—21.

(2) F. Konstantinov, & V. Kell.; op. cit., loc cit.

مكان علم الاجتماع الماركسي في نسق المعرفة المجتمعية :

يمكن تقسيم العلوم الإجتماعية ، كما يذهب الباحثـــان ، إلى ثلاث مجموعات أساسية : يؤلف الأول منها تاريخ العالم بتقسيماته الفرعية - تاريخ البلدان ، كل بلد على حدة ، وتاريخ الشعـوب - فالتاريخ يدرس ما في الشعـــوب بكل تنويعاته الفعليـة . ومن ثم فهو لا يضطلع فقط بالقوانين العـامة والضروريه في التاريخ ، بل يهتم أيضا بالقوانين الخاصة والعرضية . ويمثل موضوع كل علم من العلوم الإجتماعية على حدة ، صورا خاصة ، وبجوانب معينة من صور وجوانب العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع من خلال أبعاد الإقتصاد والحكومة والقانون والفن وما إلى ذلك ، وما لكل منها من قوانين عاصة . وهذا يؤلف المجموعـــة الثانية من العلوم الإجتماعية فالاقتصاد السياسي علم اجتماعي يهتم بدراسة تطور العلاقات الاقتصادية للشعوب ، حيث يبرز القوانين التي تحكم إنتـاج وتوزيع المنافع والفوائد الماديه الاقتصادية في المجتمع ، وما يمر به من مراحل تطـورية مختلفة . ويدرس اللغويات قوانين تطور اللغة كظاهرة اجتماعيـه ، في حين أن التشريعات تهتم بالعلاقات القانونية . وهذا يعني أن كل علم من العلوم الاجتماعـية النوعية ، يهتّم بتوضيح القوانين الخاصة بتطور الظاهرة موضوع هذا العلم . ولما كان المجتمع ككل يمثل في كل مرحلة من مراحل تطوره التاريخي تنظيما معينـــا ، بقوانينه وعلاقاته الخاصة . فان دراسة المجتمع ككل متطور تاريخيا ، ودراسـة القوانين التي تحكم التكوينات الاجتماعية الاقتصادية ، وبحث العلاقات الداخلية ، لجوانب الحياة الاجتماعية ، وظاهراتها ، كل هذا يؤلف موضوع علم الاجتماع والذي يمثل المجال الثالث للعلوم الاجتماعية .

والذي يجدر ذكره أن « لينين » قد نظر إلى المادية التاريخية ، كمكون من مكونات الفلسفة الماركسية ، وتنظر اليها في نفس الوقت كعلم اجتماعي هو علم

الاجتماع . ولم يقل « لينين » بوجود أى تناقض فى الحقيقة التى ترى أن المادية التاريخية تحتفظ بخصائص العلم الفلسفى ، والاجتماعى معا . وهذا يعنى أن المادية التاريخية ، هى العلم الفلسفى للمجتمع ، لأنها تقدم الحل العلمى للمشكلة المعرفية السوسيولوجية الأساسية بتطبيقها على المجتمع . فبدون حل مادى لمسألة العلاقة بين الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى ،لا يكون بالامكان اقامة نظرية علمية للتطور التاريخى . فالناس باعتبارهم الكائنات الموهوبة المسلحة بالوعى والارادة هم الذين يصنعون التاريخ. ومثل هذه المشكلات السوسيولوجية ، هى التى جعلت المادية التاريخية بحلها لها ، علماً سوسيولوجيا . حيث ساعدت على معرفة الحياة الاجتماعية ، وتوضيح ميكانيزم المسار التاريخى ، وميكانيزم عمليات التكوينات الاجتماعية والاقتصادية ، وإظهار القوانين العامة للتطور الاجتماعى . والتى تعد عامة لأنها أولا تعمل من خلال كل التاريخ والتكوينات المتعددة ، وتتضمن هذه القوانين العامة التى تمثل موضوع المادية التاريخية ومضمونها ؛ قانون الدور المحدد لأسلوب الانتاج فى تطور المجتمع ، وقانون الاتساق بين قوى وعلاقات الانتاج . وقانون الدور المحدد للوجــود الاجتماعى فى علاقته بالوعى الاجتماعى . وقانون عـــلاقة أساس المجتمع ببنائه الفوقى، وقوانين الصراع الطبقى . وما إلى ذلك من قوانين . وهذه القوانين عامة . ثانيا لأنها لا تنطبق على مجال فردى أو آخر من مجالات الحياة الاجتماعيه ، وإنما تنطبق على المجتمع ككل والروابط والعلاقات الداخلية بين الجوانب المختلفة للحياة الاجتماعيـة . وهـذه القوانين التى ذكرت تواً ، تعد فى نفس الوقت قوانينا للتفاعل بين الجوانب المختلفة للحياة الاجتماعية — كالوجود والوعى ، والاقتصاد والسياسة ، والقوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، وما إلى ذلك . ويجب أن نضع فى الحسبان أن الصور التى تعمل من خلالها القوانين العامة ، وتعبر عن نفسها ، ليست متطابقة حرفياً لأن تلك مهمة البحث السوسيولوجى الماركسى الذى عليه أن يدرس الصور المحددة

لتجسيد القوانين العامة ، وإظهارها ، بالاضافة إلى دراسة ميكانيزم عمل هـذه القوانين . والأمر المعروف ، بل والمألوف أن القوانين التى تؤلف موضـوع المادية التاريخية ، تتضمن فقط القوانين التى تنتج من خلال عدة تكوينات مرتبطة بالتاريخ ككل . ويبدو أنه توجد بالإضافة إليهـا قوانين تتعلق بكل تكوين معين على حده .فعلى سبيل المثال يتميز التطور الإجتماعى لتكوين الشيوعى ، عن التطور الخاص بالتكوين الرأسمالى . فالأول يتميز بعمليات التقريب بين العمـل العقلى والعمل اليدوى ، لإزالة التمايزات الطبقية .

البحوث الاجتماعية والبحوث السوسيولوجية :-

تستند كل العلوم الإجتماعية فى بحوثها ، إلى منهج المادية التاريخية ، وتطبقه بما يتفق والملامح الخاصة بموضوعاتها . ومن جانب آخر يجب أن تستند المـادية التاريخية - علم الاجتماع الماركسى - فى تعميماتها وإستنتاجاتها إلى إكتشافات العلوم النوعية ، وإلى البحوث الاجتماعية الشاملة ، والإحصاءات الدقيقة . وهذا يعنى أن الإتجاه الإبداعى نحو المادية التاريخية ، ونحـــو النظرية والمنهج السوسيولوجيين ، يتطلب أولا إبعاد الفصل القائم بين المـادية التاريخية ، وبين كل علم من العـلوم الاجتماعية . ويتطلب ثانياً تصميم بحوث سوسيولوجية ، فى المجال الذى يؤلف الموضوع الحقيقى لعلم الاجتماع . ويتطلب ثالثاً الإشتراك فى بحوث عريضة ،يسهم فيها الباحثون السوسيولوجيونوالتاريخيون، والمتخصصون فى القانون ، والإثنوجرافيون ، والممثلون العلوم الاجتماعية الأخرى .

وبالرغم من هـــذه الصلات الوثيقة بين البحث السوسيولوجى والبحـوث الاجتماعية ، فلا بد من وضع تمييز بينهـا . فالبحث الإجتماعى Social تصور أكثر إتساعاً ، فى حـــين أن البحـث السوسيولوجى Sociological أكثر

تحدداً . فالبحوث الاجتماعية تجرى فى مجـــالات الاقتصاد السياسى ، وتنظيمات إقتصادية معينة ، والتشريعات والتربية والإنثوجرافيا ، وغيرها من العلوم الإجتماعية التى توجه مباشرة نحو دراسة الواقع الاجتماعى .وأما البحث السوسيولوجى فلا يمكن إستبداله بالبحوث الاجتماعية . فكل عالم متخصص يعرف موضوع بحثه أكثر من غيره .والذى يجب على الباحثين السوسيولوجيين، القيام به ، هو الاستناد إلى البحوث الخاصه للعـــلوم الاجتماعيـة ، ثم صوغ الاستنتاجات والتعميات السوسيولوجية حولها.وإذا كان موضوع علم الاجتماع الماركسى ، هو المجتمع ، والتكوين الاجتماعى الاقتصادى ككائن إجتمـاعى كلى ، وأيضاً قوانين تطورة ووظائفه ، وقواه الدافعة ، عند ئذ يجب على البحث السوسيولوجى تنطية عمل هذه القوانين ، والقوى المحركة ، لمجتمع معين ، وفى فترة معينة من الزمان . هذا بالاضافة إلى إهتمامه بإكتشاف العلاقات الجـديدة بين الظاهرات والقوانين غير المعروفة .

وما سبق يعنى أن المادية التاريخية هى الإطار الأساسى لعلم الاجتمـــاع الماركسى ، والعلوم الاجتماعية الأخرى ، غـير أن الذى يميز بين علم الاجتماع وغيره من العلوم ، هو أن الأول يدرس القوانين العـــامة للتطور ، الإجتماعى العام ، لكل التكوينات ، بأنساقه الفرعية فى حين أن العـلوم الاجتماعية ، تحاول دراسة تجسدات هذه القوانين فى كل مجال محدد من المجالات، كالإقتصاد والسياسة وما إلى ذلك ، داخل تكوين محدد ، وفى فترة زمنية محددة . وبعبارة أخـرى ، فإن علم الاجتماع علماً عاماً للمجتمع ، والعلوم الاجتماعية ، يتخصص كل منها فى مجال من مجالات الحياة الاجتماعية . ويكاد يسير « أوسيبوف » فى نفس الإتجـاه باشارته إلى أن علم الاجتماع ، مثل أى علم إجتماعى آخر ، له موضوعه ، وله وسائله الخاصة فى إدراك المعرفة العلميـة . لكنه دائماً يرتبط بالفلسفة التى تعـد

الأساس المنهجى لكل العلوم الاجتماعية . ونظراً لأن التحليل السوسيولوجى يتضمن دراسة الجوانب العامة والخاصة ، فى الحيـــاة الاجتماعية ، وما بينها من ترابط وظيفى ، وإعتماد متبادل ، فإن علم الاجتماع الماركسى يتألف من قسمين : علم الاجتماع النظرى ، العام ، وعلوم الاجتماع الخاص . فالعلم العام يأخذ على عاتقه مهمة دراسة القوانين التى تحكم ظهـــور ، وتطور ، أى تكوين إجتماعى إقتصادى معين ، ودراسة ميكانيزم تفاعل الأنساق والبناءات العضوية داخل إطارات بناء إجتماعى متماسك . وأما علم الاجتماع الخاص فيأخذ على عاتقه مهمة التعمق فى بناء الكائن العضوى الاجتماعى الكلى ، بكشف ميكانيزم التفاعل بين عناصره وقواعد وظائفه وتطور كل نسق فرعى — كأن نقول سوسيولوجيا العمل ، والأسرة ، والثقافة . . . الخ - وكلا العلمين لا ينفصلان ولا يتعارضان ، فهما معاً يستندان إلى المعرفة العميقة حول الواقع الفعلى للمجتمع فى مرحلة معينة من تاريخه [1] .

ولو أردنا عقد مقارنة سريعة بين كل من وجهة النظـــر الأمريكية ، والسوفيتية يمكن لنا إستنتاج ما يلى : -

أولا : أن أساس تقسيم العلوم الإنسانية بما فيها علم الاجتماع ، فى الفكر الأمريكى ، يعتمد أولا على الرؤيا وطريقة التناول، وثانيا على الهدف ، وثالثاً - بدرجات متفاوتة بين الباحثين - على الموضـــوع . وأما فى الفكر السوفيتى ، فالأساس المنهجى واحد ، وهو المادية التاريخية والجدل وقوانينه ، وأما التمييز فأساسه الموضوع أولا أو المجال الذى يتدرج من العام إلى الخاص ، مع ملاحظة

(I) G. Osipov "Lenin and Marxist Sociology" in Social Science to day "; No 3. 1970. pp. 3 – 19.

أن كل الدوائر ، سواء علم الاجتماع العام ، أو الخاص ، أو العلوم الاجتماعية النوعية ، مجالات مترابطة يفيد كل منها الآخر .

ثانياً : ـ أن التقسيمات الامريكية متنوعة ، فى أهدافها ، وأمثلتها ، نظراً لعدم وجود نظرية واحدة يسير عليها العلم ، برغم الغلبة النسبية للبنائية الوظيفية. بعكس إتساق وجهات النظر السوفيتية ، تقريباً ، لانهما تأتى من منبع واحد ، وهو الفلسفة الماركسية وما تشتمل عليه من مادية جدلية ، ومادية تاريخية .

ثالثاً : أن الهدف الأمريكى من علم الاجتماع ، يسير عامة ، نحو إكتمال المعرفة حول المجتمع الانسانى ، لأن علم الاجتماع لديهم ، يربط بين العلوم الاجتماعية النوعية . وإذا كان الهدف السوفيتي العام يتشابه مع ذلك فهو يسعى نحو كشف القوانين العامة للتطور الاجتماعى ، وميكانيزم المسار التاريخى . لكن الهدف الامريكى يواجه العقبات ، نظراً لعدم وجود وحدة فكرية نظرية ، مما يحول العلوم الاجتماعية ، وفروع علم الاجتماع ، كل إلى كيان ينفصل لا تربطه بغيره رابطة. فى حين أن طريق العلم السوفيتى أكثر وضوحاً ـ نسبياً ـ لوحدة المصدر ، والوحدة الفكرية المتمثلة فى الفلسفة الماركسية . وبذلك فالفرق بين علم الاجتماع والعلوم الأخرى ، فرق فى مستوى الوصف والتحليل والتفسير ، الذى يتدرج من العام إلى الخاص ، وليس أى خاص ، وإنما الذى يخدم على الأهداف العامة ، والقوانين العامة ، ويجسد عملها من خلال الظروف النوعية .

رابعاً : أن الأمر الذى يشير إلى عدم وجود إتفاق بين السوفييت ، هو علاقة المادية التاريخية بعلم الاجتماع . فكو نستانتينوف وكيل ، يريان أن المادية التاريخية هى علم الاجتماع ، فى حين أن ، أوسيبوف ، يقصر علم

الاجتماع على المجال المعرفى الخاص بالنشاط البشرى ، دون تحديد دقيق لما يعنيه بهذا المجال [1] .

وبالرغم من تباين الآراء حول علم الاجتماع ، والعلوم الانسانية . فهناك حقائق أساسية يمكن إبرازها : وتتمثل فى أنه إذا كان لكل علم موضوعاً محدداً ، ومنهجاً ، وغاية أو وظيفة يسعى إليها ، فمن جماع هذه العناصر يمكن التمييز بين العلوم . فعلم النفس يهتم بالبناء السيكلوجى للفرد ، والجماعة ، والأنثروبولوجيا ، تهتم بالثقافة ، والثقافات المقارنة ، والاقتصاد يحصر نفسه فى الظاهرات الاقتصادية ، والجغرافية تهتم بعلاقة الانسان بالبيئة ، مع التركيز على إنطباعات البيئة على حياة الانسان ونشاطه . وأما علم الاجتماع فيهتم بالبناء الاجتماعى للمجتمع وتطوره وحركته وتغيره ، وما يحكمها من قوانين . وعلوم الاجتماع الفرعية ، تدرس كل منها ، نسقاً فرعياً ، أو مجالا محدداً من مجالات البناء الاجتماعى ، فى علاقته بغيره من أنساق المجتمع ، ولكن مع التركيز على النسق الفرعى موضوع الاهتمام . وثمة حقيقة هامة مؤداها ، أنه من الصعوبة بل ومن الخطأ الفصل بين العلوم التى تدرس الانسان ومجتمعه ، لأن الواقع ، يوضح الترابطات بين مختلف جوانب الحيـــاة الاجتماعية والانسانية . ومحاولات التمييز ، بقصد تعميق معرفتنا ، بالمجتمع والانسان ، وحياتهما ، وما تحويه من تفصيلات .

---

(١) أوسيبوف ، قضايا علم الاجتماع ، مرجع مذكور ، ص ١٠

الفصل الثالث

نظرية علم الاجتماع

أولاً : معنى النظرية وأنواعها

ثانياً : تصنيف التراث النظرى فى علم الاجتماع

ثالثاً : الاتجاهات الاساسية فى نظرية علم الاجتماع

رابعاً : اتجاهات التطور فى نظرية علم الاجتماع

مقدمة

كان موضوع نظرية علم الاجتماع ولا يزال يحتل مكانة كبيرة من إهتمامات المشتغلين فى هذا العلم ، وهذا ماييدلل عليه معدل المؤلفات التى صدرت وتصدر عنهم حول هذا الموضوع وذلك بمقارنته بغيره من موضوعات اهتماماتهم الأخرى فى البحث والدراسة والتأليف . ولعل هذه الأهمية ترجع فيما يبدو إلى الوظائف التى تؤديها النظرية عموما فى مجال وصف الوقائع وتصنيفها والتنسيق بينها وتحليلها وتفسيرها ، والتنبؤ بحدوثها فى المستقبل، الأمر الذى جعل هذه الأهمية النظرية تفوق أهمية المنهج العلمى نفسه .

والحديث عن نظرية علم الاجتماع يتطلب أولا : أن نقف على معنى النظرية عموما وأنواعها وذلك قبل أن نحاول ثانية : التطرق لمعالجة نظرية علم الاجتماع ذاتها وبيان مكوناتها والإجابة على السؤال هل هناك نظرية واحدة فى علم الإجتماع ؟ إن التراث النظرى لهذا العلم ينطوى على اتجاهات متباينة ومحاولات نظرية متعددة ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، هل يفتقر تراث علم الاجتماع إلى محاولات تهدف إلى تصنيف هذا التراث النظرى وجمع شتاته فى مقولات أكثر عمومية ؟ وهل يمكن أن نلقى الضوء على الاتجاهات الأساسية فى نظرية علم الاجتماع ؟ ثم نحاول أخيرا الاجابة على السؤال إلى أى حد طرأ على هذه الاتجاهات الاساسية بعض التطورات ؟ وذلك كله من أجل القاء الضوء على وضع نظرية علم الاجتماع حتى وقتنا هذا .

أولا : معنى النظرية وأنواعها :

قد يكون من الصعب علينا أن نحصر الكتابات التى تعرضت لتحديد المقصود بالنظرية غير إننا من ناحية أخرى وإذا كان بإمكاننا أن نصنف هذه الكتابات

العديدة إلى فئات ثلاثة مثلا : فئة الكتابات التي أهتمت ببيان طبيعه النظـــرية وتطورها في علم الإجتماع ، وفئة الكتابات التي عالجت موضوع مناهج البحث في العلوم الإجتماعية ، وأخيراً فئة الكتابات التي تهتم بتحديد المصطلحات والمفاهيم فقط وإن كانت كلها تشترك في الاهتمام بتحديد مفهوم النظريه . فإنه يمكن إذا أخذنا مثالا واحداً على كل فئة من هذه الفئات ، أن نلقى الضوء على معنى النظرية كما ساد بين هذه الكتابات .

إذ يحاول تيما شيف في كتابه المعنون « نظرية علم الإجتماع طبيعتها وتطورها» أن يوضح معنى النظرية * ، من خلال عرضه المختصر لبناء أي علم أمبيريقي بغض النظر عن موضوع الدراسة الخاص به . والذي يذهب فيـــه إلى أنه إذا كانت الملاحظة هي أساس كل علم أمبيريقي. وأنه يتم التعبير عن نتيجة الملاحظة الفردية في صورة قضية واحدة مؤداها أن هـذه الظاهرة المحددة موضوع الملاحظة قد حدثت في زمان معين وفي مكان محدد . وكانت مثل هذة القضية تعتبر بمثابة مطلباً ضرورياً لأي علم ، إلا أن هذا النوع من القضايا ليس كافيا في حد ذاته لبناء نظرية العلم . لأنه ينبغي أن تنظم الملاحظـات الفردية وهناك أشكال عـــديدة ومتنوعة لتنظيم هذه الملاحظات . فقد تقارن الملاحظات الفـردية ، من أجـــل التوصل إلى جوانب الشبه والاختلاف فيما بينها . أو قد تصنف هذه الملاحظات، بمعنى أن تحدد أنماط تضم كل منها عددا من الملاحظات المتشابهه .. وقـــد تخضع الملاحظات الفردية للمعالجات الاحصائية، مثل التوزيع التكراري والتسلسل الزمني ومعاملات التوافق والارتباط وغيرها. أو قد ترتب هذه الملاحظـات في

---

* حرصت الـكتابات العربية المحليه التي تعرضت لنظـرية علم الاجتماع على تحديد معنى النظرية ، ومن ابرز الامثله على ذلك كتاب « الموقف النظـري في علم الاجتماع المعاصر » دكتور محمد عاطف غيث ، دار الـكتب الجامعية ، ١٩٧٣ .

سياق لشوئى يوضح النمو التدرجى لعمليات معينة ، مع مقارنة كل هذه السياقات بالآخر من أجل الكشف عن أوجه الشبه والاختلاف بينها .

ويترتب على تنظيم الملاحظات باستخدام واحد من أساليب التنظيم أو أشكاله السابقه ، ما يعرف بالتعميم الذى يوضع فى شكل قوانين طبيعية أو إجتماعية حسب مجال الدراسة ، تمكن من التنبؤ بنتيجة محددة عندما تتوافر شروط معينة.. وهناك إجراءات مطولة تساعد على صياغة مثل هذه القوانين . فالتعميم إذن لا يشير إلى واقعة فى حد ذاتها ، وإنما يقوم بناء على وقائع كثيرة . بحيث تعتبر التعميمات فى النهاية نتائج متعلقة بمجموعة من الظواهر ، وتنتمى المعرفة التى تعبر عنها التعميمات إلى مستوى أرقى من ذلك المستوى الذى تنتمى اليه المعرفة التى تعبر عنها قضايا فردية ، غير أن المعرفة المرتبطة بالتعميمات لا تمثل أرقى وأرفع ما يمكن أن يصل اليه العلم الأمبيريقى ، برغم ما تثيره التعميمات من ملاحظات أبعد مدى . لأن هناك ما يعرف بالنظرية التى تمثل أرفع هذه المستويات جميعاً .

إذ تنتهى الجهود المتراكمة والمتجمعة لرجال العلم الذين يتخصصون فى فرع واحد من فروع المعرفة إلى صياغة مجموعة كبيرة من التعميمات التى تنتمى إلى نماذج متعددة ومختلفة ، وعند هذا الحد تظهر الحاجة إلى تجميع شتات النتائج المبعثرة وتوحيدها ، ولا تتحقق هذه الحاجة إلا ببناء النظرية .

وتمثل النظرية مجموعة من القضايا التى تتوافر فيها الشروط التالية :

أ ـ ينبغى أن تكون المفهومات التى تعبر عنها القضايا محددة بدقة .

ب ـ يجب أن تتسق القضايا بعضها مع البعض الآخر .

جـ ـ لا بد أن توضع القضايا فى شكل يجعل من الممكن اشتقاق التعميمات

اشتقاقا استنباطياً.(1)

د ـ ينبغى أن تكون هذه القضايا من النوع الخصيب والمثمر الذى يستكشف الطريق نحو ملاحظات أبعد مدى وتعميات تطور من مجالى المعرفة القائمة .

ولا يمكن أن نستقى النظرية من الملاحظات والتعميات عن طريق إستخدام وسائل الاستقراء المضبوطة والدقيقة فقط . لأن بناء النظرية يعتبر عملا خلاقا ، يحتاج إلى قفزة فيما وراء الأدلة ، وإحساس خفى خلاق لصياغتها ، غير أن النظرية مهما كان مصدرها لا بد وأن تخضع التحقق ، وهى تعد صادقة ومحققة مبدئيا فى حالة عدم وجود وقائع معروفة أو تعميم قائم يناقضها ، وإذا كان هناك ما يناقضها ، فالأمر يتطلب رفضها أو تعديلها على الأقل . ويعتبر هذا النوع الأخير من الاختبار مجرد تحقيق مبدئى ، لأنه قد توجد هناك أحيانا نظريتان أو أكثر تقومان بتفسير الوقائع أو التعميات المعروفة ، الأمر الذى يجعلنا نلجأ فى هذه الحالة إلى استخدام إجراء آخر يعرف بالتجربة الحاسمة أو الملاحظة الحاسمة .. بحيث يمكننا هذا الاجراء من تقرير أى النظريات تتطابق مع الواقع وتتفق معه . غير أن التحقق عن طريق الإجراء الأخير ليس نهائيا أيضا ، لأنه قد تكتشف فيما بعد وقائع أخرى ، أو قد تشتق تعميات جديده لا تتفق مع النظريات القائمة أو المعترف بها . ومعنى هذا كله أن النظرية فى أى علم أمبيريقى ليست نهائية على الاطلاق (2)

وعندما أهتمت كلير سيلتز وزملاؤها من ناحية أخرى فى كتابهم عن مناهج

---

(1) N. Timasheff, Sociological Theory, its Nature & growth, Random House. N. Y. 1955.

(2) ibid.

البحث فى العلوم الاجتماعية »، بتحديد معنى النظرية أقتبست تعريف براث وات Braith Waite الذى يرى أن النظرية « تشتمل على مجموعة من الفـــروض التى تكون نسقا استنباطيا ، بمعنى أنها تنتظم فى ترتيب متتابع فيه بعض الفروض اللاحقة تلحق بعض الفروض المتقدمة . أو بعبارة أخرى تعد النظرية بمثابة مجموعة من القضايا التى تنتظم فى نسق استنباطى ، وتتدرج على مستويات ، تحتل فيه القضايا أو الفروض على المستوى الأعلى مكانة المقدمات المنطقية . وتكون فيه الفروض على المستوى الأدنى بمثابة نتائج لما يتقدمها من فروض . وتكون فروض المستوى الأوسط مستنتجة من فروض المستوى الأعلى ، كما تعتبر هى بدورها مقدمات منطقية لفروض المستوى الأدنى » : [1] وتضيف سيلتز إلى ما سبق أنه إذا كان هذا التحديد للنظرية يمثل الاستخدام العلمى الحديث لمصطلح النظرية ، ويجعل بالامكان التخلص من كل ما علق بمفهوم النظرية من أفكار سابقة مبهمة وغير دقيقة ، وبعيدة عن الصواب ، لأنه كان من الشائع أن النظرية عبارة عن كل ماله صلة وثيقة بالتأمل والنظر ، وإن ما هو نظرى هو أمر غير واقعى ، وهو من قبيل التصور ، وأن نظريات العلم فى مراحله المبكرة كانت فى الغالب نتيجة التأمل والنظر المكتبى ، والتى قد لا تجد تأكيدا لها فى الوقائع الامبيريقية.

(1) C. Selltize. et al ; Research Methods in Social Relations, Holt, Rinehart & winston, u. s. A., 1961. p. 480.

* وحرصت الكتابات المحلية حول مناهج البحث ، بالمثل على تناول معنى النظرية ، ومن أهم الامثلة على ذلك .

أ - كتاب « أصول البحث الاجتماعى » دكتور عبد الباسط محمد حسن ، مطبعة لجنة البيان العربى ، ١٩٦٦ ، ص ص ٥٣ - ٦٤ .

ب - كتاب « البحث الاجتماعى » الجزء الأول دكتور غريب سيد احمد ودكتور عبد الباسط محمد عبد المعطى . دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٤ ، ص ص ٣٦-٤٠ .

إلا أن النظرية أصبحت مع نمو العلم وتطوره أكثر إرتباطا بالوقائع والملاحظات الامبيريقية، بحيث أخذ الإتجاه الغالب الآن فى مناهج البحث يعلق أهمية علـــى صفة الامبيريقية ، ويجعل منها خاصية أساسية مـن الخصائص الـتى تميز النظرية العلمية ، وذلك بناء على أن النظرية وما تثيره من قضايا وفروض لابد وأن تجـد لها تأييداً من جانب الوقائع الامبيريقية . هذا فضلا عن خاصيه أخرى ينبغى أن نذكرها للنظرية ، هى أنها ليست صياغة استاتيكية أو نهائية . فاذا كانت النظرية تعتبر فيما مضى تفسيرا نهائيا ، إلا أنها تعتبر اليـوم قابلة للتغيير مهما كانت كميـة النتائج المتراكة والمتسقة معها . وبالرغم من أنها تعد من أكثر الأمـور كفاية وإحتمالا فى تفسير هذه النتائج على ضوء المعرفة الحاضرة . بمعنى أن النظرية تمثل حالة مؤقتة قابلة للمراجعة باستمرار .(١)

ويذهب كل من روزنتال وياديى فى القاموس السوفيتى للفلسفة من ناحيـة ثالثة ، إلى أن النظرية تعتبر بمثابة نسق من المعـرفة التعميميه وتفسـير للجوانب المختلفة للواقع ، وأنها ترتبط بأشياء ومصطلحات أخرى مـع أنها تختلف عنهـا فى بعض الجوانب والوظائف . فهى تختلف عن التطبيق والممارسة لأن جوهرها يهتم بإعادة صوغ الواقع صوغا عقليا . وإذا كانت كل نظرية نسقا أو إطـارا فكريا ، فهى نسق معقد . إذ يمكن لنا مثلا أن نميز فى النظريات الفيزيائية بين جـزئين أو جانبين مكونان لهـا ؛ الحسابات الصوريه : كالرياضيات والرمـــوز المنطقيـة والقواعد ... الخ ، وبين التفسير الاساسى الجوهـــرى ؛ كالمقولات والفئات والقوانـين وما اليها . (٢)

(I) Ibid PP. 480 – 481.

(2) M. Rosenthal & P. Yudin, A Dictionary of philosophy Progress Pub. Moscow. 1967. p. 440.

وإذا جاز لنا أن نعلق على أمثلة محاولات تحديد معنى النظرية فى الفئات الثلاثة السابقة ، فانه ليس بامكاننا إلا أن نشير إلى جوانب الاتفاق بين هذه المحاولات الأمر الذى يسهم فى القاء الضوء على معنى النظرية وهو غاية ما نهدف اليه فى هذه المناقشات . إذ من الملاحظ أن هذه الأمثلة تتفق فيما بينها من حيث أنها تقف عند حد وصف مكونات النظرية ، وتحديد شروطها وإبراز خصائصها والتعرض لتحديد بعض وظائفها .

١ ـ فمن حيث المكونات ؛ تعتبر النظرية بمثابة نسق استنباطى ينطوى على مجموعة من القضايا أو الفروض التى تحتل بعضها مكانة المقدمات وتحتل الأخرى وضع النتائج ، وذلك على حد تعبير براث وات ، أو نسق يشتمل على مفهومات وقضايا وتعميمات وقوانين كما ذهب إلى ذلك تيا شيف ، أو إطار مكون من حسابات صورية :رموز وقواعد ، وتفسير جوهرى :امقولات وقوانين فيما يرى روزنتال ويادين .

٢ ـ ومن حيث الشروط ؛ يجب أن تكون مفهوماتها محددة بدقة ، وأن تتسق القضايا المكونة لها بعضها مع البعض الآخر ، وأن تصاغ فى شكل يسهل اشتقاق التعميمات بطريقة استنباطيه . وأن تخضع للتحقق الامبيريقى ،وذلك كما ذهب تياشيف ، أو يجب أن تصاغ فى نسق استنباطى ، وأن تجد تأييدا لها فى الوقائع الامبيريقية ، فيما يرى سيلتز وزملاؤها ، أو يجب أن تصاغ فى نسق معقد من المعرفة التعميمية يفسر جوانب الواقع .

٣ ـ وفيما يتعلق بالخصائص ؛ نجد أن النظرية هى البناء الذى يجمع أشتات النتائج المبعثرة ويوحدينها ، وأنها تضم قضايات خصبية ومثمرة تستكشف الطريق نحو ملاحظات أبعد مدى وتعميمات تطور من مجال المعرفة القائمة ، وهى تستقى

من اللاحظات والتعميات كما تصدر عن إحساس خفي وخلاق يقفز وراء الأدلة والوقائع الملاحظة ، وهي ليست نهائية ، وذلك على حد تعبير تيما شيف . كما أن النظرية تتسم بأنها أكثر إرتباطا بالوقائع الامبريقية وهي ليست صياغة استاتيكية أو نهائية فهي قابلة باستمرار للتغير والمراجعة على حد تعبير كلير سيلتز وزملائها وهو يرتبط بأشياء ومصطلحات أخـــرى قد تختلف عنها من بعض الجـوانب والوظائف مثل المفاهيم والتطبيق أو الممارسة وذلك في نظر روز نتال ويادين .

٤ - وبالنظر إلى وظائف النظرية ، نجد أن النظرية تسهم في مجال وصف الظواهر وتصنيفها وتحليلها وتفسيرها والتنبؤ بحدوثها في المستقبل ، أو تقوم بإعادة صوغ الواقع صوغا عقليا ، وذلك فيما يرى روز نتال ويادين وغيرهم الأمر الذي سنزيده إيضاحا في الفصل الخاص بالعلاقة بين النظرية والبحث في علم الاجتماع

وعلى الرغم من أن تحديد معنى النظرية على النحو السابق قد يثير مجموعة من التساؤلات تدور حول معنى المفهوم العلمي والقضية والفرض والتعميم والقانون العلمي وغيرها من مكونات النظرية ، وكذلك حول النسق الاستنباطي ووظائف النظرية وغيرها (١) ، إلا أن الموضوع الجدير بالإعتبار هنا هـــو الذي يتعلق بأنواع النظرية ، طالما كان الوقوف على أي نظرية علمية وتحـــديد مكانتها في تراث العلم ، يقتضي التعرف على معناها وجوهرها والتعرف على إتجاهها وتحديد نوعها من حيث كونها نظرية تحليلية أم تفسيرية أم علمية أم معيارية (٢) .

---

(١) راجع :

« البحث الاجتماعي » الجزء الأول ، مرجع سابق ، ص ص ١٩ - ٥٢ لمزيد من المناقشات حول هذه الموضوعات .

(2) H. Fallding. The Sociological Task: Prentice Hall. Inc. N. J. 1968, p. 24.

أ - النظرية التحليلية : Analytic Theory

وذلك مثل تلك النظريات الخاصة بالمنطق والرياضيات والتى لا تقرر شيئاً عن العالم الواقعى ، ولكنها تتكون من مجموعة من القضايا التقريرية والأكسيوماتيكية (البديهية) التى تحدد صلاحيتها على ضوء التعريف ، والتى يشتق منها قضايا تقريرية أو أحكام أخرى .

ب - النظرية المعيارية Normative Theory

تلك التى تبلور مجموعة من الحالات المثالية التى يتطلع اليها الإنسان . وهذا النوع من النظريات يشير إلى تلك النظريات الخاصة بالأخلاق وعلم الجمال ، والتى غالبا ما تدمج أو تقترن بالنظريات ذات الطبيعة غير المعيارية لتكون ما يعرف باسم الايديولوجيا أو المبادىء الفنية أو ما اليها .

جـ - النظرية الميتافيزيقية أوالتصورية أو البرنامجية Programmatic Theory

وهى تمثل ذلك النوع من النظريات الذى لايقبل الاختبار بطريقة دقيقة،على الرغم من أنها قد تخضع التقدير المعقول . وهذا تكون بمثابة مسلمات مفيدة لها دور أساسى فى مجال الاقتراحات والبرامج ، أو قد تمدنا بطرق البرهنة التفسيرية التى تستخدم فى اختيار أكثر النظريات دقة . أو قد تجعل الملاحظ حساسا لنوع من العوامل المفيدة فى تفسير ظواهر معينة ، ومن أمثلة هذا النوع من النظريات نظرية داروين الشهيرة عن الانتخاب الطبيعى وما اليها .

د - النظرية العلمية Scientific Theory

وتحدد النظرية العلمية بأنها قضية تقريرية امبيريقية شاملة ، تؤكد الارتباط

العلىّ بين اثنين أو أكثر من نماذج الأحداث أو الوقائع . وإذا كانت هذه النظرية فى صورتها المبسطة تأخذ الشكل التالى :

حيثما يحدث المتغير (و) يحدث أيضا المتغير (ى) . فان هذه النظرية تكتسب طابع الشمول عندما تحدد بعض الظروف أو الشروط التى يحدث فى ظلها بعض الأحداث أو أنواعا معينة منها دائما . وهذا على الرغم مما يقال عن النظريات العلمية اليوم ، من أنها ليست نظريات شاملة ، بقدر ما هى نظريات احصائية Statistical ؛ بمعنى أنها تحدد فقط الشروط التى يحتمل أن تحدث فى ظلها بعض نماذج الأحداث . وتمثل القضية التقريرية التالية أحد الحالات على هذا النوع الأخير من النظريات العلمية :

فى ٧٠ ٪ من المرات التى يحدث فيها المتغير (و) يحدث دائما المتغير (ى) . وهكذا تكتسب النظرية العلمية التى تأخذ هذا الشكل الاحصائى ، طابع الشمول أيضا . ويجب أن تكون النظرية العلمية كذلك نظرية امبيريقية . ولكن ليس معنى هذا أنها تكون مجرد نتاج للملاحظات الامبيريقية . وإنما معناه أن النظرية تنطوى على امكانية تطبيقها على مستوى شامل ، وعلى امكان مراجعتها على ضوء الملاحظة ، بحيث يؤدى عدم اتفاقها مع الملاحظات أما إلى تعديلها أو إلى رفضها . كما ينبغى أن تكون النظرية العلمية أيضا نظرية علية Causal بمعنى أنها يجب أن تصرح بأن هناك بعض الظروف الكافية لحدوث أنواع معينة من الأحداث أو إن هناك بعض الظروف ضرورية لحدوث هذا النوع من الأحداث [1] .

ثانيا : تصنيف التراث النظرى فى علم الاجتماع

تميز علم الاجتماع فى نموه وتطوره بظهور مجموعة كبيرة وغير عادية من

(1) P. Cohen. Modern Social Theory. Heimman, London, 1968. pp. 3 – 6.

النظريات المتصارعة ، الأمر الذى جعله يفتقر إلى اطار من القضايا المتسقة أو المتجانسة أو الاصطلاحات الصادقة التى يتفق عليها علماء الاجتماع والتى تسمح بعرض الوقائع المعروفة والتعميمات بوصفها اشتقاقات منطقية لمبادىء محدودة (١) هذا ما انتهى اليه تيما شيفوما وافقه عليه البعض حيث ان الكتابات التى تركها علماء الاجتماع لا تكون بناء واحداً متماسكا ، بقدر ما تمثل مجموعة متباينة وعديدة من التوجيهات النظرية الأساسية ، مما يصدق معه قول البعض أنه لا يوجد فى علم الاجتماع نظرية موحـــدة يمكن أن تؤدى الأغراض المطلوبة بفعالية كأداة التنسيق والتكامل بين معظم المعارف التعميمية المتوافرة فى علم الاجتماع .

ولقد ترتب على هذه الظروف أن ظهرت مشكلة تصنيف هذا التراث النظرى فى علم الاجتماع . وعندما أخذ علماء الاجتماع الذين اهتموا بالتاريخ والتأصيل المنظم لنظرية علم الاجتماع يواجهون هذه المشكلة كل بطريقته الخاصة ، اختفى الاجمـــاع بينهم على المعيار الذى يجب أن يقيموا بناء عليه تصنيفاتهم التراث النظرى فى علم الاجتـــماع . فلقد حاول البعض تصنيف النظريات إلى مدارس محدودة تقوم على نماذج الحلول النظرية للمشكلات الأساسية ، وسار فى هـــذا الاتجاه على سبيل المثال لا الحصر بيترم سور وكين فى كتابه المعروف باسم «النظرية السيولوجية المعاصرة» (١٩٢٨) . وحاول بعض ثان عرض النظريات ومعالجتها حسب السياق التاريخى لظهورها ، وكان هـــذا هو الاجراء الذى استخدمه لختنبرجر Lichtenberger فى مؤلفه « تطور النظرية الاجتماعيــة » (١٩٢٣) ، وكذلك ما استعان به هاوس House فى مؤلفـــه « تطور علم

(I) N. Timasheff. op. cit.

الاجتماع » (١٩٣٦). وحاول بعض ثالث عرض النظريات وفقا للمناطق الجغرافية التي ينتمي اليها مؤلفوها. وقد استخدم هذه الطريقة كلا من جورفتش Gurvitch وولبرت مور Moore فى كتابهما المعنون «علم اجتماع القرن العشرين» (١٩٤٥)، وكذلك ما استند اليه بارنز Barnes فى اعداد الكتاب الذى قام بتحريره «مقدمة فى تاريخ علم الاجتماع». أما الفريق الرابع فقد حاول الجمع بين طريقتين أو أكثر من الطرق السابقة فى عرض وتناول نظرية علم الاجتماع، إذ حاول تيماشيف أن يجمع بين طريقة تصنيف النظريات إلى مدارس، وبين طريقة معالجة هذه النظريات وفقا للسياق التاريخى لظهورها. فقام بتقسيم عرضه لنظرية علم الاجتماع وتتبع نموها إلى أربع فترات. تمتد المرحلة الأولى من ميلاد علم الاجتماع حتى حوالى عام ١٨٧٥ وهى مرحلة الرواد الأوائل والجهود المتفرقة. وتقع المرحلة الثانية تقريبا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهى مرحلة المعركة بين المدارس التى نشبت فى نفس الوقت الذى سادفيه المذهب التطورى. وقد دارت هذه المعركة لتقرير أى العوامل يحكم التطور الاجتماعى، (الاقتصادية، أو الجغرافية، أو العنصرية أو غير ذلك). وتغطى المرحلة الثالثة الربع الأول من القرن العشرين، وهى مرحلة تردد بين أنصار المذهب التطورى المتداعى، والشعور المتزايد بالحاجة إلى التركيز على الدراسات الامبيريقية. وقد تزايد التأكيد ـ خلال هذه الفترة ـ على الأسس السيكولوجية لعلم الاجتماع. أما المرحلة الرابعة والحالية، فهى مرحلة «معركة الأطر المرجعية» أو معركة الرغبة فى الانتقاء. وتتميز هذه المرحلة بالوعى المتزايد بوجود اطار ضخم من القضايا التى تنهض على أساس امبيريقى، كما تتميز بالتنافس بين وجهات النظر الذى تدعى كل منها أنها أكثر دقة من غيرها فى تفسير الواقع الاجتماعى

فى عموميته (١) . وهناك محاولات عديدة أخرى يقوم بها رواد علم الاجتماع وتهدف إلى وضع تصنيف لتراث هذا العلم ما يضيق المقام هنا لتناول تفاضيلها.

ولا يمكن أن ندعى بأن أحد هذه التصنيفات المقترحة لنظرية علم الاجتماع، كان أكثر تنسيقا ومنطقيه من بقية التصنيفات الأخرى . وبغض النظر عن تفاصيل العوامل التى أدت إلى عدم الاتفاق بين الباحثين فى هذا المجال، ومايتجاوز نطاق اهتمامنا الحالى ، فانه بالامكان أن نأخذ أحـــد الأمثلة الحديثة على محاولة تصنيف نظرية علم الاجتماع ، يستند فى تمييزه بين هذه النظريات إلى تصورات مؤلفيها للطابع العـام والأغراض الأساسية لعلم الاجتماع كميدان للبحث الفكرى المنظم .

وعلى أساس هذه القاعدة يحدد التصنيف المقترح لنظريات السيولوجية الفئات أو المقولات الرئيسية التالية :

١ ـ النظرية السوسيولوجية الوضعية ، التى يعتبر مؤلفيها أو يعالجون بالفعل، علم الاجتماع على أنه علم طبيعى .

٢ ـ علوم الاجتماع التفسيرية ، التى يعتبر مؤلفيها أو يعالجون بالفعـل ، علم الاجتماع باعتباره علما اجتماعيا يناقض العلوم الطبيعية .

٣ ـ النظريات الاجتماعية التقويمية أو غير العلميـة ، التى لا يعتبر مؤلفيها علم الاجتماع ولا يعالجونه على أنه علم وضعى وتفسيرى.

١ ـ النظريات السوسيولوجية الوضعية :

تستند أو تنهض النظريات السوسيولوجية الوضعية على مسلمه مؤداها أن علم

---

(1) N. Timasheff, op. cit.

الاجتماع ينبغى أن يدرس كعلم طبيعى وأن يطبق مؤلفوا هـــذه النظريات الاجراءات أو الأساليب الموضوعية ، بغض النظر عما إذا كانوا يستفيدون من النماذج الميكانيكية أوالبيولوجية أو النظرية الميدانية ، أو النزعة الايجازية السلوكية البديلة ، أو يعتبرون علم الاجتماع علما وضعيا اجتماعيا سلوكيا . ويمكن أن نميز فى هذا الصدد بين خمسة فئات أو مقولات فرعية من هذا النوع :

أ ـ الوضعية الجديدة : كما نشأت وانتشرت فى الثلاثينات ، والتى تدعى أو تزعم أنها تعمل على أســـاس النموذج الفيزيقى . وهى توحد لدرجة كبيرة بين الأساليب العلمية والتكميم والقياس ، وتدرك علم الاجتماع على أنه علم تطبيقى للهندسة الاجتماعية . ويعمل الكثير من أنصـــار البحث الكمى التطبيقى بدون اللجوء إلى نظرية عامة ، ويتابعون الهدف من استخدام الرياضة النظرية فى المعرفة السوسيولوجية بطريقة مستقلة . وتنهض الأشكال المتقدمة من النظرية الوضعية الجديدة على الساق من القضايا العلمية المتشابكة فى علاقتها (بدلا من الوظيفية) التى يتوقع أن تتلاءم مع عملية إعادة الصياغة الرياضية النهائية للنظرية .

ب ـ الايكولوجيا الانسانية الحدثة : Modern human Ecology –

وهى الشكل الثانى من أشكال النظرية الوضعية العامة . تلك التى تنهض على ما يطلق عليه بالاتجاه البيولوجى الاجتماعى لدى علماء الايكولوجيا الدارسين لعلوم النبات والحيوان . واستطاع هاولى Amos Hawley فى عام ١٩٥٠ أن يعدل هذا الاتجاه عن طريق توسيع نطاقه وتنسيقه ، من نطاق التخصص داخل ميادين علم الاجتماع الحضرى والاقليمى إلى نظرية منسقة بتجاوز الحـــدود التقليدية الخاصة به . وهو يهدف الآن بطريقة ظاهرة ، إلى المعالجة العامة التنظيم

الاجتماعى ، ذلك المصطلح الذى استعير بمعناها الواسع عن نظرية الأبنية الاجتماعية .

ﺟ - النزعة الوظيفية البنائية : والتى تكون الشكل المختلف الثالث للنظريات الوضعية . وهى تتكون من عدد من النماذج الفرعية من الاتجاهات السوسيولوجية والانثروبولوجية الشهيرة . هذه النظريات بنيت أساسا لتساير النموذج المرفولوجى والفزيولوجى للكائن العضوى . وبالرغم من أنها تختلف بدرجة كبيرة كل منها عن الأخرى ، إلا أنها تجمع فى نمط من المجالات النامية والمعقدة بالنظام التالى : النزعة الوظيفية التى تدرس الوحدات الصغرى miro-functionalism لنظرية الجماعة الصغيرة ، النظرية الكلية hotiste للمجتمع الثقافى ، نظرية الأنساق الاجتماعية الريفية ، نظرية التنظيم ، النزعة الوظيفية الحضرية . . الخ . والمدخل أو الاتجاه الوظيفى على النطاق الأكبر ، طبق على بناء نظريات للمجتمع ككل أو فى جملته . ومن بين أكثر هذه النظريات شمولا تلك النظريات التى تعالج النسق الاجتماعى ، وخاصة تلك النظريات الشاملة التى تعتبر النسق الاجتماعى ، ثانية ، بمثابة واحد من الانساق بين مجموعة أكبر من أبنية النسق التحليلى العام .

د - النزعة السلوكية الاجتماعية : Social Behaviorism

والنموذج الرابع للنظرية الوضعية والتى تضم النظريات غير الذاتية وغير الارادية الفعل والتفاعل ، أو السلوك الاجتماعى فى عمومه . وقد تنهض هذه النزعة بناء على تصورات نظرية ميدانية أو ميكانيكية وتعمل على ضوء علم نفس المنبه والاستجابة المجدد ، أو تفترض جدلا النزعة الحتمية السلوكية للمعايير الثقافية .

ويبدو أن هذه النزعة تميز هذه النظريات التى عادة ما تحدث مقترنة بالاشكال

المختلفة للنزعة الوصفية السسيولوجية .

هـ ـ النظرية السيكولوجية البيولوجية للثقافة :

Bio. Psychological Theory of Culure

التى أدخلت على أنها نموذج نهائى للنظرية الوضعية . والتى تضرب بجذورها فى المفاهيم الدينامية السيكولوجية ـ لعلم نفس الغرائز الحـــديث . وفى علم الاجتماع ، تلعب النظريات من هــذا النموذج دوراً ضئيلا بالرغم من أنه دور لا يمكن تجاهله . وفى الانثروبولوجيا ، يبدو أن هــذه النظــرية أكثر تواتراً. وهى تمثل فى معظمها ، تطبيقات أو تكيفات لنظرية التحليل النفسى الفرويدى على نظرية الشخصية ـ الثقافة والموضوعات المرتبطة بهـا ، ولكن هناك صور معدلة لها اتفاقاً تهدف إلى بناء نظرية عن الثقافة برمتها .

٢ ـ علم الاجتماع التفسيرى interpretative .

والفئة الرئيسية الثانية فى النسق التصنيفى هى تلك المتعلقة بعلم الاجتماع التفسيرى .وهى تشمل النظريات التى لا يعتبر مؤلفيها علم الإجتماع علما طبيعياً، برغم أصرارهم على إلتزامهم القواعد المنهجية العامة للعلم . وهم يدعون ، مع إلتزامهم بتصور ماكس فيبر لعلم إجتماع متحرر من القيمة (Value — Free)، أن علم الإجتماع هو ذلك الميدان للبحث الاجتماعى الذى يتميز بإنه فريد من الناحية المنهجية . وهم يبررون هذا الموقف فى ضوء خصوصيه ، وتفرد موضوع الدراسة الإنسانى لهذا العلم . وتوجه هذه النظريات نتيجة لذلك الانتباه نحو الجوانب الذاتية والارادية للسلوك الإجتماعى . وتنهض مناهجها على الجمع بين وجهة النظـــر الخارجية outside للملاحظ الأنثروبولوجى أو السسيولوجى ووجهة النظر الداخلية للمشاركين فى الأحداث الملحوظة والعمليات،وقد يكون

فى الامكان التمييز بين أربعة أشكال مختلفة أساسية فى علم الاجتماع التفسيرى، إثنين منها بينهما علاقة إرتباط وثيقة .

أ — والنموذج الأول لعلم الاجتماع التفسيرى قد نطلق عليه إسم نظرية الفهم الثقافى . وتعالج النظريات من هذا النوع روح المجتمع الثقافى أو النغمة الشعورية . « ethos » or « feeling tone » وتصدر هذه النظريات عن محاولات تمثيل والتعرف على روح التجمعات الإجتماعية . وترجمتها الى لغة العلم السسيولوجى يمثل ما تترجم الى لغة ثقافتنا وجعل علماء الانثربولوجيا هذا الإتجاه مألوفا لعلماء الإجتماع الأمريكان ، ولكن بعض علماء الإجتماع أفادوا منه فى معالجاتهم لموضوع روح المجتمعات المعاصرة ، أو الأقسام الكبيرة من هذه المجتمعات .

ب — والنموذج الثانى للنظرية السسيولوجية التفسيرية سوف نطلق عليها النظرية التفسيرية للفعل والتفاعل . والتى يمكن تتبعها فى كتابات أو نظرية ماكس فيبر عن الفعل والفهم الذاتى وبدأت على أساس علم الإجتماع الذى يدرس الوحدات الصغرى ، يتناول فعل مجموعات الأشخاص الذين يربطون أنفسهم متعمدين بالآخرين ويدخلون فى علاقات متبادلة لها مغزى ذاتى مهم ويصل عالم الاجتماع من جانبه إلى تفسير صحيح عن مجرى مثل هذا التفاعل عندما يحاول التحقق من معناه بالنسبة للمشاركين فيه ، ولذلك ، فهو يفهم هذا التفاعل من جوانبه الذاتية . وعالم الإجتماع التفسيرى لكى يحصل أو يصل إلى أساس سسيولوجى عملى ، على أية حال ، يبدأ من دراسات الحالة الفردية نحو بناء نظرية عن الفعل الذاتى والتفاعل التى تنهض على توقعات أنموذجية . ويضع المناصر لهذا الإتجاه ، كقاعدة ، نظريته عن الفعل السسيولوجى الذى يدرس الوحدات

الصغرى فى إطار الأبنية النظرية الأكبر والتاريخية إن أمكن . وقد يكون هذا الإطار السيولوجى الذى يدرس الوحدات السيولوجية الكبرى وإن لم يكن دائما ، متسقا مع نقطة الإنطلاق لنظرية الفعل الذاتى .

جـ — والشكل الثالث المختلف لعلم الإجتماع التفسيرى هو نظرية التفاعل الرمزى . وتظل النظريات من هذه الفئة الفرعية على مستوى تحليل الوحدات السيولوجية الصغرى ؛ وهى تكون أحد نماذج علم النفس الإجتماعى الحديث . وهى تهتم ، معتمدة فى ذلك بشدة على النزعة السلوكية الفلسفية لجورج ميد Mead G. H. ، بعمليات التفاعل الرمزى (اللفظى) على المستوى الذاتى الداخلى ،وتتمثل الموضوعات الرئيسية فى نشوء أصل وإجراء الإدراك الأجتماعى فى العمليات التفاعلـــية .

ويوجه بعض علماء النزعة التفاعلية الرمزية أيضا الإنتباه نحو العمليـــات الإدراكية التى من خلالها يدرك الفرد ويتصور العالم الإجتماعى المحيط به . وهذا العكس أو القلب أو التغيير لأسلوب عالم التفاعل الرمزى يكون شكلا مغايرا رابعا لعلم الإجتماع التفسيرى .

د ـ وسوف نطلق عليه اسم علم الظواهر الإجتماعى Social Phenomenology ويهتم هذا الإتجاه بالأشكال الفعلية التى تبدوا شاملة وبعمليات الخبرة الوعيـــة والإدراك وقبول هذه الجوانب من العالم الاجتماعى للانسان التى لا تكون فقط معرفته عن العلاقات الشخصية المتبادلة،وإنما تكون أيضا معنى خبرته الاجتماعية . وتعد الخبرة الذاتية الداخلية هى محور علم الظواهر الاجتماعى، فالناس لايتفاعلون فقط الواحد منهم مع الآخر ، وإنما كل منهم يفهم الآخر أيضاً .

٣ - النظريات الاجتماعية التقويمية Evaluative Social Theories

والفئة الرئيسية الثالثة للنظرية السسيولوجية العامة تشمل النظريات الاجتماعية التقويمية أو غير العلمية . ولقد صاغ هذه النظريات الكتاب الذين لا يعتبرون علم الاجتماع علما ولا يعتبرونه يخضع القواعد العلمية فى الاجراء والتطبيق.ولقد رفضوا، كقاعدة،ليس فقط مبدأ الموضوعية الوضعية ،وهو الحد الأقصى الأساسى لاتجاه العلم الطبيعى ، وإنما عارضوا أيضا مبدأ التحرر من القيمة ، المبدأ الأساسى للاتجاه العلمى الاجتماعى لعلم الاجتماع التفسيرى ولقد بدأوا بدلا من ذلك استنادا إلى مقدماتهم الفلسفية المفترضة ، ومعتقداتهم الايديولوجية ومن إتساق قيمهم . وهكذا ، أصبحت العروض الفلسفية المنسقة والتوجيهات الايديولوجية المتماسكة ومجموعة المثل الاجتماعية أو إتساق المبادىء الأخلاقية أصبحت هى الأساس لمثل هذه النظريات . وفى كل حالة، كانت المقدمات المنطقية القيمية تأخذ مكانها مباشرة فى بناء النسق النظرى . ولقد أعترض الكثير من علماء الاجتماع على هذا الاجراء ومال بعضهم إلى التخلص من النظريات التقويمية من علمهم ، ولكنهم لم يحرزوا أى نجاح .

وفى الحقيقة ، فإننا نعترف بوجود نماذج ثلاثة من هذه النظريات المناهضة للوضعية ، وغير العلمية ، والتى تخصص القيمة جانبا فيها .

وتكون النظرية الفلسفية الاجتماعية Social phylosophical النوع الأول من هذه الفئة . ويقع فى هذه المجموعة الفلسفات الشاملة المجتمع أوالتاريخ، طالما أنها كتبت بميل أو نزعة سسيولوجية ، ثم يأتى بعد ذلك النظريات الفلسفية التى أجرت تحت راية علم اجتماع المعرفة . وهو أحد الاسهامات الاكثر حداثة فى علم الاجتماع الفلسفى والذى يعمل بالتصورات الميجليه ، بالرغم من أنه

يرفض المضامين التاريخية النزعة الهيجلية . والنموذج الثاني قد نطلق عليه النظرية الاجتماعية الايديولوجية. وكان مؤلفوا مثل هذه النظريات ملتزمين بايديولوجية نقدية إجتماعية على درجة كبيرة أو صغيرة من البلورة ، وأحيانا بالنظرة اليانعة للاتجاه الماركسي . وقد يربطون بين علم الاجتماع عندهم وبين الدعوة إلى فعل منظم نحو تغير متطرف بدرجة كبيرة أو صغيرة لمجتمعهم .

والفئة الفرعية الثالثة للنظرية الاجتماعية التقويمية تصدر عن معتقدات إخلاقية إجتماعية وجمالية أكثر مما تصدر عن توجيهات ايديولوجية فلسفية . هذه النظرية الاصلاحية الانسانية humanitarian متضمنة فى النزعة النقدية الاجتماعية ولكنها تركز على المشاكل الاجتماعية المتميزة أو المنفصلة discrete أكثر مما تركز على النظام الاجتماعى ككل . ويطالب مؤلفوا هذا الاتجاه بنوع من التحسين للظروف الاجتماعية المنتقاة وبنوع من الاصلاحات التدريجية .ولقد أتى التراث الحديث لهذا النموذج من كلا من المعسكرين السيولوجى والانثروبولوجى .

٤ - نظريات التغير الاجتماعى Theories of Social Change :

ليس هناك سبب منهجى لفصل نظرية التغير الاجتماعى عن مجموع النظريات السسيولوجية ولكن أى من النظريات المعروفة بنظريات التغير ، فى الأصل ، يمكن أن نضمها أو نجمعها تحت فئات واحدة تتجمع أو تدمج معا فى الاطار التصنيفى المقترح . ولكن علم الاجتماع الأمريكى الحديث يتميز بالفصل الكامل فى معظمة للاعتبارات التاريخية عن البناء الأساسى للنظرية والبحث . ومن أجل هذا السبب الخارجى الخالص ، قسم الاطار التصنيفى إلى قسمين اثنين متوازيين خصص الأول للنظريات التحليلية عموما ، ونعنى النظريات التى لا تلعب فيها

مشاكل التغير الاجتماعى دورا واضحا أو ظاهرا. ويشتمل القسم الثانى على نظريات التغير الاجتماعى ، ونعنى بها تلك النظريات الموجهة أساسا نحو مشاكل التغير الاجتماعى الأساسية ، والتطورات الثقافية الواسعة، أو العمليات التاريخية.

النظريات الوضعية للتغير الاجتماعى والتى تشمل علم الاجتماع التاريخى القديم ونظرية التخلف الثقافى ، والنظريه الدائرية العضوية ، والتوجيهات التطورية الجديدة ، أو تستند الى النظريات التاريخية التنميطية. وقد تبرز النظريات التقويمية عن تقاليد فلسفة التاريخ القديمة ، وتتبع الاتجاهات الماركسية الحديثة ، أو تكمن فى نظريات معينة للاصلاح الاجتماعى .

وهذا الاطار لتصنيف النظريات السيولوجية العامة يحيط بكل النظرية العامة المعاصرة ، وهو يدخل بعض النظم الخارجية فى الميدان . تلك التى تبدو أنها غير مرتبطة بأكثر من مجال فى البحث السسيولوجى . ويساعد على تنظيم التراث النظرى فى علم الاجتماع :

ولاشك أن هناك إتفاق فى مجالات معينة بين بعض النظريات ، وهذا الاتفاق يمكن تدعيمه عن طريق تقنين المصطلحات . كما قد نجد هناك تداخل جزئى حتى بين النظريات التى تم تصنيفها تحت فئات متباينه . ولكن حتى المسح المنسق والرفيع النظريات الحديثة الذى قدمه شارلس وزونا لوميس Loomis ، يبرهن على أن الاتفاق بين النظريات التى أعتبرنا أنها مرتبطه بعضها بالآخر ، محفوف بالمخاطر. وحتى إذا وجه أحدنا الانتباه نحو المجال الكلى للنظريات السسيولوجية الحاضرة، فإنه يصعب عليه أن يفلت من الانطباع بأن هناك حاله من التفكك وعدم الاتفاق والتناقض تسود بين الاتجاهات المتكامله . ولا يمكن لنا أن نقنع أنفسنا بوجود أى إتجاه محدد نحو الوحدة القصوى بين النظريات غير المرتبطة بعضها بالبعض الآخر ، أو تجاه التخلص تدريجيا من كل،وليس بعض النماذج النظرية الحاضرة التى لا يصعب التوفيق بينها .

والخلاصة أن التراث النظرى فى علم الاجتماع الحديث يمثل مجموعة متباينة من النظريات التى يحتمل أن يستمر وضعها على هذا الحال فى المستقبل . ولكن لا يجب

أن يستدل من هذا الوضع على فشل علم الاجتماع كنظام علمى ومجال الدراسة . وإنما يعدهذا الوضع إنعكاساً لظاهرة مميزة ونتيجةطبيعية وجوهرية لما يموج به المجتمع من اجواء فكرية وآراء وأنساق قيمية متفككة .

ثالثاً : الاتجاهات الاساسية فى نظرية علم الاجتماع :

ولكن يلاحظ كل من يتابع حركة علم الاجتماع اليوم تعدد وتباين وتزايد الكتابات حول نظرية هذا العلم . ولعلها كتابات تصدر عن تقدير لاهمية النظرية بالنسبة لنمو العلم وتقدمه ، وإن كانت تحاول فى أغلبها تحليل الارتباط بين النظرية والاتجاهات والمذاهب الفكرية والأيديولوجيه والأخلاقية وذلك من أجل الوصول بنظرية العلم إلى وضع يمكنه من تحقيق أهداف الفهم والضبط والتحكم والتفسير والتنبؤ بالظواهر التى يهتم بدراستها . ونذكر من بين هذه الكتابات على سبيل المثال لا الحصر تلك المعالجة التى قدمها روبرت نيسبت لنظرية علم الاجتماع فى علاقتها بالتراث الأخلاقى وتركيزه على أربعة مفاهيم هى المجتمع المحلى والسلطة والمكانة والمقدس والاغتراب باعتبارها مفاهيم محورية عند توكفيل وماركس ودوركايم وفيبر ، والتى أنتقلت هى نفسها فيما بعد إلى علم الاجتماع الحديث (١) وأيضاً معالجة أرفينج زايتلين المستفيضة للنظرية الاجتماعية فى علاقتها بالأيديولوجية وبخاصة تحليله للاسس الفلسفية لافكار عصر التنوير والاتجاهات المحافظة والراديكالية منذ ظهور أفكار بونالد وميستر وسان سيمون وأوجست كومت وماكس فيبر وباريتو وموسكا وروبرت ميشيل وأميل دوركايم وكارل

(1) Robert Nisbet, The sociological tradition, Basic Books, 1966.

ما نهايم (١) . هذا فضلا عن محاولة ألفين جولدنر تحليل العلاقة بين الأيديولوجية ونظرية علم الاجتماع الغربى (٢) . ولقد أسهمت مثل هـذه الـكتابات فى توجيـه الانظار نحو الأيديولوجيه كمعيار لتصنيف التراث النظرى فى علم الاجتماع الأمر الذى ساعد فى التغلب على ما كان يواجه عملية تصنيف هذا التراث النظرى بنـاء على معايير أخرى مثل المؤلف الفرد ، أو تقسيم المؤلفين إلى مـدارس أو غـيرها من صعوبات (٣) ، وعمل من ناحية أخرى على بلورة فكرة تقسيم التراث النظرى فى علم الاجتماع إلى إتجاهين نظريين أساسيين هما المادية التاريخية والبنائية الوظيفية. غير أنه من الملاحظ على هذه الكتابات أنها قـد إنصرفت فى أغلبها نحـو الماضى وتتبع التراث النظرى فى علم الاجتماع منذ البداية والتقاط أفكار أقطاب هذا العلم ومحاولة عرضها وتفسيرها على ضوء المناخ الفكرى والأيديولوجى والأخـــلاقى الذى ظهرت فى ظله .

ونحاول فيما يلى القاء الضوء على نظرية علم الاجتماع وتتبع أصولها حتى يتسنى لنا الوقوف على الطريق الذى سـارت فيه وتبلورت بفضله الاتجاهات الأساسية فى هذه النظرية. .

إذ يفضل البعض إتخاذ فكر عصر التنوير نقطة إنطلاق مناسبة لدراسة أصول النظرية السـسيولوجية وجـذورها ، عـلى أعتبار أن لهـذا الفكر جانبين

---

(1) I. M. Zeitlin, Ideology & the development of sociology. prentice hall India. New Delhi. 1969.

(2) A. Gouldner: The Coming crisis of western sociology. Heinemann New Delhi; 1971.

(3) P. S. Cohen, Modern Social theory. Heinemann. London. 1968: p. Vii.

الأول : سلبي نقدي . والثاني : إيجابي وصفي . غير أن وحدة الفكر هذه قد أنقسمت بين السلبية والايجابية في النهايه وبعد الثورة الفرنسية ، وأفصحت عن نفسها في مبادىء منفصلة أو فلسفات متصارعة (١) . ولعل المعاني التي تتضمنها هذه القضايا تتضح إذا تتبعنا فكر سان سيمون أحد مؤسسي علم الاجتماع ، باعتباره قد عاصر في البداية الثورة الفرنسية ، وتأثر بتعاليمها فجاءت كتاباته الاولى إنعكاسا للكثير من مبادىء تلك الثورة .. ولما كان سيمون قد عاصر أيضا تلك الشرور والاثام الكثيرة التي نجمت عن الثورة — حيث ترتب على التطرف الذي صاحبها وقوع الكثير من الجرائم والمظالم — كما عاصر الحركات الرجعية التي ظهرت كرد فعل على ذلك التطرف ، نجده قد تأثر بهذه الحركة المحافظة في صياغة كاباته المتأخرة . ويدل هذا الوضع على أن فكر سان سيمون (في كتاباته الأولى والمتأخرة) يجمع بين ثناياه الجانبين النقدي والمحافظ اللذين يشيران إلى الوحدة التي كانت تميز فكر عصر التنوير . ولما كانت كتابات سان سيمون تمثل بدورها أحد المصادر المشتركة التي استقى منها كارل ماركس وأوجست كومت فيما بعد كثيرا من مبادئها وأفكارها ، فان أفكار ماركس وكومت تجسد حقيقة هذا الانقسام في وحدة فكر عصر التنوير إلى مبادىء وفلسفات منفصلة ومتصارعة ، وهذا ما كان يعنيه زايتلين من قوله السابق حيث نجد ماركس يهتم أكثر بالجانب السلبي أو النقدي المنصب على المجتمع الرأسمالي في القرن التاسع عشر ويخضع كومت للتيار الايجابي والوضعي والرجعي المعادي للتنوير والثورة الفرنسية (١) . ويزيد

(I) I. M. Zeitlin, op. cit. pp. VII – 5.

(١) حيث أنشأ كومت علم الاجتماع الوضعي ليختص ببحث الوقائع بدلا من الاوهام المتعالية والتأمل العقيم ويدرس التنظيم بدلا من دراسة السلب والهدم ... ويرتبط بحقائق النظام الاجتماعي القائم . ورغم أنه لا يرفض الحاجة إلى الاصلاح والتحسين فانه يستبعد أية =

ألفين جولدنر هذه الأفكار وضوحا بقوله أن علم الاجتماع بعد سان سيمون قد انقسم إلى اتجاهين أساسيين يتايز كل منهما عن الآخر من الناحيتين البنائية والنظرية، يتمثل الاتجاه الأول فى علم الاجتماع عند كارل ماكس أو الماركسية ، ثم علم الاجتماع الماركسى بعد ذلك والذى حقق نجاحا ضخما فى أوربا الشرقية . ويشير الثانى إلى برنامج أوجست كومت الخاص بإنشاء علم الاجتماع الخالص التى تمثل بعد ذلك فى علم الاجتماع الأكاديمى والجامعى الذى تبلور فى الاتجاه الوظيفى كما يعبر عنه تالكوت بارسونز والذى حقق تطوراً ورواجا هائلين فى الولايات المتحدة [1] ، هذا من الناحية البنائية ، أما من الناحية النظرية فنجد ، على حد

= حركة ترمى إلى قلب هذا النظام أو نفيه وكان يريد من علم الاجتماع الوضعى وضع اطار عام لنظرية اجتماعية تبطل أثر الاتجاهات السلبية وتصل إلى دفاع ايديولوجى عن مجتمع الطبقة الوسطى فاتجه إلى جعل دراسة المجتمع مساوية لدراسة الطبيعة وأصبح العلم الطبيعى وبخاصة البيولوجيا نموذج النظرية الاجتماعية بهدف جعلها علما يبحث عن قوانين مشابهة فى صيغتها القوانين الفيزيائية ، من هنا ذهب كومت إلى أن حركة المجتمع تخضع بالضرورة لقوانين فيزيائية لا تتغير بدلا من أن يحكمها نوع من الارادة . فاقترنت الوضعية برفض ادعاء الانسان بأنه قادر على تغيير نظمه وادارة تنظيمها وفقا لارادته . والايمان بقوانين ثابتة فيه دعم النظام القائم وطاعة واستسلام له . وعلم الاجتماع الوضعى فى اساسه دراسة استاتيكية كونية للمجتمع نتيجة لسيادة تصور النظام ، ولكنه ايضا دراسة ديناميكية للمجتمع بفضل وجود تصور التقدم ، الأول شرط أساسى للثانى وكل تقدم يتجه آخر الأمر إلى النظام . وتوفق الوضعية بين النظام والتقدم فتوضح أن التقدم فى ذاته نظام وليس ثورة بل تطور ، ثم عرضت آليات التطور الذى يتصور كل حالة للمجتمع باعتبارها نتيجة ضرورية للحالة السابقة عليها .

(هربرت ماركيوز ، العقل والثورة ، هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية ترجمة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية للنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ص ٣٢٧–٣٣٤) .

(I) A. Gouldner, op. cit. p. III.

تمير لوكوود أن هذين الاتجاهين يمثلان تصوران نظريان يخالفان بعضها على خط مستقيم يركز الأول على الصراع الاجتماعي والتغيير ويهتم الثاني بالنسق الاجتماعي الثابت وتكامله (١) .

وإذا كان العرض السابق يوضح لنا الطريق الذي سار فيه التراث النظري في علم الاجتماع وتبلورت بفضله الاتجاهات الأساسية في هذا التراث ، فانه يبقى أمامنا أن نوضح مضمون كل اتجاه من هذه الاتجاهات الأساسية ، قبل أن نبين التطورات التي طرأت على هذه الاتجاهات ونحاول تفسيرها .

المادية التاريخية :

تعتبر المادية التاريخية بمثابة ذلك الجانب من الماركسية الذي يمثل نظرية سسيولوجية ومنهج حتى في تحليل الواقع الاجتماعي المتغير أزلا (٢) . وهذه النظرية تعتبر علاقات الانتاج جوهر بناء المجتمع بمعنى أنها العلاقات الأساسيه والرئيسية بمقارنتها بغيرها من علاقات اجتماعية أخرى ، وتتخذ هذه النظرية من التكوين الاقتصادي الاجتماعي Socio-Economic Formation حجر زاوية لها. ذلك المفهوم الذي يجعل من الممكن تحديد مرحلة التطور التاريخي الذي وصل اليه المجتمع في أحد البلدان أو غيرها ، ويساعد على صياغة السمات المميزة لهذه المرحلة ، وذلك على ضوء عناصر هذا التكوين المتمثلة في البناء الأساسي

---

(1) D. Lockwood. Some remarkes on the social system. British Journal of sociology: 1956 pp. 134-146.

(2) F. Konstantinow, & V. Kelle. Historical materialism. Marxist sociology. in ; P. Hollander. American & soviat sociology edt, Prentice hall. Inc. New Jersey: 1964. p. 515.

Basic Structure والبناء الفوقى Super Structure كما أعان هذا المفهوم على أعتبار العلاقة بين العناصر المكونة لتكوين الاقتصادى الاجتماعى ، علاقة تفاعلية. وجعلنا ننظر إلى المجتمع باعتباره كائنا عضويا متماسكا ، وسهل علينا تحليل هذا المجتمع وظواهره وعملياته المتباينة فى السياق التاريخى الاجتماعى وعموما كان لهذه النظرية الفضل فى التوصل إلى القانون الذى يحكم ظهور وتغير التكوينات الاجتماعية للمجتمع والذى بواسطته أمكن الانتقال من مجرد وصف الظواهر الاجتماعية إلى تحليلها العلمى الدقيق(1) .

تتخذ اذن المادية التاريخية نقطة انطلاقها فى التحليل من ما تعتبره أساسا لكل بنية إجتماعية أو تكوين إقتصادى إجتماعى — مجتمعا معينا أو مرحلة من تاريخ المجتمع ، أو مجمل تاريخ المجتمع الإنسانى — بمعنى أنها تبدأ تحليلها من طريقة الحصول على وسائل العيش فى المجتمع أو من العملية الإنتاجية . وتقرر أنه فى عملية الإنتاج يدخل الناس فى علاقات محددة وضرورية ومستقلة عن إرادتهم تتطابق مع مرحلة محددة من مراحل تطور قوى الإنتاج . وان علاقات الانتاج هذه فضلا عن قوى الانتاج تكون ما يعرف بالبناء الأساسى للمجتمع . ويرتبط البناء الأساسى بالبناء الفوقى الذى يشمل الأفكار والتنظيمات والنظم أو وجهات النظر الفلسفية والدينية والأخلاقية والقانونية والايديولوجية والسياسية ، أو كل ما يشير إلى مصطلح الوعى الاجتماعى ، بحيث تعكس كل صور الوعى الاجتماعى العلاقات الاقتصادية للبناء الأساسى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وبالرغم من أن البناء الأساسى يحدد الظواهر البنائية الفوقية إلا أن هذه الأخيرة تكون

(I) G. osipov. Lenin & Marxist sociology. social sciences to - day. 1970, No 3 pp. 3-19,

مستقلة نسبياً فى تطورها — إذن لكل تكوين إقتصادى بناؤه الأساسى المحدد وبناؤه الفوقى المصاحب — والتغير فى البناء الأساسى والبناء الفوقى ناتج عن الانتقال من تكوين إقتصادى إجتماعى إلى تكوين آخر . ويمر البناء الفوقى بتغير معين داخل التكوين الواحد . ولكن ليس البناء الفوقى الظاهر حديثاً كانعكاس للبناء الأساسى ، بناء سلبيا . وإنما يلعب دوراً فعالا فى العملية التاريخية ويؤثر فيها من جميع جوانبها وبخاصة الجانب الإقتصادى الذى يدين له بوجوده . وينشب الصراع الأيديولوجى فى التكوين الاقتصادى الاجتماعى الواحد بين الأطراف الداخلة فى العلاقات الانتاجية والمكونة للبناء الطبقى فى المجتمع ، وبخاصة بين وجهات نظرها الفلسفية والأخلاقية والسياسية،وذلك نتيجة لتطوير قوى الإنتاج الذى يتبعه تغير فى علاقات الانتاج بحيث يؤدى الصراع بين قوى الانتاج الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة لا محالة إلى ثورة إجتماعية تنقل المجتمع من تكوين إقتصادى اجتماعى إلى التكوين الذى يليه (١) . من المجتمع الاقتصادى إلى المجتمع الرأسمالى ، ومن الأخير إلى المجتمع الاشتراكى .... وهكذا .

البنائية الوظيفية :

أن وجود نظرية واحدة وتصور مشترك يوجه عمليات البحث فى علم الاجتماع الغربى الذى تمتد بدايته إلى أوجست كومت فى القرن التاسع عشر لم يتحقق إلا بعد نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات من القرن الحالى . وذلك عندما نشر تالكوت بارسونز كتابه « بناء الفعل الاجتماعى » عام ١٩٣٧ . وما أن

---

(1) M. Resenthal & P. Yudin, A dictionary of philosophy, progress publ: Moscow, 1967, pp: 45, 279—294.

ظهرت مؤلفات بارسونز التالية(٢) حتى أخذت أفكاره وآراؤه تنتشر فى الجامعات الأمريكية وأقسام علم الاجتماع بها ، كبناء لنظرية فريدة فى علم الاجتماع الغربى. غير أنه قد طرأ على هـذه النظرية بعض التغيرات ، بحيث نجد بارسونز نفسه يطلق عليها فيما بعد تسمية التصور البنائى الوظيفى للنسق، لأنه إذا كان بارسونز فى كتابه « بناء الفعل » يعتبر الوحدة الحالية لتصوره أو نموذجه القياسى ، متمثلة فى الفعل، فى مقابل السلوك وأن الفعل يفترض فاعلا خلاقا وفعالا ومقوما . وهذا الفعل قبل كل شىء إختيارى بمعنى أنه يوجد نحو غاية محـددة على أساس ذاتى ومن خلال اختيار وسيلة واحـدة بين عدد من الوسائل البديلة . كما كان هذا التصور يفترض امكانية البناء الفرضى للفعل داخل النسق . فانه يلاحظ أن هـذا التصور قد تغير فى كتب بارسونز التالية « لبناء الفعل » بحيث نجـد أن النسق الاجتماعى يأخذ صفة جوهرية باعتباره أداة تصورية للواقع الاجتماعى .. هذا ويبرر البعض تسمية بارسونز لنظريته بالنسق البنائى الوظيفى على ضوء تأثره بأفكار دور كايم وماكس فيبر(٣) .

وينظر التصور البنائى الوظيفى عند بارسونز للواقع الاجتماعى باعتباره نسقاً يتكون من أجزاء ويتميز بسمتين أساسيتين : أولها أن هناك اعتماداً متبادلا بين الأجزاء أو المتغيرات التى يتكون منها النسق . وثانيهما أن النسق يحافظ على ذاته فإذا ما أصابه تغير عاد إلى حالة توازنه الأولى .

---

(٢) « نحو نظرية عامة للفعل والنسق الاجتماعى » ١٩٥١ ومقالات عمـل فى « نظرية الفعل » ١٩٥٣ .

(3) R. W. Friedrichs, A sociology of Sociology, the free press. New York. 1970. pp. 12-15.

ويحدد هذا التصور المقصود بالنسق فى أنه يتكون من اثنين أو أكثر من الوحدات (أو الأدوار) المتفاعلة مع بعضها البعض والتى تكون فى حالة اعتماد متبادل فيما بينها . (١) أو بعبارة أخرى أن النسق يتكون من اثنين أو أكثر من شاغلى الأدوار الذين يدخلون فى تفاعل مع بعضهم الآخر وينتظرون من بعضهم توقعات معينة ، تكمل توقعات الآخر ، بمعنى أن ما يعتبره أحدهما حق يعتبره الآخر واجب والعكس صحيح ، وهذا التوقع يعتمد بدوره على الالتزام بمجموعة من القيم الأخلاقية التى يشتركون فيها ويتقاسمونها (٢) .

ويخصص التصور البنائى الوظيفى بعض القضايا لمعالجة حالة التوازن فى النسق، إذ يقرر أن التغير فى حالة أحد مكونات النسق يترتب عليه تغير فى حالة باقى الأجزاء بمعنى أن النسق يسعى إلى التوازن . وذلك لأن الأنساق الاجتماعية تحافظ على حدودها فى علاقتها مع بيئتها ولا تتمثل . وان لكل فعل فى النسق وصفه من حيث الكيفية التى يؤثر بها فى حالة توازن النسق وتمايزه عن هذه البيئة . والنسق فى علاقته مع البيئة (الفيزيقية والاجتماعية) يتجه أساساً نحو انجاز هدف ، وإلى أن تحصل وحداته المكونة على جزاءات معينة ، وهذا يستلزم تكيفها مع البيئة .

ويصاحب الحفاظ على حدود النسق مع البيئة أو تكيفه معها تكامل الوحدات المكونة وتضامنها وفى الوقت نفسه قلة التوترات الداخلية . ومن هنا يوصف الفعل بأنه يزيد أو يقلل من تحقيق هدف أو جزاء الوحدات المكونة للنسق ، أو

(1) M. Zelditch, A note on the analysis of equilibruim systems, in : T. Parsons, & R. Bales, Family, socialization, & Interaction, Process, Illienoi, 1955, pp. 401—402.

(2) A. Gouldner, op, cit. pp. 138—211.

من تكيفه مع بيئته أو من تكامل هذه الوحدات أو من التوتر بينها . وتوصف عمليات انجاز الهدف والتكيف بأنها مناشط أداتية كما توصف عمليات التوتر والتكامل من قبيل النشاط التعبيري فى النسق .

وإستخدام بارسونز فى وصف الفعل من حيث حركته وتمايزه بنائيا ووقتياً مفاهيم النقطة والمنطقة والحركة والوجه والطاقة وغيرها ، إذ يشير التمايز الوقتى إلى أن الوحدات المتباينة للنسق خلال أى وجه أو عند أى نقطة زمنية تقع عند نقاط مختلفة فى المجال وتصف مسارات متباينة داخله . ويعنى التمايز البنائى أن الوحدات المتباينة تتخذ مدارات مختلفة خلال دائرة الفعل ، وتظهر فى أنماط تعاقب زمنى متكررة ، بما أن النسق يسعى نحو الثبات ويستلزم الحفاظ على حدوده . وتفرض بالضرورة مجموعة من المدارات المتمايزة على كل نسق إجتماعى. ويتجه تمايز المدارات نحو حل مشاكل النسق (انجاز الهدف ، التكيف ، التكامل ، التوتر) . ويتخصص أعضاء النسق فى أنماط المدارات المتمايزة هذه (١) .

رابعاً : إتجاهات التطور فى نظرية علم الاجتماع :

إنتشر كلا الاتجاهين — المادية التاريخية والبنائية الوظيفية — فى علم الاجتماع عن طريق شريحة إجتماعية مختلفة . فارتبط الاتجاه الأول منذ البداية بالحركة الثقافية والفكرية التى عملت من أجل الجماعات المناضلة والدنيا والتى كانت بطبيعتها ثائرة على المجتمع البورجوازى الذى رفضهم . أما الاتجاه الثانى فقد نما فى الولايات المتحدة على أيدى الأكاديميين فى الجامعات الذين كانوا

---

(1) M. Zelditch, op. cit. pp. 202-206.

يعملون لتدعيم الطبقة الوسطى ، والذين انحصر نشاطهم فى الإصلاح دون الثورة . (١) وعند النظر إلى وضع هـذه الاتجاهات اليوم فى علم الاجتماع ، أو بعبارة أخرى عندما تنظر إلى المادية التاريخية والماركسية وعلم الاجتماع فى الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية من ناحية،ونلقى نظرة مماثلة على البنائية الوظيفية وعلم الاجتماع الاكاديمى فى الولايات المتحدة وأوروبا ، من ناحية أخرى ، يمكن أن ندرك تلك التغيرات الهامة التى طرأت على هذين الاتجاهين ، وذلك نتيجة لتأثير بعض القوى الإجتماعية الهائلة والمصاحبة ، وليس فقط نتيجة لتراكم نتاج البحوث الامبريقية ، على النحو الذى يشير إليه المنهج التقليدى (٢) .

إتجاهات التطور فى علم الاجتماع الماركسى :

إذا كان انجلز قد سهر على نشر الماركسية بين الطبقات العاملة فى مختلف بلاد أوروبا بعد وفاة ماركس ، وعاصر النمو الفريد للأحزاب الاشتراكية وسيطرة النفوذ الماركسى فيها وشهد الأعراض الأولى للانقسام وتشويه الماركسية من جانب التيارات التحريفية والأرثوذكسية واليسارية ، بحيث سار الفكر الماركسى إلى تدهور وتفكك . فانه قد برز عن هـذا الركام من الأطلال المتناثرة ، فكر لينين ممسكا من جديد بتلك العناصر المفككة لاعادة تكوين إتجاهاً فكريا جديداً هو الماركسية اللينينية (٣) .

الماركسية اللينينية :

كان لينين قد أخذ يناقش علماء الإجتماع فى روسيا الذين استمروا فى الأخذ

(1) A. Gouldner, op. cit. pp. 20-21.

(2) Ibid. pp. III-395.

(٣) هنرى لوفيفر ، فكر لينين ، ترجمة عربية اعداد د. كمال التالى ، دمشق، ١٩٦٩ ، ص ص ١٧ — ٣٨ .

بالاتجاهات التحريفية والارثوذكسية واليسارية أو المواقف الذاتية ، ويشرح لهم جوهر الثورة العلمية للتصور الماركسى ، ويوضح كيف أن علم الاجتماع يصبح علما حقيقيا عندما يستند فقط إلى المادية التاريخية . ولم ينظر لينين إلى الماركسية على أنها نسق من القضايا النظرية التى تناسب كل مرحلة من مراحل التطور الإجتماعى، وأنها أعتبرها منهجا فى التحليل . وأجرى استنادا اليها تحليلا متميزا للبناء الإجتماعى للمجتمع الروسى فى نهاية القرن التاسع عشر. والواقع أن اهتمام لينين بالتصور الماركسى من حيث تنقيته وتدعيمه واستخدامه كان مرتبطا بالحاجة إلى حل المشاكل الناشئة عن هدم النسق الموجود . واقامة أنساق جديدة ومستندا أيضا إلى الإيمان بأنه من غير الممكن بدون الإعتماد على العلم والبيانات الموضوعية المتحقق منها والدقيقة حل هذه المشاكل . ومن هنا تضمن القرار الخاص بانشاء الأكاديمية الاشتراكية للعلوم الاجتماعية بعد مايو ١٩١٨ ، الاشارة إلى ضرورة أجراء سلسلة من البحوث الاجتماعية التى يجب أن تجرى كأحد الواجبات الأولية ، وهكذا لم يكن الإتجـــاه الفكرى الجديد ونعنى به الماركسية اللينينية منصرفا فقط نحو تدعيم التصور الماركسى واتخاذه أطارا موجها لبحوثه . وإنما أضاف اليه أسهاما ضخما تمثل فى بلورة عدد من القضايا الأساسية (١)

تحريف الماركسية اللينينية :

غير أن هذا الاتجاه الفكرى الجديد قد حرف بعد ذلك أثناء الفترة الاستالينية مما جعله يسلم إلى الغفلة والنسيان، واستبدل البحث السيولوجى للمجتمع الإشتراكى بأطر نظرية عامة تنأى عن الحياة الحقيقية، وتمتـــاز بانتقاء على أحادى البعد ،

(I) G. osipov, op. cit, pp. 3-10.

وتنبثق عن المذهبية والمدرسية التى جـــردت العلم عن روحه وبعدت بينه بين النشاط الأصيل الخلاق . وكان من نتائج هـذا التحريف أن قلت أهمية البحث السسيولوجى فى حل المشاكل الناتجة عن التطبيق الشيوعى فى هـذه الفترة (١) .
وإذا كان بالامكان تسجيل شيئاً من التغـــير على التصور الماركسى أثناء العهد الاستالينى ، استناداً إلى أن ستالين نفسه قد أعلن عـام (١٩٥٠) أن المسلمات الجالية للماركسية ، والمتعلقة بامكانيات الطابع المفاجىء التغيرات العظمى لم يعد فى الامكان تطبيقها على المجتمع السوفيتى ، وانها تختلف مع الحاجات الجـديدة فى المجتمع إلى مسلمات تهتم بالقوى التى تعمـل على تكامله ، مثل اللغـــة والقومية والسلالية والتنظيم الإجتماعى ، الأمر الذى قد تبدو معه الحـاجة ماسة إلى تصور نظرى جديد يهتم بمشاكل المجتمع المتكامل . إلا أنه لم يتحقق بالفعل ذلك التطور فى التصور الماركسى إلا بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى عام ١٩٥٦ .
ويمكن أن تسجل مظاهر ذلك التطور والتغير الذى حدث فى علم الإجتماع الماركسى منذ ذلك التاريخ حتى اليوم على النحو التالى :

بعد أن فرغت أقاليم رئيسية فى أوروبا الشرقية وبخاصة الكتلة الشرقية خـلال النصف قرن الأخير ، من إحداث تغيرات أساسية فى الأنساق الإجتماعية القديمة ، واحلال أنساقا أخرى جديدة عليها ، ومن أهمها رفع مستوى التصنيع والقضاء على المركزية الإقتصادية والسياسية ، بدأت تظهر الحاجة إلى تصور نظرى جديد يركز على الميكانيزمات التلقائية التى تؤدى إلى الثبات الإجتماعى والنظام ، وذلك من أجل المحافظة على المنجزات التى حققتها الأنساق الجديدة .

الليبرمالية :

فى إتجاه نظرى جديد فى الاتحاد السوفيتى يدور حول الميكانيزمات التلقائية

(1) F. Konstantinov, & V. Kelle, op. cit. pp. 518–519.

التى تفيد فى تحقيق الحفاظ على النمو الإقتصادى والثبات ، عرف هذا الاتجاه باسم الليبرمانية Leibremanism . (١) ويقوم هـذا الاتجاه النظرى على الحافز المادى واللامركزية فى الإنتاج الاشتراكى. إذ يدعو إلى تطبيق مبدأ ومعدل الربح كمعيار رئيسى للكفاءة الإنتاجية . وذلك على أساس علاقة معدل الربح برأس المال الإنتاجى للمؤسسة الاقتصادية . فزيادة الانتاجية تقوم على وجـود علاقة بين الأرباح والأجور لأنه إذا كانت الأسعار مرنة بما يكفى ، ولا تحدد مركزيا ، وإنما على أساس المناطق الاقتصادية والفروع المحلية للصناعة ، فإنه من الممكن أن تتوفر حرية أكبر لكل مؤسسة على حدة فى اطار الخطة العامة .ذلك لأن الربح بناء على هذا التكنيك الجديد سيدفع كل مؤسسة إلى زيادة الانتاج وتحسين نوعيته . ومن ناحية أخرى يدعو هذا الاتجاه إلى ضرورة توسيع إختصاصات مديرى المؤسسات والأجهزة الإنتاجية ، لأن التخطيط المركزى فى ظل الاشتراكية ،لا يعنى صدور الأوامر من السلطات العليا بشأن كل صغيرة وكبيرة فى الإنتاج ،وإنما تحدد الخطة المركزية المسائل العامة ،وتترك التفاصيل للسلطات اللامركزية (٢) . . .

إتجاه نظرى جديد :

واضح إذن أن الاتجاه الليبرمانى يشير إلى أحد مظاهر التطور التى طرأت على علم الاجتماع الماركسى ، والحديث عن غير ذلك من مظاهر التطور يبادر به جولدنر قائلا ،انه يبدو فى هذه البلاد أن هناك إتجاهاً نحو بناء نظرية سيسيولوجية جديدة ، ليست من قبيل إحياء الماركسية التقليدية أو بمثابة ماركسية جديدة ،

(I) A, Gouldner, op. cit. pp. 455–458.

(٢) الموسوعة الاشتراكية ، دار الهلال، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص ١٣٢-١٣٣ .

وإنما هى نظرية قصد منها أن تكون متمايزة عن التقاليد الماركسية اللينينية ، وأشبه بعلم الإجتماع الأكاديمى فى الغرب ، ويمكن لنا أن نشاهد هـذا الاتجاه فى كثير من البلاد مثل موسكو وليننجراد وتوفسيوسكى ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ورومانيا الذى يجسده معاهد البحث التى أنشأت حديثاً ، والترجمات التى نشرت عن مؤلفى النظرية الوظيفية، والمجلات السيولوجية التى تصدرها وزيادة الانفتاح على جهود علماء الإجتماع فى الغرب، والمنافسة الواضحة بين الباحثين على حضور الاجتماعات السيولوجية الدولية ، وتبادل الخبرات الأجنبية وإجـراء البحوث حول موضوعات جـديدة مثل التدرج الإجتماعى والتنظيمات والسكان ووسائل الاتصال ، وتغير التصورات حول هذه الموضوعات ، وحول مفهوم البحث نفسه وعلاقته بالنظرية ، إذ أخـذت البحوث طابع الواقعية ليس بالمعنى الامبيريقى وإنما بالمعنى النقدى الذى رفض كل ما يستند إلى الصدق الذاتى ، أو التأمل المهتم بالمستقبل ، ويركز على الظروف المعاصرة، (١) فالبحث بهذا المفهوم الواقعى الجديد يجعل الماركسية اللينية قادرة على التطور والتقدم وأثراء نفسها بالبيانات الجديدة ، وبدونه قد تواجه بخطـر يجعلها نسقا من المفهومات الجامدة والمقولات التى تبعد عن الواقع المتغير . (٢) وإذا كانت المادية التاريخيـة هى النظرية وكانت الحياة من التعقيد والكبر ما يفوق اى نظرية ، وكانت لكل نظرية جوانب نقصها ، فإن البحث الواقعى يكون تعميقاً للنظرية . وبرغم كل هـــذه التطورات التى حدثت فى علم الإجتماع الماركسى ، إلا أنه لا يمكن القول أنهـا تناهض الإشتراكية والحزبيه . وذلك لأنها صدرت عن توجيه من القيادة العليا

(1) A. Gouldner, op. cit. pp. 458–462

(2) F. Konstantinov. & V. Kelle, op. cit. pp. 517.

للأحزاب الشيوعية ومن توصيات مؤتمراتها ، وذلك فى محاولة منها للأخذ بوجهات النظر الجديدة وتوسيع مجال الخطط والتدابير فى المجال السياسى . ولقد وجد هذا التوجيه تربة خصبة له مع قلة التحكم السياسى فى الحياة الثقافية وتوفر الأمن والإستقلال للابداع الفكرى والثقافى ، ومع محاولة إستعادة ثقة الجماهير السوفيتية فى سلطاتها ، بعد الأزمة الناجمة عن تسلط الاستالينيه ، من خلال القضاء على علاقة الشك بينها ، الأمر الذى فتح الطريق أمام الاستعانة بخدمات علم الاجتماع — نظرياته ومناهجه — فى تقدير ما يفضله ويريده الشعب السوفيتى اليوم (١) .

إتجاهات التطور فى علم الاجتماع الأكاديمى الغربى

إنتشرت البنائية الوظيفية فى الجامعات الأمريكية باعتبارها نظرية وحيدة وفريدة ومشتركة وممثلة لعلم الإجتماع الأمريكى وأضحت توجه البحث خلال فترة امتدت من نهاية الأربعينات حتى بداية الستينات .. ولقد بلغ تأثيرها ذروته فى خلال هذه الفترة ، بل إمتد ليشمل علماء الإجتماع الأكاديميين فى العالم أجمع . (٢) ويرد هذا الانتشار والتأثير إلى الدور الذى لعبته البنائية الوظيفية كبديل أمريكى للماركسية فى الوقت الذى كانت فيه الأخيرة هى النظرية الإجتماعية الكبرى والقائمة والمعروفة لكثير من المفكرين فى الغرب والتى يستند إليها الخصوم العالميين للرأسمالية (٣) .

---

(1) A. Gouldner, op. cit. pp. 462–464.

(2) R. W. Friedrichs, op. cit. pp. 13–21.

(3) A. Gouldner, op. cit. pp. 1?8–197.

ومع حلول الستينات وقعت أحداث هامة وتغيرات داخل وخارج الولايات المتحدة ترتب عليها تغير فى الإتجاه البنائى الوظيفى نفسه وفى الموقف الأكاديمى والقومى من هذا الاتجاه ، وظهرت الحاجة الى إتجاه نظرى جديد ليوجه البحث السيولوجى فى هذه المرحلة . ففى خارج الولايات المتحدة أصبح للاتحاد السوفيتى قوى هائلة وأمتد تأثيره ليشمل نصف بلاد الكرة الأرضية تقريبا وأزدهرت الدول الأفروآسيوية الاشتراكية ، ونشب الصراع الفيتنامى ، وبدأت الولايات المتحدة نفسها تحل سياسة الجار الطيب ، محل سياستها القديمة . [1] وفى داخل الولايات المتحدة تضخمت قوى السود ، وسحبت تأييدها للقيادة السياسية القومية ونشبت ثورة الحقوق المدنية والحرب على الفقر وثارت حركة الشباب الأمريكى وظهرت الحركات الطلابية واليسار الجديد . وتضخم دور الخدمات العسكرية والثقافية فى الهيئة السياسيه التى كانت تسهر على إزدهار ونمو دولة الرفاهية . وتبلورت الحاجات المتشابكة والمعقدة لدولة الرفاهية فى قيام الاقتصاد على التخطيط الحكومى ، وإزدياد الحاجة إلى التكنولوجيا ودورها البارز فى المجتمع الصناعى ، وتدعيم هيئتها بالتكنولوجيين الذين يلتزمون بالنظام القائم على التخطيط المركزى وإزدياد مسئوليتها تجاه تمويل الحلول التكنولوجيا للمشكلات الاجتماعية الجديده وبخاصة تلك التى تتفق مع مسلمات الصفوة البيروقراطية فى البناء التنكيل لهذه الدولة ، وتأكيد الحاجة إلى تأييد العلوم الاجتماعية وإلى نظرية جديدة تهتم بالكيفية التى تتغير بها الظروف الراهنة إلى ماهو أفضل والمساومة فى التغلب على المشاكل القومية المعترف بها والمعلن عنها ، وعلى التوترات الاجتماعية والصراعات بطريقة منسقة ، وإحداث إصلاحات إجتماعية معينة عن طريق التغيير

---

(1) R. W. Friedrichs, op. cit. p. 25.

المخطط والمتعمد ومواجهة الضغط الذى تمارسه الطبقات الاجتماعية المحرومة نسبيا سودا وعمالا وكذلك الجيوب التى تقاوم هذا التغيير عن طريق الإفـــلات من الضرائب . هذا فضلا عن تحديد الكيفية التى يمكن بها توسيع نطاق القـــوى الأمريكية فى الخارج بطريقة مباشرة وغير مباشرة من خلال أوجه النشاط الحكومى القومى والهيئات الدولية مثل اليونسكو وذلك بهدف التفوق على الاتحاد السوفيتى فى التحكم وتوجيه حالة التصنيع فى بلاد العالم الثالث وكسب تأييد القوى الرئيسية التى قد تمتعت بها بعض هذه البلاد (١).

أزمة البنائية الوظيفية :

ولما كانت البنائية الوظيفية فى كل تطوراتها وباعتبارها وريثة للاتجاه الوضعى وحتى مع تطورها فى الأنثروبولوجيا الانجليزية وفى صياغة دوركايم لها خلال الفترة الكلاسيكية لعلم الاجتماع ، أقل اهتماما بالدولة وبأهمية دورها ومسئولياتها فيما يتعلق بإدارة وتوجيه الاقتصاد وحل المشاكل الاجتماعية . وكانت أيضـــاً تؤكد دور القيم الأخلاقية وتتصور أن المشاكل الاجتماعية راجعة إلى إنهيـــار نسق القيم وعيوب فى عملية التنشئة الاجتماعية، وتبين كذلك أن هذه الميكانيزمات التلقائية هى التى تحافظ على النظام فى المجتمع وتصل به إلى المستوى الأفضل بدون تخطيط رشيد وتدخل حكومى .. .. الخ ، فإنه يمكن لنا أن ندرك مدى التعارض بين المسلمات البنائية الوظيفية وبين حاجات دولة الرفاهية ، وإن كان هذا التعارض أمراً متوقعا لأن البنائية الوظيفية كان لها جذورها فى بناء العواطف والمسلمات المشتقة من الخبرة الشخصية والتنشئة الاجتماعية فى الدولة السابقة على دولة الرفاهية حيث كانت تأخذ بالنزعة الارادية التى تمجد النضال الفردى ، وتجعل من متطلبات

---

(1) A. Gouldner, op. cit. pp. 341–351.

المشروع الحر متطلبات مثالية ، وكلاهما ينتميان إلى تصور السوق الحر واقتصاد دعه يعمل ، الذى وجد بارسونز أن مجتمعه عموما اختط من أجله ، ومن هنا كان يرى البعض أن البنائية الوظيفية تنطوى على تبرير أيديولوجى للوضع القائم عندما تصورت الانساق الاجتماعية على شاكلة المشروعات المنظمة فى إقتصاد السوق . (1) إلا أن هذا التعارض من ناحية أخرى والخلاف بين حاجات دولة الرفاهية ومسلمات البنائيه الوظيفيه جعل علماء الاجتماع فى أوربا الغربيه وأمريكا يحسون أن علمهم دخل عصر الأزمات والمتاعب وأنه يمر بفترة أزمة عاثلة الفترة السابقه على ظهور نموذج تصورى جديد يوجه البحث السيسولوجى فى ظل دولة الرفاهيه بدون أن يتعارض معها . فحدثت بينهم ردود فعل وإستجابات مختلفه ، بين رد الفعل الثورى والثورى المضاد ، ورد فعل بارسونز نفسه ، ثم محاولة صياغة نماذج نظريه جديدة .

الاتجاه الثورى :

لرد الفعل الثورى عدة مظاهر تتجلى فى تيار النقد الهجومى الشديد الذى بدأ يظهر مع حلول الستينات ، والمنصرف نحو البنائية الوظيفيه وتصورها للنسق الثابت ، وفى حالة السخط والشعور بالغربة التى سادت بين علماء الاجتماع الشبان على علم الاجتماع الأكاديمى عموما والوظيفيه بوجه خاص ، والتى تبلورت فى تكوين الخلايا الجماعيه المنظمه والحركة الراديكالية واليسار الجديد المتفرع عنها ، كما تجلت هذه الثورة قبل ذلك فى المواقف النقديه لبعض تلامذة بارسونز القدامى من البنائيه الوظيفيه .

إذا كان تيار النقد الذى ظهر مع بدايه الستينات ، يحاول كشف الصورة

(1) Ibid. pp. 341–351.

شبه الايديولوجيه للبنائيه الوظيفيه باعتبارها تقدم تبريرا للنزعه المحافظه التى سادت الفترة السابقه من تطور علم الاجتماع الامريكى فى أوروبا الغربيه . وقاد عمليه توجيه انتباه العلماء الاجتماعيين نحو الضبط الاجتماعى والاهتمام بعمليه التكيف مع الوضع القائم وإبعاد نظرهم عن التغير الاجتماعى والصـــراع — وتدفقت عن هذا التيار مقالات ميردال Merdal ، وميلز Mills ورونج Wrong فيجل Fygle وكثيرين غيرهم . (١)

وتعد الحركة الراديكالية أو حركة تحرير علم الإجتماع والتى تفرع عنها اليسار الجديد بمثابة ظاهرة عالمية ، إنتشرت فى العالم اليوم كحركة إجتماعية لها مجموعة متباينة من الاتجاهات السياسية وتستند إلى مجموعة من الأبنية السفلية والمسلمات السائدة فى ذلك الوقت ، وترتبط بالتغيرات والأحداث التى طرأت على البناء الثقافى والإجتماعى للمجتمع ، وتؤكد قيم المساواة والحرية والجماعية والديموقراطية والكرامة والابتكار . وتعادى كل ما يحيط من شأن القيم الإنسانية وحـــرية المجتمع ، وتتطلع إلى العلاقات الإنسانية الدافئة ، بدلا من النظام الرشيد فى المهن والمنشآت البيروقراطية ويحدوها الأمل فى بناء مجتمع جديد . وإذا كانت هـذه الحركة قد ارتبطت بفكر ماركس الشاب ، فانها رفضت الجانب السياسى فى الماركسيه التاريخية ، وبدلا من أن تستمد تأييدها من الطبقه العاملة ، استمدته من نمو دولة الرفاهيه ، ومن فئات إجتماعيه فهى مثل مطلاب والسود والمغتربين وبعض الأغنياء والفنانين وغيرهم من الفئات التى تنادى بالتغير الاجتماعى وتهتم بنقد الأوضاع الداخليه والسياسات القوميه الخارجيه والرسميه ، والسلطه والتدرج والامتثال للقيم . ومن هنا كانت الحركه الراديكاليه واليسار الجديد ترفض البنائيه الوظيفيه ،

---

(1) R. W. Friedrichs, op. cit. pp. 22–30.

وتتابع البحث عن إتجاه نظرى جديد يناسب الواقع الاجتماعى الذى يعيشونه، وهذا ما ظهر فى مؤلفات دانيل وجابريل كوهين بنيه D & G . Cohen Beniet أحد قادة العصيان الطلابى فى فرنسا عام ١٩٦٨ .[1] ولم تكن هذه الثورة جديدة على البنائيه الوظيفيه ، وإنما سبق إليها بعض تلامذة بارسونز القدامى والمنتمين إلى مجمـــوعته الأساسية ، حين حاولوا انتقاد البنائية الوظيفيه وأعلنوا صراحه تنازلهم عنهما نتيجه للحالة غـــير الطبيعيه التى وصلت إليهما . ومن هنا أنكر كنجزلى دافيز وجود نظرية يمكن أن يطلق عليها التحليل الوظيفى ويسهل تمييزها عن غيرها من نظريات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا لأن الاتفاق على المقصود بالتحليل الوظيفى أصبح أمراً بالغ الصعوبة [2] .

الاتجاه الثورى المضاد :

وعلى الرغم من أن الإتجاه الثورى قد ترك أثره على حالة التماسك والوحـدة التى سادت بين الباحثين فى علم الإجتماع الغربى منذ الحرب العالميه الثانيـة ، والتى جمعت بينهم حول التصور البنائى الوظيفى للنسق المتوازن إلا أن الميدان لم يخـل من فريق آخر من الباحثين الملتزمين بهذا التصور الذين حاولوا المحافظه على حالة التماسك السابقة ، عن طريق مواجهة الإتجـاه الثورى على تصور النسق الثـابت، بصورة مضادة ، أنصرفت نحو إدخال سلسلة مطولة من التعديلات على المضامين الخاصة بالبنائية الوظيفية فى تحليل النسق الثابت والمتوازن ، وما أعتقدوا أنه قد يفيد فى تحليل النسق المتغير . ولقد تدفق عن تيار الثورة المضادة مقالات ومؤلفات

(1) A. Gouldner, op. cit. pp. 376–407.

(2) K. Davis, the myth of functional analysis as a special methed in sociology & anthropology. American Seciological Review, 1959. vol. 24. pp. 757–772.

كانسيان Kancian وبرادمير Prademier وسملسر Semelser وفالدينج Falding وكوزر Coser وفانديبرج Van Den Bergh وكثيرين غيرهم. (١) - إذ أنفق سملسر فى مقاله « نحو نظرية عامة للتغير الاجتماعى » الكثير من وقته فى تقنين الماركسية والتوحيد بينها وبين الوظيفية (٢) وعندما أهتم كوزر بتحليل الصراع فانه ركز أساساً على وظائف الصراع دون معوقاته ، أو إنصرف باهتمامه نحو تلك الآثار التى يحدثها الصراع الاجتماعى ، والتى يترتب عليها زيادة فى تكيف العلاقات الاجتماعية والجماعات ، وأوضح أن الصراع عدد من الوظائف أهمها إسهامه فى الحفاظ على حدود الجماعة ، وأنه يحول دون إنسحاب اعضاء الجماعة منها . (٣) وكان فالدينج طموحاً للغاية فى محاولته التى تصور حالة التعايش السلمى بين بارسونز وميلز . وكان فانديبرج يعتقد أنه يمكن التوفيق بين البنائية الوظيفية والديالكتيكية لأن كلا منها بمثابة وجهة نظر لدراسة المجتمع من جانب واحد ، ومن ثم فهما يكملان بعضهما . وأن دراسة الاتفاق والتداخل بينهما قد يشير إلى بداية تمهد للتأليف المثمر بينهما (٤) .

الاتجاه البارسونى المعدل :

لم يقف بارسونز من أزمة البنائية الوظيفية جامداً ، بل قدم بعض الإسهامات

(1) R. W. Friedrichs, op. cit. pp. 31-36.

(2) N. Smelser, Toward a General Theory of Social change in : Essays in sociological explanation. p. 279.

(3) L. Coser, the functions of social conflict, the free press of Glenco. U. S. A. 1956. p. 7.

(4) P. Van Den Berghe, Dialectic & Functionalism, American Sociological Review, Oct : 1963, pp. 695-704.

التى حاول بها توسيع تصوره للنسق المتوازن ليشمل قضية التغير البنائى عن طريق وضع الأنساق الإجتماعية فى الإطار الأكبر للتطور الاجتماعى [١] وفى مقدمة هذه الاسهامات عن بعض الإعتبارات حول نظرية التغير الاجتماعى » ١٩٦١ ، و « القوانين التطورية فى المجتمع » ١٩٦٤ . ويذهب بارسونز (فى مقاله الأخير) إلى أن التطور يمر بمرحلتين اثنتين متعاقبتين ، مرحلة بداية وهى المرحلة المرتبطة بالمجتمع البدائى أو القبلى ، وتتميز بسيادة نظم القرابة والتى تستند فيها المكانة الإجتماعية إلى معايير القرابه والنسب ، وهذه المرحلة بمثابة نقطة إنطلاق لمرحلة التطور الثانية تلك التى تشمل كل ما يجرى بعد المرحلة الأولى ، والتى تظهر نتيجة لأثر التبرير الشرعى والثقافى للوظائف الإجتماعية السياسية المتمــايزة ، ونسق التدرج الاجتماعى المتميز . ذلك التدرج الذى يحدث أولا وكشــرط لشرعية الوظائف ، ثم يحدد بارسونز أربعة قوانين أخرى للتطور تؤثر فى هذه المرحلة ، وهى أنساق السوق ورأس المال ، والبيروقراطية ، والجمعيات الديموقراطية ، والقانون ، هذا فضلا عن التطلبات السابقة على التطور الثقافى والاجتماعى التى يحصرها فى التكنولوجيا واللغة والقرابة والدين . [٢] وإذا كان البعض يرى من ناحية ان اسهام بارسونز الجديد هذا ينطوى على جوانب التقاء مع الماركسية ، وخاصة عندما تذكر الأخيرة أنه يمكن التمييز بين مرحلتين فى التاريخ مرحـــلة المجتمعات العتيقة ثم المرحلة اللاحقه لكل التاريخ المعروف ، وعندما تؤكد أهمية انساق علاقات الإنتاج والأسرة واللغه والدين . إلا أنه يشير من ناحية أخـرى إلى أن هذا الأسهام البارسونى الجديديعتمد على ميكانزمات التطور دون الثورة ، ويحصر العوامل الجوهرية لبناء المجتمعات الحديثة فى التنظيمات البيروقراطية وهذه وأنساق المال والسوق والأنساق القانونية والاتحادات الديموقراطيـة

---

(1) R. W. Friedrichs, op. cit. p. 38.

(2) T. Parsons, Evolutionary Universals in sociology. American Sociological Review. XXIX. No: 3. 1964. pp. 325-342

العوامل متوافرة فى المجتمع الأمريكى باعتباره يمثل ذروة النمو التطورى ، بينما تفتقر آفاقا حديثة أخرى وخاصة الإتحاد السوفيتى إلى بعض هذه العوامل. والنتيجة التى يمكن إستخلاصها من هذا الإسهام الجديد أن بارسونز يحاول أن يبرهن استعانته بالقوانين التطورية على تفوق النسق الأمريكى على النسق الروسى الأمر الذى يمكن القول معه أن إتجاه بارسونز الجديد منح أوربا الغربية وأمريكا ثمنا عزائياً ونظراً نظرياً فى مقابل النصر الحقيقى السياسى والاجتماعى والتكنولوجى الذى حققته روسيا بالفعل . (١)

الاتجاه النظرى الجديد :

ومال بعض علماء الإجتماع الآخرين إلى توجيه استجاباتهم لأزمـــة علمهم وجهه أخرى ، تمثلت فى محاولتهم بلورة نماذج نظريه جديدة تماما تتميز بالشمول والراديكالية وباختلاف مسلماتها وأفكارها الرئيسيه عن مسلمات وأفكار البنائية الوظيفية . ولقد لمعت شخصيه أرمينج جوفمان بين زملائه هارفولد جارفينكل وجورج هومانز وغيرهم الذين أشتهروا بمحاولاتهم صياغة مثل هذه النماذج الجديدة.

نموذج جوفمان :

أعتبر جوفمان المسرح أنموذج لفهم الحياة الاجتماعية . ولذلك يحدد نقطة الانطلاق فى تحليله ، فى دخول الفرد ذاته على الآخرين ، ويركز على ما يحدث فى هذا الموقف من تصرفات وسلوك يعبر بها الفرد عن ذاته بقصد أو بغير قصد ، ومدى تأثر الآخرين بهذا السلوك وبمظهر الفرد نفسه ، (٢) ويذهب إلى أن

(I) A. Gouldner. op. cit. pp. 362–367.

(2) Erning Goffman. presentation of self to others, in : T. Manis. & B. Meltzer. eds, symbolic interaction, Allyn & Bacon. Boston. 5 Prin. 1969. pp 220–231.

الأفراد فى هذا الموقف يناضلون من أجل توصيل صورة مقنعة عن ذواتهم إلى الآخرين ، بمعنى أنهم لا يحاولون عمل شىء بقدر ما يحاولون أن يكونوا شيئاً ما . وهم بهذا يلعبون أدوارا أكروباتيه ويشاركون فى الألعاب بهدف رفع قيمه الذات وذلك دون الاعتمــــاد على الأخلاق والاحترام ، وإنما على إثارة الشعور الضئيل بالشفقة المتبادل بين النـــاس وبعضهم البعض . ومن ثم تصبح الحياة الإجتماعية أو الواقع بمثابة مجموعة من قواعد الألعاب التى يمكن التحكم فيها من ناحية الأداء أكثر منها بمجموعة من الإلتزامات الأخلاقية التى يمكن الإحساس بأثرها أو تضحى هذه الحياة بمثابة عملية تفاعل بين مجموعـة من الجواسيس الذين يسعى كل واحد منهم نحو إقناع الآخرين بأن ما يدعيه هو حق ، وذلك من خلال النفاذ إلى ذواتهم . إذن ليست الأخلاق هى التى تربط الناس ببعضهم. وإنما قدرة الأفراد على إقناع بعضهم الآخر بأن أداتهم قد بلغ المستويات المتوقعـة هى التى تربط بينهم . ويعتبر إذن الموقف أساس فهم الحياة ، وذلك باعتبارها تمارس فى دائرة شخصية ضيقة ، غير تاريخية ونظامية . وتستمر فى سيوله كحالة عابرة . فالحياة الاجتماعية ليست بمثابة أبنية إجتماعية ثابتة ومحددة ، وإنما هى شبكة مهلهلة تندفع فى تأرجح عبر ممر ضيق يرقبها الأفراد فى حذر .. كما أن الأفـراد ليسوا تابعا للنسق وإنما هم منفصلين ومضطربين عنه .. .. والواقع أن جوفمان كان يريد بهذه النظرية تناول أولئك الأفراد الذين يعيشون ويتعاملون مع التنظيمات البيروقراطية الكبيرة الحجم ، ذات القوة الساحقة ، التى يقل تأثير الأفراد فيها ، ويحاول بها البحث عن كيفية توافق الأفراد معها وبداخلها (١) .

نموذج جارفينكل :

تعد نظرية جارفينكل بمثابة اطار مرجعى بديل للبنائية الوظيفية، ذلك لأنها

(I) A. Gouldner. op. cit. pp. 378–390.

تعتبر عملية ممارسة الحياةاليومية بواسطة وسائل يبين بها الفاعلين عالمهم ويشيدون واقعهم ، أمراً مشكلا ، وذلك على خلاف البنائية التى كانت تسلم جـــدلا بهذه العملية على أنها أمـــراً معطى . وكان جارفينكل فى إهتمامه بالنظـام الإجتماعى ومتطلباته يتخذ موقفاً راديكاليا ، بحيث لا نجده يدرس القيم الأخلاقية المشتركة كأساس لهذا النظام ، وإنما يقوم بالبحث الدقيق عن بناء الفعل الاجتماعى فى ثنايا اللغة ــ لغة الحديث اليومية ــ كوسيط للتفاعل الأجتماعى وبحيث أنه كان يحاول الكشف عن العـــلاقات المعقدة بين التفكير والعقل وربط بينهما فى عملية الحادثة بين الأفراد، ويبحث عن الأبنيةالتى يمكن بواسطتها التعبير عن مشاعرهم، ويوصلون بواسطتها ما يريدونه للآخرين . وان صياغة المحادثات فى هذه الأبنية يضع يدنا على الظواهر التى يمكن ملاحظتها ووضع تقارير عنها . (١) إذن يركز جارفينكل على الحيـاة اليومية ويسعى إلى فهم المواقف الإجتماعية من الداخـل كما هى ، وكما تظهر للأفراد الذين يعيشونها ، ويحـاول الكشف عن القواعد الضمنية التى تحكم التفاعل الإجتماعى ، وتحـــدد مدى دلالتها بالنسبة للأشخاص الذين يدخلون فى هذا التفاعل . ويستخدم جارفينكل مناهج الفطرة السليمه ، والبرهنة، والحادثة أو بعبارة أخرى يستخدمما يطلق عليه الأثنوميثودولوجى فى إستخلاص وصياغة قضايا نظريته (٢) .

مناقشة وتعقيب :

تناولنا معنى النظرية وتعرضنـا لأنواعها ،ولمشكلة تصنيفها وأخذنا مثلا على

---

(1) John Mckinney & Edward Tiryakian. ed. Theoretical sociology. perspectives and developments. Meredith corperation, New York. 1970. pp. 17–18.

(2) A. Gouldner. op. cit. pp. 390–394.

مواجهة هذه المشكلة ثم تتبعت أصول التراث النظرى فى علم الإجتماع ، وأوضحنا الطريق الذى سارت فيه وتبلورت بفضله الاتجاهات الأساسية فى نظرية هذا العلم، وألقينا الضوء على مضمون المادية التاريخية والبنائية الوظيفية، ثم تابعنا إنتشار كلا الاتجاهين عن طريق شرائح إجتماعية مختلفة ، فى الاتحاد السوفيتى ، وبلاد الكتلة الشرقية ، وفى الولايات المتحدة وأوربا . وتناولت بعد ذلك ، التغيرات الهامة التى طرأت على هذين الاتجـــاهين موضحاً أثر القوى الاجتماعية الماثلة والمصاحبة فى هـــذه التغيرات ، حيث إرتبطت المـادية التاريخيـة منذ البـداية بالأيديولوجية الثقافيـة والفكرية التى أعلنت الثورة على المجتمـع البورجوازى ، وأخذت توجه البحوث السيولوجية فى هذه الفترة ،وهذا ما حاوله انجلز ولينين، الأول فى كتابه عن حالة الطبقة العاملة فى انجلـــترا ، والثانى فى مقال عن الهدم العظيم ، وذلك إستناداً إلى أن المادية التاريخيـة تعتبر نظرية سيولوجية ومنهج حى فى تحليل الواقع الاجتماعى المتغير أزلا ، هذا فضلا عن أنها كانت تتفق مع ظروف تلك المرحلة من تاريخ المجتمع فى بلاد شرق أوربا ، التى كانت تتطلع نحو هدف الأنساق الاجتماعية القديمة وإقامة أنساق أخرى جـديدة أو تستلزم إحداث التغير . غير أنه بعد أن تطور المجتمع فى هذه البلاد وأصبح أكثر تعقيداً وحقق الكثير من الانجازات ، وأضحى التضامن مقولة سيولوجية هامة كتعبير طبيعى ومنطقى عن العلاقات الاشتراكية فى الانتاج ، إهتم علم الاجـــتماع الأكاديمى السوفيتى بالاطارات التصورية التى تركز على عوامـل وميكانيزمات الثبات والتكامل والتضامن . فليس على أساس إعتبار المجتمع غير متكامل وإنما إنطلاقا من ضرورة تقديم المساعدة للمجتمع لكى يتمكن من زيادة مظاهر التكامل والتناسب بين قطاعاته المتباينة وذلك بعد فهم ميكانزماته . وكان من الطبيعى أن يترتب على هذا الاهتمام نمو تصور سيولوجى جديد يوفره علم الاجتماع

الأكاديمى الماركسى ليوجه البحث السيولوجى فى هذه الفترة الجديدة من تاريخ تطور المجتمع ، ويتفق معها .

ومن ناحية أخــرى إرتبطت البنائية الوظيفية منذ البداية بالأيديولوجية الثقافية والفكرية التى رفعت راية الإصلاح دون الثورة . واخذت توجه البحوث السيولوجية فى أوروبا الغربية وأمريكا فى الفترة من بداية الاربعينات حتى نهاية الخمسينات . وذلك إستناداً إلى أن البنــائية الوظيفية تعتبر نظرية سيولوجية لتحليل الواقع الثابت والمتوازن ، هذا فضلا عن أنها كانت تتفق مع ظروف تلك المرحلة من تاريخ المجتمع فى بلاد غرب أوروبا وأمريكا التى تحصل من متطلبات السوق الحر والمشروعات المنظمة ذاتيا ، متطلبات مثالية . غير أنه بعد أن تطور المجتمع فى هــذه البلاد وإزدهرت دولة الرفاهية وتبلورت حاجاتها ومتطلباتها إهتم علم الإجتماع الأكاديمى فى هذه البلاد نفسها فى الفــترة من بداية الخمسينات . حتى اليوم بالنماذج النظرية التى تركز على ميكانيزمات التغير الإجتماعى ، ليس على أساس أن المجتمع يتطلع إلى التغيير الجــذرى وإنما إنطلاقا من ضرورة تقديم المساعده للمجتمع حتى يتمكن من تحقيق بعض التغيرات التى يريدها ، وذلك بعد فهم ميكانيزماته . وكان من الطبيعى كذلك أن يترتب على هذا الإهتمام نمــو تصورات سيولوجية جديدةيوفرها علم الإجتماع الأكاديمى الغربى ليوجه البحث السيولوجى فى هذه الفترة الجديدة من تاريخ تطور المجتمع ، ويتفق معها . ليس الأمر إذن فى علم الإجتماع قاصراً على مجــرد تعصب البعض للمادية التاريخية ، وتمسك البعض الآخر بالبنائية الوظيفية على نحو جامد، وإنما انطوى علم الإجتماع على خاصية هامة تعبر عن مرونته وطابعه الديالكتيكى (النقــد والمحافظــة) ، وتجعله يهتم بالتصور النظرى الذى يتفق مع ظروف المجتمع فى المرحلة التاريخيه التى يعيشها .

والواقع أن الفائدة من إدراك هذه الخاصية المرنة لعلم الإجتماع تزداد بين الباحثين فى بلاد العالم الثالث ، ذلك لأنها قد تعينهم على تجاوز كل ما يعانونه من حيرة ولبس وهم بصدد البدء بتصور نظرى يوجه بحوثهم السيولوجية . إذ لا خلاف أن بلاد العالم الثالث فى معظمها تهتم بكيفية أحداث التغير فى أنساقها الإجتماعية القديمة ، وبكيفية تعبئة الجهود من أجل التنمية والتطور حتى يمكن دخولها المنطلق الصناعى . ومن هنا يمكن تفسير إنتشار المادية التاريخية فى هذه البلاد وإرتباطها بالحركات الفكرية والثقافية . وكذلك إهتمام علم الاجتماع بهذا التصور النظرى فى توجيه بحوثه . ولكن هذا لم يمنع من إنتشار البنائية الوظيفية فى بعض بلاد العالم الثالث التى كادت تصل إلى المنطلق الصناعى وحققت تغيرات أساسية فى بعض أنساقها القديمة وأوجدت أنساقاً جديدة يستلزم الأمر دراسة ميكانيزمات تكاملها ، وذلك إستناداً إلى مرونة علم الاجتمـــاع وطابعه الديالكتيكى أيضاً .

الفصل الرابع

مناهج البحث فى علم الاجتماع

مقـــدمة

أولا : نوعية البحوث فى علم الاجتماع

ثانيا : مناهج البحث الاجتماعى

ثالثا : طرق البحث الاجتماعى

رابعا : أدوات جمع البيانات

مقدمة

يتفق كثير من المشتغلين بالبحث الاجتماعى على تقسيم خطواته الاجرائيه إلى ثلاثة أقسام أو مراحل ، تمثل الأولى تخطيط البحث ، وتؤكد الثانية على تنفيذ البحث ، وتوضح المرحلة الثالثة كتابة التقرير النهائى . ومع ذلك ، فهناك من الباحثين من يذهب إلى أن الشعور بمشكلة البحث هو أول خطواته ، ويتبع هذا فرض الفروض ثم غربلتها ، لينتهى البحث إلى التحقق من صدق الفروض المستبقاه بعد إختبارها إمبيريقيا .

والملاحظ أن التصنيف الأول يصلح للدراسات ذات الطبيعـــة الكشفية أو الاستطلاعية أو الوصفية أو التفسيرية . على أن التصنيف الثانى يصلح البحوث التجريبية أو تلك التى تختبر الفروض السببية بصفة عامة . ومع ذلك ، فإن هذين التصنيفين يتفقان فى الخطوات الإجرائيه العامة عند تصميم أى بحث أو مشروع لبحث اجتماعى ، وعند تنفيذه والانتهاء بكتابة تقريره وإستخلاص نتائجه . ويجدر بنا أن نشير منذ البدايه ، أنه لا توجد قواعد جامدة فى خطوات البحث الاجتماعى ، فقد تملى طبيعة المشكلة بعض التغييرات فى ترتيب خطوات البحث ، وفى مدى أهمية كل منها حسبما تقتضيه طبيعة المشكلة من جانب ، والظروف التى يعمــــل الباحث من خلالها من جانب آخر .

يضاف إلى هذين التصنيفين ، ذلك الذى وضعه لندبرج وشراج ولارسين ، ومؤداه أن مشروع البحث فى علم الاجتماع ينبغى أن يتضمن عــــدة خطوات تفصيلية ، تبدأ بصياغة مشكلة البحث وهدف الدراسة صياغة محددة ، مع توضيح دوافع البحث .

والخطوة الثانية تتمثل فى وضع فروض البحث ، ثم تحديد السلوك وملاحظته، واختيار عينة البحث ، وتطبيقه ، وأخيرا استخلاص النتائج .[1]

وعلى خلاف التصنيف السابق يضع لندبرج ، فى كتابه عن البحث الإجتماعى، تصنيفاً لخطوات المنهج العلمى ، حيث يرى أن أولى الخطوات هى وضع فروض البحث التى يمكن أن تخضع للاختبار . وثانى هذه الخطوات هى ملاحظة المادة العلمية وتسجيل البيانات. أما ثالث خطوات المنهج العلمى ، فهى تصنيف البيانات وتنظيمها، حتى يتسنى الوصول إلى الخطوة الرابعة والأخيرة وهى التعميم والوصول إلى القانون العلمى[2] .

ومن الناحية الأكثر تفصيلا ، نعرض فيما يلى تصنيفاً لخطوات البحث الإجتماعى، وذلك حتى يستطيع الباحث المبتدىء أن يحدد موقع قدميه من مراحل البحث المختلفة . وحتى يستطيع كذلك تحديد الإمكانات اللازمة لإنجاز البحث فى مراحل زمنية محددة .

١ — إختيار موضوع البحث .

٢ — تحديد إطار البحث .

٣ — تحديد المفاهيم الأساسية .

٤ — تحديد هدف البحث .

٥ — الاطلاع على البحوث السابقة ، وتحديد مصادر جميع البيانات .

---

(1) George A. Lundberg, Clarence C. Schrag & Otto N. Larson Sociology : Harper & Brothers, pub. N.Y., 1958; pp: 56–62

(2) George A. Lundberg; Social Research: Longmans, Green & Co., N. Y., 1942 , pp. 9–11

٦ — وضع فروض البحث وقضاياه .

٧ — تحديد مجال البحث .

٨ — وضع توقيت زمنى للبحث ومراحله .

٩ — تقدير ميزانية البحث والامكانيات اللازمة .

١٠ — تحديد منهج البحث وأدوات جمع البيانات .

١١ — جمع البيانات .

١٢ — المراجعة الميدانية والمكتبية .

١٣ — التفريغ الآلى أو اليدوى .

١٤ — التحليل الإحصائى والعرض البيانى .

١٥ — التحليل الكيفى والتعميم وكتابة التقرير .

١٦ — التوثيق والمراجع والملاحق .

إن المتعمق لهذه الخطوات يستطيع أن يلحظ على الفور أنها تنقسم إلى خمسة نقاط أساسية . تهتم الأولى بتحديد هدف البحث ، وتتعلق الثانية بتوضيح مجاله البشرى والفنى والزمنى وحجم العينة . أما النقطة الثالثة فتضع فى إعتبارها تحديد الامكانيات الفنية والبشرية المتساحة وتوقيت كل خطوة من خطوات البحث ، إبتداء من إختيار موضوع البحث ، وإنتهاء إلى توصيات ينتهى بها البحث من خلال مروره بخطوات أخرى تتمثل فى مراحل الاعداد والتنفيذ وعرض النتائج. وتركز النقطة الرابعة على تحديد منهج البحث وأدوات جمع البيانات ، وفقاً للمرونة المنهجية التى يقبناها الباحث ، حيث يختار من الوسائل والمناهج ما يتلاءم مع طبيعة موضوع الدراسة وأسلوب البحث والظروف الاجتماعية والنفسية والبيولوجية والتاريخية التى تسيطر على الظاهرة . ومن هنا يبدأ تنفيذ البحث ،

بمعنى جمع البيانات اللازمة بالطريقة والأداة التى تحددت فى الخطوة السابقة .
ولا يعنى جمع البيانات ، تسجيلهـا دون تقدير مدى صحتها أو ثبات الأدوات .
ولهذا تراجع البيـــانات ميدانيا ، كما تراجع مكتبيا . وفى الحالة الأولى تتأكد
هيئة البحث من أن البيانات التى جمعت على جانب كبير من الصحة ، وهذا يعنى
أن هيئة البحث تتشكك فى كل من الباحث والمبحوث على السواء ، ولذلك تضع
منذ البداية مستوى معين على أساسه تعمم النتائج التى تستخلص من البيـانات .
ومعنى هذا ـ أيضاً ـ أن الباحث ربما لم يتلق تدريبا كافيـاً من أجله يتوحـد مع
غيره من الباحثين سواء فى طريقة إلقـاء السؤال أو تسلسل الأسئلة فى المقابلات
الحرة المفتوحة،أو حتى فى طريقة تقديم نفسه للمبحوث مما يؤثر على نتيجة المقابلة.
ففى المراجعة الميدانية يطلب من باحث غيره أن يقوم بإعادة إستيفاء البيانات،
وتقارن البيانات التى يجمعها الباحث الجـديد بتلك التى جمعها الباحث السابق ،
وفى هذا ضمان لعدم الشك فى أسلوب وطريقة وأمانة الباحث فى جمع بياناته .
ومن الناحيه المقابله ، فى هـذا ضمان من أن المبحوث لا تتغير إتجاهاته نحـــو
الاستجابة لأسئله محددة . أما فى المراجعـه المكتبية ، فيتأكد المراجـع المكتبى
من أن البيانات المطـلوب إستيفاءها قد جاءت فى كشف البحث أو المقـابلة أو
الملاحظات . كما تمهـد المراجعة المكتبية لمرحلة تفريغ البيانات . وإن أتفق على
أن يكون التفريغ يدوياً فعلى الباحث أن يعد كشوفاً للتفريغ مستخدماً طريقة
الحزم . أما إذا كان التفريغ آليـاً ، فعليه أن يقوم بتبويب البيـانات إن لم تكن
مبوبة وتحديد متغيرات الاجابة فى الأسئله المفتوحة النهاية ثم ترميزها تمهيـداً
بهذا النوع من التفريغ .

تتبقى إذن مرحلةعرض البيانات التى توصل اليها البحث بعد تفريغها . وهذه
المرحلة تحدد كيفية عرض البيانات ، سواء عن طريق الجدولة أو العرض البيانى

أو العرض الكيفي الوصفي . وإن كانت البيانات في صورتها النهائية كمية ، فإن هذا يتطلب تحليلا كيفيا نوعيا ، كما يتطلب تحليلا إحصائيا باستخدام مقاييس النزعة المركزية ومقاييس التشتت . وعلى أساس النتائج ، وفي ضوء الملاحظات وإستقراء الواقع ، يستطيع الباحث أن يصل إلى نوع من التعميم . وعند هذه الخطوة ، عليه أن يقارن بين ما وصلت إليه دراسته من نتائج ، وما توصلت إليه دراسات أخرى ، إتفاقا أو إختلافا . وتصاغ التعميمات مع تلك النتائج واضعين في الإعتبار طريقة البحث وأسلوب إختيار العينة أو الشمول وغير ذلك مما يتضمنه تقرير البحث .

وينتهي البحث في العادة بذكر أهم النتائج أو موجز التوصيات . وأخيراً ، على الباحث ان يضع في خاتمة البحث قائمة بمكتبة البحث ، أي المراجع التي إستخدمها ، حسب نوعياتها . وتصنف المراجع حسب موضوعات الدراسة ، أو تصنف أبجديا . وإن صنفت حسب موضوعات الدراسة ، فيجب أن يكون التصنيف الفرعي أبجديا كذلك . كما قد تصنف من الموضوعات العامة إلى الموضوعات الأكثر تخصيصا . وقد تصنف إلى مراجع عامة ثم كتب متخصصة في الموضوع ثم مقالات في دوريات . ويلحق البحث بمجموعة من الملاحق التي قد تكون صورا أو خرائط أو جداول أفيد منها عند التحليل . كما ترفق كذلك صورة من استمارة البحث أو دليل المقابلة ... وما إلى ذلك من ملاحق هامة .

أولا : نوعية البحوث في علم الاجتماع :ـ

إن طبيعة البحث أو الدراسة تحدد المنهج المستخدم ، وبالتالي يتحدد أسلوب البحث الذي يبين أداة مناسبة عن غيرها من أدوات البحث في دراسة موضوع

ذا طبيعة عامة . وتلك الأداة البحثية تحتاج هى الأخرى إلى فن لتطبيقها .
ومعنى هذا أن هناك أنواع مختلفة من البحوث والدراسات الاجتماعية أهمها :

١ — البحوث الكشفية Exploratory

وتهدف إلى التعرف على ظاهرة معينة باكتشاف معارف وأفكار جديدة بطريقة تساعد على تحديد مشكلة البحث بدقة ، ووضع أو استخلاص بعض الفروض بصورة يسهل إختبارها . أى أن هذا النوع من البحوث ينير لنا الطريق للتعرف على أهم الفروض التى ينبغى أن توضع موضع البحث والتجربة فى بحوث تالية . ويمكن تحديد أهداف البحوث أو الدراسات الاستطلاعية أو الصياغة أو الكشفية - وكلها مترادفات — فيما يلى [١]:—

١ — صياغة مشكلة البحث تمهيداً لإجراء بحث أدق لها .
٢ — تنمية فروض البحث .
٣ — زيادة ألفة الباحث بالموقف أو الظاهرة التى يرغب دراستها فيما بعد.
٤ — توضيح المفاهيم .
٥ — تبين المسائل التى ينبغى أن يكون لها السبق فى البحث مستقبلا .
٦ — جمع المعلومات عن الإمكانيات العملية للقيام ببحث فى المجال الواقعى الحى الذى ستجرى فيه الدراسة .
٧ — الحصول على قائمة بالمشاكل التى يراها الخبراء جديرة بالبحث العاجل فى ميدان من ميادين البحث .

ويعتمد هذا النوع من الدراسة أساسا على مراجعة نتائج البحوث والدراسات

---

(١) د. جمال زكى والسيد يس ، أسس البحث الاجتماعى ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٢ ، ص ٥٦

المتصلة ، لما فى ذلك من إقتصاد فى الجهود ، وأن يتمكن الباحث من بناء عمله البحثى على ما سبقه من بحوث . ومحور الاهتمام فى هذه المراجعة يكون فى العادة باستخلاص بعض الفروض التى تساعد على التعمق فى الدراسة . كذلك فإن هذا النوع من الدراسات يعتمد على الباحثين أو المعنيين بمثل هذه المشاكل موضوع الدراسة فى الحصول على البيانات اللازمة التى تستخدم كأساس لدراسات أعمق وأدق . وبالإضافة إلى إستعراض تراث العلوم الانسانية فيما يرتبط بالمشكلة موضع الدراسة ، يمكن للباحث أن يحلل الأسئلة المثيرة لإستبصاره وتلفت نظره كما يمكن له أن يجرى مسحاً للأشخاص الذين قد يكون لهم خبرة عملية بالمشكلة.

٢ — البحوث الوصفية Descriptive

تنحصر مثل هذه الدراسات فى أن يقوم الباحث بعرض خصائص وضع ما أو مجموعة من الأفراد ، سواء كان ذلك بناء على إفتراض سابق للدراسة أو بدونه بطريقة صحيحة ودقيقة . كذلك فإن الدراسات الوصفية تحدد ما إذا كانت ظاهرة معينه تتكرر ، وما إذا كانت فى تكرارها مرتبطة بعوامل معينه أخرى . وعادة مايسبق ذلك إفتراض مبدئى لوقوع مثل هذه الظاهرة ، وإن كان هذا ليس دائم الحدوث . وبصفة عامة ، فإن أهمية هذه الدراسات ترجع إلى دقتها وإتساع مضمونها أو نطاقها . ومن ثم فإنه يلزم وجود تصميم بحثى فى هذه الدراسات ليقلل إلى حد كبير من التحيز الجائز وقوعه ، وليزيد من الدقة المطلوبة فى جمع البيانات .

وتعرف الدراسة الوصفية بأنها تتضمن دراسه الحقائق الراهنة المتعلقه بطبيعة ظاهرة أو موقف أو مجموعه من الناس أو مجموعه من الأحداث أو مجموعه من الأوضاع . وهى دراسه لا تتضمن فروضا تذهب إلى أن متغيراً معيناً يؤدى إلى

متغير آخر أو ينتج عنه متغير آخر .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الدراسات الوصفية لا تحصر أهدافها فى مجرد جمع الحقائق ، فلو كان الأمر كذلك لما كانت تعد بحوثا علمية على وجه الاطلاق. إذ ينبغى على الباحث أن يسجل الدلالات التى يستخلصها من البيانات التى يجمعها، مسترشداً فى ذلك بالأهداف التى يتوخاها من الدراسة . ولا يتأتى ذلك بالطبع بغير تصنيف حاذق للبيانات يتيح لها أن تفصح عن الاتجاهات الكامنة فيها مثل إرتباط متغير بمتغير آخر أو بمتغيرات أخرى . أو إنحراف البيانات نحو متغيرات معينة أو تمركزها حول متغيرات أخرى . وكل هذه الاتجاهات ينبغى على الباحث أن يناقشها ويعطيها التفسير المناسب حتى ترقى الدراسة إلى مستوى البحث العلمى[1].

٣ - البحوث التشخيصية :

ويطلق عليها البحوث التى تختبر الفروض السببية testing of causal hypotheses لأنها تتناول الأسباب المختلفة المحتملة المؤدية إلى الظواهر الاجتماعية، وما يمكن إجراءه لتعديل بعضها . والمفهوم الدارج للسببية هو أنها حادث أو واقعة معينة أو عامل يؤدى إلى حدوث حادث أو ظاهرة أخرى . وتختلف النظرة العلمية إلى موضوع السببية ، إذ أنها لا ترجع حدوثها إلى عامل وحيد ، بل ترجع حدوثها إلى عوامل متعددة . وقد يبنى إستخلاص الأسباب المؤدية إلى ظاهرة معينة على أساس التجربة . ولذلك نجد نوعا من البحوث يطلق عليه البحث التجريبى الذى يدور حول إختبار صحة بعض الفروض المحددة مقدما . وتستخدم فى هذه البحوث الوسائل العلمية فى القياس والإحصاء ، للتعرف على مدى صحة هذه الفروض .

---

(١) المرجع السابق ، ص٨٥

ثانيا : مناهج البحث الاجتماعي :

إذا كانت طبيعة الدراسة هي التي تحدد المنهج الذى يتبع فيها ، فمنى هـذا أن كل دراسة منفـردة لا يليق لها منهج واحد فقط ، بل تتعـــدد مناهج دراسـة موضوع معين وفقا لمبدأ المرونة المنهجية الذى يدعو إلى عدم الاعتماد عـلى منهج وحيد والتقيد به عند دراسة أية ظاهرة أو مشكلة ، إذ يصلح مع هـذه الدراسة أكثر من منهج . فالدراسة الكشفية ـ مثلا ـ يمكن أن يصلح لها المنهج الوصفى أو المنهج المقارن أو النقدى أو التاريخى أو الإحصائى ... ولكن لا يصلح لهـا المنهج التجريبى . والدراسة التى تختبر الفروض السببية يمكن أن تصلح لها مناهج أخرى بالإضافة إلى المنهج التجريبى . ومن الممكن القـول بأن هناك منهجـين نجـد أنهما أكثر أهمية فى البحوث الاجتماعية وهما المنهج التاريخى والمنهج التجريبى . وعليه نرى ضرورة تفسير كل من هذين المنهجين .

١ - المنهج التاريخى *

هناك علاقة سببية بين الماضى والحاضر من حيث أنماط الحياة السائدة والنظم الاجتماعية والمستوى الحضارى فى كل حقبة من حقبات التاريخ . ويعتبر العالم العربى إبن خلدون هو أول من إتبع المنهج التاريخى فى مقدمته فى القرن الرابع عشر . ثم الفيلسوف جيوفانى فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) الذى يقـرر بأن العلوم يجب أن تتخـذ العصر الذى بدأ فيه الموضوع الذى نعنيه بالبحث كنقطـة بداية لدراسة هذا الموضوع .

ويرجع الفضل إلى الفيلسوف الفرنسى سان ـ سيمون فى الربط بين المنهج

---

* يمكن الرجوع الى عرض أكثر تفصيلا للمنهج التاريخى فى د. غريب سيد محمود، عبدالباسط محمد ، البحث الاجتماعى ، الجزء الأول ، ص ١٠٣-١١٦.

التاريخي والمنهج العلمي . فالطريقة التاريخية تستخدم ـ عادة ـ إذا أراد الباحث أن يحكم على الحاضر في ضوء ما حدث في الماضي . ومثال ذلك أن الطبيب يستخدم هذه الطريقة بجانب دراسة الحالة عندما يستفسر عن تاريخ المرض . كما يستخدم المنهج التاريخي في بحث كثير من الظواهر الاجتماعية والنفسية مثل دراسة حالات انحراف الشباب ، فيرجع الباحث إلى تحديد أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية في هذه الظاهرة عن طـــريق البحث عن الحقائق السابقة مثل سلوك الشباب في أسرهم ومجتمعهم المحلي وسائر الجماعات التي كانوا ينتمون إليها قبل انحرافهم . كما أن التاريخ في حقيقته ، عبارة عـن تسجيل واقعي الحـــوادث ، وتوضيح لتاريخ الحالة إذا كانت فرداً أو جماعة أو نظاماً إجتماعياً . (1)

فما هي ـ إذن ـ مصادر المنهج التاريخي؟ يمكن تقسيم المصادر التاريخية، وهي الحقائق أو البيانات المدونة في سجلات مثل الوثائق والمطبوعات والبحوث والدراسات الاحصائية ، إلى ثلاثة أقسام :ـ

أ ـ **مصادر أولية** : وهي التي تمدنا ببيـانات قامت بتدوينها أو تفـريغها وتبويبها ثم نشرها ـ إذا أقتضى الأمر ـ نفس الجهة التي قامت بجمعها بعد الدراسة والبحث . أو قد تكون آثاراً وهي بقايا حضارة سابقـة أو أحـداث وقعت في الماضي . وتعتبر بيانات التعدادات والاحصاءات التي تصدرها إدارات الإحصاء المركزية مصادر أولية ، كما تشتمل هذه المصادر على القوانين واللوائح .

ب ـ **مصادر ثانويه** : وهي ما نقل أو أشتق أو أخـذ عن مصادر أولية . أي أن الجهة التي تستفيد أو تستخدم البيانات الأولية تعتمد على البيانات التي تنشر

(I) G. Lundberg ; op. cit., p. II5

فى البحوث أو الرسائل العلمية أو فى الصحف والمجلات ، وتكون مستقاة من مصادر أولية أو من مصادر ثانوية أخرى .

ومن الأفضل إستخدام المصادر الأولية ، إذ أن المصادر الثانوية كثيراً ما تكون معرضة للاخطاء الناتجة عن عدم الدقة فى نقــل البيانات ، أو أخطاء فى الكتابة أو التحليل . كما أن المصادر الأوليةقد تحتوى على تفاصيل أوفى بطبيعة الحال من المصادر الثانوية .

ج - مصادر ميدانية : إذا كانت المعلومات المطلوبة توجد لدى بعض الأفراد أو الهيئات ، أو تكون مشاهدات غير مدونة فى سجلات ، فإن الباحث يقوم بجمعها عن طريق توجيه بعض الأسئلة للأفــراد أو الحصول عليها عن طريق المشاهدة المباشرة أو دراسة الآثار وبقايا الحضارات القديمة والتراث التاريخى لبعض الثقافات عن طريق مشاهدات الرحالة .

وبالإضافة إلى التصنيف السابق للبيانات ، فهناك تصنيف آخر ، يذهب الى تقسيم البيانات الى نوعين . الأول الذى تصدره هيئات حكومية ومؤسسات تابعة للدولة مباشرة . والنوع الثانى تصدره هيئات خاصة ، بحيث تجمع البيانات فى النوع الأول عن طريق الهيئات والمؤسسات الحكوميه ، عــلى أنها تجمع وفقا النوع الثانى عن طريق الهيئات غــير الحكوميه والاشخاص كرجال الأعمال والمؤسسات الاجتماعية الخاصــة وهيئات البحث الأهليـة والباحثين الاجتماعيين كافراد .(1) وترى بولين يونج أن مصادر المنهج التاريخى ثلاثة ، الوثائق

---

(1) Margaret J. Hagood & Daniel O. Price, Statistics for Sociologists, Holt, Rinehart and winston; N.Y., 1960, pp. 20-21

والمصادر التاريخية المتنوعة ، والتاريخ الثقافى والمادى ، والمصادر الشخصية .(١)

ومن الجدير بالذكر أن معظم البحوث تحتاج لكل هذه الانواع من المصادر، إذ تستلزم حقائق تاريخية أو إحصاءات معينة ، وتقتضى فى نفس الوقت إتصالا مباشرا ببعض الرواة والمؤرخين للتعرف على آرائهم أو الإطلاع على البحوث التاريخية الأخرى التى لها علاقة بالبحث موضوع الدراسة .

وسواء كان المصدر أوليا أو ثانويا فإنه يتعين على الباحث دائما أن يبذل محاولة فى سبيل التأكد من صدق المصدر ومدى دقته ، إذ أن بعض البيانات والمعلومات التاريخية تكون غير دقيقة ويعتورها نقص أو قصور مقصود أم غير مقصود . ولذلك كان على الباحث أن يجرى نوعين من الاختبارات أو التحليلات للمصادر التاريخية . **الاول** : تحليل خارجى ، يتضمن نقد الوثيقة للتحقق من شخصية كاتبها أو مؤرخها ، وما عرف عنه من صدق أو أمانة ، وذلك بدراسة تاريخه أو ما كتب عنه . كما يجب التحقق من تاريخ النشر لما له من دلالة على ما ورد بالوثيقة التاريخية من بيانات . **والثانى** : تحليل داخلى ، للتأكد من حقيقة المعانى أو المعلومات أو البيانات التى أشتملت عليها الوثيقة بشتى الطرق والوقوف على ما تضمنته من متناقضات أو أخطاء . يلى ذلك محاولة تنسيق المعلومات والحقائق التى توصل اليها الباحث والربط بينها فى كل متكامل ، ثم إستقراء هذه البيانات وتفسير مدلولاتها فى ضوء الأحداث التاريخية أو التطور الحضارى ، ثم يبدأ بعد ذلك فى تفسير النتائج وتحليلها ومقارنتها بما توصل اليه غيره من الباحثين .

---

(1) P. Young, Scientific Social Surveys & research; Prentice-Hall of india, N. Delhi, 1973, p. 155

وهكذا تنتهى عملية التحليل إلى تقرير عدد كبير من النتائج الجزئية . وعليه فهناك إجراء منهجى آخر يتطلبه المنهج التاريخى وهو التركيب التاريخى الذى يتضمن تصنيف الظواهر والاجتهاد فى إستخدام خيال المؤرخ عند وضع فروض معينة ، وتبرير أو تعليل ذلك الاجتهاد ، ثم عرض الحقائق التى هداه إليهـا التحليل والتركيب .

٢ — المنهج التجريبى :-

تستهدف الدراسة التجريبية جمع المعلومات وتنظيمها بشكل يؤدى إلى إلقاء الضوء على مدى صحة فرض أو مجموعة من الفروض . وبقدر ما تكون طريقة جمع المعلومات وتنظيمها دقيقة لا تحتمل الطعن ، تكون القيمة العلمية لهذه الدراسة . وبمعنى آخر إذا كانت النتائج التى نحصل عليها فى تجربة ما يمكن تفسيرها بأكثر من تفسير ، بحيث يؤدى بعض هذه التفسيرات إلى تأكيد صحة الفرض الذى نختبره ، بينما يؤدى بعضها الآخر إلى التشكيك فى صحته ، فإن هذه التجربة تكون إلى هذا الحد غير علمية ، وبذلك يمكن الطعن فيها بسهولة إذ أنهـا فشلت فيما تستهدفه أصلا ، وهو اختبار مدى صحة فرض معين من الفروض (١) .

والمنهج التجريبى عبارة عن إجراء بحثى فيه يقوم الباحث بخلق الموقف بما يتضمنه من شروط وظروف محددة ، حيث يتحكم فى بعض المتغيرات ، ويقوم بتحريك متغيرات أخرى ، حتى يستطيع تبين تأثير هذه المتغيرات المستقلة فى المتغيرات التابعة . أى أن المنهج التجريبى محاولة لتحديد العلاقة السببية بين متغيرات محددة .

ويرجع الفضل الى فرانسيس بيكون عندما ذكر أن الوسيلة الفعالة فى البرهنة

---

(١) د. نجيب اسكندر وآخرون ، الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعى ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ١٩٦١ ، ص ٢١٠

على صدق أحد الفروض تتمثل فى طريقة الحذف ، حيث يستطيع الباحث جمع الفروض التى يحتمل أن تكون سببا فى حدوث ظاهرة ما ثم يحذف منها ما يجده غير مؤكد حتى ينتهى الى سبب وحيد . كما يرى بيكون امكانية الكشف عن الصفات النوعية للاشياء أو خصائصها باستخدام ما أطلق عليه «قائمة الحضور» التى تحتوى على جميع الحالات الخاصة التى توجد فيها الطبيعة الأولية ، وتهدف الى فحص صفة أو ظاهرة بعينها ، والى البحث عن جميع الأمثلة التى توجد عليها ، و«قائمة الغياب» وتأتى بحالات مقابلة لتلك التى أمكن فحصها فى قائمة الحضور بحيث تكون كل جماعة هنا مقابلة لحالة خاصة هناك ، وبحيث تشترك الحالتان فى جميع الظروف ما عدا ظرفاً واحداً . و« قائمة التدرج » وفيها يقوم الباحث بإحصاء جميع الحالات الخاصة أو الأمثلة الجزئية التى توجد فيها صفة أو ظاهرة معينة بدرجات متفاوتة (١) . وقد أتخذت هذه الطرق مسميات أخرى لدى جون ستيوارت مل هى طريقة الإتفاق وطريقة الاختلاف وطريقة التغير النسبى ، وأضاف مل إلى هذه الطرق « طريقة البواقى » التى تمثل أسلوبا تجريبياً ينتهى إلى العثور على ظاهرة جديدة كانت مجهولة وتتطلب تفسيرا . بمعنى إذا أدت مجموعة من المقدمات الى مجموعة من النتائج ، وأمكن ارجاع جميع النتائج فى المجموعة الثانية ما عدا نتيجة واحدة الى جميع المقدمات فى المجموعة الأولى ما عدا مقدمة واحدة ، فمن الممكن أى توجد علاقة بين المقدمة والنتيجة الباقيتين.

ثالثا : طرق البحث الاجتماعى :

هناك كثير من الخلط بين طرق البحث الاجتماعى وبين مناهجه وأدواته .

---

(١) د. محمود قاسم ، المنطق الحديث ومناهج البحث ، مكتبة الانجلو المصريه ، الطبعة الثالثة،ص ١٠٥-١٠٦

ويرجع هذا ـ فى الواقع ـ الى تداخل خطوات البحث وعدم الإلتزام بخطوات مرحلية خلال اجراء الدراسات الاجتماعية بصفة خاصة . ولهذا نجد تحديد وتصور بعض المفهومات على أنها تقع فى نطاق المنهج أحيانا وفى نطاق أساليب أو طرق البحث أحيانا أخرى ، وفى مجال أدوات جمع البيانات أحيانا ثالثة . ولذلك أجد من المناسب هنا أن ننظر الى خطوات البحث فى علم الاجتماع نظرة فاحصة ومدققة بحيث أن منهج البحث يحدد أسلوبه وبالتالى تتحدد أداة جمع البيانات على أساس هنا أن الأسلوب . وليس فى هذا التقسيم تعسفا وخاصة ونحن بصدد شرح وتفسير البحث فى علم الإجتماع للباحث المبتدىء .

١ ـ دراسة الحالة : ـ

تعطى دراسة الحالة صورة كلية شاملة لدراسة ظاهرة معينة فى مجتمع محدد . وقد تكون الحالة موضوع البحث فرداً واحداً أو أسرة أو جماعة أو مؤسسة أو مشروع أو وحدة إدارية . كما قد تتضمن طريقة دراسة الحالة الوحدة بأكلها أو دراسة قطاع منها / فإذا كان البحث يدور حول الجسوم العائد ـ مثلا ـ فإن وحدة الدراسة هنا هى الفــرد . وإذا كان البحث عن « أثر الأسرة فى جناح احداث » كانت « الأسرة » هى وحدة الدراسة . وإن كنا بصدد دراسة جماعة معينة كجماعة اللعب أو الدراسة أو مجتمع الناصية ، فإن « الجماعة » تعتبر حينئذ وحدة لدراسة حالة هذه الجماعة أو تلك . وهكذا تتحدد وحدة دراسة الحالة وفقاً لوحدة الدراسة التى تحاول الكشف عن أبعادها وأعماقها وفقاً لمنهج محدد ومدخل واضح المعالم ، مستخدمين فى ذلك أدوات متعددة ـ وقد تكون أداة واحدة ـ لجمع البيانات عن موضوع الدراسة .

وتهدف دراسة الحالة إلى كشف العمليات والعوامل التى تقوم عليها نماذج

إجتماعية معينة ، بقصد تحديد خصائص موقف إجتماعى معين أو وحدة إجتماعية أو تنظيمية محددة . ولهذا تفيد دراسة الحالة فى الدراسات فى الاستطلاعية أو الكشفية ، كما تفيد كذلك فى الدراسات التى تختبر الفروض السببية .

ونظراً لأن دراسة الحالة أسلوب يركز على حالات فردية ، لهذا فلا يجوز التعميم عن طريقه ، إلا أنه يهيء الظروف لإجراء بحث أكثر شمولا .

— أما عن تطبيق هذا الأسلوب ، فهناك طريقتين ، الأولى : تاريخ الحالة Case history التى تهدف إلى دراسة دورة حياة الحالة وتطورها ونموها الطبيعى . والطريقة الثانية هى التاريخ الشخصى للحياة Life history أى عرض حياة الحالة من خلال وجهة نظر خاصة هى وجهة نظر الحالة ذاتها . على أن الطريقة الأولى تعتمد على التحقق مما تدلى به الحالة من آراء ومعلومات عن تطورها ونموها والحوادث التى راجهتها والظروف التى تحياها . إلا أن كلا الطريقتين لا تعتمدفقط على ما تدلى به الحالة ،بل تعتمد كذلك على مصادر أخرى كالوثائق الشخصية والخطابات . كما يعتمد هذا الاسلوب ـ عند جمع البيانات ـ على أدوات متنوعة مثل الملاحظة والمقابلة وإستمارات البحث . حتى يستطيع الباحث بعد جمع البيانات ، تحليل العناصر المتشابهة والمختلفة لكى يعقد مقارنات للحالات فى ضوء الفروق بينها ، وبعد ئذ يمكن للباحث صياغة النتائج .

٢ - المسح الاجتماعى : -

المسح الاجتماعى أسلوب لجمع البيانات عن جماعة معينة فى بيئة محددة من حيث ظروفها المعيشية ، ومناشطها وتكوينها الاجتماعى . وبذلك يتناول المسح الاجتماعى ـ مثلا ـ الجانب الصحى أو الزراعى أو دراسة الحياة الاجتماعية فى منطقة معينة . كما يستخدم هذا الأسلوب فى ميادين متعددة معتمداً على الاتصال

المباشر بين المجتمعات والأفراد (١) . ولقد إستخدم «مصطلح» المسح الاجتماعى» للتعبير عن البحث الاجتماعى الشامل من جهة ، والدلالة على أحد الأساليب النوعية المستخدمة فى البحث الاجتماعى من جهة أخرى . وهناك اعتقاد شائع يربط المسح الاجتماعى بمعنى الحصر ، حيث يتصور أصحاب هذا الاعتقاد أن الدراسة المسحية معناها الوقوف على كافة الجزئيات فى موضوع معين أو فى منطقة معينة (٢) . ومع ذلك فإن أسلوب الحصر الشامل ليس من مستلزمات المسح الاجتماعى ، ولكنه يهتم بتوضيح الطبيعة الحقيقية للظاهـــرة عن طريق تحليلها والوقوف على الظروف المحيطة بها أو الأسباب التى تدفع إلى ظهورها . فالمسح الاجتماعى كما يصفه كارادوج جونس Caradag Jones هو تعريف بمجتمع معين، وقياس لمستوى هذا المجتمع (٣) .

وهناك تصنيفات متعددة توضح أنواعها المسوح الاجتماعية . فقد يذهب البعض إلى تقسيم المسوح على أساس مجالها ، حيث ينظرون إلى أنها مسوح عامة تسير فى إتجاه أفقى ومسوح متخصصة تتخذ إتجاهاً تعمقياً . وقد يذهب البعض إلى تقسيمها حسب مدى التعمق الذى ترمى إليه الدراسة ، حيث يقسمونها إلى مسوح تعتمد على الوصف فقط ومسوح تهتم بالتفسير . وقد تقسم المسوح الاجتماعية حسب جمهور البحث الذى تجرى عليه الدراسة إلى مسوح شاملة ومسوح بالعينة .

---

(١) د. ابراهيم ابولغد ود. لويس كامل مليكة ، البحث الاجتماعى: مناهجه وأدواته ، مركز التربية الأساسية فى العالم العربى ، سرس الليان ، ١٩٥٩ ، ص ٩٠

(٢) د. محمد طلعت عيسى ، تصميم وتنفيذ البحوث الاجتماعية ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٧١ ، ص ٢٨٧

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٨

ومن أهم عيوب المسح الاجتماعي ـ أيا كانت نوعيته ـ الخطأ الذى يقع فيه الباحث أثناء إختيار العينة وخاصة إذا كانت طبيعة المسح تتطلب ذلك . وكذلك خطأ التحيز ، سواء كان من قبل الباحث أو المبحوث . يضاف إلى ذلك ضخامة المجهود والنفقات والخبرات الفنية التى يتطلبها المسح . كما أن التغير المستمر فى خطة الدراسة وإجراءاتها يحمل إمكانية لوجود صعوبات ومعوقات تحول دون إستخدام هذه الطريقة .

٣ - الطريقة الاسقاطية : -

ترتكز الطريقة الاسقاطية على أساس أن الاسقاط Projection عملية لا شعورية تستخدم كعملية دفاعية ضد القلق والدوافع اللاشعورية . ويحدث الاسقاط نتيجه عزو هذه الدوافع والرغبات والأفكار التى تسبب الألم للذات إلى الآخرين وإلى العالم الخارجى ، مما يترتب عليه خفض حدة التوتر لدى الفرد .

فالفرد حين تعرض عليه مثيرات غير متشكلة ومبهمة إلى حد ما ويطلب إليه أن يستجيب لها ، يسقط على هذه المثيرات المبهمه حاجاته ونزعاته ، وتبدوا هذه الحاجات والنزعات فى صورة استجابات لهذه المثيرات .

ويتفق العلماء على أن الأساليب الاسقاطيه على خمسه أنواع : **أولها** ، الطرق التكوينيه وتعتمد على أن الشخص الذى تفحصه تطلب منه أن يكون موضوعاً معيناً دون أن تحدد له عناصر سابقه ، كأن يرسم أى شىء أو يكتب أى شىء ، حيث أن هذه الطرق تعتمد على الخلق الفنى الحر . **وثانيها** ، الطرق البنائية وبمقتضاها تعطى الشخص عناصر محددة من قبل ويطلب منه أن يؤلف فيما بينها فى كل جديد . وتعتبر الطرق التفسيريه ثالث هذه الانواع حيث تفسر

الأشياء التى يراها الشخص ويحتمل تأويلها تأويلات مختلفة ، فهى عمليه تفسير تلقائى للأشكال غير المحددة المضمون مثل إختبار روور شاخ (١) وإختبار تفهم الموضوع (٢) . ورابع هذه الطرق هى ما يطلق عليها الطـــرق التطهيرية أو التنفيسيه ،ويقصد بها الانفعالات التى تحدث عن طريق المشاركة الوجدانيه ، وتستخدم فى العلاج النفسى بمعنى التنفيس عن العمليات اللاشعورية . أما الطريقة الخامسة فهى الطريقه الانكساريه التى تعتمد على التشويهات التى تقع عند إستخدام الكتابة وتكون راجعة إلى خصائص ذاتية شخصية .

ومن ناحيه أخرى ، يمكن تقسيم الأساليب الاسقاطية إلى:

أ- الاساليب الاسقاطية المصورة : يشيع إستخدامهـا فى كشف الاتجاهات الاجتماعيه عن طريق تقديم صورة فوتوغرافيه أو رسما كروكيا للمبحوث ويطلب منه تكوين قصة .

ب - الاساليب الاسقاطية اللفظية : وتشمل أنواعا متعددة منها اختبـــار التداعى وفيها تعد قائمة من الكلمات وتذكر للشخص كلمه بعد أخرى ويطلب

---

(١) اختبار رووشاخ Rorschach يتألف من عشرة صور ، تكون كل صورة منها من أشكال متماثلة من بقع الحبر . إلا أن خمسة صور تتكون من درجات مختلفة الظلال (أبيض ــ أسود) وصورتين من اللونين الأسود والأحمر ، أما الثلاثة الباقية فتتكون من ألوان متعددة غير الأسود .

(٢) اختبار تفهم الموضوع Thematic apperception test ويتكون من عشرين صورة بالاضافة الى بطاقة بيضاء • وتقسم البطاقات عند استخدامها تقسيمات مختلفة على أساس السن والنوع ، وغالبا ماتقدم الصور على فترتين. ويهدف هذا الاختبار الى ابراز تركيب شخصية الفرد من حيث حوافزه ومطالبه وحاجاته وعواطفه وصراعاته ومالديه من عقد نفسية وشذوذ .

منه أن يتداعى كل منها بذكر أول فكرة تخطر له . وتكون بعض هذه الكلمات: محايدة انفعالياً ، بينما يرتبط البعض الآخر بالإتجاه الاجتماعى المقصود اختباره. وقد يكون الاختبار فى صوره تكلة بعض الجمل أو كتابة قصة معروف بدايتها فقط

٤ - تحليل المضمون: —

يعرف تحليل المضمون Content analysis « على أنه أسلوب للبحث يهدف الى الوصف الموضوعى المنظم الكمى للمحتوى الظاهر للاتصال. ويقصد بالاتصال هنا — انتقال المعانى التى يعبر عنها بالرموز المختلفة — مثل الكلمة أو الصوت أو الصورة أو الرسم — من شخص لآخر أو مكان لآخر . ويهدف الإتصال الى الاجابة على أسئلة مثل : من الذى يقول ماذا ولمن وكيف يقول ؟ وما هى الآثار المترتبة على ذلك ؟

ويمكن حصر وحدات تحليل المضمون فى خمس هى : الكلمة ، أى الرمز ، وذلك حينما يقوم الباحث بتحليل كلمات الشعارات مثل كلمة « الحرية » أو « الديموقراطية » ، كما تشمل هذه الوحدة التحليل الأدبى لتحديد الألفاظ والكلمات الأكثر شيوعا بين الأدباء . والموضوع ، اى الفكرة التى تدور حول مشكلة معينة . والشخصيه : وقد تكون خيالية أو تاريخية ، وتستخدم فى تحليل القصص والدراما والسير والتراجم . والمفردة ، أى الوحدة الطبيعية التى يستخدمها منتج المادة ، وقد تكون كتابا أو مقالا أو قصة أو حديثاً أو برنامجاً اذاعياً . ومقاييس الزمن والمساحة ، وهى عباره عن تقسيمات مادية مثل عدد الأعمدة أو عدد السطور أو الصفحات أو الزمن فى البرامج الإذاعية أو وحدات الطول فى الفيلم.

هذا وتتوقف فئات تحليل المضمون على طبيعة المضمون ذاته . اذ ينبغى

---

* راجع كتاب « البحث الاجتماعى » مرجع سابق.

التفرقة بين المادة والشكل. فمن ناحية المادة يسأل عادة: ماذا كتب أو ماذا قيل ؟. ومن ناحية الشكل يسأل : كيف كتب أو كيف قيل فى مادة الإتصال ؟ ويعتبر السؤالين السابقين فئتى التحليل الأساسيتين . ويتوقف نجاح أو فشل تحليل المضمون على الفئات التى يستعملها الباحث .

رابعا : أدوات جمع البيانات :

لا يمكن أن يحقق البحث الاجتماعى أهدافه المرجوة إلا أن تكون عملية جمع البيانات مصممة على أساس علمى دقيق . لأن هذه البيانات تمثل موضوع البحث الذى ينبغى أن يكون محدداً تحديداً سليما يتفق مع الهدف العام الموضوعى الذى يسعى إلى تحقيقه الباحث . ولذلك فإن عملية جمع البيانات تعتبر أهم عملية أو خطوة من خطوات البحث الاجتماعى . وإذا كان المنهج والأسلوب محددان بطريقة سليمة فليس هذا تأكيداً على سلامة المادة العلمية التى تورد فى البحث . مما يترتب عليه ضرورة إتقان تصميم أدوات جمع البيانات بصورة تسمح بجمع بيانات تعبر عن الواقع الاجتماعى الذى يعطى للبحث موضوعه الأصلى ولايخرج به إلى موضوعات فرعية لا حاجة اليها فى ذات البحث .

وهنا تتنوع أدوات أو وسائل جمع البيانات ، والذى يهمنا أن نؤكد على أن لكل أداة من أدوات البحث الاجتماعى مزاياها وأوجه قصورها مع موضوعات معينة . ولذلك فهناك أفضل الوسائل التى تتفق مع دراسة موضوع دون غيره . وليس معنى هذا أن لكل بحث أداة واحدة فقط ، بل إن هناك ضرورة لتنويع هذه الأدوات فى كل بحث وفقاً لمبدأ المرونة المنهجية الذى يبغى إستخدام أكثر من أداة تصبح كل واحدة منها كضابط للوسيلة أو الأداة الأخرى .

ومع ذلك فسوف نعرض فيما يلى أهم أدوات جمع البيانات الشائعة والتى لا يستغنى عنها الباحث أو المشتغل بالعلوم الاجتماعية .

أ - الملاحظة :-

يمكن تحديد معنى الملاحظة observation على أنها المشاهدة الدقيقة لظاهرة ما ، مع الاستعانة بأساليب البحث والدراسة التي تتلاءم مع طبيعة هذه الظاهرة، وهذا هو المعنى العام للملاحظة . ويستخدم نفس المصطلح بمعنى خاص ، حيث يطلق على الحقائق المشاهدة التي يقررها الباحث في فرع خاص من فروع المعرفة فيقال مثلا : ملاحظات فلكية وملاحظات طبية أو اجتماعية . . . وغير ذلك . ولكن من الضروري أن تهدف الملاحظة بمعناها الصحيح إلى غرض عقلي واضح، هو الكشف عن بعض الحقائق التي يمكن استخدامها لاستنباط معرفة جديدة(١) .

وتتميز الملاحظة عن غيرها من طرق جمع البيانات ، بأنها تسجل السلوك بما يتضمن من مختلف العوامل في نفس الوقت الذي يتم فيه ، فيقل بذلك احتمال تدخل عاملي الذاكرة لدى الملاحظ ، وقدرة الشخص على أن يجيب لما يوجه له من أسئلة تتصل ببعض جوانب سلوكه ، إلى غير ذلك من العوامل التي تقلل من قيمة الأسئلة كطريقة من طرق البحث . ولكن قد تقضي طبيعة البحث أن نقارن بين ما يفعله الناس وما يقولونه ، وفي هذه الحالة يتعين بالطبع أن نجمع بين طريقتي الملاحظة والمقابلة(٢) . وتزداد قيمة الملاحظة في الحالات التي يزداد احتمال مقاومة الأفراد لما يوجه اليهم من اسئلة ، أو عدم تعاونهم مع الباحث أثناء المقابلة أو في الاستجابة للاختبار .

يضاف إلى ذلك أن هناك حالات متعددة لا يتيسر فيها إستخدام أداة أخرى غير الملاحظة مثل : طرق الحل الجماعي للمشكلات أو التفاعل الاجتماعي في لعب

---

(١) د. محمود قاسم، مرجع سابق ، ص ٨٣-٨٤ .
(٢) د. نجيب اسكندر ابراهيم وآخرون ، مرجع سابق ، ص ٤٠٩-٤١٠ .

الأطفال ... الخ . غير أنه من الناحية الأخرى يصعب فى الكثير من الحالات ، استخدام الملاحظة وخاصة فى الحالات التى يصعب فيها التنبؤ مقدما بسلوك المبحوث موضع الدراسة ، أو فى الحالات التى يكون القيام بالملاحظة فيها أمراً شـاقاً إلى حد بعيد [١] .

ويمكن أن تصنف الملاحظة ـ على حد ما ذهب جود وهات ـ إلى نوعين . الاول يركز على الملاحظة البسيطة سواء كانت غير مضبوطة أو يشارك الباحث الجمهور فى موقف الملاحظة أو لا يشارك . أما النوع الثانى فيتمثل فى الملاحظه المنظمة المنسقة وتتميز بوجود ضوابط تمارس على القائم بالملاحظة والمبحوث على السواء [٢]

كما يمكن أن تنقسم الملاحظة إلى عدة أنواع يطلق على كل منها مصطلح محدد فمصطلح « الملاحظة الفجة » ـ مثلا ـ يطلق على كل ملاحظة سريعة يقوم بهـا الإنسان فى ظروف الحياة العادية . ويمكن التمثيل لهذا النوع بملاحظة الرجل العادى الذى يوجه نظره إلى مختلف الأطوار التى يمر بها القمر ، فيرى أنه يبدأ هلالا ، ثم ينمو شيئاً فشيئاً حتى يكتمل بدرا ، ثم يتطرق اليه النقصان بالتدريج ، فيصير هلالا مرة أخرى ، ثم يختفى لكى يعود من جديد . حيث أن الرجل العادى لا يلبث أن يتوقف فى بحثه عند الأمور العملية التى تثير اهتمامه بطريقة مباشرة ، فلا يحاول الشروع فى تحليل الظواهر تحليلا يعتمد على التفكير العميق [٣] .

ويطلق مصطلح « الملاحظة العلمية » على كل ملاحظة منهجية يقوم بهـا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤١١ .

(2) William J. Goode & Paul K. Hatt; Methods in Social Research; Mc Graw-Hill Book co., N. Y., 1952, pp. 120-130.

(٣) المرجع قبل السابق ، ص ٨٤-٨٥ .

الباحث بصير وأداة الكشف عن تفاصيل الظواهر وعن العلاقات الخفيــة التى توجد بين عناصرها ، أو بينها وبين بعض الظواهر الاخرى . وهى تتميز عن الملاحظة الفجة بدقة ووضوح الهدف الذى نريد تحقيقه . فشتان بين ملاحظات الرجل العادى وبين ملاحظات العالم . فقد يلاحظان شيئاً واحداً ، ولكنهما يفهمان ما يريانه فهما مختلفا ، فيعبر كل منهما عما يرى بلغة تختلف تماما عن لغة الآخر [١] هذا ، وتنقسم الملاحظة العلمية إلى نوعين أساسيين . الاول يطلق عليه مصطلح « الملاحظة البسيطة المباشرة » التى لا تتضمن أكثر من كونها مجرد النظــــر أو الاستطلاع لموقف اجتماعى معين دون المشاركة الفعلية فيه . ويحاول الباحث — بقدر الإمكان — ألا يظهر فى الموقف [٢] . أما النوع الثانى فهو « الملاحظة التى تقوم على المشاركة » ، وتستخدم فى بحث الوحدات الكبيرة أو فى دراسة مجتمعات بأكملها ، وفيها يقوم الباحث مع أفراد البحث بتسجيل ملاحظــــاته ، كما يمكن إستخدامها فى بحث وحدات صغيرة أيضاً كالعمل مع الجماعات [٣].

ويرى فلوريان زنانيكى أنه ليس هناك مجال آخر غير مجــــال علم الاجتماع تظهر فيه ، وبوضوح ، الحاجة إلى ملاحظة انساق القيم ككل . [٤] كما يرى أن المشتغل بعلم الاجتماع عندما يستخدم الملاحظة كأداة لجمع البيانات ، فان هــــذه البيانات ، تتمثل فى الثقافة بالذات ، بما تحمله الثقافة من مكونات [٥] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٦ .

(٢) د. جمال زكى والسيد يس ، مرجع سابق ، ص ١٨٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(4) Florian Znaniecki; The Method of Sociology; Farrar & Rinehart, inc., N. Y,, 1934; p. 176.

(5) Ibid., pp. 172–186.

ولكى تكون الملاحظة أكثر دقة وموضوعية ، وخاصة إذا أجراها باحثون متعددون ، فإنه يستخدم معها استمارة بحث تتحدد فيها نقاط الملاحظة ، بحيث يستطيع كل باحث أن يحدد ملاحظاته فى ضوء أهداف البحث وفروضه . ويرى لندبرج - فى هذا - أن استمارة الملاحظة تعتبر أداة مساعدة لها ، وهى تعين على تحديد المظاهر الخاصة بالموقف موضع الملاحظة . كما أن هذه الاستمارة تحدد نقاط الملاحظة ومفهوماتها التى ينبغى عدم الابتعاد عنها (١).

٢ - المقابلة :

تعتبر المقابلة interview من أكثر وسائل الحصول على البيانات شيوعاً . ويتوقف نجاحها على مستوى التخطيط لها من جهة ، وعلى الكيفية التى تتبع فى تسجيل المعلومات والبيانات التى تسفر عنها هذه المقابلة من جهة أخرى (٢) . كما يمكن عن طريق المقابلة جمع البيانات وجهاً لوجه مع المبحوث والتعرف على صورة النفس البشرية ، مستعرضة بدرجة تسمح بالإلمام بظروف تنشئة المبحوث الاجتماعية ، ومتعمقة بدرجة تسمح للباحث بالكشف عن دوافعه ، ومشاعره وإتجاهاته وعقائده وقيمه وآماله ورغباته . وهذا ما يصعب الحصول عليه عن طريق الوسائل الأخرى لجمع البيانات .

وتعرف المقابلة أنها « تفاعل لفظى يتم عن طريق موقف مواجهة يحاول فيه الشخص القائم بالمقابلة interviewer أن يستثير معلومات أو آراء أو معتقدات شخص آخر أو أشخاص آخرين ، بالإضافة إلى حصوله على بعض البيانات الموضوعية الأخرى . وتسمح المقابلة باستقصاء الموضوعات الغير معروفة ، كما

---

(1) G. Lundberg; op. cit.; p 161.

(٢) د. محمد طلعت عيسى ، مرجع سابق ، ص ٣٢١-٣٢٢ .

هو سائد فى الدراسات الاستطلاعية . كما أنها تصلح فى جمع البيانات عن بعض الأمور الحساسة والتى يخجل المبحوث إتيانها سلوكاً أمام الباحث . بالإضافة الى ضرورتها فى المجتمعات التى يكثر بين أفرادها من هم غير ملمين بالقراءة والكتابة .

ويلخص لندبرج أهمية المقابلة للبحث الاجتماعى فى نقطتين : الاولى ، أنها قد تكون وسيله للتأكد من المادة العلمية التى جمعها الباحث عن طريق مصدر ثانوى . والثانية ، أنها أيضاً قد تكون بالنسبة للبحث الاجتماعى مثل الدراسة المعملية للسلوك الواقعى . وفى هذه الحالة ، فإن اهتمامنا الأول ينصب على الاستجابات المباشرة .(١)

وبالرغم من هذه الميزات ، إلا أن هناك بعض جوانب القصور التى قد تحول دون إستخدام المقابلة كأداة لجمع البيانات . ومثال ذلك احتمال تحمس الباحث لقضية ما يحاول جمع حقائق تؤكدها غاض الطرف عن الحقائق التى تنفيها بالاضافه إلى ما يتطلبه تطبيقها من تكاليف خاصة بالمبحوثين ومشكلة إختيار وتدريب الباحثين والاشراف عليهم .

وتنقسم المقابلة إلى عدة أنواع إنقساماً ثنائيا ، فمنها المقابلة المقننة وغير المقننة ، ومنها المقابلة البؤرية وغير الموجهة . أما عن المقابلة المقننة ففيها تحدد الأسئلة من قبل ، حيث توجه للمبحوث الأسئلة والعبارات بنفس الصياغة وبنفس الترتيب . وأن يكون الطابع الأساسى لها هو ألا يكون للشخص الذى يقوم بالمقابلة حرية صياغة الأسئلة أو إعادة صياغتها ، أو إضافة أسئلة تبدوا

---

(1) G. Lundberg: op. cit. p. 360.

فى رأيه منطبقة على الحالة الفردية . ومن مميزات المقابلة المقننة إمكانية مقارنة المعلومات التى نحصل عليها من شخص ما ، بتلك التى نحصل عليها من شخص آخر ، وأنها أكثر ثباتا حيث اتفـــاق الأسلوب الذى يتبعه أكثر من باحث يقومون بتطبيقها . وعلى العكس من هذا النوع ، فإن المقابلة غير المقننة يتسم فيها أسلوب القائم بالمقابلة بالمرونة التامة وفقاً لموقف المقابلة . ومن مميزاتها تقنين المعانى بدلا من التقنين المفتعل لبعض جوانب موقف المقابلة . كما أنهـا تشجع المبحوث على الصدق فى إجاباته » .

وهناك عدة مراحل لاجراء عملية المقابلة ، يلخصها موزر فى : تحديد حجم العينة التى ستجرى معهـا المقـابلة ، وبعد ذلك يخلق الباحث موقف المقابلة ، ثم يقوم بعملية توجيه الأسئلة ، وتسجيلها (١) .

أما وجود وهات فيحددان خطوات إجراء المقابلة فى ضرورة إيجاد رابطة تعاطفية بين الباحث والمبحوث فى مختلف المواقف الاجتماعية ، ثم تنفيذ المقابلة كأداة لجمع البيانات ، وطريقة إلقاء السؤال ، ثم تسجيل المقابلة ، وأخـــيراً كيفية إنهاء موقف المقابلة (٢) .

٣ - إستمارات البحث :

تعرف الاستمارة بأنها نموذج يضم مجموعة من الأسئلة التى توجه للأفراد بغية الحصول على بيــانات معينة . وقد ترسل بالبريد أو تسلم إلى الأشخاص الذين تم إختيارهم لموضوع الدراسة ليقوموا بتسجيـــل إجاباتهم على الأسئلة

---

(1) C. A. Moser; Survey Methods in Social investigation; Heinemann Educational Books Ltd; London, 1969, pp. 185–191.

(2) W. J. Goode & P. K. Hatt, op. cit., pp. 190–208.

الواردة بها وإعادتها ثانية . ويتم ذلك كله دون مساعدة الباحث للأفراد سواء فى فهم الأسئلة أو تسجيل الاجابات عليها (١) . ومن المهم أن يحدد الباحث منذ البداية الأسلوب الذى سيتخذه فى إستخدام هذه الأداة . فهناك فارق كبير فى الصياغة إذا إستخدم « الاستمارة بالبريد » أو « بمعرفة المبحوث » فى حضور الباحث أو دون حضوره ، أو بمعرفة الباحث نفسه (٢) .

ويرى لند برج أن الاستمارة أداة تساعد الباحث على تنمية قدراته فى الملاحظة، أو فى جمع البيانات عن طريق المقابلة أو الاستبيان . ففى الملاحظة تساعد الاستمارة على تقنينها ، بالاضافة إلى ضمان موضوعية البيانات المطلوبة إلى حد كبير . كما تسهل الاستمارة تقسيم البيانات إلى أجزاء تسهل دراسة كل جزء منها على حدة (٣).

وهناك نوعين رئيسيين من الاستمارات . يطلق على النوع الأول بالاستمارة العادية وهى عبارة عن الأداة التى تستمل للحصول على إجابات لأسئلة محددة تذكر المشكلة موضع الدراسة والتى يجيب عليها المبحوث بنفسه ،وهذه قد تكون بريدية أو تسلم باليــد الشخص لاستيفاء البيانات . ويطلق على النوع الثانى بالاستمارة الشخصية وتضم مجموعة من الأسئلة التى تدون بواسطة باحث متخصص فى مقابلة شخصية مع المبحوث نفسه .

ويقسم لندبرج وموزر الاستمارة إلى نوعين أساسيين ، الأول إستمارة الحقائق ، حيث توجه أسئلة تبحث عن حقائق ومعلومات واقعية . والنوع

---

(١) د. جمال ذكى والسيد يس ، مرجع سابق ، ص ٢٠٥ .

(٢) د. طلعت محمد عيسى ، مرجع سابق ، ص ١٥٤-١٥٥ .

(٣) المرجع قبل السابق ، ص ٢٢٩-٢٣٠ .

الثانى ، يطلق عليه ، إستمارة الاتجاهات والرأى فى موضوعات محددة [1] .

وأيا كان نوع الاستمارة ، فهناك شروط يجب توافرها فيها مثل :

١ — أن تكون الاستمارة قصيرة بقدر الامكان .

٢ — ألا تحتاج أسئلتها لإجابات مطولة .

٣ — صياغة الأسئلة بأسلوب سهل وألفاظ معروفة لا تحتمل أكثر من معنى واحد .

٤ — ألا تشمل الأسئلة وقائع شخصية أو محرجة .

٥ — تدرج الأسئلة .

٦ — ألا يشتمل السؤال على أكثر من فكرة واحدة محددة .

ولكى توضع الاستمارة فى صـــورتها الأخيرة مع التزام الباحث بالشروط السابقة الذكر ، فهناك عدة مراحل أو خطوات ينبغى عليه إتباعها وهى [2] :—

١ — تحديد البيانات المطلوب جمعها تحديداً واضحاً .

٢ — وضع نموذج مبدئى لاستمارة البحث .

٣ — تجربة أو إختبار الاستمارة.

٤ — إجراء التعديلات اللازمة على الاستمارة ووضعها فى شكلها النهائى .

٥ — إرسال الاستمارة — بوسيلة ما تحدد مقدما — للأفراد موضوع الدراسة .

---

(1) G. Lundberg; op. cit. p. 183 & C. A. Moser, op. cit., pp. 218–222.

(٢) المرجع السابق ، ص٢٠٦ .

ويؤكد جود وهات على ضرورة إجـــراء دراسة إستطلاعية أولا وذلك لتحـديد الاجابة على سؤالين . الأول : كيف يضع الباحث النقاط الأساسية فى البحث ويصوغها عن منطقة ما حينما لا تكون البيـــانات متوفرة ؟ . والسؤال الثانى : كيف يختار الباحث هـذه النقاط ويضعها فى الصورة النهائية للاستمارة ؟ وبعد الدراسة الاستطلاعية المبدئية ، على الباحث أن يجرى إختباراً للاستمارة حتى تكون صالحة للتطبيق النهائى (١) .

هذا ، وتعتبر الاستمارة أقل وسائل جمـع البيانات تكلفة ، كما يمكن الحصول على بيانات من عدد كبير من الأفـراد فى أقل وقت ممكن . بالاضافة إلى سهولة تقنينها أكثر من أية وسيلة أخرى . ومع ذلك فإن الاستمارة لا تـستخدم إلا فى مجتمع يجيـد معظم أفراده القراءة والكتابة ، كما أنه لا يمكن للباحث التأكد من صدق إستجابات الأفراد والتحقق منهـا لأنه يفقد إتصاله الشخصى بهم وهـذا يحرمه من ملاحظة ردود أفعالهم واستجاباتهم للأسئلة.

---

(1) W. J. Goode & P. K. Hatt, op. cit. pp., 145-147.

الفصل الخامس

العلاقة بين النظرية والبحث في علم الاجتماع

مقــــدمة

على الرغم من أن البعض قد استطاع أن يميز فى تاريخ عـــلم الاجتماع بين مجموعتين من علماء الاجتماع ، مجموعة العلماء الذين كانوا يحاولون قبل كل شىء التوصل إلى التعميمات ويبحثون عن الطرق التى تمكنهم مـن صياغة القـــوانين السيولوجيه ، مغفلين أهمية جمع الملاحظات والبرهنة على هذه التعميمات والقوانين، وبين مجموعة أخرى من العلماء الذين يغرقون فى إجراء البحوث الأمبيريقية ، دون أن يهتموا بالربط بين وقائع هذه البحوث أو حتى تفسير حدوثها . إلا أن التطورات التى طرأت على علم الاجتماع خلال السنوات الأخيرة تؤكد لنا أن هذه الاتجاهات قد افل نجمها . إذ لم تعـد ترى اليوم نمـوذج عالم الاجتماع الذى يهتم فقط بالقوالب الفكريه الخاصـة دون إدراك صلتها بالواقع ، كما لم تعـد ترى أيضاً نموذج عالم الاجتماع الذى يقع فريسه الوقائع ويغرق فى الاحصاءات دون أن يهتم بتفسير هذه الوقائع والبحث عن دلالتها النظرية . وإنما أخــذ المنظر يشارك زميله الباحث فى العمل ، وأخذوا يتبادلون معا أطراف الحديث فيما بينهما، بل أخذ عالم الاجتماع الواحد يتحدث إلى نفسه طالما كان اهتمامه ينصرف إلى النظرية بقدر إنصرافه إلى البحث . ولقد ساعد كل هذا على تأكيد العلاقة بين النظريه والبحث ، وإدراك الطبيعة التفاعلية لهذه العلاقة . بمعنى أن هـذا العلاقة لا تسير فى إتجاه واحد من النظرية إلى البحث أو العكس فقط ، وإنما تسير فى فى إتجاهين متضادين ، يشير الإتجاه الأول إلى أثر النظـرية فى البحث ، ويشير الاتجاه الثانى إلى أثر البحث فى النظرية (١) .

(1) Robert K-Merton, Social Theory & Social Structure, The Free Press of Glenco; illnois, 1951– pp. 83–101.

أولا : أثر النظرية فى البحث :

تؤثر النظرية السسيولوجيه فى البحث من عدة وجوه ، إذ تعمل النظرية على توجيه دوائر البحث نحو الموضوعات المثمرة ، وتضفى للمغزى والدلالة على النتائج النقل ، كما تساعد توجيهاتها وتعميماتها ومفاهيمها على تنمية وتطوير البحث من ناحية أخرى .

١ - توجيه النظريه البحث نحو الموضوعات المثمرة :

تحدد النظرية مسار وإتجاه البحث وتوجيهه نحو تناول الموضوعات التى يحتمل أن تكون أكثر إثمارا من غيرها . والمثال البارز فى تراث علم الاجتماع الذى يوضح هذه الوظيفة الاساسية النظرية بالنسبة البحث ، يمكن أن نستمده من نظرية (كوهن) Choen (١٩٥٥) ، التى قدمهـــا لتفسير تكوين الثقافة الفرعية الانحرافية فى بعض قطاعات المجتمع الأمريكى ، تلك النظرية التى أقامها بناء على نتائج البحوث السابقة حول السلوك الانحرافى ، وعلى خبراته الخاصة بسلوك عصابات الجانحين ، وعلى بعض النظريات الأخرى فى ميدان علم النفس والاجتماع . ولقد رتب (كوهن) قضايا نظريته على النحو التالى :

أ - يهدف كل سلوك انسانى إلى حل بعض المشكلات .

ب - بالرغم من أن لكل اعضاء المجتمع مشكلات يعانون منها ، إلا أن المشكلات من الأنواع المتباينة لا توزع بطريقة عشوائية بين أعضاء المجتمع ، وإنما يحتمل أن يواجه اعضاء الطبقة العاملة أنواعا معينة من المشكلات بدرجة تفوق ما يواجهه أعضاء طبقة الموظفين ، كما يواجه صغار السن هذه المشكلات بمعدل يفوق ما يواجهه الكبار ، ويواجه الذكور مشكلات تفوق ما يواجهه الإناث ... وهكذا .

ب ـ ويعتبر وجود عدد من الأفراد يتفاعل بعضهم مع البعض الآخر ولهم نفس مشاكل التكيف ، شرطا اساسيا لتكوين أنماط ثقافية جديدة .

د ـ ويشترط أساسا لتكيف الفرد ، أن يرضى عنه زملاؤه الآخرين الذين تكون لهم أهمية من وجهة نظره .

هـ ـ ولكنه من الصعب أن يتحقق الكثير من أبناء الطبقة العاملة مثل هـــذا الشرط . حيث تستخدم معايير الطبقة الوسطى فى الحكم على أوجه نشاط هؤلاء الابناء فى المدارس ومراكز الترفيه وغيرها من مجالات النشاط فى المجتمع الأكبر، غير أنهم غالبا ، لايكونوا مهيئين لمجاراة مثل هذه المعايير .

و ـ وتتغلب الثقافة الفرعية الانحرافية على هـــذه المشكلة عن طريق تنمية معايير للمكانه يستطيع هـؤلاء الابناء مجاراتها .(١)

ز ـ وبما أن معايير الطبقة الوسطى تغرس جزئيا فى نفوس معظم أبناء الطبقة العاملة ، فانه يترتب على ذلك نشوب الصراع بين هـذه المعايير ومعايـير الثقافـة الفرعية للعصابة الجانحة .

ح ـ ولحل هذا الصراع ، ترفض الثقافة الفرعية الانحـرافية معايـير الطبقة الوسطى بكل رموزها ومكاناتها ، وترفع من شأن معايير العصابة الجانحة .

ويعلق (كوهن) على هذه القضايا النظرية قائلا ؛ أنها تقترح البحث عن وقائع وبيانات أكثر دقة ووضوحاً من نوع مغاير بعض الشىء لتلك الوقائع والبيانات

---

(1) C. Selltize, et al., Research Methods in Social Relations, Holt, Rinehart & Winston, U. S. A. 1961, pp. 486–489.

التى يتم جمعها عادة فى البحوث التى تجرى عن السلوك الانحرافى. وذلك لانه إذا كانت هذه البحوث الاخيرة تعتمد على الاحصائيات الرسمية التى تصدرها المؤسسات البوليسية والقضائية ، وعلى التقارير الرسمية التى تعدها الهيئات الاجتماعية ... فان هذه الاحصائيات والتقارير لا تعكس كل الافعال الانحرافية التى تقع بالفعل، كما أنها لا تقدم لنا صورة دقيقة وغير متحيزة عن كيفية توزيع حالات الانحراف على القطاعات المتباينة للمجتمع . ومن أجل هذا يقترح (كوهن) فى ضوء نظريته، ضرورة أن يبدأ البحث باختيار عينة عشوائية من جمهور الاحداث (المنحرفين وغير المنحرفين) فى منطقة معينة ، ومن خلال المقابلات الشخصية الواعية والوثيقة، يسهل تحديد الافعال الانحرافية التى تقع بالفعل بين أفراد هذه العينة . ويضيف (كوهن) إلى ما سبق أن نظريته تقترح فضلا عن الاهتمام بدراسة علاقة تصدع الأسرة والشخصية والحى وما اليها بالجناح ، ضرورة توفير الوقائع حول سلوك المنحرف نفسه ، وحول الطبيعة الفردية والجمعية لنشاطه الجانح وحول الكيفية التى تختلف فيها الانحرافات فى المواقف الفردية والجماعية ، وحول الجماعات الجانحة باعتبارها أنساقا إجتماعيا ، بمعنى الاهتمام بدراسة بناء هذه الجماعات وديناميتها وتاريخها وثقافتها الفرعية .

وهكذا يوضح لنا مثال نظرية (كوهن) كيف تعمل النظريه على توجيه البحث نحو موضوعات يحتمل أن تكون أكثر إثماراً من غيرها من الموضوعات التى أعتاد البحث فى نفس مجال هذه النظرية أن يطرقها . (١)

٢ – تضفى النظريه على نتائج البحث دلالة ومغزى :

إذ تعمل النظرية على تسهيل ادراك النتائج التى يصل اليها البحث باعتبارها جزء من قضية بالغة التجريد ، أكثر منها أجزاء منعزلة .

(1) Ibid, pp. 489–490.

فاذا كانت البحوث الاحصائية توصلنا إلى نتيجة مؤداها أن عصابات الجانحين تشيع بنسبة أكبر بين أحياء الطبقة العاملة عنه بين أحياء الطبقة المتوسطة ، فإن هذه النتيجة فى حد ذاتها لا تضيف الكثير الى فهمنا السلوك الانحرافى . غير أن النظر الى العصابات باعتبارها تمثل ميلا عاما لمجموعة من الأفراد تواجهه مشكلات مشتركة ، وتحاول التوصل الى حلول مشتركة لها ، يساعد على ادراك مغزى الارتباط بين عصابات الجانحين واحياء الطبقة العاملة ، ويضفى على هذه النتيجة دلالة واضحة . كما أن ربط هذه النتيجة بمفهوم أكثر عمومية مثل هذا يمدنا بأساس آخر يساعدنا على التنبؤ بحدوث هذه الظاهرة أو تغيرها فى المستقبل إلى حد نطمئن اليه أكثر من مجرد الاعتماد على النتائج فى حد ذاتها . الأمر الذى يجعل بالامكان وضع الحلول واقتراح خطوات الحد من الانحراف مثل زيادة خدمات الترفيه، وتدعيم الخدمات التوجيهية والاستشارية بطلبة المدارس ،وزيادة الرقابة على الكتب ، ومد آباء المنحرفين بالاعانات المادية ، وزيادة عدد رجال الشرطة فى المناطق التى يتزايد فيها معدل الانحراف .

٣ - تنطوى النظرية على توجيهات عامة تمدنا بالسياق الذى يجرى البحث فى نطاقه :

إذ تشتمل مثل هذه التوجيهات Orientations على المسلمات المتعلقه بنماذج المتغيرات التى يجب أن تأخذ فى الاعتبار ، أكثر مما تشير إلى العلاقات القائمة بين هذه المتغيرات . ومن أمثلة هذه التوجيهات ماذهب اليه (دور كايم) قائلا : أنه يجب البحث عن سبب الحقيقة الاجتماعية بين الحقائق الإجتماعية الأخرى التى تسبقها ، وأن المعايير المغروسة هى العامل الإجتماعى الذى يوجه السلوك . وكذلك التوجيه الذى أوضحه (زنانيكى) و (سوروكين) وغيرهما ، والذى ينظران فيه إلى المجتمع

باعتباره نسقا متكاملا يتكون من أجزاء متساندة وظيفيا ومرتبطة فيما بينها . وبالرغم من أن هذه التوجيهات لاتحدد فروضا معينة ، إلا أنها تقوم بوظيفة أساسية هي أنها تمدنا بسياق للبحث يسهل عملية التوصل إلى هذه الفروض إلى حد أن الباحث الذى يتجاهل نظام الحقائق المتضمنة فى هذه التوجيهات يعرض نفسه للخطر .

ومن أبرز الأمثلة على دور التوجيهات النظرية فى توفير سياق البحث ، محاولة (مالينوفسكى) اعادة أختبار الفرض الفرويدى المتعلق بعقده اوديب ، وذلك فى ضوء التوجية السسيولوجى الذى يعتبر أن تكوين العاطفة أمراً يتأثر بالبناء الإجتماعى . ولقد ساعده هذا التوجية على الكشف عن حقيقة هـذه العقدة السيكولوجية فى علاقاتها بنسق علاقات المكانة فى مجتمع بدائى يختلف فى بنائه عن ذلك المجتمع الأوربى الغربى ، وذلك من خـلال الإفاده من مجموعة من الفروض غير الناجمة عن هذا التوجيه ، وإن كانت كلها تتفق معه ، حيث يسهل هذا التوجيه عملية تدفق الفروض الواحد تلو الآخر فى تعاقب مستمر والتى أثمر اختبارها فى البحث عن حقائق سسيولوجية هامة .(1)

٤ - توجه مفاهيم النظرية وتصوراتها عملية جمع وتحليل معطيات البحث :

هناك إعتقاد خاطىء بأن النظرية تتكون من مجموعة مفاهيم ، غير أن عملية صياغة المفاهيم والتحليل التصورى ليست إلا جانباً جوهريا فى أى عمل نظرى اذن ليست مجموعة مفاهيم : المكانه والدور والمجتمع المحلى والتفاعل الإجتماعى والمسافة الاجتماعية والانومى ، إلا جـزءاً فى بناء نسق النظرية ، يضاف إلى الاوصاف التى يجب ملاحظتها والمتغيرات التى ينبغى أن يتناولها البحث ، والقضايا

(1) R. Merton, op. cit. pp. 85-86.

المرتبطة منطقيا فيما بينها . وعند هـذا الحد تبدو النظرية وقد استكملت بناؤها . ويعتبر اختيار المفاهيم بطريقة تساعد على التوصل إلى العلاقات وتحديدها بوضوح أمراً حاسما بالنسبة للبحث، لانها توجه عملية جمع وتحليل المعطيات بدقة وأحكام ومن ثم تقلل من احتمالات خطأ النتائج الامبيريقية التى تتجمع فى ضوء هذه المفاهيم ـ وتعتبر محاولة (سذرلاند) لإعادة النظر فى المفهوم الدارج للجريمة ، مثالا بناءاً على الكيفية التى تحدث بها توضيح المفهوم مراجعة للفروض المتعلقة بالبيانات التى تم جمعها فى ضوء هذا المفهوم .

فعندما أخـذ (سذرلاند) يجرى عملية مراجعة للنظريات الكريمونولوجية التى تشير إلى وجود معـدل عال للجريمة بين الطبقات الدنيا يفـوق نظيره بين الطبقات العليا . والتى توصلت إلى هذه الحقيقة استنادا إلى بيانات الجريمة الرسمية التى تم جمعها فى ضوء مفهوم أجرائى معـــين للجريمة ، والتى أدت إلى سلسلة من الفروض التى تعتبر حالة الفقر وظروف التخلف والضعف العقلى وغيرها من السمات ذات الارتباط العالى بالمكانة الطبقية الدنيا ، تعتبر من بين العوامل الهامة السلوك الاجرامى، إستطاع عندئذ أن يـكشف عن الغموض والخطـأ الذى تنطوى عليه هذه النظريات ولقد بدأ مراجعته لهذه النظريات من مفهوم الجريمة نفسه ، الذى حاول توسيع نطاقه ليشمل مخالفات القانون الجنائى التى تظهر بين ذوى الياقات البيضاء ورجال الأعمال والادارة ، تلك المخالفات التى تختفى من الاحصائيات الجنائية الرسمية بمقارنتها بغيرها من مخـالفات ذوى الياقات الزرقاء اعضاء الطبقة الدنيا . وفى ضوء هذا المفهوم الجديد يتوقع أختفاء الارتباط العالى بين الجريمة والمكانة الاجتماعية الدنيا [1] لأن (سذرلاند) عندما أخـــذ يجرى توضيحا

(1) Ibid, pp. 87–88.

تصوراً جديداً لمفهوم الجريمة ، حاول اعادة بناء البيانات عن طريق الاشارة إلى ماتنطوى عليه وما تستبعده ، بواسطة الشك فى المسلمات التى قامت على أساسها هذه البيانات الاحصائية وبخاصة تلك المسلمه التى يستند اليها التحديد الامبيريقى للجريمة والتى مفادها أنه يتم تسجيل مخالفات القانون الجنائى التى يرتكبها أعضاء الطبقات الاجتماعية العديدة بطريقة واحدة فى الاحصائيات الجنائية وهكذا تؤثر مفاهيم النظرية وتصوراتها فى عملية جمع وتحليل معطيات البحث . كما تؤثر مفاهيم النظرية وتصوراتها من ناحية أخرى فى حل التناقضات الملاحظة بين النتائج ، وذلك عن طريق ايضاح أن هذه التناقضات مظهرية أكثر منها تناقضات حقيقيه لأن المفاهيم التى لا تصاغ بوضوح كاف والتى تشتمل على عناصر متباينة الغاية ، توصلنا إلى بيانات تختلف جذريا فيما بينها ، ومن ثم يظهر التناقض بحدة إلى درجة لايمكن التقليل من شأنها إلا عن طريق اعادة توضيح المفاهيم بشكل مناسب ، وهذا طالما أن المفاهيم هى التى توجه فكر الباحث وسلوكه وأدراكاته كما تحدد الموقف الذى يستجيب له . وعموما يساعد التحليل التصورى الصريح على معرفة إلى أى شيء يستجيب ، وأى العناصر يتجاهلها ؟

ومن أهم الأمثلة على أثر المفاهيم فى حل التناقضات الظاهرة بين النتائج ، البحث الذى أجــــراه (هورف) (Whorf) على بعض المتغيرات التى وضعها تصورياً بانها اسطوانات غاز فارغة ، وحاول دراسة استجابة المفحوصين نحو هذه الاسطوانات . فوجد انها استجابات متباينة لأن بعض المفحوصين تصوروا أن مثل هــذه الاسطوانات لا خطر من ورائها ومن ثم فهم لم يكترثوا بها ولم يمتنعوا عن التدخين والقاء أعقاب السجاير حولها . وتصور البعض الآخــر أن الاسطوانات الفارغة من أكثر الأمور خطراً لأنها تشتمل على بخار متفجر ،

فكانوا أكثر حذراً فى سلوكهم . وهذه النتائج المتناقضة فى الظاهر توضح أن الاستجابة لا تكون موجهة نحو الموقف الفيزيقى بقدر ما توجه نحو الموقف المتصور (١) . ولما كان إستخدام مفهوم الفراغ فى هذا المثال ، يشوبه الغموض ، لأنه أخذ من ناحية على أنه مرادف للصفر والفراغ والسلب والخمول ، وأخذ من ناحية أخرى على أنه يساعد على الاشتمال . ومعنى هذا أنه إذا كان مفهوم الفارغ قد أوضح صراحة المقصود منه امبيريقيا مقدما ، لما كانت هناك مثل هذه النتائج أو الاستجابات المتعارضة . وعموماً يوضح هذا المثال أثر التوضيح التصورى على البحث ، الذى يشير للباحث بوضوح أى البيانات يتناولها وأى النتائج يهتم بها . وبالاضافة إلى ما سبق ، نجد أن لمفاهيم النظرية وظيفة أخرى بالنسبة للبحث ، إذ نجدها تساعد على تحديد المؤشرات التى يمكن أن يهتم البحث بملاحظتها فى الواقع . وهذا ما حاوله (تولمان) Tolman (وهل) Tull عندما قاما بتحديد مؤشرات لمتغيرات مثل التماسك الاجتماعى ولغيرها من المفاهيم والأبنية الفرضية ، يمكن ملاحظتها فى الواقع ، وتجد تدعيما لها من جانب النظرية .

ثانياً : أثر البحث فى النظرية

تذخر دوريات ومراجع علم الاجتماع بالمناقشات التى تركز على بيان دور النظرية فى البحث ، وتوضيح وظيفة النظرية فى توجيه البحث وإستمراره ، ومن المفيد أن نواصل هذه المناقشات وتتناول أثر البحث فى النظرية بما أن العلاقة بينهما لا تسير فى إتجاه واحد كما سبق أن أشرنا ، وخاصة أن أغلب المناقشات السابقة فى هذا الصدد لم تتناول الا وظيفة رئيسية واحدة للبحث

(1) Ibid, pp. 88-89.

تتمثل فى اختيار فروض النظرية . والواقع أن أثر البحث فى النظرية لا يقف عند هذا الدور السلبى المتعلق بالتحقق من فروض النظرية واختبارها وإنما يتجاوزه إلى دور ايجابى آخر له أربعة وظائف ، حيث يمكن للبحث أن يسهم فى بدأ النظرية ، وفى إعادة صياغتها ، وتعديلها وتوضيحها (١) .

١ - يسهم البحث فى تطوير النظرية :

فإذا كان لدينا نظرية قد حبكت صياغتها ، حول ما سوف يحدث فى مواقف متباينة ، وفى ظل ظروف محددة ، فإنه بالامكان أن نستخلص منها استنتاجات تأخذ صورة فروض توجه البحث . وإذا أمكن إثبات صحة هذه الفروض عن طريق تجارب صممت لهذا الغرض ، فإن هذا البحث يسهم فى التحقق من بناء النظرية فى جملتها . أما إذا لم يتمكن البحث من البرهنة على صحة الفروض ، فانه يكون من الضرورى اعادة اختبار النظرية مرة ثانية ، والنظر فيما إذا كان من الواجب استبعادها لانها غير صالحة ، أو ما إذا كان ينبغى ادخال بعض التعديلات على بنائها ، ثم استخلاص استنتاجات منها وصياغتها فى صورة فروض تخضع للبحث ، للتأكد من أن هذه النظرية المعدلة تجد مايدعمها فى الواقع . وهكذا لايسهم البحث فقط فى التحقق من فروض النظرية ، وانما يسهم أيضا فى تطوير أو تعديل النظرية . والواقع أن اسهامات البحث فى تطوير النظرية قد تكون مقصودة ومخطط لها ، أو قد تكون عرضية غير مخطط لها .

أ ـ التخطيط لتطوير النظرية :

وعالم الاجتماع الذى يشرع متعمدا فى تطوير بعض جوانب النظرية ، يتبع

---

(1) Ibid. pp. 90–99.

أحد طريقين أو كلاهما . فهو قد يعيد النظر فى الدراسات القائمة أو يختبرها ثانية ، أو قد يضع مشروع خطة لبرنامج من الدراسات التى تذكر على المشكلة التى يهتم هو بها ، ويراعى الارتباط بين نتائج هذه الدراسات . ولا يحتمل ، فى كلا الحالتين ، أن يبدأ هذا العمل من نقطة لا تستند إلى دراسات سابقة ، أو صياغات نظرية أخرى ، أو ملاحظات خاصة ، وانما يبدأ عادة من تصورات معينة واحتمالات محددة يكونها فى ذهنه لصياغات بديلة . ويحاول اجراء اختباره المقصود للدراسات الموجودة ، أو وضع خطة للدراسات المقترحة التى لابد من تنفيذها ، فى ضوء هذه الصياغات البديلة القابلة للتغير بدورها[1] . والمثال الذى نستعين به لتوضيح كيفية التخطيط لتطوير النظرية اعتمادا على اعادة النظر فى الدراسات القائمة واختبارها ثانية ، نستمده من كتاب (ميرتون) Merton (وروسى) Rossi المعنون : اسهامات فى نظرية سلوك الجماعة المرجعية Reference group ، حيث كانت المادة التى اعادا النظر فيها تشتمل على البحوث الصغيرة المتضمنة فى كتاب الجندى الامريكى Amefican Soldier الذى أعده (ستوفر) Stoffer وآخرون عام ١٩٤٩ ، تلك التى لها صلة بالطرق التى يختار بواسطتها المفحوصين جماعات أخرى باعتبارها نقطة مرجعية من أجل تقويم مكاناتهم الخاصة ، وذلك برغم أن هذه البحوث لم تجر فى ضوء مفهوم الجماعة المرجعية . هذا فضلا عن البحوث الأخرى التى استخدم فيها هذا المفهوم نفسه أو المفهومات المماثلة وتعنى مفهومات الروح المعنوية والرضى وغيرها . ولقد ركز (ميرتون) (وروسى) على العناصر المشتركة فى هذه البحوث ، وقاما بتفسير اتجاهات أعضاء الجماعات المدروسة ، فى ضوء الحرمان النسبى الذى

---

(1) C. Selltize, op. cit. pp. 491-493.

يعانونه ، بالمقارنة بالجماعة المرجعية التي اختاروها كمعيار. واوضحا الكيفية التي يختلف بها اختيار الجماعة المرجعية من موقف لآخر . إذ وجدا أن المفحوصين يقومون بتقـــويم مكاناتهم الخاصة بهم أما بالاشارة إلى مكانة أعضاء جماعاتهم الداخلية in-group ، أو بالاشارة إلى مكانة أعضاء جماعات أخرى خارجيـة . وقد تكون بعض هذه الجماعات لهـا نفس المكانة أو يكون لبعضها الاخر مكانة أعلى أو أقل . ولقـد اثارت هذه المحاولات فى ذهنهما بعض التساؤلات : ما هى الظروف التى يأخذ فى ظلها المفحوصون علاقات جماعاتهم الداخلية اطار مرجعيا لتقويم كل ما يخصهم ؟ وما هى الظـروف التى يأخذ فى ظلها المفحوصون علاقات الجماعات الخارجية التى يفتقرون إلى عضويتها ، اطارا مرجعيا لهـــذا التقويم ؟ الأمر الذى ساعدهم على توسيع مجـال النظرية ، لانهما بهـذه التساؤلات يشيران إلى بعض الاتجاهات والمسارات التى ينبغى أن تسير فيها البحوث مستقبلا[1].

والمثال الثانى على التخطيط لتطوير النظرية من خـــلال وضع مشرع خطة لبرنامج من البحوث التى تتركز على مشكلة معينة ، نستخلصه من برنامج بحـوث الاتصال الذى نظمته جامعة ييل Yale من أجل تطوير نظرية الاتصال الاقناعى. إذ يذهب (هو فلا ند) و(جانز) و(كيلى) Hovland & Janis & kelley فى وصف هدف وطبيعة هذا البرنامج إلى أنه لما كانت هناك مجموعة كبيرة متراكمة من الحقائق الوصفية المتعلقة بهذا الاتصال الاقناعى ، ومن أهمها تلك التى توضح أثر البرامج التعليمية وحملات الاعلان والدعاية على السلوك والرأى ـ ولما كانت هذه الحقائق لا توضح الظروف التى يزداد أو يقل فى ظلها فعاليـه أحد أنواع الاتصال الاقناعية هذه أو غيرها . معنى ذلك أن بحوث الاتصال الاقناعى اغفلت

---

(1) Ibid. pp. 493–494.

بعض القضايا النظرية التى لها دلالتها وفعاليتها ، وان هناك حاجة ماسة للاهتمام بمثل هذه القضايا التى قد تسهم فى اثراء فهمنا لعمليات الذاكرة والفكر والدافعية والتأثير الاجتماعى . ومن هنا انصرف اهتمام برنامج البحوث أولا نحو مجموعة من المشكلات المتعلقة بالعوامل التى تؤثر فى فعالية الاتصالات وتجعلها تحدث تغييرات فى الرأى ؟ وكيف تؤثر الاختلافات فى امكانية تصديق من يقدمون مادة الاتصال ، فى طريقة إدراك وتقويم مادة الاتصال ومحتواه ؟ وفى درجة تعديل الاتجاهات والمعتقدات ؟.. ولقد استطاعت بحوث الجزء الأول من هذا البرنامج تقديم الاجابات المناسبة على هذه التساؤلات ، ولكن اثارت هذه الاجابات فى الوقت نفسه مجموعة أخرى من التساؤلات يحتمل فيما يبدو أن تكون أكثر اثمارا فى تطوير نظرية الاتصال الاقناعى وتغيير الرأى ، استنادا إلى برنامج بحوث خطط له سلفا[1].

ب ـ الصدفة فى تطوير النظرية :

يسهم البحث فى تطوير النظرية عن طريق الصدفة والاتفاق وعلى نحو لم يخطط له سلفا ، وذلك من خلال ملاحظة وقائع غير عادية أو غير متوقعة أو استراتيجية تفيد فى تقديم فروض نظرية جديدة أو فى توسيع نطاق نظرية قائمة . حيث قد يساعد البحث الموجه نحو اختبار أحد الفروض على التوصل إلى بعض الملاحظات غير المتوقعة التى لم تكن فى الحسبان عند البدء فى اجراء البحث ، تؤدى اتفاقا إلى نتيجة ثانوية تؤثر بدورها فى تطوير النظرية . كما قد يساعد البحث على ادراك ملاحظة أخرى غير عادية تثير الدهشة نظرا لانها قد تبدو غير متسقة مع النظرية القائمة أو الوقائع المرتبطة بها ، الى الحد الذى قد تثير معه

(1) Ibid: pp. 494–495.

هذه الملاحظة فضول الباحث وحب استطلاعه وتنبهه وتجعله أكثر حساسية للوقائع فيكتشف غيرها ثم يجرى ملاحظات ثانية ، ويستخلص منها استنتاجات يضعها بعد ذلك فى الاطار الاوسع لنظريته . وبقدر ما ينغمس فى الوقائع ، بقــدر ما يزداد احتمال اكتشافاته لمثل هذه الملاحظات غير العادية التى تفصح عن اتجاه مثمر للبحث ، بحيث تؤدى الوقائع غير العادية إلى نظرية جديدة للغاية أو توسيع النظرية القائمة ، عندئذ تهـــدأ حالة الفضول التى تثيرها هذه الوقائع . ويساعد البحث كذلك على ادراك ملاحظات من نوع ثالث توصف بانها استراتيجية لانهـا ترتبط بمضامين النظرية المعينة ، وتوجه النظر نحو شىء جديد يضاف إلى الوقائع الملاحظة . وتذكرنا الملاحظات الأخيرة ، بزلات اللسان وعثرات القلم والأخطاء المطبعية وسقطات الذاكرة ، التى طالما كان يلاحظهـا الانسان من قديم الزمان باعتبارها وقائع تافهة ، ولكنها عندما اصدمت بحساسية فرويد وادراكه الفـذ أخذت هذه الأمور صفة الوقائع الاستراتيجية التى أمكن فى ضوئها توسيع مجال نظريته عن الكبت والافعال المرضية[1] . ويمكن أن تلقى دراسة (ميرتون) عن التنظيم الاجتماعى لكرافتاون وهى مدينة أمريكية Craftown، الضوء على هذه الأنواع الثلاثة من الملاحظات غير العادية وغير المتوقعة والاستراتيجية وأثرها فى تطوير النظرية على نحو لم يخطط له سلفا . وكانت كرافتاون بمثابة ضاحيـــة يقطن بها حوالى (٧٠٠) اسرة ، بينهم نسبة كبيرة من ابناء الطبقة العمالية . ولقد أثمرت هذه الدراسة عن ملاحظة مفادها : تنتمى نسبة كبيرة من سكان هذه الضاحية إلى تنظيمات تطوعية وسياسية تفـــوق ما كان يحدث فى مناطق سكناهم الأصلية واثارت هذه الملاحظة غير العادية ، ملاحظة أخرى عن طريق الصدفة

---

(1) R. Merton, op cit. pp. 98-99.

مضمونها : تقع نسبة الزيادة فى المشاركة الجماعية بين الاباء الذين لهم اطفالا صغار حديثى الولادة ، وكانت هذه الملاحظة الأخيرة غير متوقعة لانها لا تتفق وما هو شائع من معارف ، تلك التى تشير إلى أنه عادة مايرتبط الصغار بآبائهم من ذوى المستويات الاقتصادية الدنيا ، ويحولون دون أن يكون لهم نشاطا فعالا فى الجماعات المنظمة الأخرى التى تقع خارج نطاق اسرهم ، ولقـد حاول الآباء أنفسهم تفسير هذه الملاحظـة غير المتوقعة على سلوكهم . قائلين : أنه ليست هناك مشكلة حقيقية أمام خروجنا فى المساء للمشاركة فى التنظيمات التطوعيـة . لأنه من السهل أن تجـد الامهات حولهن من يقوم برعاية اطفالهن من بين الشباب الذين تقع أعمارهم فى الفئة (١٥ — ١٩) سنه . وإذا كانت هذه الدراسة قد تطرقت إلى ملاحظة غير عادية وأخرى غير متوقعة لم تكن داخله ضمن برنامج الملاحظات الأصلية ، وكان هناك تفسيرا كافيا يشبع حب استطلاع الباحث ، فهل يمكن أن تدخل هذه الملاحظات ضمن فئـة الملاحظات الاستراتيجية ؟ - الواقع أنه إذا كانت هذه الملاحظـة تبدو تافهـة أكثر من ملاحظة فرويد خلال الحرب العالمية الاخيرة (حيث كان له ولدان فى الجبهة) عند ما اساء قراءة العنوان الرئيسى فى أحد الجرايد « سلام جورز » بدلا من « العـدو أمام جورز » إلا أن فرويد استطاع أن يحول هذه الملاحظة التافهـة إلى ملاحظة استراتيجية وبالمثل أمكن تحويل ملاحظة دراسة كرافتاون إلى ملاحظة استراتيجية ، لها صلة بمضامين نظرية معينة ، وتوجه النظر نحو قضايا جديدة تضاف إلى قضايا النظرية القائمة وتوسع من نطاقها[1]. حيث أدت حساسية (ميرتون) للوقائع إلى أن يربط بين اعتقادات آباء كرافتاون فى سهولة توفر من يقوم برعاية أطفالهم أثناء خروجهم للمشاركة

(I) Ibid- pp. 99-100.

فى التنظيمات التطوعية وبين بناء العلاقات الاجتماعية الجديد فى هذه المدينة ، الذى امتاز بالتماسك ، نتيجة لنمو أواصر الود والتقـــريب والثقه بينهم على نحو لم يكن يعهدونه فى المواقع الحضرية الأصيلة التى كانوا يسكنونها سلفا قبل التقالهم إلى هذا المجتمع المحلى . وهكذا تكتسب الملاحظة غير المتوقعة وغـير العادية صفة الاستراتيجية ، لانها تتسق ومضامين النظرية السيولوجيـــة التى سبق أن صاغها (ماركس) بقوله « إن الوجود الاجتماعى هو الذى يحدد وعى الافراد » ،وعبر عنها (دور كايم) بقـوله « إن التصورات الجمعية تعكس الواقع الاجتماعى » ، وحددها (شريف) Sherif قائلا « إن العوامل الاجتماعيـه تعتبر بمثابة الاطار للادراك » ، واوضحتها سسيولوجيـا المعرفة ، عند ماذهبت إلى أن « الوضع الاجتماعى يحدد الاتجاهات النظريه والأفـكار » . كما أن هذه الملاحظة تعمل على توسيع نطاق النظـرية لانهـا تضيف اليها قضية جديدة مؤداها : إن « الادراك أو الاعتقاد يعد نتاجا للبناء الاجتماعى » .

٣ — يسهم البحث فى اعادة صياغة النظرية :

ويعمل البحث على اعادة صياغة النظرية وتوسيع نطاقها عن طريق الملاحظة المتكررة للوقائع التى لم تكن متضمنة فى الاطار التصورى ، والتى قل أن يهتم بهـا فى التحليل . ويصعب حصر الأمثلة التى يعج بها تراث علم الاجتماع والتى توضح الـكيفية التى يسهم بها البحث فى اعادة صياغة النظرية . ولـكن فى مقدمة هذه الأمثلة ، يمكن أن نذكر سلسلة نتائج البحث الجديدة التى أدت بمالينوفـكى إلى أن يعيد صياغة نظرية السحر . تلك النتائج التى توصل اليها من دراساته التى اجراها على قبائل التروبرياند . ويجمل هذه النتائج أن سكان جزر التروبرياند قد اعتادوا الصيد من مياه البحيرة الداخلية بطريقة التسميم ، بدون أن

يعرضوا أنفسهم للخطر وبغير الشك فيا توفره هذه الطريقة من صيد وافر ، مع العلم بانهم لا يمارسون شعائر السحر فى هذه الحالة . ولكنهم يمارسون هذه الشعائر ، عندما يقومون بالصيد من مياه البحر الخارجية ، لانهم يشكون فى امكانية توفر الصيد اللازم ، ويتوقعون المزيد من المخاطر(١). معنى هذا أنهم يعتقدون أن السحر يساعدهم فى التغلب على الاحساس بالشك وعدم الثقة ويدعم مساعى الانسان العملية ، ويقلل من قلقه ويفتح أمامه دروب التخلص من المخاطر وكان هذا الاعتقاد بمثابة قضية جديدة يمكن اضافتها إلى النظرية القديمة للسحر التى توضح دوره فى جلب الحظ وتناول كل مالا يمكن التحكم فيه من مخاطر . ولما كان الاطار التصورى القديم لايأخذ هذه القضية فى اعتباره ، ومن ثم لا يهتم بتحليلها ، معنى هذا إن مالينو فسكى استطاع بناء على هذه الدراسة أن يعيد صياغة نظرية السحر ويوسع من نطاقها .

وهناك مثال آخر نستمده من نتائج بحث أجرى للكشف عن فعاليـــة أحد وسائل التأثير فى جمهور المستمعين ، ويوضح أثر البحث فى اعادة صياغة النظرية المتعلقة باقناع الجماهير . وكانت عينة البحث كبيرة وممثلة لسكان مدينة نيويورك الذين أجريت لهم استبارات تدور حول انطباعاتهم عن البرنامج الاذاعى الذى يذاع على فترات متكررة لمـــدة ثمانية عشر ساعة يوميا وتقدمه إحدى نجوم الاذاعة ، من أجل اقناع الجماهير بشراء سندات الحرب . ولقد اختلفت انطباعات أفراد عينة البحث بين الاقبال الشديد على شراء السندات ، ومن رفض شرائهـا والاستياء من الحملة الدعائية والتجارية التى يقـــوم بهـا البرنامج . ويضاف إلى ما سبق أن الاقنـاع بشراء السندات ، كان يستند إلى إقناع آخر فى أمانة وصدق

---

(1) Ibid. pp. 100–102.

نجمة الاذاعة التى تقدم البرنامج. ولقد اثارت هذه النتيجة الأخيرة عدة تساؤلات. لماذا ظهر هذا الاقتناع الكامل فى أمانة النجمة ؟ ، ولماذا أظهر أفراد العينه هذا الاقتناع وهم قد تعودوا على الشك وعدم الثقة فى مجتمعهم الذى اشتهر بالمنافسة والانقسام ونقص الأخلاق ؟ ولماذا اعتقدوا أن دوافع هذه النجمة لاتصدر عن الجشع والطموح والاعتزاز باصلها الطبقى؟ وماهى إذن الاسس السيكوسسيولوجية التى يستند اليها هذا الاقتناع ؟[1] . ولقد عثر القائمون بالبحث على مفتاح للاجابة على هذه التساؤلات تمثل فى أحد النتائج التى توصلوا اليها والتى مفادها إن هناك نسبة كبيرة عن اعتادوا سماع برنامج هذه النجمة كانو مقتنعين بنزاهتها ووطنيتها وصمودها فى حملتها ، الأمر الذى دعم اقتناع الجمهور بأمانتها .

معنى هذا أن الاقتناع بأمانة النجمة ، يرجع إلى عملها المتواصل وصمودها وتكريس وقتها كله للبرنامج ، ولتضحيتها . وهذه النتيجة الأخيرة التى مفادها إن الدعاية عن طريق العمل تفوق فى فعاليتها الدعاية عن طريق الكلمة . وهى نتيجة جديدة لم يأخذ اطار نظرية اقناع الجماهير فى اعتباره ولم يهتم بتحليلها ، الأمر الذى يمكن القول معه أن هذا البحث استطاع أن يعيد صياغة النظرية وأن يوسع من نطاقها عن طريق اقتراح متغيرات جديدة .

٣ - يسهم البحث فى اعادة تحديد محور اهتمام النظرية :

عندما يبتكر البحث أساليب واجراءات جديدة يستعين بها فى جمع الوقائع وتحليلها ، فانه قد يتغير محور اهتمام النظرية نحو موضوعات لم تكن فى متناولنا قبل ذلك تثير الفروض الجديدة وتوجه البحث ثانية نحو مجالات مثمرة ، تزيد

---

(1) Ibid. pp. 102–104.

من جرائهـــا وتدفق البيانات والوقائع ، حول هذه المحاور التي تغيرت نحوها النظرية .

والأمثلة على اسهام البحث فى تغيير محور اهتمام النظرية ، عديدة فى تراث علم الاجتماع نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : ما ترتب على ابتكار أساليب تحليل المضمون والجداول والاستبارات المركزة وغيرها ، واستخدامها فى البحث من تراكم وقائع وبيانات كثيرة وجديدة غيرت من اهتمام نظرية الدعاية ، نحو امكانية إستخدام الدعاية كوسيلة للضبط الاجتماعى والتحكم فى ظروف المجتمع العالمى المتغيرة بأنساقه الايديولوجية المتصارعة وتكنولوجيته الحديثة الخاصة بالاتصال بالجماهير واستخدامها كسلاح فى الحرب الدائرة بينها . وما ترتب على الاستفادة من الأساليب الاسقاطية الجديدة ، واختبارات الرورشاخ وتفهم الموضوع وتكلمة القصة من وقائع وبيانات اعادة تحـديد محور الاهتمام فى نظرية الطابع وتكوين الشخصية ، فى علاقتها بالبناء الاجتماعى[١] .

وما ترتب على ابتكار مورينـو للاساليب السيومترية ، من أحياء الاهتمام بنظرية العـــلاقات الشخصية المتبادلة ، وتغيير محور اهتمام النظرية نحو الجماعات الأولية ، والابنية الاجتماعية غير الرسمية التى تتوسط بين الفرد والتنظيمات الرسمية الكبيرة ، الذى وجد صدى واسع فى التراث المتعلق بدور الجماعة غير الرسمية فى الأنساق الاجتماعيـة للمصنع مثلا ، أو فى البيروقراطية والتنظيمات السياسية . وما ترتب كذلك ، على استخدام الاختيار المتكرر لنفس الجماعة ، من اعادة تحديد اهتمام علماء النفس الاجتماعى بنظرية تكوين الاتجاه واتخاذ القـــرار ، والمشاركة السياسية ، وغيرها . ولكن مع كل هذه الأمثلة التى توضح أثر البحث

(I) Ibid. pp. 105-106.

فى تغيير اهتمام النظرية ، ينبغى ألا يغيب عن ذهننا أن هذا الأثر يتوقف على أن تكون الوقائع السيسيولوجية التى توصلنا اليها أساليب البحث الجديدة ، داخلة فى اطار مقولات وثيقة الصلة بالنظرية . وهذا ما يؤكد تالكوت بارسونز بقوله « إن الوقائع الجديدة تكون لها أهمية ودلالة نظرية عندما يكون بالامكان وضعها ضمن إطار من المقولات التحليلية . » الأمر الذى يعمل بدوره على تقدم النظرية . وذلك لأن أساليب البحث المبتكرة حديثا ، قد تصرف اهتمام النظرية عن القضايا وثيقة الصلة والتى لها أهمية من الناحيتين النظرية والإنسانية ، أكثر مما تغير اهتمام النظرية نحو المضامين المثمرة[١] .

٤ — يسهم البحث فى توضيح مفاهيم النظرية :

ينصرف أكبر جانب فى ذلك العمل الذى يعرف باسم التنظير نحو الاهتمام بتوضيح مفاهيم النظرية . ولكن بالرغم من أن موضوع المفاهيم المحددة بوضوح يحتل هذه الأهمية فى علم الإجتماع ، إلا أنه يؤخذ على كثير من البحوث فى هذا العلم ، انها عنيت أساسا بتصميم البحوث وتناول العلاقات السببية بين المتغيرات، وقل اهتمامها بعملية توضيح المتغيرات الجوهرية . وتحليل المفاهيم فى ضوء عناصرها التصورية . وهذا الوضع ينطبق على بحوث (شابل) عن أثر مشروعات الإسكان على مستوى معيشة الأسرة ، وعلى التجارب السيكولوجية عن أثر الاسر البديلة على ذكاء الأطفال ، وغيرهما . غير أنه يمكن البحث الذى يتسم بالحساسية لمثل هذا المطلب أن يتجنب عدم الإهتمام بالمفاهيم ، ويعمل على تحديد المفاهيم والمتغيرات بالوضوح الكافى الذى يحتاجه تقدم البحث والنظرية . ويتحقق اسهام البحث فى توضيح مفاهيم النظرية عن طريق تحديد مؤشرات للمتغيرات موضوع

---

(1) Ibid. pp. 106-108.

الاهتمام . فاذا نظرنا إلى مفهومات مثل الروح المعنوية والتماسك الإجتماعى نجد أنها فى حاجة إلى توضيح ، إذا كان يجب على الباحث أن يجـــرى تحليلاته على أساس متسق تساعده على تحديد درجات الروح المعنوية العاليـــة أو المنخفضة ، والتماسك الإجتماعى أو الانشقاق . ومن الطبيعى أن يلجأ هذا الباحث إلى ابتكار المؤشرات التى يمكن على ضوئها ملاحظـة أو دراسة موضوعات الروح المعنوية أو التماسك الاجتماعى ، على أن تكون هذه المؤشرات دقيقة وواضحة . ولقــد أدرك (دور كايم) الحاجة إلى ابتكار مؤشرات لمفاهيمه ، برغم ما يقال عن مصطلحاته ومؤشراتها أنها لم تكن ناضجة ومثيرة للخلاف . إذ نجـــده يصرح أكثر من مرة « إنه من الضرورى أن تبدل الحقيقة الداخلية التى يمكن أن يصعب ملاحظتها ، بحقيقة خارجية أخرى ترمز لها ،وأن تدرس الحقيقة الأولى من خلال الثانية . » وهكذا يقف الاصطلاح المتصور والمؤشر عليه ، أحدهما إزاء الآخر، ويرتبطان على هذا النحو ،بحيث يعتبر المؤشر على حدتعبير(دور كايم)و(سوزان لانجر) Langer ، هو ذلك الجانب من موضوع معين والذى يسهل إدراكه أما الجانب الآخر فهـــو ذلك الجانب الذى يصعب إدراكه ، برغم أنه وثيق الصلة نظريا بالجانب الأول.[1] وهناك مثال جوهرى يوضح لنا كيف أن البحث يسهم فى توضيح مفاهيم النظرية . ويستمد هذا المثال من تصور أساسى فى علم الاجتماع ، يفسـران للافراد أدواراً إجتماعيـة متعددة . وأنهم يميلون إلى ضبط سلوكهم على ضوء توقعات محددة بنائيا ، تخصص لكل دور منها . ويرتبط بهذا التصور، تصورا آخر مفاده أنه يزيد إحساس الأفراد بضغط الأدوار الاجتماعية المتصارعة ، وخاصة فى المجتمع الأقل تكاملا . وهناك أمثلة عـــلى هذه الأدوار المتصارعة لا حصر لهـا ، إذ يخضع الشيوعى الكاثوليكى لضغوط متعارضة من

---

(1) Ibid. pp. 108-109.

الحزب والكنيسة ،ويعانى الشخص الهامشى من ضغط الجماعات المتصارعة ،وتتمزق المرأة العاملة بين مطالب الاسرة وضرورات المهنة . وبرغم أن هذه التصورات قد مر على كشفها عشرات السنين فى علم الإجتماع ، إلا أن الاهتمام بهـا إنحصر فى مجرد محاولة تفسيرها ، أو تقـديم الحلول لها ، إذ أشار (توماس وزنانيكى) إلى أنه يمكن التقليل من الصراع بين الأدوار الاجتماعيـــة عن طريق تجزئة الدور أو تحـديد مطالب كل دور صراحة . كما ذهب آخرون إلى أن الصراع المستمر بين الأدوار يعد بمثابة عملية معوقة للمجتمع يمثل ما هى معوقة للفرد . وهكذا لم ينصرف الإهتمام بمثل هذا التصور نحو تحديده بوضوح الأمر الذى يسهم بدوره فى حل كثير من المشاكل التى أثارها . مثـــل على أى أسس يمكن أن يتنبأ المرء بسلوك الشخص الذى يمارس أدوار متصارعة؟ وأى الأدوار يكون لها الأولوية عندما يتخـذ قرارا ضروريا ؟ .. الخ . وهكذا تنبه الباحثون حديثا إلى أن هذا التصور الأساسى فى علم الاجتماع ، يستلزم بذل الجهـد من أجل إجراء التوضيح الاجرائى واللازم لمفـــاهيم : التضامن وصراع الدور ، والمـــوقف ، .. فاندفعوا نحو البحث عن المؤشرات التى ترمز لهذه المفاهيم .[١]

---

(1) Ibid. pp. 109–110.

الفصل السادس

سوسيولوجيا الجماعات

مقدمة

أولا : مفهوم الجماعة فى علم الاجتماع

ثانيا : طبيعة الجماعة الاجتماعية

ثالثا : الجماعة الاجتماعية والاتجاه البنائى الوظيفى

رابعا : الجماعة الاجتماعية والاتجاه الشكلى

خامسا : الجماعة الاجتماعية والاتجاه النفسى

سادسا : منهج دراسة الجماعات الاجتماعية

مقـــدمة

يركز بعض الباحثين على « الظواهر الاجتماعية» كموضوع للدراسة والتحليل ، الأمر الذى يجعلهم يخوضون فى علوم إجتماعية أخـــرى تشترك فى دراسة تلك الظواهر كعلم النفس الاجتماعى والسياسة والاقتصاد والأنثربولوجيـا . . وما إلى ذلك من العلوم التى تدرس الإنسان والمجتمع . ولكن هناك إتجاه يذهب إلى أن « التفاعل الاجتماعى » يعتبر بحق ، الموضوع الأساسى فى علم الاجتماع . ومـــع وجاهة هذا الاتجاه ، إلا أنه يربط علم الاجتماع بعلم النفس الاجتماعى وعلم ديناميات الجماعة . ولذلك يرى معظم المشتغلين بعلم الاجتماع أن موضوع «الجماعة الاجتماعية» يمكن أن يختص به علم الاجتماع ، على أساس اعتبار هذا الموضوع وحدة أساسية فى التحليل والتفسير السوسيولوجى وإن كانت « الجماعة » موضوعا لدراسة علم النفس الاجتماعى - مثلا - فهى ليست أساس التحليل فيـه ، لأنه يركز على الفـرد من خلال تأثره بالجماعة التى ينتمى اليها ، وليس التركيز منصباً على الجماعة ذاتها .

ورغم ذلك ، فإن اتفاقا يسود بين المشتغلين بعلم الاجتماع مؤداه أن علم الاجتماع هو الدراسة العلمية المنظمـة للمجتمع . وعليه تصبح « الجماعة » وحـدة بناء ذلك المجتمع ، بالإضافة إلى كونهما أصغر وحـدة تقوم بمختلف الوظائف والعمليـات الاجتماعية التى تسهم فى حفظ البناء الـكلى للمجتمع .

ولقد كان الطابع الغالب فى كثير من كتابات الباحثين حتى مطلع القرن العشرين منحصراً فى المعالجـة النظرية الشاملة للجماعات معالجة تنبنى على الخـبرة الشخصية والسجلات التاريخية دون الشعور بالحاجـة إلى البرهان الامبيريقى أو التجريبى . ومن أمثال هؤلاء الكتاب كولى ودوركايم وفرويد وليبون وماكدوجال وروس

وثارد وتورنيز . الا أنه منذ بداية العقد الثانى من القرن الحالى بدأت الثورة تشتد على هذا المنهج التأملى فى البحث ، وعلى التفكير المنطقى الذى لا يستند إلى اثبات أو دليل من واقع التجربه والقياس المقنن بصورة يمكن معها اعادة التجربة والوصول إلى نفس النتائج .

وخلال الثلاثين سنة الماضية تقدمت وسائل البحث وظهرت الحركة العلمية الواسعة النطاق فى مجال علوم الإنسان والمجتمع ، حيث تم اجراء واعداد تجارب ذات تخطيط دقيق واطار نظرى متسق . وبين مضامين الحركة العلمية كان الاهتمام بدراسة الجماعات الصغيرة ، وخاصة فى ميدان علم النفس الاجتماعى ، وكان ذلك فى بريطانيا بادىء الأمر ، ثم انتشر الاهتمام فى الولايات المتحـــدة الأمريكية وخاصة فى معامل ميتشجان وهارفارد .

أما فى ميدان علم الاجتماع ، فقد ظهرت دراسات ميدانية متعددة ومتنوعة الأطر التصورية والمضامين الايديولوجية ، باعتبار أن ذلك العلم يدرس الواقع نفسه ولا يهيىء معامل يدرس فيها السلوك البشرى ويتحكم فيه بفعل تأثير منبهات عددة . وانما كان « المجتمع » وما يزال ، معمل علم الاجتماع الواقعى ، الذى فيه يتقاسم الناس الحيـاة ، وفيه ـ أيضاً ـ تبدو الظواهر الاجتماعية وتعلن عن نفسها سواء أكانت سوية أم معتلة . وفى هذا يدرس علماء الاجتماع « الجماعات الاجتماعية » فى مختلف صورها وأنماطها ، كجماعات انحراف الصغار أو الجماعات المهنية أو الطائفة أو المجتمع المحلى باعتباره جماعة ، وغير ذلك من أنواع التجمعات البشرية .

هذا ، وينحصر اهتمام علماء الاجتماع بدراسة الجماعات الاجتماعية فى كونها نسقاً اجتماعيا Social System ، بمعنى أن بناءها يتكون من أجزاء لا تفقده

وحدته ، وأن العمليات الاجتماعية التي تحدث فيها تحدد موضعها من المجتمع ككل، ومدى الوضع الاجتماعي الذي تشغله في بناء المجتمع وهيكله . وقد انعكس هذا التصور على أعمال باريتو والوظيفيين بصفة خاصة بالإضافة إلى وجود نفس الاتجاه لدى علماء الاجتماع التحليليين المعاصرين أمثال بارسونز ، مع اختلاف هذا التصور عند علماء الاجتماع الواقعيين المتطرفين كالماركسيين وجومبلوفيتز ودور كايم .

وبهذا نمت دراسة الجماعات الصغيرة في ميدان علم الاجتماع ، بالإضافة إلى دراسة المجتمع المحلي باعتباره جماعة اجتماعية ذات بناء كلي هو مجموع بنادات الجماعات الفرعية المكونة له ، ويقوم بوظائف متنوعة هي مجموع الوظائف التي تؤديها الجماعات الفرعية داخله. وكانت هناك تفريعات أساسية في دراسة الجماعات الاجتماعيه منها :

١ ـ اتجاه نفسي اجتماعي له شقان ، الأول ابتدعه كيرت ليفين ويعرف بمدخل « ديناميات الجماعة » والثاني وضعه تشارلز كولى ويعرف بإسم الاتجاه النفسي في علم الاجتماع .

٢ ـ الاتجاه الشكلي الذي يهتم بحجم الجماعة أو شكلها بغض النظر عن التفاعلات التي تحدث بين مكوناتها ، ويتزعم هذا الاتجاه جورج سيمل والمدرسة الألمانية بصفة عامة .

٣ ـ الاتجاه البنائي الوظيفي الذي يهتم بالجماعة في ضوء التفاعل الاجتماعي ، وتوضيح الأدوار التي تلعبها الأجزاء المكونة للجماعة ككل ، ويبدو هذا مثلا لدى جورج هومانز .

وبهـذا نمت دراسة الجماعات الاجتماعية فى علم الاجتماع ، حتى أصبحت فى الوقت الراهن ، لاتمثل أحد الموضوعات الرئيسية فيه فقط ، وإنما تميزت باختيار موضوعات فرعية مثل : التفاعل الاجتماعى والعـــلاقات الاجتماعية والتجانس الجماعى وصراع الجماعة ... وغيرها ، كما تميزت بمناهج خاصة تمكنت من تطويرها وتعديلها وصياغتها ، حتى تمكن بعض الباحثين من إحداث إستقلال — أو شبه إستقلال - لهذا الموضوع ، لكى يصبح أحد فروع علم الاجتماع المعاصر ، وخاصة فى المجتمعات التى تؤمن بالتوازن والمماثلة والتكامل بين أجـزاء البناء الاجتماعى ومكـوناته .

إن التعرض للجماعات الاجتماعية - بقصد الفهم والتحليل - يجعلنا ننظر اليهـا من حيث مضمونها ومكوناتها والمنهج المتبع فى دراسة موضوعاتها . بالاضافة إلى كونها تمثل أحد فروع علم الاجتماع المعاصر . وهذا يجعلنا نعرض إلى تصورات هذا المفهوم « الجماعة » ، وطبيعتها ، وإتجاهات الدراسة والتحليل فيها .

اولا : مفهوم الجماعة فى علم الاجتماع :—

المشاهد أن ليس ثمة إنسان يعيش فى عزلة ، فقد لاحـظ أرسطو Aristotle أن الإنسان حيوان اجتماعى ، كما لاحظ كذلك أن البربرى أو الاله هو الوحيد فقط الذى يمكنه العيش منفرداً . وفى الواقـع فليس هنالك كائن بشرى يستطيع أن يحيا وحيداً لفترة طويلة من الزمان إذ أنه يدخل فى علاقات متباينة مع غيره من البشر .

ولقد وضح القديس توماس الأكوينى Saint Thomas Aquinas العوامل الجوهرية التى تدخل فى تكوين الجماعة ، حيث يعتمد الانسان على الآخرين من أجـــل :

أ — حاجاته الخاصة ، معنوية أكانت أم مادية .

ب — متطلباته الطبيعية لمشاركة غيره بغية إشباع تلك الحاجات .

جـ — وقصوره فى أن يهيء لنفسه كل هذه الحاجات مجتمعة (١) .

« الجماعة » إذن ظاهرة إجتماعية عامة فى كل المجتمعات البشرية ، ريفية أو بدوية أو حضرية . وهى ضرورية لكل النظم الاجتماعية مثل النظام الاقتصادى والأسرى وما اليهما ، إذ لا وجود لهذه النظم إلاداخل جماعات من نوع خاص. كما أنها تلقائية فى التنظيمات الاجتماعية Social Organizations وخاصة التنظيمات غير الرسمية فى مجتمع المصنع . حيث يتكون من جماعات تحكمها ضرورة العمل وخبرات المشاركة . (٢)

ويستخدم علماء الاجتماع مفهوم « الجماعة » بمعنيين : اجرائى وخاص . (٣) ولم يتفق بعد ـ فى علم الاجتماع ـ على تعريف موحد وعدد للجماعة . إذ يختلف معناها باختلاف استخدام المفهوم . ونعرض الآن إلى مجموعة من المصطلحات التى تشاطر « الجماعة الاجتماعية » خاصية من خصائصها أو طبيعة من طبائعها ، بغية الوصول إلى تعريف محدد للجماعة الاجتماعيه فى علم الاجتماع .

١ ـ يرى بوجاردس أن الجماعة « عدد من الوحدات التى يتجاور بعضها مع

---

(1) Gladys Sellew; Reverend paul furfey, and Reverend william T. Gaughan; An Introduction to Sociology; N Y.; Harper and Row, Publishers; 1958; p, 193.

(٢) نحن لا نفسر « الجماعة الاجتماعية » هنا باعتبارها ظاهرة اجتماعية بالمعنى الذى يهدف اليه دوركايم . وإنما يعتمد تفسيرنا على واقعية وجود الجماعة الاجتماعية فى الحياة.

(٣) هناك فارق بين التعريف الخاص والتعريف الاجرائى.

البعض » ، فالجماعة هي عدد من شجر في غابة ، أو منازل في شارع ، أو طائرات في مطار معين . وتتحول الجماعة إلى جماعة اجتماعية حينما يكون ثمة تفاعل . وحتى عن طريق إستجابة باعث لباعث آخر - كما هو الحال في سرب من الطيور مثلا - فليس هنالك جماعة إجتماعية . وفي الميدان الانساني تأخذ الجماعة الاجتماعية معناها الواضح ، إذ تتضمن أكثر من فعل ورد فعل . فهي متضمنة التخطيط والنفور والسعي والإعلان والتعليم ... الخ .

وربما يختلف عدد الاشخاص المكونين للجماعة الاجتماعية ، ولكن تتفق الموضوعات التي تكون محلا لأنظارهم وانتباههم . كما يتأثر كل شخص ويؤثر في الآخرين ، ويكون لأعضاء الجماعة ولاء لها وإشراك في مناشطها .(١)

ويرى دون مارتندال أن مفهوم « جماعة » يشير إلى أي عدد من الأشخاص كبير أم صغير — تكون بينهم علاقات تنكشف من خلال التفكير المشترك . فالأسرة والغوغاء والاتحادات العالية والنقابات كلها أمثلة للجماعة . فيها يعيش الأفراد بعيدين عن العزلة ، إذ لا يمكن شرح الحياة الاجتماعية بدون معرفة الجماعات التي ينتمي اليها أولئك الأفراد . إن العمليات الاجتماعية هي الفعل ورد الفعل الدائمين لأجل مصالح واهتمامات الجماعة ، كما أن الصراع عامل جوهري في العملية الاجتماعية Social Process (٢)

ويتفق البيون سمول Albion W. Small مع المستد Olmsted في الطبيعة

---

(1) Emory Bogardus; Sociology; N. Y.; Macmillan Company; 1954; p. 5.

(2) Don Martindale; The Nature and Types of Sociological Theory; Boston; p. 194.

العددية لتكوين الجماعة ، ويشرطان تلك الطبيعة العددية بالاتصال فيما بين أعضاء الجماعة ، وإقامة علاقات اجتماعية بينهم . بيد أن هناك خلاف بينهما ، إذ ينظر الأول إلى أن تلك العلاقات تلفت أنظار اعضاء الجماعة كما تلفت أنظار غيرهم . فى حين يذهب المستد إلى أن الأنظار تكون مقصورة فقط على أعضاء الجماعة ذاتها إذ « يضع كل منهم الآخر فى حسبانه »(1). وقد يرجع تحليل الأخير إلى نظرته الضيقة للجماعات الصغيرة دون أن يضع فى اعتباره الجماعات الكبيرة .

وقد حدد جورج كاسبار هومانز Homons مفهوم الجماعة بأنها « عدد الأفراد الذين يتصل كل بالآخر خلال فترة معينة من الزمان ، والذين هم قليلون من حيث العدد ، ولكل منهم المقدرة على الاتصال بالآخرين . ليس ذلك بطريقة ثانوية ، وإنما بطريقة المواجهة المباشرة(2) . وهو يرى ذلك لأنه يدرس التفاعل الإنسانى فى الجماعة على هذا المستوى . وإذا ما حاولنا أن نحدد الجماعة كما فعل هومانز — بالرجوع إلى عدد الأشخاص الذين يتصل كل منهم بالآخر بطريقة مباشرة — فلن نستطيع تفسير ذلك بالنسبة للجماعات الكبيرة . وحتى فى ضوء تصور المواجهة المباشرة ، فقد نجد جماعات داخل أخرى وهى ما يطلق عليها إسم « جماعات فرعية Subgroups » . والأساس الوحيد لكى نطلق على عدد من الناس لفظ « جماعة » أو لفظ « جماعة فرعية » هو الغرض الذى يستخدم الباحث من أجله مفهوم الجماعة أو نوع التفاعل الذى يحاول تحليله .

---

(1) Michael S. Olmsted; The Small Group; N. P.; Random House, inc.; 1959; p. 21.

(2) George C. Homans; The Human Group; London; Routledge & Kegan Paul LTD.; 1959; p. 1.

وتبد ثمة عوامل محددة الجماعة الاجتماعية كصغر حجمها أو كبره ، وشدة التفاعل بين أعضائها أو ضعفه . مما يؤثر بدوره على غايات الجماعة ، ويضعها على درجة معينة من الاشتراك أو الوفاق Consensus .

من هذا نلاحظ أن هذه المجموعة من الاراء تضع فى المقام الأول الطبيعة العددية للجماعة . وهى بهذا المعنى لا تنفصل بخصائص تميزها عن أى وحدات عددية ، مما جعل علماء الاجتماع يضفون عليها طبائع أخرى كالعلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعى بين أعضائها . ومن جراء هذه التعريفات أن انشقت الدراسة السوسيولوجية للجماعات إلى قسمين ، قسم يهتم بدراسة الجماعات الصغيرة small groups وآخر يدرس الجماعات الكبيرة متخذا مدخل المجتمع المحلى Community دليلا له

٢ — يذهب بروم وسلزنيك إلى التفرقة بين الجماعة والتجمع . فقد يحدث تجمع aggregate عدد من الأشخاص فى مكان معين ولا يكون بينهم أى تفاعل ولذلك لا نستطيع أن نطلق عليهم لفظ « جماعة » لأن تجمعهم هذا ليس إلا تجاورا مكانيا وحسب . ومثال ذلك من يقفون على ناصية الطريق فى إنتظار تغير إشارة المرور الحمراء . وربما يحدث بين أولئك المتجاورين فى المكان تفاعلا من نوع خاص ، مما يجعلهم يسلكون مسالك متعددة الصور والاشكال ، ويقومون بأعمال ومناشط مختلفة . ولذا يمكن أن يكونوا جماعة يستمر وجودها لفترة قد تطول أو تقصر . كما قد تكون هذه الجماعة على درجة عليا أو دنيا من التنظيم والثبات . (1)

---

(1) Leonard Broom & philip Selznick; Sociology ; a text with adapted readings; N. Y.; Harper & Row, publishers; 1963; p. 31.

وبهذا المعنى تستخدم كلمة « جماعة » لتشير إلى تجمع أشخاص نشأت بينهم علاقات اجتماعية معينة . ويبدو ذلك التجمع إبتداء من الأسرة والغوغاء كما يتضح فى المواطنين المنتمين لدولة معينة .

٢ — ويفرق كثير من الباحثين بين الجماعة وبين مايطلق عليه اسم « الفئة الاجتماعية Social Category »[1] . فالذين يتشابهون فى الدخل أو فى نواح أخرى كالسن أو المهنة أو هواية القراءة مثلا ، لا يكونون جماعات اجتماعية بصفة خالصة : ولذلك يقال إنهم مكونين لفئات اجتماعية. ولتلك الفئات أهميتها فى التحليل السوسيولوجى ، إذ أن الذين يتشابهون فى إحدى هذه التغيرات وربما يدخلون فى علاقات اجتماعية ويشكلون جماعات ، حيثما يكون لهم مجرى حياة Style of life خاص بهم . كما تفترض تلك الفئة وضعا اجتماعيا معيناً يشعرون به . ويهتم علماء الاجتماع بدراسة الحالات التى ينجم عنها جماعات اجتماعية كانت بدايتها فئات اجتماعية (٢) .

ويعتبر السن فئة اجتماعية هامة ، إذ أن ثمة اهتمام بدراسة جماعات المسنين فى تشابه تكوينها ووظائفها . وتحاول تلك الدراسات الاجابة على أسئلة مثل : هل هناك مجرى حياة خاص بالمسنين يمكن أن يكون أساساً طبيعياً لتمايزهم ؟ أو هل يشعر كبار السن بتوحد كل مع الآخر تبعا لتشابه السن ؟ وما هى مؤثرات المسنين فى النظام السياسى ؟ . كل هذه أسئلة — وغيرها - تبين المشاكل التى قد تظهر إذا ما توقعنا ظهور الفئة الاجتماعية .

---

(1) Robert L. sutherland; Julian L. weodward & Milton A. Maxwell; Introductory Sociology, N. Y.; 1961; p.126.

(2) Broom & Selznick; op. cit.; p. 31.

فالمميز للجماعة هنا هو مجرى الحياة الواحد والمتشابه، بمعنى المصالح والأهداف المتشابهة . وفى هذا يرى بارك وبيرجس فى « مقدمة لعلم الاجتماع » أن الجماعة الاجتماعية ينبغى أن تكون « عكتة الفعل المناسب » وأن هذا الفعل يجب أن يكون « موجهاً بطريق مباشر أو غير مباشر نحو غاية عامة » . ولقـد قال الانثربولوجى أدوارد سابير Sapir فى مقالة علمية بدائرة المعارف للعلوم الاجتماعية أن أساس الجماعة هو الرغبة العامة لأعضائها . وأن تجمع الرغبات ربما يتسلسل من الحادثة العابرة التى تجمع الناس فى لحظة ما ، إلى الرغبة دائمة الوظيفة التى تكون وحدة مختارة . وبالمثل عالم الاجتماع روبرت كولى Robert Cooley يعرف الجماعة — فى كتابه تكامل المجتمع الأمريكى — بأنها « بنـاء لعـدد من الأشخاص الذين يحولون تعبير الفعل إلى سياسة عامة مباشرة » فهى تحوى أولئك الذين لا يملكون شيئاً أكثر من دخل على مستوى معين مثلا . وفى كلمات أخرى فلكى تتكون هنالك جماعة ، يجب أن يتسم تجمع الأفراد بالتنظيم ،أو على الأقل تكون للجماعة وسائل وغايات منظمة .(١)

٤ — ولقد أضاف كل من بنية Bennet ومالفين تويومن Tumin عنصراً آخر لتعريف الجماعة حينما تكلما عن الجماعة باعتبارهـا مكونة من « أولئك الذين يمكن تحديدهم بالتفاعل الثابت والمباشر تجاه أهداف عامة ، مستخـدمين إتفاقا عاما على وسائل معينة لبلوغ تلك الأهـداف » (٢) . كما ويذهب ما كيفر وبيج الى أن الجماعة « أى تجمع لكائنات بشرية تدخل فى علاقة اجتماعية كل مع

---

(1) Samuel Koening: Sociology : an introduction to the Science of Society; N. Y.; Barnes & Noble, inc; 1964; p. 204.

(2) John W. Bannet & Melvin Mumin; Social Life; N. Y. Alfred A. Knopf; 1952. p. 164.

الأخرى» (١) وبناء على ذلك فلربما تتشابه الجماعة فى أمور معينة أو اهتمامات عامة . فإذا ما عمل اثنين سوياً فسوف تكون لديهما اهتمامات مشتركة فيما يكون لكل منهما وظيفة محددة وإذا ما تأكد كل منهما من وظيفته هذه فليس ثمة صراع بين تلك الاهتمامات المشتركة . ومع ذلك فقد لايستطيع كل منهما الحصول على نفس الاهتمامات فى وقت واحد ، وهذا ما يدعو الى الصراع أو إلى عدم الوحدة disunity . ومثال ذلك أن المتنافسين على حلبة الملاكمة لهما إهتمام واحد وهو فوز كل منهما بالمباراة . ولكن الاهتمام المشترك لا يتحصل لكل منهما فى الوقت عينه (٢) . وبهذا تعنى الاهتمامات العامة أن كل من الطرفين يريد إنجاز أعمال معين بالإشتراك مع الآخر ،حيث تضحى الاهتمامات العامة وكأنها من أجل التعاون ومن أجل الوحدة .

ويتفق كل من رالف تيرنر Turner ولويس كيليان Killian فى أن الجماعة « تحتوى فى الغالب على عدد من الذين يدخلون فى تفاعل معين ، ويكون تفاعلهم هذا متأثراً ببعض الإتجاهات أو الاحساسات التى تحافظ على إستمرار وحدة الجماعة ودوامها . ويغلب على هذه الاحساسات عمومية التعبير لما لدى الأعضاء من آراء وما يتوقعونه من سلوك . وهكذا فإن تجمع معايير الجماعة إنما يعتبر ملمحاً قاطعاً وسمة رئيسية للتفاعل » (٣) .

٥ ـ والخلاصة ، ان إختلفت تعريفات الجماعة الإجتماعية فى علم الإجتماع .

---

(1) R. M. Maciver & charles H. page; Society; N. Y.; Rinehart and Company, inc.; 1949; p. 213.

(2) Sellew et al.; op. cit.; p. 192.

(3) Ralph H. Turner & Lewis M. Killian; Collective Behavior; N. Jersey; prentic-Hall, inc.; 1957; p. 12.

فهناك من يفرق بين « الجماعة » وبين « الجماعة الإجتماعية » بان أساس التفرقة على الطبيعة العددية التى تشترك فيها كليهما . ويفرق بينهما على أساس العلاقات الإجتماعية والتفاعل الإجتماعى حتى يمكن تحويل الجماعة إلى جماعة إجتماعية . وهناك من يفرق بين « الجماعة الإجتماعية » وبين « الفئة الإجتماعية » وكذلك من يفـــرق بين «الجماعة الإجتماعية» وبين « التجمع » . ومن خلال تلك المقارنات وهذه التعريفات يمكننا أن نضع تعريفا للجماعة الإجتماعية مؤداة :

«الجماعة الإجتماعية ظاهرة عامة . . ضرورية . . تلقائية . تتألف من عدد - كبير أو قليل - من الأعضاء الذين يتصل كل منهم بالآخـــر . مكونين علاقات إجتماعية عن طريق التفاعل بينهم . لتلك الجماعة أسلوب حياة خاص بأعضائها . توضح لهم الهدف والمصلحة التى يشتركون بغية تحقيقها » .

ثانيا - طبيعة الجماعة الاجتماعية -

ظهرت فى قواميس علم الاجتماع اصطلاحات عديدة مثل « الفعل الجماعى » و « إرادة الجماعة » و « الشخص المشارك ثقافيا » و « التصورات الجمعية » لتشير إلى الحقيقة التى تثبت دراسة « الجماعة » فى علم الإجتماع . وحديثنا عن الجماعة يدعونا بادىء الأمر تأكيد أن الجماعة لا توجد مستقلة عن المكونين لها ، وأن سلوك الجماعة ليس بعيداً عن سلوك أعضائها ، وأن ثمة تبادل بين الجماعة ومكوناتها وافتقار كل منهما للاخر .

ولايشك دوركايم فى أن الكل الاجتماعى - أو المجتمع - أكثر من مجموع أجزائه الفردية . إذ نظـــر دوركايم إلى الجماعة باعتبارها متضمنة لتاريخ حياة أعضائها ، فهى مالـــكة للتقاليد ،معتمدة على الرموز ، راسخة لخبرات كل فرد

فيها .(١) وفى الواقع فإن الجماعة ليست حاصل جمع مكونيها ؛ إذ تنصهر فرديتهم فى حدود الكل الذى يبدو بصورة جد مختلفة عما هى لدى كل فرد على حدة .

ولقد ذكر زيمرمان Zimmerman أن المجتمع لا يوجد رغماً عن « الشخص الجماعى » بما له من عقل جماعى ، وذلك بغض النظر عن مظاهر سلوكه . وأبعد من ذلك فان الجماعة تحاول الوقوف على محتويات الثقافة السائدة حتى يكفل لها الاستمرار . ولذلك فإن ثمة عامل دائم فى التفاعل هو « البناء » الذى يمكن دراسته بطريقة مباشرة . كما يمكن دراسة الثقافة وتحليل تصورات الفعل الكلى للجماعة وحينما تحاول ملاحظة التوقعات الجماعية للسلوك الإنسانى ، ينبغى ألا نحيد عن كونها — على الأقل — تحليلا لحياة الجماعة التى يمكن النظر اليها من خلال ملاحظة سلوك أفرادها . هذا ولقد بين تشارلز كولى أهمية وضع كل من الفرد والمجتمع فى الاعتبار ، فليس الشخص والجماعة متطابقين أو متماثلين ، لكنهما فى واقع الأمر — فى وجود مشترك Coexistent وعلاقة متبادلة (٢) . وبناء على ذلك ينتج الوفاق فى الجماعة عن طريق عملية التفاعل . وربما يتضمن التعبير عن ذلك الوفاق مجموعة أفعال أعضاء الجماعة أو تصوراتهم . وقد يتم الوفاق فى الجماعة عن طريق ديمقراطى أو عن طريق أقليه تحاول تحقيق غاية معينة .

« الجماعة » إذن مجموعة العلاقات الإجتماعية الناتجة عن التفاعل الإيجابى أو المتعطل لشخصين أو أكثر . وتتميز الجماعة بخصائص ثلاث هى : الحجم وطبيعة التفاعل السيكولوجية وعدم رسمية الجماعة .

١ - يعتبر حجم الجماعة مقياس هام يبين عدد الداخلين فى عملية التفاعل . كما

---

(1) Sutherland et al.; op. cit.; p. 130.

(2) Ibid.; p. 131.

يبين كذلك أهمية ذلك العدد فى تكوين مثل وإتجاهات الأعضاء . والشاهد أن التفاعل يزداد ضعفاً كلما إزداد حجم الجماعة،وبالعكس فكلما كان حجم الجماعة صغيراً كلما كانت الجماعة أكثر إشباعاً لرغبات من يدخلون فيها . ومثال ذلك أن الجماعة المكونة من شخصين ، الثنائية ، تختلف عن الجماعة المكونة من ثلاث ، الثلاثية ،(١) عند النظر فى مشاركة الأعضاء لاتيان فعل معين . فالجماعة الثلاثية عادة ما تأخذ شكل الجماعة الثنائية الناظر إليها ، إذ تبدو العلاقات فيها بين عضوين فقط .

٢ — ويعنى طبيعة التفاعل السيكولوجية تكيف الفـــرد وتشكيله لسلوكه على أساس توقعه لرد فعل الآخرين . ويتضمن رد الفعل هذا عوامل خفية أو نفسية وكذلك الحال بالنسبة للتوقع . ومنطقياً فإننا نتنبأ برد فعل الآخرين مستندين على خبراتنا بهم وتصرفاتهم فى مواقف مشابهة ، وكذلك باستنادنا على المعايير والطرائق الشعبية التى تظهر فى موقف التفاعل . وفى العادة يحدث توقع سلوك الآخرين فى وقت قصير جداً . وربما يضع المرء تخطيطاً معيناً لسلوكه ، ومثال ذلك أن يحاول وضع إجابات على أسئلة يتوقعها إذا ما كان متهما فى قضية معينة . وبمعنى آخر ، إننا نضع أنفسنا — أو نحاول ذلك — مكان الآخرين ونتنبأ برد الفعل المتوقع ، ونشكل أفعالنا بما يتلاءم مع رد فعل نرغب فيه .

٣ — أما العلاقات غير الرسمية فهى التى لا تقوم على بناء من القواعد ، وترجع إلى الجماعات غـــير الرسمية ، أو تلك التى تفرض ضوابط تلقائية ذاتية لسلوك

---

(١) يطلق على الجماعة المكونة من شخصين مصطلح Adyad group ويطلق على الجماعة المكونة من ثلاث مصطلح Atriad group . ونستخدم مفهوم « ثنائية » ليشير إلى الجماعة الأولى ، ومفهوم « ثلاثية » ليشير إلى الجماعة من النوع الثانى . والجدير بالذكر أن (جورج زيمل) هو الذى وضع هذين المصطلحين فى علم الاجتماع .

أعضائها . وتتضح أهمية هذه العلاقات فى البناء غير الرسمى Informal Structure وخاصة ذلك الذى يظهر بشكل واضح فى المجتمع الصناعى .(١)

ثالثا : الجماعة الاجتماعية والاتجاه البنائى الوظيفى : -

ان وضع النظرية السوسيولوجية لتبين تأثير الجماعة على المفكرين الوظيفيين Functionalists أو الذين يسمون بالمدخـــل البنائى الوظيفى - Structural Functional يشير إلى أن من إتجـه هذا الإتجـاه يشير إلى العلاقة بين مفهومى « البناء » و « الوظيفة » كما ينبغى أن نلاحظ أن لفظ « بناء » يشير إلى العـلاقات النمطية والثابتة نسبياً للوحدات الإجتماعية ، بينما نعنى بالوظيفة أى نشاط إجتماعى يغطى البناء أو لأجزائه الثابتة . وفى كلمات أخرى يشير البناء إلى نسق الأنماط المستمرة نسبياً ، وتشير الوظيفة إلى العملية الدينامية فى ذلك البناء (٢) .

ويذهب نموذج التحليل هذا لدى علماء الإجتماع والأنثربولوجيا إلى تطوير أدوات البحث والنظرية للاهتمام بارتباط بعض « السمات » traits العديدة كالنظم والجماعات .. الخ فى النسق الإجتماعى الكلى ، وكذلك للوصول إلى مناهج وأساليب تصف ما حدث فى القرن التاسع عشر من إسهامات .

ولقد جاء المذهب الوظيفى فى الفكر السوسيولوجى عن طريق استعارة بعض مفهومات العلوم البيولوجية بطريقة مباشرة ، ذلك العلم - البيولوجيا - الذى ينظر

(1) Lowry Nelson, Charles E. Ramsey & Coolie verner; Community Structure and Change; The Macmillan Company. N Y., 1964, pp. 219-221.

(2) L. A, Coser & Rosenberg. Sociological Theory, N. Y., 1965, p. 615.

إلى البناء في ضوء المذهب العضوى Organism ويعنى العلاقات المتسلسلة والثابتة نسبياً في مختلف الخلايا ، وترجع نتائج نشاط مختلف الأعضاء في عملية الحياة إلى ما يسمونه بالوظيفة . ولذلك كان (هوبرت سبنسر) (١٨٢٠ - ١٩٠٣) H. Spencer عالم الإجتماع التطورى البريطانى خـير من وضع نظرية البناء الإجتماعى في علم الاجتماع ، وبين أوجـه الشبه بين الكائن الاجتماعى والعضو البيولوجى ، حيث أن حـدود الحياة تنطبق على كل منها . وبهذا إنتشر للمذهب العضوى في علم الاجتماع .

أما التكوين الثابت لمنطق المدخل الوظيفى في علم الإجـتماع ، فقد كان عن طريق (إميل دور كايم) Durkheim الذى لم يتوسع كثيراً في بيان أوجه الشبه بين العمليات البيولوجية والعمليات السوسيولوجية ، وعليه حدد خواصا معينة للوقائع الإجتماعية كالشعائر والجريمة والعقاب وإختلاف الدور ، كما بين أسس تغير البناء الإجتماعى (١) .

وقد كان التحليل الوظيفى Functional analysis نتاج أعمال الانثربولوجيين البريطانيين (كـراد كليف بروان) Radcliffe Brown (ومالينوفسكى) Malinowski بيد أن(فلفريدو باريتو) Vilfredo pareto عالم الإجتماع الإيطالى المتمرن ، قد طور نسق التحليل . فقد كان مشغولا بالاقتصاديات الرياضية قبل إهتمامه بالنظـرية السوسيولوجية ، إذ حاول أن يضع نظرية عامة للانساق الاجـتماعية على أساس نموذج آلى . فقد رأى المجتمع على أنه نسق متوازن جوهرياً ويحتوى أجزاء متبادلة الاعتماد حيث يؤثر كل تغير في أحـد الأجزاء

---

(1) Ibid., pp 616, ff.

- بالضرورة - فى كل الأجزاء الأخرى، بالاضافة إلى تغير النسق ككل . ولهذا فقد بين حدود الاختبارات النسبية العامة ، والعناصر المكونة لها كتصنيف الأفعال المنطقية وغير المنطقية ، والتمييز بين الهدف الشخصى والهدف الموضوعى الذى يمكن إيضاحه فى التحليـــل الوظيفى . وفى الواقع فقد ميز (ميرتون) Merton أيضاً بين الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة. ونجد أنصار الوظيفة فى علم الاجتماع المعاصر أمثال (تالكوت بارسونز) و (كنجزلى دافيز) Kingsley Davis .

يرى (مارتندال) أن المذهب الوظيفى الذى يهتم بالوحدات الصغرى Micro Functionalism ما هو إلا ديناميات الجماعة Group dynamics . ويطلق أسم المذهب الوظيفى المهتم بالوحدات الكبرى Macro – Functionalism على شكل النظرية السوسيولوجية الوظيفية الذى ليس له هيكلا كروكيا وذلك لتمييزه عن فرع النظرية الآخر (١) . ويتميز المذهب الوظيفى بمفهومه عن أسبقية النسق ، ليصف النماذج الفرعية فى ضوء أنواع النسق المنفردة . وتاريخياً فقد كان علماء المنهج الوظيفى القدامى من أتباع الوضعية العضوية ، إذ يتمثل المجتمع فى أغلب الحالات فى وحدة أولية التحليل ، فلقد حاول علماء المذهب الوظيفى المهتمين بالوحدات الكبرى ، إعادة وضع تعريف دقيق ، للمجتمع ، كما يحاولون تعميم مفهوم النسق ، وتطبيق ذلك على مختلف الظواهر الاجتماعية فى مستوياتها المتعددة والمعقدة ، فهم يتجهون إلى تضييق نطاق تلك الأنساق . ولذلك نرى علماء الانثربولوجيا يركزون على الأنساق الكبرى (فميرتون) Merton مثلا يتجه إلى إعتبار وحدة المجتمع نموذجا أساسياً فى تحليلاته . كما أن (بارسونز) فى كتابه

---

(1) Don Martindale, The Nature and Types of Sociological Theory, Boston, 1960, pp. 501–522.

« النسق الاجتماعى » يضع فى إعتباره المجتمع كما لو كان وحدة النسق ، بيد أنه مزج — متأخراً — فكرته عن الأنساق بالوحـــدات الصغرى كما عالجها (بالز) Bales .

أما الوظيفيين المهتمين بالوحدات الصغرى ، فعلى الجانب الآخر يرون تطبيق النظرية السوسيولوجية الوظيفية العامة فى إتجاه مناقض تماما للاتجاه السابق، وتمتد أصول هذا المذهب الوظيفى إلى علم النفس الجشطلتى Gestalt Psychology الذى يعتمد على تفسيرات علم النفس الإنسانى على عكس النظريات الآلية لأصحاب النزعة الارتباطية Associationists فمشاكل البحث هى تلك التى تتضمن العلاقة بين مختلف أنواع الكل السيكولوجى ، وأجزائه ومشكلة تكيف الأبنية السلوكية.

إن نظرية (تاردTarde) عن التفاعل الاجتماعى فى تعارض مع مفهوم التصورات الجمعيـــة (لدور كايم) فاذا كان (تارد) قد وضع إضافات إلى علم النفس الاجتماعى ، فان (دور كايم) قد كشف النطاق عن التفاعل الاجتماعى وفحص بناء ووظائف الحياة المجتمعية Societal فى الماضى والحاضر ، وأضاف اعتبارات سوسيولوجية لها أهميتها (١) .

ولقد كان (دور كايم) يعتقد فى تطبيق مناهج العلم الطبيعى على دراسة الأفعال الاجتماعية . وكمعتقد فى المنهج العلمى فقد ركز اهتمامه على المـــادة الامبريقية . وتجنب الأحكام القيمية ، وعلى الطرف الآخر لم يقبل النظرية الفردية عن المجتمع. ولقد قاده إهتمامه بالغايات الاجتماعية إلى تطور فكرة التكامل الاجتماعى فى أجزاء

---

(1) Emory S. Bogardus, The development of social Thought, fourth edition, David Mckay company, inc., N. Y., 1964. p. 418.

عديدة . فنشاط المجتمع فى وقت محدد هو أقصى ما يصل اليه الحكم ، ولهذا درس النشاط المجتمعى .

وفى الواقع فلكل جماعة أخلاق عامة، يشترك فيها كل الأفراد الذين يؤلفون فيما بينهم هذه الجماعة . ومع ذلك فلكل شخص أخلاقه الخاصة به ، وفى هذا الوضع بالذات يكون التوافق أكمل ما يكون . فكل فرد يمارس على نحو جزئى أخلاقه . ذلك أن لكل شخص منا حياة خلقية داخلية خاصة . ومن هذا الجهة يصح القول أنه قد لا يوجد الشعور الفردى الذى يمكن أن يعبر تعبيراً دقيقاً عن الشعور الاخلاقى العام المشترك . فالشعور الفردى لايطابق الشعور المشترك إلا مطابقة على نحو جزئى .وعلى هذا الاعتبار يمكن أن يكون كل منا لا أخلاقيا من بعض الوجوه. فلست أنكر إذن هذه الحياة الأخلاقية الداخلة ولا أعارض كذلك على أنه يمكن دراسة هذه الحياة دراسة ناجحة . وكل ما هنا لك أنى أحسب أن مجال هذه الدراسات خارج بوضعه عن نطاق ما نحن بصدده فى بحثنا (١) .

إن التصورات الجمعية هى مفهوم يعطى إضافة إلى ما هو موجود فى التفكير الاجتماعى (لدوركايم) وأن الرموز الجمعية لها القوة على خلق التجمعات والتطور.

يقول (دوركايم) فى معرض حديثه عن التصورات الفردية والتصورات الجمعية: عندما كنا نقول أن الوقائع الاجتماعية هى أمور مستقلة ـ على نحو ما ـ

---

(١) إميل دوركايم ، علم اجتماع وفلسفة ، ترجمة الدكتور حسن أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦ ، ص ١٢٧ .

عن الأفراد ، وخارجية بالنسبة للمشاعر الفردية ، فاننا لم نكن نقصد من هذا القول أكثر من أن نثبت للمجال الاجتماعي ما كنا قد اعترفنا به للمجال النفسي : فالمجتمع يقوم على دعامة من مجموعة من الأفراد يرتبطون فيما بينهم ، طبقاً لنظام ينشأ عن إتحادهم ، فيتغير وفقاً لتصرفهم في رقعة المكان، وفقاً لما يتعلق بذلك من وسائل الإتصال وإختلافها فيما بينها : طبيعة وعدداً . هذا هو الأساس الذي تقوم عليه الحياة الإجتماعية . وتنجم التصورات عن العلاقات التي تربط الأفراد بعضهم ببعض . كما تنجم عن العلاقات التي تربط الجماعات الفرعية فيما بينها . أي تلك الجماعات التي تقوم بين الفرد والمجتمع العام . ومن ثم فاذا لم ير الانسان بأساً فيما يتعلق بالتصورات الفردية التي تنشأ عن الأفعال وردود الأفعال المتبادلة بين العناصر العصبية دون أن تتحد بتلك العناصر فما من داع إذن يدعو إلى الدهشة فيما يتعلق بالتصورات الجمعية ، فهي بالمثل تنشأ عن الأفعال وردود الأفعال المتبادلة بين المشاعر الأولية التي يتكون منها المجتمع (١) .

وهكذا وجه (إميل دور كايم) الأنظار إلى أهمية العوامل الجماعية . فالسلوك الانساني في نظره يمكن فهمه فقط عن طريق معرفة البناء الجمعي للجماعة ، وخاصة التصورات الجمعية التي هي نتاج الأفراد في الحياة الجماعية . وقد تابع (دور كايم) وأفكاره تلاميذ عدة قاموا بتطبيقها في دراسة عمليات سيكولوجية معينة ، ومنهم (ليفي بريل) الذي درس تأثير الجماعة على التفكير (٢) .

هذا وتمتد أصول المذهب الوظيفي إلى تفريعات ثلاثة :

---

(١) بحث نشر في «مجلة الميتافيزيقا والأخلاق» المجلد السادس عدد مايو ١٨٩٨ عن : أميل دوركايم : علم اجتماع وفلسفة ، المرجع قبل السابق ص ٤٨—٤٩ .

(٢) لويس كامل مليكه ، سيكولوجية الجماعات والقيادة ، مرجع سابق .

أ — من علم الاجتماع المبكر .

ب — من علم النفس .

ﺟ — من الانثربولوجيا الاجتماعية .

ففى علم الاجتماع المبكر يتضح المذهب الوظيفى فى المذهب السلوكى الاجتماعى Social behaviorism كما يظهر ذلك عند (تاردر) Tarde (ودور كايم) و (كنجزلى دافيز) Kingsley Davis و (سبنسر) و (البيون سمول) وغيرهم أما فى علم النفس فنلاحظ الوظيفية فى نظريات مدرسة الجشطلت Gestalt والنظريات الآليــة Mechanistic Theories فى تفسير السلوك . وعنــد الانثربولوجيين الاجتماعيين نجد الوظيفية واضحة فى أعمــال كل من (راد كليف براون) و (مالنيوفسكى) و (روث بنديكت) (١) .

يفرق (مارتن دال) بين إتجاهين أساسيين فى المذهب الوظيفى، كما سبقت الإشارة

فهنــاك المذهب الوظيفى الذى يهتم بدراسة الوحــدات الصغرى - Macro Functionalism والإتجــاه الذى يهتم بدراسة الوحــدات الصغرى - Micro Functionalism . ويضــع (مارتن دال) فى الإتجــــاه الأول كل من (فلفريدو باريتو) Vilfredo Pareto و (زنانيكى) Florian Znaniecki و (روبرت ميرتون) Robert Merton و (جورج هومانز) George Homans (وتالكوت بارسونز) Talcott parsons و (ماريون ليفى) Marion Levy (٢).

أما المذهب الوظيفى المهتم بدراسة الوحــــدات الصغرى فيضع فيه كل من

---

(1) Don Martindale, op. cit., pp. 446–461.

(2) Ibid., pp. 464–494.

(كيرت ليفين) Kurt Lewin و (كار تريت) Cartwright (وزاندر) Zander (وبالز) Bales و (فستنجر) Festinger . ويوضح أن الاتجاه الأخير إنما يتجه إلى ديناميات الجماعة (1) .

يتكلم (هومانز) عن الحاجة إلى النظريه السوسيولوجية ، ومن ثم يكون سؤاله : ما نوع النظرية التي ينبغي أن يحاول الوقوف عليها وتطويرها ؟ أنه يحاول في « الجماعة الانسانية » أن يجيب على هذا السؤال . ويحاول أن يقدم نتائجه فيما يلي (٢) :

أولا : يمكن تحليل السلوك الجماعي في عدد من العناصر المتبادلة الاعتماد كل على الآخر .

ثانيا : يمكن دراسة الجماعة ككل عضوي Organic Whole أو نسق إجتماعي يحيا في بيئة معينة .

ثالثا : يمكن أن تكون العلاقات بين عناصر النسق نتيجة لتطور النسق نفسه خلال فترة معينة من الزمان .

ويحاول (هومانز) إيضاح ما يعني به ، وذلك عن طريق تحليل سطحي لاحدى الجماعات الأكثر بساطة : صديقين متشابهين . إذا تساءلنا لماذا يفعلان كذا ، فسوف نقول أن لهما اهتمامات عامة متشابهة ، أو أن شخصية أحدهما مطابقة تماماً لشخصية الآخر . وإذا يكون الشعور العاطفي لاحدهما ليس ذي بال

(1) Ibid., pp. 501–821.

(2) G. C. Homans, Human Group, Routledge & Kegan Paul LTD., London, 1959, pp 6–9

فى حد ذاته بالنسبة للاخر . وفى الواقع لا يمكن إرجاع تشابه الصديقين إلى عامل واحد إذ أن ذلك إنما يتحدد بعوامل أخرى غير التى ذكرناها .

ويمكن أن تفسر سلوك هذين الفردين المحسوس فى ضوء عوامل أو عناصر مثل العاطفة والشخصية والاهتمامات والرابطة والنشاط ونجاح تلك العوامل الحيوية . ومن ناحية أخرى نستطيع أن نرى بوضوح ، كيف أن هذه العناصر تتناول علاقة كل بالآخر وكيف أن هذه العلاقات المتبادلة إنما تضع ما يمكن تنظيمه Organizable فى ذاته . فهما ليسا بإنسانين وحسب وإنما إنسانين مرتبط كلاهما بالآخر . وهما ليسا مجرد فردين ، ولكنهما وحدة من نوع جديد هى الجماعة . (١)

ونستطيع أن نلمس هذه الوحدة فى وجودها فى بيئة معينة ، وهى بخصائصها هذه إنما تتحدد بطبيعة تلك البيئة . ونلاحظ أيضا كيف أن العلاقات بين تلك العوامل المختلفة فى حياة الجماعة إنما تنمو بنمو الجماعة ذاتها خلال فترات الزمن .

ويذهب (هومانز) إلى وجوب تطور معانى الكلمات semantics ، فيرى أن العلم يرسم الكلمات معتمداً على ملاحظة الحقيقة . وفى علم الاجتماع يمكن الوقوف على الكلمات الرئيسية كالمركز والثقافة والوظيفة والخصوصيات وعلم المنهج والخبرة والتضامن والسلطة ، ويمكن العمل بهذه الكلمات دون أن نلحظها . وبلاشك ففى الامكان القيام بأجراء ملاحظات ووضع وسائل من شأنها تفسير تلك النقطة . فنحن لا يمكن أن نلاحظ المركز مباشرة ، وكذلك الدور . بيد أننا نستطيع ملاحظة النشاط والتفاعلات والتقييمات والمعايير والضبط . فالمركز

(١) يتشابه (هومانز) هنا مع ، ماذهب اليه (وادكليف براون) من اعتبار الدلالات الثنائية dyadic relationship ضمن العلاقات الواجب دراستها .

والدور إلا مفومات تضمها لتشير إلى أنواع مختلفة من الملاحظات فى كل معقد(١).

وتبدو نظرية التجريد فى خلق غير كثير من الصراع العقلى مثلما هو حادث فى علم الاجتماع . فالالكترونات أعضاء فى جماعة — الذرة — ونحن إذا ما كنا الكترونات electrons وتحدثنا عن الانسان كذره atom فسوف نعجب لهذا . ومثالنا لذلك هو أنه إذا تعلم أحداً لغــة هندوكية Hindu فسوف يدهش الصورة التى تبدو عليها تلك الثقافة الهندوكية . فالنظرية إنما تنعقد إذا ما وضعناها لتبيان كيف أن الانسان الكترونا فى جماعة . ولكنا لسنا بالكترونات إذ ندرس الذرة من خارجها ، وليس لدينا طريق لمقارنة النظرية بالحقيقة ، ومن ناحية أخرى فطبيعتنا القاهرة لا تجعل فينا صراعا عقليا . ولذا فليس ذلك مبادئا على نظريتنا الإجتماعية ، إذ لدينا النظرة الثاقبة لمعرفة مجتمعنا الخاص ومعرفة سلوك الجماعة ذا الوجود المتميز والتصور لحم والمسئوليات المتباينة . إن ذلك السلوك موجود لانا عادة — خلال خبرتنا — إنما نفحص ونتأكد من نظرياتنا المتعارضة مع تفاوت درجة الصدق فى تلك الخبرة . والسلوك ذا مسئولية لأن فى مقدورة الناس — بسهولة — أن يتكلموا فى أى نظرية إجتماعية ، ولذلك لابد وأن نضع حدوداً للمسئولية لتوضح أى الناس يتكلم .

وفى مجال الفعل action ينبغى أن نكون إكلينيكين ، فالعلم التحليلى إنما هو مجال الفهم وليس الفعل ، وعلى الأقل يكون ذلك كذلك بطريق غير مباشر . إنه ينتقى القليل من العوامل فى مواقف خاصة ، ويحاول وصف ثبات العلاقات بين تلك العوامل ، مع إختياره لبعض هذه العوامل على أنها رئيسية فى الوصف الثابت . حيث يكون على مستوى معين من العموم والتجريد .

---

(1) Ibid., pp. 10-14.

إن الظاهرة التى أثارت إهتمام (هومانز) هى سلوك الإنسان الإجتماعى اليومى . وقد وضعت النظرية حول هذا السلوك عن طريقه ، يتضمنها نسقاً من المقولات وإطاراً من المفاهيم . فقد أنكر القضايا العامة التى تبين العلاقة بين المقولات الواجب بناءها ، وذلك فى كتابه الثانى عن « السلوك الإجتماعى » . ولذا يضع كثير من الباحثين (هومانز) ضمن واضعى النظرية السوسيولوجية المعاصرة . أما كتابه عن « الجماعة الانسانية » فهو كتاب فى النظرية من ناحية وذا أهمية فى التحليل الإجتماعى من ناحية أخرى (١) .

عدد (هومانز) المتشابهات والمختلفات فى شتى الموضوعات والمناهج الاجرائية والأهداف المرجوة . فبالرغم من أن كتابه « الجماعة الانسانية » كان يقصد تحليل دراسات حقلية لخمسة جماعات إنسانية تتسلسل من جماعة عمال الصناعة حتى جماعة المدينة ككل ، فالجماعات التى تدخل فى سلوك إجتماعى معين إنما تتشابه فى عناصرها ، كما هو شأن الحياة الواقعية للجماعات الصغيرة . ولذا تستحوذ الجماعة الخصائص التالية :-

أولا : يجب أن يكون السلوك إجتماعياً .

ثانيا : إن الذى يقوم بفعل معين بطريقة خاصة تجاه آخر ، فانما يكون على الأقل مثاباً أو معاقباً عن طريق ذلك الآخر .

ثالثا : إن السلوك سلوك حقيقى واقعى وليس معيارى .

---

(1) Chorles P. Loomis & Zona K. Loomis, Modern Social Theories, Selected American Writers, D. Van Nostrand Company, inc., New York, 1963, p. 171.

ولقد إختبر (هومانز) خمس دراسات حقلية للجماعات، ملاحظاً تكويناتها وتصانيفها على أساس عناصر معينة هي الاحساس Sentiment والنشاط activity والتفاعل interaction والمعايير norms وقد عالج هذا فى كتابه « الجماعة الانسانية » معالجة إجرائية وبين العلاقات القائمة بين هذه العناصر الأربعة. أما فى «السلوك الاجتماعى» فلقد اعتمد (هومانز) على علم النفس السلوكى behavioral psychology ومبادىء الاقتصاد، ووقف على قضية عامة ضمنها أغراضاً إجتماعيه .(١) وفى الكتاب الأخير تناول (هومانز) معطياته givens من البيئة الاجتماعيه والنفسية فى الزمان والمكان لما كان يطلق عليه بالنسق الخارجى. كما أنه ركز على عاملى النشاط والتفاعل وأثرهما فى الاتصالات الاجتماعية .

وعليه، نستطيع أن نخلص إلى قضية أو قضايا عامة، تلك القضايا التى وجهها (هومانز) وجهة أمبيريقيه (تجريبية) عامة تختبر نهائياً بالنسبه لحالات الدراسة الخمس، كما أنه يعتبر هذه القضايا أسساً للسلوك الاجتماعى :

١ — إن وقوع حادث معين يكون له نفس فرص حادث مشابه فى الماضى يمكن أن يحدث، أى أن دافع الموقف الحاضر مأخوذ من الماضى ومردود إليه أو أنه يشير إلى النشاط المشابه .

٢ — إن نشاط الانسان يؤثر فى نشاط الاخر، كما قد يخضع الآخرون لهذا النشاط .

٣ — إن وحدة النشاط التى يتلقاها الانسان من الآخرين أكثر قيمة، بل إنه يعطى النشاط قيمته من خلال نشاط الآخرين .

---

(1) Ibid., pp. 171-174.

٤ — يتوقع الإنسان نشاط الآخرين بقيمة عالية . بيد أن أقل قيمة لديه هى ما يأتيه عن طريق أبعد وحدة لنشاطهم .

٥ - يستاء الانسان لاضطراب العـــدالة وما يتسبب عنه من فشل فى تقصى الحقيقة حيثما لا يلعب السلوك العاطفى دور الغضب فقط (١) .

ولا يهتم (هومانز) بالجماعات الصغيرة . وإن كان تدبين أنه إذا نظر فى سلوكها عن طريق البحث الواقعى فسوف يلاحظ الخصائص التالية لها .(٢)

أولا : الجماعة الصغيرة مكونة من شخصين على الأقل فى اتصال مباشر ، كل يسلك سلوكا معيناً تجاه الآخر متأثراً بالثواب وبالعقاب الناجم عن ذلك السلوك .

ثانيا : يكون الثواب والعقاب الناتج عن سلوك كل منها للاخــــر مباشراً وسريعا ، أبعد من كونه غير مباشر وبطيئاً .

ثالثا : يتحدد سلوكها فى جزء منه عن طريق موضوع آخر إلى جانب امتثالها لقواعد معينة .

وهكذا يفضل (هومانز) الحديث عن الجماعات الصغيرة على أنها موضوع غير رسمى ، كالنظام الفرعى sub-institution أو السلوك الاجتماعى الجزئى . ويرى أنه يجب أن نأخذ فى الإعتبار نوعين من شبكة العلاقات الاجتماعية . فثمة شبكة مفتوحة open network حيث يتصل الشخص « أ » بالشخص « ب » الذى له اتصال هو الآخر بالشخص «جـ» بيد أن الشخص «جـ» ليس له إتصال بالشخص

(1) Ibid., pp. 177-178.

(2) Bernard Berelson (ed), The behavioral Sciences today, Basic Books, inc., Publishers, second printing, N. Y., 1963, p. 165.

«أ» وهذا ما يطلق عليـــه بالشبكة المفتوحة . وهنـاك أيضا الشبـكة المغلقـة closed network حينما يكون «أ» فى إتصال مع «ب» الذى له اتصال مع «ج» بالإضافة إلى أن «ج» له اتصال مع «أ» وهذا مايدعو إلى تسميتها بالشبكة المغلقة. وحين يكون السلوك الاجتماعى الجزئى متضمنا فى إحدى شبكتى العلاقة الاجتماعية، حيث يكون فى الشبكة المغلقة بصفة خاصة ، فإنما يصنع الجماعة الحقيقية ومن الخطأ أن يقال عن موضوعنا - أى (هومانز) - هذا أنه محدود بسلوك الجماعة الصغيرة وعلى الجانب الآخر ، فمن المناسب فى تطبيق دراسة السلوك الاجتماعى الجزئى من خلال ملاحظات الجماعات الصغيرة ، ولاجل ذلك يستطيع الملاحظ تجميع المادة التى يتطلبها عن المتفاعلين فى نفس المكان خلال فترة معينـة من الزمان وهـذه خاصية تطبيقية عن طريقها يتحدد مجال الدراسة .(١)

ويستشهد (هومانز) بمثـال عن السلوك الاجتماعى الجزئى ، فيرى أن كاتبين يلتحقان بنفس الوظيفة فى عمل معين ، بمعنى أن كل منهما يرضخ لنفس القـواعد النظامية ، لكن أحدهما ليس ماهراً كلية فى عمله،ولهذا فسوف يطلب الاستفسار من المشرف عليه،أو أن يعترف بعدم مهارته ويسأل الكاتب الاخر المعونة. ويلبى الأخير ذلك الطلب ؛ وهو بفعله هذا إنما يعطيه ثوابا ، كما أن الأول سوف يقدم الثواب إلى الأخير عن طريق شكره مثلا ومدحه . وعلى ذلك فسوف تنظر فى سلوك الكاتبين كل تجاه الآخر . وفى الواقع فإننا ننظر فى السلوك الاجتماعى ككل. إن سلوك الكاتبين لا يمكن فهمه بدون الرجـوع إلى النظام الذى ينتميان اليه.أى الرجوع إلى الثقافة العامة .(٢)

(I) Ibid., pp. 165-166.

(2) Ibid., p. 167.

وفى الواقع فإن الاهتمام بدراسة الجماعات الصغيرة قديماه من جراء اتجاهات مختلفة مكوناً أساسين مختلفى الشكل . فى مستهل هذا القرن ، درس علماء النفس السلوك الفردى حينما يكون الفرد فى حضور الاخرين . وهذا أنتج مايدرسه علم النفس الاجتماعى من تأثير سلوك الناس فى أكثر من إتجاه . وقد وضعت الاضافات عن طريق ليفين وتلامذته .(١)

أما إهتمام علماء الاجتماع فكان على خلاف ذلك . فقد كان التقليد السائد أكثر نظريا من علماء النفس . فهم يركزون على إنشاء قضايا عامة إنشاء منطقيا . ولكن إذا كانت النظرية تأخذ شكلا إستنتاجيا ، فالناس لايتصل كل منهم بالاخر بطريقة إستنتاجية ، وإنما يتصلون عن طريق إستنباط كل من القضايا الامبريقية حيث يتحدد وصف النظرية . وقد ركز بعض السوسيولوجيين على نمو وتطور نظريات معينة مثل نظرية الوحدات الاجتماعية الكبرى كالدولة مثلا(٢) .

وأخيراً ، فإن موجة تكوين نظرية عن الوظيفية functionalism انفردت بنشر مقال (ميرتون) عام ١٩٤٩ ، وتوبعت بظهور كتاب (جورج هومانز) فى « الجماعة الانسانية » عام ١٩٥٠ ، ويعتبر هـــذا الكتاب مثال حديث لتكوين النظرية الوظيفة (٣) .

وبالرغم من تأكد (هومانز) من أن السلوك الاجتماعى لا يفسر بالرجوع إلى التغير الاجتماعى فهذا لا يحق الا بالنسبة إلى الشعور الشكلى أو الرسمى . فان قلة استخدام الألفاظ كالجزاءات والمعايير والإحساس والتفاعل ، إنما تظهر فى

(1) Ibid., P. 168.
(2) Ibid., p. 169.
(3) Don Martindale, op. cit., p. 476.

الشرح الاستقرائى والتنبؤ . وليس من شك فى أن الشرح عن طريق التصـــور لبعض المحاولات التى طبقها (سوروكن) فى دراسته التاريخية عن الثقافة المثالية والفكرية والحسية ، ودراسات (بارسونز) أو (وليامز) Williams عن المجتمعات وتحليل (دافز) الديموجرافى أو النظرى . نجد أن (هومانز) يضع خيطا من التفكير على أساس اختبار مفاهيم لابد أن توضع موضع الاهتمام . ولذا نجده يعنى بعدم التعميم إلا بعد إستقراء حوادث كثيرة على أساسها يتم التعميم ، ولذا يطبق مفاهيمه ونظريته على خمس دراسات تطبيقية بغية الوصول إلى تعميمات عن الجماعة الإنسانية والسلوك الاجتماعى .

رابعا : الجماعات الاجتماعية والاتجاه الشكلى :-

يهتم أصحاب الاتجاه الشكلى فى علم الاجتماع بدراسة العلاقات الاجتماعية فعلم الاجتماع فى نظر معظمهم هو ، علم العلاقات الاجتماعية ، ونظراً لهذه الصفة الغالبة يعرف العلماء الألمان بأصحاب مدرسة العلاقات . غير أن هؤلاء إذ يدرسون العلاقات الاجتماعية لا يدرسونها دراسة وصفية تحليلية مستمدة من طبيعة الحقائق الاجتماعية ومادة العلاقات فى المجتمع ، ولكنهم تحت تأثير نزعتهم الفلسفية المجردة يهتمون بدراسة هذه العلاقات من الناحية الصورية المتعلقة بطبيعة العلاقات فى ذاتها بغض النظر عن مادتها وعن ظواهرها المختلفة وصورها المتعددة والقوالب التى تتشكل فيها . بيد أن أنصار هذا الاتجاه لم يكونوا جميعاً على درجة واحدة فى الأخذ بها المبدأ العام ، ولكنهم يمثلون اتجاهات خاصة ووجهات نظر متباينة فى حدود الاطار العام للمدرسة[1] .

---

(١) د. مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثالث ، المدارس الاجتماعية المعاصرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ص ٦٦ ، ٦٧ .

وفى الواقع لا تتمثل هذا المدرسة فى ألمانيا وحسب،وإنما نجد لها إشعاعات أخرى فى أمريكا . يرى (كوفليد) ضم (بوجاردس) إلى هذه المدرسة بالرغم من إتجاهاته فى إدخال وجهة النظر الموضوعية والكية فى علم الاجتماع(١) .

أما أنصار هـــذه المدرسة فى ألمانيا فنهم (فرديناند تونيز) F. Tonnies و (جورج سيمل) G. Simmel و (فيركاندت) A. Vierkandt و(فون فيز) Leopold Vonwiese,

وفيا يختص بموضوع بحثنا يهمنا أن نلق نظـرة سريعة حـــول ما قام به (تونيز) بصدد دراسة الجماعات . فنى كتابه « الجماعة والمجتمع» Gemeinschaft & Gesellschaft (*) المقسم إلى ثلاثة كتب(أو أقسام) ومانحن نجدأن موضوع الكتاب الأول هو تحديد المعانى الأساسية لنظريته ، وينقسم إلى فصلين كبيرين ، يعالج فى الفصل الأول «نظرية الجماعة» وفى الفصل الثانى «نظرية المجتمع». ويرى أن التجمع إما أنه يكون جوهر فكرة الجماعة Gemeinschaft وإما أن يفهم على أنه تصور بالقوة يتحقق بطريقة آلية وحينئذ يكون هذا التجمع عبارة عن

---

(١) ارمان كوفليه ، مقدمة فى علم الاجتماع ، (ترجمة د. السيد محمد بدوى ، وعباس الشربينى ، دار المعارف ١٩٦١ ، ص ٦٥ .

(*) نلاحظ أن ترجمة عنوان هذا الـكتاب قد اختلفت سواء فى الانجليزية أو العربية فأحيانا تترجم فى العربية بالجماعة والمجتمع ، أو الجماعة المحلية والرابطة ، أو المجتمع والمجتمع المحلى وغير ذلك . وفى الانجليزية مثل community and و Society & Community association وغير ذلك . وسوف نستخدم هنا إصطلاحى الجماعة والمجتمع ، على أن الأول أصغر وحدة للتجمع والأخير هو الأكبر من حيث أنه يتضمن عددا من الاول على ما يذهب (تونيز) .

مفهـوم « المجتمع » Gesellschaft [1] . وقد استمار (تونيز) أســاس التمييز بينهما من علم النفس عند(فونت)فالجماعة تقوم على الارادة العميقة اللاحقة بالكائن، وإلى الجماعة تنتمى الجماعات الطبيعية القائمة على القرابة والتعاطف ، وبصفة عامة على الشعور التلقائى للافراد كما يسيطر عليها العرف . أما المجتمع فإنه ينمو شيئا فشيئاً بفضل الارادة الحرة أى إرادة الاختيار ، وفيه تظهر الجماعات التى تهيء مكاناً عظيماً للحرية وللارادة الفردية ، والتى تتخذ لها غاية خارجة عنها ، وفيه يتحول العرف إلى أسلوب فى الحياة .[2] وعليه يكون موضوع الكتاب (القسم) الثانى « الارادة المتكرة » أما الكتاب أو القسم الثالث فموضــوعه ، الأسس السوسيولوجية للحق الطبيعى[3] .

هذا ويرى جورج سيمل أن أهميـة تشكيل بناء الجماعة يرجع إلى عـــدد الأفراد المكونين لوحدتها وغالبا ماتزيد الجماعة من عدد أعضائها نتيجة نمو وتقدم أشكالها وتنظيمها بما يتلاءم مع حاجاتها الواضحة . [4]

---

(١) د. السيد محمد بدوى ، تراث الانسانية ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، المجلد الرابع ، العدد الثامن ، أغسطس ١٩٦٦ ص ٦٢٥ ، ٦٢٦ .

(٢) أرمان كوفييه ، مقدمة فى علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٦٦ .

(٣) د. السيد محمد بدوى ، تراث الانسانية ، المرجع السابق ص ٦٢٦ .

(4) EDGAR F. Borgatta and Henry J. Meyer, Sociological Theory : present-day sociology from the Past, Alfred A. Knopf, N. Y., 1955, (edited), pp. 126-158. Abridged from: Georg. Simmel. The Numbers of Members as determining the sociological form of the group (translated by Albion W. Small), American Journal of sociology, 1902. 8,1-46 and 158-196.

ويمكن ملاحظة أهميتين للتحديد الكيفي : الاولى : الأهميـــة السلبية بمعنى أن أشكالا معينة تكون هامة أو ممكنة فى الحياة الواقعية ، ويمكن التحقق منها فقط قبل أو بعد توسع عناصرها من ناحية العـدد . والثانية : الأهمية الايجابيـة بمعنى أن أشكالا ترتقى بطريقةمباشرة من خلال تشكيلات الجماعة الكمية والمحددة بصفة خاصة . وكواقعة فعلية ، فهى لاتظهر فى كل حالة ولـكنها تعتمد على ظروف اجتماعية أخرى،متمثلة فى الجماعة ذاتها . وفى الحقيقة فان أشكالها لاتكمن من هذه الحالة الأخيرة وحسب،ولـكنها تنتج أيضا بسبب عوامل عديدة مصاحبة .وهكذا فربما يثبت أن أشكال المجتمعات متقاربة هذه الأيام ، ويمكن ذلك فقط فى دائرة صغيرة نسبيا ، حينما تـكون تلك المجتمعات خاصة بالجماعات الكبيرة والافتراض هنا أنه لا يمكن الشك فى أن الجماعات الاجتماعية [١] تبنى عن طريق جماعات صغـيرة ، ولذلك الافتراض ـ على الأقل ـ أهميتـه إذ يمكن ملاحظـة ذلك عنـد الافراد المكونين للجماعة ، حيث يكون سلوك كل منهم من أجل الكلية totality وحيث توجيهم هذه الـكلية . وفى الجماعة الـكبيرة لا يكون هـذا التطبيق ماثلا وخاصة عن طريق إختـلاف الأشخاص داخلها ذلك الاخـتلاف الذى لا يمكـن تجنبه بالنسبة لوظائفها ومساعيها . ويمكن أن يكون عدد كبير من الناس وحـدة معينة عن طريق تقسيم العمل . وامتزاج كل منهم بالآخرين بدون توسع الجماعة فسوف تتحطم فرص إشباع تلك المساعى والقيام بهذه الوظائف ولهذا ينبغى أن يتخصص الأفـراد مع إستجابتهم للكل الذى ينتمون اليـه [٢] وسوف يشجع

---

(١) يستخدم (سيمل) مفهـوم Sociolistic group ليشير إلى الجماعة الاجتماعيـة ، وقد يرجـع ذلك إلى ترجمة الـكلمة من الألمانيـة إلى الانجليزية وقد ترجـم هـذه الحالة (البيون سمول) .

(2) E. F. Borgatta, op. cit., p. 128.

الاتصال فى المجتمع المحلى ، إختلاف الشخصيات داخل نطاق العمل،حيث إختلاف مشاعرهم ورغباتهم . ولذا يصعب مقارنة اختلاف كل عن الآخر واتجاهات نموه كما يصعب المساواة بينها — ويسهل هـذا فقط حينما يصغر المجتمع المحلى ، فما هى الدائرة أوالدوائر التى تدور حولها الثقافة ؟ إنما يكون ذلك عن طريق الضرورة المنطقية لامتدادات الجماعات الإنسانية .

وتضع الجماعات المنظمة والصغيرة ، إمتداداً معيناً وحدوداً خاصة لمن يمكنه الدخول فيها ، ومن الوجهة الأخرى فللجماعات الكبيرة مقدرتها ، ليس من الناحية الأخلاقية وحسب وإنما من الناحية النسبية relatively ،فمتطلبات الكل لا تعتمد على العضو فى إستمراره ، بيد أنها تسمح لأكثر القوى أن تستعيد استخدامها . والشيء الحاسم فى هذه الحالة هو التقريب الاجتماعى Social centripetalism بمعنى ملائمة تحقيق الأغراض ومدى قدرات الأعضاء فى المجتمع وتسمح الجماعة الدنيا (١) أو الأكثر صغراً لأعضائها بالاعتماد الذاتى ، وأبعد من ذلك فهى تنمى وتطور قـدراتها التى لا تستخدم إستخدامها اجتماعياً .

وحينما تستغرق الجماعات الصغـــيرة الشخصيات فيما يمكن اعتباره مقياسا لوحدتها ، وخاصة فى الجماعات السياسية فإنما تحاول تحديد مكانة الأشخاص واتجاهاتهم فى المجتمعات . أما الجماعة الكبيرة المكونة من عددمختلف من العناصر فانما تتطلب وتستلزم تحديداً لذاتها . ولذا يغيب عنهـا التنظيم والاستمرار بسبب تلك العناصر الغير محـــددة والمتحولة أو المؤقتة ، حيثما يكون شكل التكيف صعبا بالنسبة إليها .

وإلى جانب بعض الاتجـــاهات فى الدوائر الأكثر صغراً فان ثمة مشابهة

---

(١) يستخدم (سيمل) مفهومى Smaller & lower group.

لتكوين الشخصية الاجتماعية فى دوائر أوسع . ويبدأ (سيمل) بالاستشهاد بمذهب الأحرار المتطرفين Radicalism واتجاههم للتزمت . ولذا تستلزم تلك الجماعة بعض التحديدات . وإلى جانب التكتلات masses أو الجماهير الضخمة التى يجب ان تناصر الحركات السياسية والاجتماعية والدينية ، فان هناك وضوحا فى حرية الرأى . وهذا مبدئياً لسبب أن هذه التكتلات الكبيرة عادة ما تقع فريسة لأفكار متناقضة ولربما تنتشر هذه الأفكار مؤثرة عليها . فما هو عام لدى الكثيرين يجب أن يكون لأجل الجوهر المتكون عن طريق تداخل وسيطرة العقول الأولية والدنيا . ولابد من التركيز على المفهومات الانسانية العامة والبسيطة نسبيا وكذلك على الدوافع وحينما تجتمع عناصر مختلفة متنبهة أفكاراً بسيطة يمكن أن تعمل فى جانب واحـــد ، طليقة الوظيفة ، مثلما يظهر فى سلوك الحشد ، المعتمد على الاتصال المكانى . وتحت بعض الظروف يعمل العدد الذى لا يمكن حصره على وجود إتجاه غير عادى مضطرب ، فيه يندفع الأفراد باتجاهات متباينة دون شعور أو وعى منهم فهى تثير كل دافع بطـــريقة خاصة لتصنع ما يطلق عليه بالغوغاء mob إن إنصهار شخصيات تلك التكتلات فى شعور واحد إنما هو طبيعى فى محتوى التكتل ، علاوة على كونه حراً حيث يتشابهون فى ذلك البناء . وأكثر من ذلك تفقد هـــذه التجمعات عقلها مع اعتقادها أن كل شىء يعود إليها ثانياً .

وعلى العموم يشرح (سيمل) هـذه الأبنية من حيث أنها تخص المجتمعات المحلية الكبيرة ، وأن ثمة حقيقة مؤداها أن المجتمعات المحلية إنما تنتج من التماسك الذى يختص بالدوائر الأصغر منها . وفى حالة الجمـــاعة الكبيرة فإن ثمة إرتباط مركزى لعناصرها ، يميزها كوحدة مجتمعية هامة وتأتى إلى الوجود من خلال المتناقضات negations حيث تتضمن الأفعال والتنظيمات فى أغلب الأحـــوال

خاصة من المتناقضات حسب درجة تمرد محتوياتها . وتختلف محركات الأفراد فى حالة الأفعال الجمعية ، وتضحى خاصية الارتباط السلبية بمثابة أداة توحد جماعة معينة من الأفراد عن طريق معاييرها وعاداتها ، حيث يؤكد المجتمع المحلى سلوك أعضائه بضغط القانون والأخلاق .

على حسب ما ذهب اليه (سيمل) فان أغلب الاعتيادات فى الجماعة تكون على أساس عدد المشاركين فيها . وهذه إختلافات أساسية فى طبيعة الجماعات المكونة من اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو أشخاص عديدين .

وينبغى أن نبدأ بالجماعات الصغيرة والتى سوف نطلق عليها بالجماعات المتشابهة . وأصغر هذه الجماعات تلك المكونة من اثنين أو الجماعة الزوجية أو الثنائية . فنحن نعرف الثنائيات الجنسية المتكونة من دخول رجل وامرأة فى علاقة جنسية ، فربما يكونا متحابان أو متزوجان . بيد أن الثنائيات ، كذلك قد تتكون من أعضاء أجيال مختلفة (كالأب وابنه) أو (الأم وابنتها) ، وأيضاً أعضاء نفس الجيل (كالأخ وأخيه) ، كما أن هناك ثنائيات تعتمد على الصداقة أو التبعية (كالرئيس والمرؤوس) و (المدرس والتلميذ) . ولايخلق الاتصال التحولى جماعات وإنما يكون ذلك عن طريق العلاقات الدائمة التى يعتمد عليها كل من (سيمل) و (مانهايم) فى تفسيرهما الجماعة الثنائية . (١)

إن التكوين السوسيولوجى منهجياً هو عن طريق ارتباط عنصرين . إنه يبين المنهج والمادة لعدم تعقد التكوينات المركبة بالرغم من أهميتها السوسيولوجية عن

---

(1) Karl Manheim, Systematic sociology : An introduction to the study of society, Edited by J. S. Eros & W. A. C. Stewart, Routledge and Kegan paul, London, 1959. p. 112,

طريق عدم توسعها وتعددها . إنها تعيد نفسها بواسطة عملية التنشئة الاجتماعية بالرغم من أن بعض أشكال التنشئة الإجتماعية لا تحققها . بيد أن الرجوع إلى إزدواج العناصر إنما هو حالة تتضح تحتها الأشكال العامة من العلاقة . وليست الطبيعة السوسيولوجية النموذجية لنفس المظاهر فى الحقيقة عند الأفراد الذين يتحركون نحو تشابه هذه التكوينات . ولكن يظهر أحياناً نموذج بين جماعتين أو أسرتين أو دولتين أو شخصين . (١)

وتتفاعل الجماعة الثنائية حسب المنبهات الخارجية للأفراد المؤسسين لها حينما يظهر فعل كل منهما منفصل عن فعل الآخر . ويتضح ذلك بسبب تأثير كل فرد على الآخر فى تلك الجماعة الثنائية . بالإضافة إلى تفكيرهما فى قصور جماعتهم هذه عن تأدية بعض الوظائف ، فيضطران إلى القيام بوظائف عديدة ما كان لأحد منهما أن يقوم بها فى جماعة أكبر . (٢)

والجماعة التى ينبغى أن نوضحها ـ بعد ذلك ـ تلك المكونة من ثلاثة أعضاء . يمكن ملاحظة هذه الجماعة كحالة ممتدة للجماعة الثنائية . وفى الواقع فان ظهور العضو الثالث إنما يعتبر حلقة الاتصال بين عضوى الجماعة الثنائية . وتتباين إتجاهات الجماعة العضوية أى الثنائية نحو العضو الثالث الداخل فيها . ويجب أن نأخذ فى الاعتبار حينما نحلل طبيعة الجماعة الجديدة أن العضو الثالث قد يكون معزولا بصفة مؤقتة لمدة معينة . إن دليل السلوك النموذجى فى الجماعة المكونة من ثلاثة أعضاء إنما يكون سلوك غيره jealousy إذ قد يتنافس الشخصان لمحبة الثالث أو أن يتصاحبان هما لعزله (٣).

(I) Borgatta, op. cit., p. 130.
(2) Karl Mannheim, op. cit., p. II2.
(3) Ibid., p. II3.

لقد رفض (سيمل) المدارس المثالية والعضوية . فلم ينظر إلى المجتمع على أنه عضوى أو شيء معين . بيد أن المجتمع لديه مكون من عدد الافراد الذين يتصلون عن طريق التفاعل . (١) فقد ناقش الاختلافات بين الجماعات الصغيرة والجماعات الكبيرة مستخدماً مدخله الديالكتيكى dialectic approach فى العلاقة بين حرية الفرد وبناء الجماعة (٢).

فقد بين الجماعات من حيث الشكل دون المضمون ، مع أنه قد حاول أن يضع تفسيرا رمزياً مجرداً لها . فاذا به يتكلم عن الجماعات الثنائية ، كما أفضى الحديث عن الجماعات الثلاثية . ويعتبر أن عدد الأفراد هو الذى يشكل الجماعة ولذا يطلق (هيوج) Everett C.Hughes على (سيمل) أنه « فرويد الذى يدرس المجتمع » ويوافق (ميلز) Theodore M. Mil's على ذلك حيث يتعمق (سيمل) فى عمليات الجماعة ويعكس أشكالها الرمزية مثلما إعتقد (فرويد) فى الحركات اللاشعورية للفرد والتى تعبر عن نفسها فى الأحلام والأوهام (٣).

ويعتبر مفهوم « التفاعل » أساسيا فى سوسيولوجية (سيمل) . فالمجتمع فى نظره تفاعل ، والدراسة الصحيحة بالنسبة لعلم الإجتماع تكون فى العلاقات الإجتماعية التفاعلية . إذ أنه يرى المجتمع نمط مكون من كل العلاقات الوظيفية التى تربط الأفراد فى كل متكامل ، كما يحتل مفهوم « الانتماء » إلى الجماعة مكاناً

---

(1) lewis A. coser; Georg simmel; prentice-Hall, inc; (edited) Englewood cliffs; New jersey, 1965; p. 5.

(2) Ibid.; p. 17.

(3) Ibid., p. 159.

إرئيسيا فى تحليل (سيمل) . لكثير من المفاهيم السوسيولوجية . [1]

وإذا كان (سيمل) قد نظر إلى الشكل المجرد للجماعة الإنسانية ، فسوف نرى فيما بعد أن (كولى) قد تعمق هذه الجماعة وذهب بها إلى أصولها فى الجماعات الأولية الواقعية ، كما أن (هو مانز) قد بين التفاعل وأخرج نظريته التفاعلية فى ضوء مفاهيم وأسس جديدة .

لقد أثرت أعمال (سيمل) فى كثير من العلماء الأمريكيين وخاصة فى مدرسة شيكاغو . وأن قارىء الكتب الهامة لعلماء الإجتماع الامريكان مثل (بارك) Robert F. Park و (بيرجس) Ernest W. Burgess سوف يرى تأثير الأفكار السيملية Simmelian ideas فى أمريكا

كما أتبع (فون فيز) Leopold von wiese تقليد (سيمل) وخاصة فى أعماله لتصنيف وتنظيم أشكال التحليل فى عملية التفاعل الإجتماعى كما أستمر تأثير (سيمل) على علماء الإجتماع الألمان الآخرين كما أن فكرة (ماكس فيبر) Max Weber عميد علم الإجتماع الألمانى — عن طرائق التوجيه الدائرة فى إتجاهات مختلفة ، قد إعتمدت فى جزء كبير منها على ما ذهب إليه (سيمل) فى أهمية العمليات الإجتماعية . [1]

كما أنعكست أعماله وخاصة فى الصراع والترتيب الطبقى على تفكير العلماء أمثال (روس) E.A.Ross و (البيون سمول) Albion W.Small وكذلك

---

(١) د. لويس كامل مليكه ، سيكولوجية الجماعات والقيادة ، الجزء الأول، ١٩٦٣ ص ١٠ .

(I) Iewis A. coser & Rosenberg: Sociological Theory. N. Y., 1965, p. 56.

(زنانيكى) Florian Znaniecki و (بيكر) H Becker وكذلك كان له فضل السبق فى الاسهامات الاساسية لنمو النظرية السوسيولوجية المجردة ودراسة الأشكال الإجتماعية .[1]

خامسا : الجماعات الاجتماعية والاتجاه النفسى :

من بين علماء الاجتماع من اتجه إلى ربط علم الاجتماع بعلم النفس . ونحاول فى هذه الفقرة أن نبين أهمية هؤلاء السوسيولوجيين فى التعبير عن ظواهر المجتمع فى ضوء علم النفس الاجتماعى .

ويمثل هذه المدرسة (جابرييل تارد) Gabriel Tarde (١٨٤٣ — ١٩٠٤) الذى يعلن تفوق الدراسة النفسية على الدراسة البيولوجيــــة[2] وفى رأيه أن المحاكاة هى الظاهرة الاجتماعية الاصلية . وأنه يمكن تعريف الجماعة الاولية وبأنها مجموعة من الكائنات لا ينفكون عن محاكاة بعضهم البعض ، وإذا لم يتحاكوا فى اللحظة الحاضرة ، فإنهم يتشابهون ،وسماتهم المشتركة ، نسخ قــديمة لنموذج بعينه ، وهو يفسر المحاكاة بطريقة سيكولوجية واضحة . ويؤكد أن العلاقة الاجتماعية الاولية هى تلك التى تتألف من شخصين يؤثر أحدهما فى الآخر تأثيراً روحياً . فكل شىء من الناحية الاجتماعية ليس إلا إختراع وتقليد .[3] بيد أن الاختراع عمل فردى ولذلك ينبغى أن نرجع إلى الفــرد ــ فى رأية ــ ويكون

(1) N. S. Timasheff; sociological Theory, op. cit., p. 102.

(٢) جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع (ترجمة) غنيم عبدون ومراجعة جلال حسن صادق ــ مجموعة من الشرق والغرب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ٩٨ .

(٣) أرمان كوفليه ، مقــدمة فى علم الاجتماع (ترجمة) د. السيد محمد بدوى ، وعباس الشربينى ، دار المعارف ، ١٩٦٠ ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

منهج « الاستبطان » الذى يستخدم فى علم النفس الفردى هو أيضا منهج علم الاجتماع .

وقد احتلت وجهة النظر هـذه إهتمام بعض علماء الاجتماع أمثال (ماكس فيلر E, Waxuveiller و (وستر مارك) Westermark الذين يرجعـان الظواهر الاجتماعية إلى الغرائز والميـول أو الاستعدادات . كما نجـد فى المدرسة الامريكية كثير من علماء الاجتماع ينتهجون هذا النهج أمثال (جد نجز Franklin H Ciddings (و(كولى) Charles H.cooley و(سمول) Small و (ماك دوجال) Mac Dougall.وقد إهتم بعض علماء الاجتماع بتحليل العلاقات الاجتماعية فى ضوء مبادىء وقوانين علم النفس وأشهر هؤلاء (يونج) Kimball Young (والبورت) Allport و (مارتن) Marlin و (اليوت) Eliot و (بوجاردس) Bogardus و(الورد) charles A. Ellwood [1] كما يمكن أن يندرج بين المدارس النفسية ، المـدارس التى اهتمت بنفسية الشعوب ، مثل المدارس الالمانية (لهربارت) Herbart و (لازاروس) Lazarus و(ستنتهال) Steinthal [2]

ولقد رأينا أن كل هؤلاء — تقريباً — لم يركزوا أعمالهم حول الجماعات فقط وأهميتها ، إلا أن (كـولى) كان أول من وضع مفهوم « الجماعة الأولية » ويبين أهميتها فى مجال دراسات علم الإجتماع .

---

(١) د. مصطفى الخشاب . علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثالث ، المدارس الاجتماعية المعاصرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٨—١٦٩ .

(٢) جلستون بولول ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

لقد رأى (كولى) بحق أن كل شكل التنظيم الإجتماعى ، انما يتكون من خلال عملية التفاعل المتصلة الحلقات . وسوف نستشف آرا ئه من كتابية «الطبيعة الانسانية والنظام الاجتماعى» [١] و «التنظيم الاجتماعى» . [٢]

ولم يتأكد (كولى) من إستخدام علماء الاجتماع الاوائل لمفهوم «الجماعة Group» كمدخل التنظيم الاجتماعى فسمنر Sumner وجد نجز Giddings وسمول Small وروس Ross من القادة الذين اعطوا المفهوم أهميته فى التفكير السوسيولوجى .وكذلك نضم اليهم (كولى) فمفهومه عن الجماعة الاولية ، يعتبر الآن عاملا أساسياً فى أى تصنيف للجماعات ومن ثم ظهرت بعض التساؤلات عن كيفية تحديد (كولى) ووصفه لجماعة معينة على أنها أولية . فما هى إذن تلك الجماعات الأولية ؟ وما هو المقياس الذى على أساسة نتعرف عليها ونميزها عن غيرها من الجماعات ؟ وما هو الدور الذى تلعبه فى تطور ونمو الطبيعة الانسانية والشخصية ؟ [٣]

ويمكن إعتبار الفرد عضواً فى كل إجتماعى ، والغرض من إعتباره منفصلا إنما هو وسيلة للوقوف على حقيقته وحقيقة المجتمع . ونستطيع أن نلاحظ العلاقة بين الفرد والمجتمع على أنها علاقة عضوية ، ومعنى هـــذا أننا نرى أنه لا يمكن فصل الفرد عن الكل الانسانى Human whole إذا أنه يعيش مع أعضائه

---

(1) Charles H. cooley, Human Nature and the social order, The free press, N. Y., 1956.

(2) Charles H. cooley, Social organization: A study of the large Mind, The free press, N. Y; 1956.

(3) Edward C. Jandy, charles Horton cooley: his life and his Social Theory; The Norwood press, N. Y., 1942, pp. 172-173.

ويستمد حياته من ذلك الكل (١) خلال ما يتلقاه إجتماعياً ووراثيـــاً . إنه لا يستطيع أن يقتطع نفسه عن ذلك الكل. فالوراثة والتعلم يدخلان فى كل وجوده. ومن ناحية أخرى ، فالكل الاجتماعى على نفس الدرجة يعتمد على كل فرد لأن كليهما يضيف شيئاً إلى الحياة العامة ،وليس ثمة أحـــداً لا يضيف . وهكذا فنحن كل « عضوى organism » إذ نعيش ككل باختلاف الوظائف التى يؤديها كل منا .(٢)

ويعد (كولى) أول من درس الجماعة الأولية . وقد قدم وصفاً كلاسيكياً لها فى كتابه « التنظيم الاجتماعى »(٣) الذى سبق ذكره فهو يرى أن الجماعات الأولية تلك التى تتميز بعلاقة المواجهة المباشرة (٤) والتعاون . إنها أوليـــة من وجهات عديدة ، ولـكن الأهم فيها كونها أساسية فى تكوين الطبيعة الإجتماعية والمثـــل الاجتماعية للافراد ideals إن نتيجـة العلاقة المباشرة ـــ من وجهـة النظـــر السيكولوجية ـــ هى الشكل الملتئم للفرديات فى الـكل بصفـة عامة ، حيث يصبح

---

(١) يذهب (ماكيفر وبيج) إلى أن المجتمع نسق مكون من العرف والنوع والاجراءات المرسومة ومن السلطة والمعونة المتبـادلة ، ومن كثير من التجمعات والأقسام ، وشتى وجـوه ضبط السلوك الانسانى والحريات (ماكيفر وبيج) « المجتمع » ترجمـة على أحمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ ص ١٦-١٧ من الترجمة العربية.

(2) C. H. Cooly, Human Nature and the Social order' op. cit.; pp. 35. ff.

(3) Charles H. Cooley : Social organization, The Free Press. N. Y., 1956, pp. 23-31.

(٤) « المواجهة المباشرة » ترجمـة لعبارة Face-to face association أى الجماعات التى يواجه فيها الأعضاء بعضهم بعضا مواجهة مباشرة دون أن يكون بينهم وسيط أو رئيس أو قائد .

المرء فى ذاته ، لأغراض عديدة على الأقل ، هو حياة وهدف الجماعة المشترك . وربما تكون الطريقة الأكثر بساطة لوصف هذا الشكل هى عن طريق القـــول بأنها تـكون الـ « نحن we » وتتضمن روح التعاطف والتوحد المتبادل حيث أن « نحن we » تعبير طبيعى، فيعيش المرء بشعور الشكل ويجـــد أهداف إرادته الأساسية ماثلة فى هذا الشعور .

إنها لم تكن تفترض أن وحدة الجماعة الأولية هى مجرد إحتفالا أو غير ذلك من مظاهرها ، إنها فى العادة وحـــدة متغايرة من ناحية تنافس الأعضاء فيها وسماحها لهم بتأكيد ذواتهم وتختلف إنفعالاتهم . ولـكن هذه الانفعالات تصبح اجتماعية عن طريق التعاطف ، وتظهر أو تميل إلى الظهور تحت نظـام المضمون العام وقد يكون الفرد طموحاً Ambitions وسوف يفصح الموضوع الرئيسى فى طموحه عن نفسه عند مخاطبته للاخرين والتحـــدث معهم . ويكون هـدفه الرئيسى هو إحتـلال مكانة مرموقة فى عقول الاخرين أنفسهم . وسوف يشعر بالولاء feel allegiance لمستويات عامة من الخدمـــة أو اللعب ولذلك فالفتى يتنازع مع زملائه فى الفريق ، وبالرغم من بعض المنازعات إلا أن ثمة تفاخر عام بفصله أو مدرسته على الأقل .

إن الدرجات الأكثر أهمية لهذه العلاقة المباشرة والتعاون تبدوا فى الأسرة وجماعات اللعب وللاطفال والجوار أى جماعة الكبار . ومن الناحية العملية فهـذه الدرجات عامة ويكون الإنتماء فيها فى كل وقت وفى كل مرحلة من مراحل النمو ، وعلى ذلك فهى تكون الأسس العامة فى الطبيعة الإنسانية والمثـــل الإنسانية . ومن أفضل الدراسات المقارنة للاسرة تلك التى قام بها (وستر مارك Westermark) أو (هوارد) Howard ، والتى يبين لنا الأسرة كما لو لم تكن مجرد نظام عام ،

ولكنها أكثر من العادات المبالغ فيها والشاذة . ولا يشك أحداً في عمومية جماعات اللعب عند الأطفال أو الإجتماعات غير الرسمية بأنواعها المختلفة عند الكبار . وهكذا تتضح أهمية تلك العلاقة في تربية الطبيعة الإنسانية في العالم الذي يحيط بنا . وهكذا فليس هناك سبب واضح يجعلنا نزعم باختلاف الحالة في أي مكان أو زمان

وينبغي على أن أبين أهمية جماعات اللعب (١) حينما لا تكون موضوعاً للملاحظة العامة . وفي الواقع فان الأطفال وخاصة الصبيان بعد حوالي اثنى عشر عاماً من عمرهم يعيشون كرفقاء fellowships حيث ينشغلون أكثر بتعاطفهم وطموحهم وولائهم . وقد يكون ذلك أكثر مما لو كانوا في أسرهم . ويمكن أن يؤخذ الكثير منا كمثال لبقائه مع صبية متكيفين أو قاسين ، أو بعد من التجائه إلى رفقة الوالدين أو المدرسين .

وربما كانت جماعات اللعب تحظى بأغلب اهتمامات الكتاب في أوربا. ولذلك نرى أن (آدمز) Jan Addams تشير إلى أن العصابة Gang لها صفة العموم عادة . كما أنها تحدثت عن المناقشة التي لم تنته حول شرح نشاط العصابة. وقد

---

(١) حينما أراد كولي (أن يقدم نموذجاً مصغراً للمجتمع) وذلك في كتابه (الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعي ص ٦ وما بعدها طبعة ١٩٢٢) فاختار فريق كرة القدم ليكون ذلك النموذج ، ومفهوم الفريق يشير إلى جماعة ينظم أعضاءها نمط من العلاقات الاجتماعية المستقرة. ولكل منهم دور متسق داخل هذا النمط. ولهذا السبب أيضاً نجد أن (كولي) حينما أراد أن يعمم القول ، قرر أن هذا الكلام يصدق على الأسرة والمدينة والأمة ، وهذه كلها وحدات اجتماعية مستقرة (د. مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ١٨٩) .

لاحظت أنه ، فى الذرات الاجتماعية، كما يقال ، فان الشاب المواطن يتعلم كى ما يعمل معتمدا على تحديداته الخاصة » .

ويمكن أن يقال أنه فى جماعه الجوار ، على العموم ، فان الناس منذ كونوا أرضا يعيشون عليها ، فلقد حاولوا أن يرتفعوا إلى مستوى المدن الصناعية الحديثة وتلعب جماعة الجوار جزءا هاما فى الحياة الأولية والمتعاطفة لدى الناس . وفى حياتنا الخاصة فان الولاء للجوار قد تحطم عن طريق نمو شبكة الاتصالات المعقدة والواسعة ، والتى جعلتنا كغرباء يعيشون فى منزل واحد . وحتى فى الريف فقد حدث نفس الشيء تقريباً - بالرغم من قلة وضوحه - وذلك يناقض الإقتصاديات والروحانيات فى إرتباطها بالجوار . وأبعد من هذه التغيرات فان النمو الصحى بين لنا أمراض كثيرة كانت بعيدة عنا وغير واضحة .

إن الجماعات الأولية أولية من حيث أنها تعطى الفرد خبرته الأولى والمركبة عن الوحدة الاجتماعية ، وأيضا من حيث أنها لا تتغير بنفس الدرجة كما يحدث فى العلاقات المحددة . بيد أنها تشكل المنبع الدائم والمتغاير . وفى الواقع فانها لا تعتمد على المجتمع الأوسع ، ولكنها تعتمد على بعض الإنعكاسات التى يحتويها .

هذا ، وينظر (كولى) إلى المجتمع على أنه ظاهرة عقلية ، بمعنى أنه العلاقة بين الأفكار والشخصية . ويوجد المجتمع فى اى عقل كتأثير متصل ومتبادل لأفكار معينة . انه يوجد فى عقلك كجماعة متشابهة وهكذا فى كل عقل .

وعلى أساس هذا التكوين ، طبق (كولى) على المجتمع نوع المدخل الذى طبقه (جيمس) james على النفس . وليس عجباً أن مفهوم (كولى) عن النفس يستجيب مع ما أطلق عليه (جيمس) بالنفس الإجتماعية أو الذات الإجتماعى Social self . إن شخصية الصديق قائمة فى عقلى على أنها ببساطة مجموعة أو نسق من الأفكار

تصاحب رموزاً معينة عن مستواه .(١)

وبالمثل فذات الشخص توجد ببعض الأفكار ، هذا ما بينه (جيمس) بتفرقته بين الفاعل I والمفعول me وعليه فالذات الاجتماعية هى بعض الأفكار التى يشار اليها بضمير المتكلم المفرد مثل «أنا» فى صيغة الفاعل I والمفعول me وياء الملكية mine والذاتية my self . فالذات تتضمن تلك الرموز الفردية ، حيث أنها منتمية إليه بصفـــة خاصة . وتكون نواة الذات The core of self من جراء شعور الذات المتمايز . فالتخيل عادة متصلة بشعور الذات المتميز ، مكونة الذات الإجتماعية .(٢)

أما عن طبيعة «الانا» فهو شعور أو خبرة شعورية يمكن أن نطلق عليها «شعورى أنا my feeling أو «الشعـور بالملكية sense of appropriation وهـذه المشاعر غريزية أى تولد معنا ، ووظيفتها الرئيسية هى توحيد ضروب نشاط الفرد ودفعها إلى الأمام (٣)

ومع أن «الانا» يولد معنا ، إلا أنه يظل مبهماً إلى حد كبير . ولا يتحدد أو ينمو إلا من خلال الخبرات التى يمر بها الشخص فإذا به يرتبط بالاحساسات

---

(١) استخدمت كلمـة «الذات self» أو «الانا» ego من طـريق الميتافيزيقيين وعلماء الأخلاق بمعان مختلفة . ونحن نناقشها هنا من وجهة النظر السيكولوجية كتابة لما يطلق عليه «بالنفس الأمبريقية empirical self أى تلك القـابلة للملاحظـة وبذلك فهى تمثل حقيقة سيكولوجية معينة .

(2) Don Martindale, The Nature and Types of Sociological Theory, Boston, 1960, p. 344.

(3) Charles H. cooley, Human Nature and the social order, The free press, N. Y., 1922, p. 167.

البصرية والعضلية ، كما يرتبط بادراكاتنا وأفكارنا(1) وأول شيء يرتبط به «الانا» لدى الطفل هو محاولات الطفل أن يتحكم فى الأشياء الواقعة تحت بصره فيرتبط بمحاولاته أن يتحكم فى أعضاء جسمه، ثم بمحاولاته أن يتحكم فى افعال المحيطين به. ويرتبط «الانا» بعد ذلك بأى نشاط غرضى يبذله الطفل ، بعبارة اخرى يرتبط بأى نشاط يهدف إلى تحصيل غرض معين (2) ، والمجال الرئيسى لهذه الافعال هو الحياة الاجتماعية .

على أن هذه الخطوات التى ذكرناها الآن لم تكن كافية فى نظر (كولى) للدلالة على أن « الانا » إجتماعى فى صميمه، وإنما كانت كافية فقط للاشارة إلى أنه ينمو داخل المجتمع ، مرتبطاً بافعال الفرد وبقدرته على التحكم فى أفعال الآخرين . بيد أن ما يجعله إجتماعيا فى جوهره سببان : أولهما أن هذا النمو بالصورة التى وصفنا داخل المجتمع يجعل فكرة الذات عبارة عن شعور بما يميز حياة الفرد عن حياة الآخرين . والثانية ، أن الضمير « أنا » كما يستخدم فى الحياة اليومية ، يتضمن الاشارة إلى الآخرين . ومن المشكوك فيه أننا نستخدم اللغة أى إستخدام دون تفكير فى شخص آخر . ومن المشكوك فيه كذلك أن يبرز لدينا الشعور بالانافى أية لحظة دون أن يكون مصحوباً بشعور بذوات الآخرين، بل أننا لا نكاد نفكر فى شيء ونربطه بالأنا إلاعلى أساس أن له دلالة إجتماعية . حتى جسمنا، إذا فكرنا فيه على أنه جزء من « الأنا » الخاص بنا ، فذلك لأن له فى نظرنا وظيفة إجتماعية . مثال ذلك أن أقول أنا أطول منك ، أو أن تشعر الفتاة

(1) Ibid., p. 171.

(2) Ibid.. p., 177.

هناك عرض لكتاب « كولى » عن الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعى أنظر : مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ص ١٨٠ — ١٨٩ .

بأنها جميلة ، أو أن يشعر رياضيا بأن بدنه قوى ، هذه جميعا تصرفات تنطوى على التسليم بأن الجسم قيمة اجتماعية .(١)

ولقد وضع (كولى) تمييزاً بين الشعور الذاتى Self consiousness والشعور الاجتماعى social — consiousness والشعور العام — Public consiousness. (٢) فالأول هو ما أفكر فيه عن نفسى ، والثانى هو ما أفكر فيه عن الناس، أما الثالث فهو تجمع وجهات النظر عن الشعور النفسى والشعور الإجتماعى لكل أعضاء الجماعة المنظمة والمتكاملة فى جماعة ذات إتصال Communicating group . وعلاوة على ذلك فان نماذج الشعور الثلاثة إنما هى أجزاء فى كل عضوى . حتى حياة الأشخاص الاخلاقية فانها جزء من وحدة المجتمع العضوية . وتضحى المعرفة الإجتماعية أساساً للاخلاقيات ، وهى هامة كذلك فى العملية الأخلاقية .

إن مفهوم كولى «عن» مرآة الذات Looking glass self هى الشكل الخاص لما وصفه (جيمس) بالنفس الاجتماعية. وحتى إذا ما تطورت العناصر فى تفاصيل أكثر عند (جيمس)،ولقد تكلم (كولى) عن تطور علم الإجتماع من فكرة (جيمس) عن الذات الإجتماعية . بيد أن (كولى) أراد « بمرآة الذات » أن يطور النظرية العامة للمجتمع ، ويتوسع فى المذهب السلوكى فى علم الإجتماع عن طريق شرح

---

(1) Ibid., p. 183.

(2) Emory S. Bogardus; The development of Social Thought, Fourth edition. David Mckay company, inc., N. Y. 1964, p. 493.

الجماعات والتنظيم الاجتماعي .(1)

يتحدث (كولى) عما يسميه « بالنحن » We أو الذات الجماعية group self ، (2) وهى شكل من أشكال نمو « الانا » ، يتحقق إذا ما توافرت شروط معينة أهمها : عضوية الفرد داخل جماعة بعينها يسود التعاون بين أعضائها كما يسود التعارض بينها وبين غيرها من جماعات . وكما أن « الانا » يعتمد فى إرتقائه على ممارسة التحكم فى أفعال الآخرين مما يمكنه من الشعور بامتلاك هـذه الأفعال ، كذلك «النحن» يعتمد على الشعور بما يشبه الملكية المتبادلة بين «الانا» والآخرين. ويمكننا على هذا الأساس أن نتصور عدداً من الذوات الجماعية يساوى عدد الجماعات التى يدخل الفرد كعضو فيها ، فهناك ذات اجتماعيـة مترتبة على عضوية الشخص فى جماعة من الأصدقاء،وذات جماعية أخرى مترتبة على عضوية الفرد فى نادمعين، وذات جماعية أونحن ، مترتبة على عضويته فى وطن معين ، أو فى طائفة دينية معينة ، أو فى مدرسة فكرية بعينها ...... الخ .

سادسا : منهج دراسة الجماعات الاجتماعية : —

يهتم علم الإجتماع ـ باعتباره دراسة لحياة الجماعة وعملياتها ، ببحث الجماعة . والبحث هو التحقيق العلمى لطبيعة الظاهرة لكشف القوانين التى تحكمها ، بيد أن البحث الإجتماعى يركز على العمليات الخفية المترابطة فى حياة الأشخاص الذين يكونون فى اتصالات متعددة ، وبحث الجماعة هو دراسة الذين يشاركون فى جماعات .

---

(1) Don Martindale, The Nature and Types of sociological Theory, Boston, 1960, p. 344.

(2) Gharles H. cooley, op. cit., p. 209.

إنه ملاحظة طبيعة المجتمع ومشكلاته. وفى الواقع فان كل شخص له إحساس عام وملاحظات عامة حول الحياة الإجتماعية ، وقد يكون أكثر حاجة حينما يقود المادة قيادة علمية ، فيحاول تصنيفها وتحليلها وتفسيرها .

ويستخدم البحث السوسيولوجى : المسوح الإجتماعى والاحصائيات الاجتماعية والتجارب الضابطة والمقابلة وأسلوب تاريخ الحياة وتحليل الحالة بمعنى أنه يستخدم كل المناهج الثابتة المقننة ، كل فى الفرصة السانحة (١) ·

أ ـ المسوح الاجتماعية : Social Surveys

المسح الاجتماعى هو تجميع المادة التى تحتويها حالات للحياة والعمل ويكون أكثر شمولا ، وهو أيضا تجميع مادة علمية عن ساكنى المجتمع المحلى موضع الدراسة . وترجع المسوح الاجتماعية إلى زمن بعيد ويستخدم المسح فى حالات تعداد السكان كما أنه قد يستخدم لبيان مشاكل بعينها كالاسكان مثلا أو التعرف على الحالة الصحية أو مؤسسات الرعاية الإجتماعية .

ب ـ الاحصائيات الاجتماعية : Social Statistics

يهتم علم الإجتماع بالقياس الكمى Quantitative measurement حيث يتطلب على الأقل معرفة جزئية بالاحصائيات الاجتماعية ، ولقد أصر (أوجست كومت) منشىء علم الإجتماع على الابتداء بالأساس الرياضى فى علم الاجتماع . والاحصائيات الاجتماعيـــة هى التطبيق الرياضى على الحقائق الانسانية وتعطى المناهج الاحصائيـة صورة موضوعية يمكن تعدادها أو قياسها بطريقة معينة .

---

(1) E. S. Bogardus, Sociology. Fourth edition, The MacMillan company, N. Y, 1954, pp.543 ff.

وتعنى الاحصائيات أن الحقائق حينما تقاس عن طريق ملاحظين مختلفين مستخدمين نفس المناهج ، فانهم يصلون فى العادة إلى نفس النتائج. وتتسلسل الاحصائيات الاجتماعية من إستخدام الشكل البسيط إلى فهم النظريات التى تتحصل عن طريق تلك الاشكال .

وتستخدم الاحصائيات لمعرفة النسب المئوية والإحتمالات والعينة وغير ذلك من الوسائل التى تعين الباحث على جمع المادة العلمية .

جـ - بحث الجماعة الضابطة : Control – group research

تعتمد مناهج البحث فى علم الاجتماع على نوع الموقف الاجتماعى Social Situation موضوع الدراسة . وطبيعيا فان إختيار المناهج يختلف حسب نوع المشكلة المدروسة . ويظهر ضمن مناهج البحث السوسيولوجية منهج الجماعة الضابطة الذى يقف على الثبات والدقة فإنه يعطى على الأقل ما يمكن الاعتماد عليه فى التنبؤ .

د - المقابلات وتواريخ الحياة : Interviews & life Histories

نظراً لأن المسوح الإجتماعية قد تتعمق جذور المشكلات الإجتماعية، ونظراً لأن الاحصائيات الاجتماعية قد تكون أكثر رسمية . ينظر علماء الإجتماع بعين فاحصة لمعرفة الاتجاهات attitudes والقيم Values ومشاعر المحبة والكراهية ، وطبيعة المواقف الإجتماعية والصراعات الإجتماعيـــة والتماثل والأحكام وتنظيم الجماعات كما أن علم الإجتماع يهتم بمعانى الحقائق الإجتماعية أو ما ورائها ، أكثر من كونها مجرد حقائق.فهو يحاول أن يرسم مادة الخبرات الانسانية ، وردود افعال أعضائها.وعليه يستخدم طريقةالمقابلة وتاريخ الحياة وتكنيك تحليل الحالة فى علاقتها بمنهج الإحصائيات والمسح .

إن معمل علم الإجتماع هو كل ما يحيط بالدارس ، فإنه جزء حيوى فيه كل الوقت . وفى الحقيقة فهو مشارك A. Participant وملاحظ ، مشارك فى جماعات معينة وملاحظ لغيرها . وعلاوة على ذلك فإنه يغـــير مشاركته هذه من جماعة لأخرى خلال حياته المستمرة . إن معمله مثير وشيق للغاية فهو يركز على تأثيره فيه وتأثره به (١) .

إن شرح التجمعات الإجتماعية وسلوكها على أنها جماعة ،قد لوحظ بصفة عامة على أنه مشكلة أساسية فى علم الإجتماع . وعليه ، فأى تفهم للنظرية الاجتمـاعية يجب أن يستحضر محتوى منطقيا لوصف هذه الظاهرة فالجغرافيين وعلماء الايكولوجية قد أعطوا نموذجا واحدا معروفا لتفسير موقف السلوك الاجتماعى . وأول هذه الدراسات كانت توضح العلاقات الجغرافية والبنائية الخاصة بالمجتمع المحلى والدراسة الأكثر موضوعية وتفصيلا للتجمع الاجتماعى فى مستوياته الأساسية ، يقع فى ملاحظة تلك التجمعات (٢) .

وبالرغم من أن هذه الجماعات الاجتماعية ليست جديدة على الباحثين والدارسين فلم يتناولها عدد كبير منهم ، فنادرا ما يحلل الباحث كيف تؤثر هذه الجماعات فى أعضائها وكيف يعلو الأفراد عن جماعاتهم من زاوية الأهداف والقيم . ونادراً ما يسأل الفرد نفسه ، ما الدور الذى ألعبه فى كل جماعة أنتمى إليها ، أو ما هى الأدوار التى أتوقع لعبها ؟ أو كيف أستطيع قياس هذه الأدوار الملعوبة ؟

---

(1) E. S. Bogardus, Sociology, The Macmillan Company, N.Y. 1954, p. 3.

(2) Logan Wilson & William L. Kolb, Under the editership of Robert K. Merton, Sociological Analysis: An Introductory Text and Case Book, Harcourt, Brace and Company, N. Y., 1949, pp. 271-272.

يذهب (بوجاردس) إلى أن علم الاجتماع عبارة عن دراسة الطرق التى بواسطتها تعمل الخبرات الاجتماعية فى نمو أو تطور ونضج الكائنات الانسانية من خلال المنبه الشخصى . وحينما توجد هذه الطرق ويعاد إيجاد أعضاء الجماعات الاجتماعية فانها تتجه إلى الظهور فى إعطاء النظام الذى يطلق عليه العمليات الاجتماعية Social processes .وعليه يمكن أن يطلق على علم الاجتماع - فى رأى (بوجاردس) بأنه دراسة العمليات الاجتماعية [1].

ومن ناحية أخرى يرى (جونسون) [2] أن علم الاجتماع هو العلم الذى يهتم بالجماعات الاجتماعية : أشكالها الداخلية أو أشكال التنظيم ، والعمليات التى توجه تأكيد أو تغير هذه الأشكال من التنظيم ، والعلاقات بين الجماعات. وأكثر تعقيداً فموضوع كالجماعات الاجتماعية يتطلب - من أجل المعالجة العلمية - مفهومات خاصة وتعريفات محددة وألفاظ تكتيكية .

إن قيمة العلم الذى يدرس الجماعات الاجتماعية إنما يحتاج إلى بعض المتضمنات . فكل منا يولد فى جماعة الأسرة ، وأغلب أفعالنا بعد ذلك تتشكل حسب قدرتنا كأعضاء فى جماعة أو غيرها . وكل المشكلات الاجتماعية كانحراف الأحداث ومشكلة الاسكان والتعليم والحرب . كل ذلك يكون عن طريق الوظائف التى تؤديها الجماعات أو عن طريق تفاعل هذه الجماعات سويا .وتسترشد السياسة الاجتماعية Social policy فى العادة بخبرة الجماعات الخاصة . إن إختبار تعميم المعرفة حول العمليات التى من شأنها تأكيد أو تغير تنظيم الجماعات قد أصبح

---

(1) Ibid., p. 5.

(2) Harry M. Johnson, Sociology, a systematic introduction, Routledge & Kegan Paul LTD., London, pp. 2-14.

أكثر قيمة كى ما يساعد فى حل المشكلات الاجتماعية . وأبعد من ذلك فمثل وأهداف ومعتقدات كل فرد ، إنما تتشكل بشكل كبير عن طريق الجماعات التى يشارك فيها . وعلم الاجتماع - بناء على ذلك - يجب أن يضيف شيئاً إلى معرفتنا الخاصة . وبالاضافة إلى القيم العملية فيمكن لعلم الاجتماع تحديد مداخله كمحاولات هامة لكشف الحقائق وشرحها فى ضوء نظرية منظمة .

يرى (بوجاردس) أن النقطة الجوهرية لبداية دراسة علم الاجتماع هى التفكير : (١) فى مختلف الجماعات الانسانية الذى هو عضو فيها . (٢) فى كيفية حدوثه كعضو فى كل منها (٣) فى طبيعة الاتصالات الشخصيـــة التى يكون : أ - متمتعاً بها ، ب - أو مكروها فيها (٤) فى الاتجاهات العامة نحو الحياة وإرتباطاته بكل جماعة (٥) فى إختلافات التنظيم والارتباط بهذه الجماعات (٦) فى بعض المشكلات الأساسية التى تواجهها كل جماعة . ويجب أن يفكر أيضاً (٧) فى مختلف الطرق التى بها تؤثر جماعته فى حدود شخصيته [1].

وسوف نعرض إلى ثلاث دراسات أجريت فى مجال علم الاجتمـاع ونختم حديثنا بعرض دراستين تبحث موضوعاً واحداً وهو الجماعات المرجعيـة ، أجريت احداهما فى مجـال علم النفس الاجتماعى وأجريت الأخرى فى مجال علم الاجتماع .

أ - سنعرض الآن إلى دراسة مجتمع معادى للجريمة وهـو مجتمـــع السينانون [2] ، فلقد كان تنظيم ذلك المجتمع متكاملا ، إذ لم يكن فى ذلك المجتمع

---

(1) E. S. Bogardus, Sociology., op. cit., pp. 30–31.

(2) Donald M. Valdes & Dwight G. Dean, "Society: Synanon," Sociology in use. The MacMillan Company. N. Y., 1965, pp. 161–167.

من يتعاطى الخمور أو المخدرات أو يرتكب جريمة من أى نوع ، وهذا ما تبينه التسجيلات المجمعة عن الجريمة . وعن طريق هجرة بعض الناس من شاطىء محيط بارك ocean park بدافع من (تشارلز ديدريك) Charles E. Dederich وإمدادهم بالخمور والمخدرات . فخلال فترة قصيرة هاجر حوالى خمسة عشر فرداً إلى هناك ، وفى صيف ١٩٥٩ هاجر حوالى ٤٠ — ٥٠ رجل وامرأة لايتعاطوا الخمور والمخدرات ، وعاشوا جميعا فى مبنى واحد[1] . وكان المجتمع حينذاك يتميز بسلطة أبوية . والسينانون شكل من أشكال الجماعة ، يتميز بالتفاعل التلقائى وعدم وجود قادة رسميين . أنه مجتمع لا يحبذ الجريمة بل وينكرها أشد النكران . ولقد درس (لويس يابلونسكى) هذا المجتمع معتمدا على منهج دراسة الحالة .

ب — نعرض دراسة (كاتل) Cattel عن نماذج خصائص الجماعة فلقد قضى الكاتب سنوات عديدة فى تطوير نسق سمات الشخصية الأساسى من خلال التحليل العاملى Factorial analysis لعدد كبير من الإختبارات . وهو يعمل الآن فى برنامج مشابه لبيان الخصائص الأساسية للجماعة ،فيناقش خصائص الجماعة الثابتة .

ويرى (كاتل) أن أى محاولات للتنبؤ بسلوك الجماعة ، يجب أن ينظر إلى قياس خصائصها ومظاهرها ، ومثال ذلك النظر إلى الجماعة ككل ، والإختلافات الممكن تواجدها فعلا ، وتفاعل البحوث المختلفة وأوجه التقائها ، هام جدا للوقوف

---

(١) فى عدد ٧ أبريل ١٩٦١ من مجلة Time تفصيل واسع عن تنظيم السينانون فى ذلك الوقت .

على عدد محدد من أجزاء القياس العامة . ووجوب النظر إلى الوحدات الوظيفية في الجماعة تبعاً للسلوك والبناء .

وأساس هذا البحث هو وصف أوضاع قياس الجماعات في الإختلاف الواسع لظاهرها وخصائصها والعلاقات المترابطة لهذه الجماعات المتغيرة ، والتحديد عن طريق التحليل العلمي للجماعات حسب الحجم والتنظيم . وقد مر البحث بمرحلتين الأولى هي مسح Servey الفئات والرموز الشفاهية المستخدمة في وصف الجماعات حسب أحجامها وكيفياتها . والثانية هي القياس الموضوعي للتغيرات التي يتناولها البحث ، وإستخدام التحليل العاملي لنظام هذه المتغيرات ، مثل الحجم وحركة العضوية ودرجة التداخل مع جماعات أخرى ، وقد بدأ القياس الموضوعي عام ١٩٤٨ بعد أن اكتملت المسوح الشفاهية Verbal Surveys في ولاية أوهيو Ohio State وقد سجل مائة متغير أو أكثر في دراسة موضوعية ، وقسمت إلى فئات ثلاث حسب خصائص الجماعة :

١ - إنجازات فعل الجماعة كشكل .

٢ - خصوصيات البناء الداخلي للتفاعل .

٣ - خصائص السكان .

ويطلق على الأولى المتغيرات النحوية Syntality ، والثانية متغيرات البناء ، أما الثالثة فهي متغيرات السكان (١) .

---

(1) Paul F. Lazersfeld & Morris Rosenberg; The Language of Social Research; A reader in the Methodology of Social Research; The Free press of Glencoe, Fourth Printing (edited), 1964., pp. 297 ff.

جـ - إستخدام الإختبار السوسيومترى على أنه متنبىء بتأثيرات وحــدة التضاد [1].

تعاقد معهد البحث فى العلاقات الإنسانية مع قسم بحوث الشخصية التـــابع لمكتب مساعد القائدالعام ، على تصميم مقاييس متطورة لبيان تأثيرات الوحدات المتصارعة .وكان تكتيك (مورينو) أى الاختبارالسوسيو مترى أحد المتنبئات. ولقد كان الغرض من الاختبار السوسيو مترى هو قياس تجانس الجماعة . وكان ثمة إفتراض بأن هناك إرتباط بين تجانس الجماعة وإنجازاتها . وكان هناك إفتراض بعيد مؤداه أن العلاقات الإجتماعية فى الجيش يمكن وضعها فى فئات ثلاث يطلق عليها محكات التفاعل وهى :

أولا - المنطقة الغير حربية ، والتى تحتوى العلاقات الإجتماعية التى من شأنها أن تأخذ مكانها خارج البناء الحربى .

ثانيـا - منطقة المعسكر ، وفيها تظهر التفاعلات الاجتماعية واضحة فى البناء الحربى ولكن حينما يكون غير ذى طبيعه تكتيكية .

ثالثـاً - منطقة الميدان أو تكتيك التفاعلات الاجتماعيـــة والتى تظهر فى الميدان ويكون لها بناء عن طريق الموقف الحربى التكتيكى .

ولقد كانت التسجيلات مختلفة الوسائل ، إذ ثمة تعبير عن الاتجاه لعضو من الجماعة نحو بقية الأعضاء ، أى كانت الاستجابات فردية . وكذلك الأمر بالنسبة لتعبير الجماعة تجاه عضو معين اى نحو فرد خاص ، وقد يكون ذلك الفرد هـو

---

(1) The use of a Sociometric Test as a predictor of combat unit effectiveness, By DauidM, Goodacre; see, Ibid., pp. 302-304.

القائد ، مما قد يؤثر فى قياس تجانس الجماعة واستجابة الأفراد لها ،

د ـ دراسات فى الجماعة المرجعية :

١ ـ وجهة نظر (شريف) :

يرى (شريف) أن علم النفس الاجتماعى يبدأ أحد مداخله عن طريق وضع أسس جوهرية كالمحاكاة imitation والايحاء Suggestion والليبيد Libido ... الخ . وفى الجانب الآخر فهناك محاولات لدراسة الإمبيريقية لكل موضوع فيه ، وفى النظر إلى المشكلات العديدة وخاصة من وجهة نظر علم النفس الاجتماعى ، فلا يمكننا أن نقف ونكتب كل الأسس والمفهومات فى إمتداد معين بالذات . ولذا فهناك إفتراض لبدايات منهجية وفهم للنهج المتبع .

إن المشكلة الواضحة هى علاقة الفرد بالجماعة ، ومن المعروف أن الجماعة ذات تأثير واضح على الفرد . ويلاحظ تفاعل الجماعة على أنه المحدد العام لتكوين الاتجاه وتشيره وما يؤثر فى الفرد من نواح متعددة . وقد ذهب كل من السوسيولوجيين والسيكولوجيين بمداخلهم المتباينة إلى إضافة تحقيقات عدة إلى هذا الاتجاه .

أن أهمية مفهوم « الجماعة المرجعية » كمفهوم يختلف عن الاصطلاح الأكثر عمومية وهو « الجماعة » . ولذا يرى (شريف) أن المفهومات ليست بمجرد كونها من صنع الناس ، حتى العلماء ، كما أنها ليست مجرد إشتراكهم فى وضع مفهوم معين . وكما نرى تاريخيا فان اشتراك الرأى لا يصل إلى مفهوم عادل الحوادث موضوع الدراسة والتفسير . وعليه يمكن أن تكون الجماعة المرجعية خاصية بسيطة ، وهى أنها تلك الجماعات التى يرتبط بها الفرد كجزء منه ، أو التى يرغب فى الارتباط بها سيكولوجيا . وفى حالات عديدة تكون جماعات الفرد المرجعيـة هى تلك

الجماعات التى هو عضو فيها . ومع ذلك فليست كل الجماعات التى ينتمى اليها الفرد بجماعات مرجعية بالنسبة اليه ، حيثما لا يكون لها تأثير عليه (١).

٢ ـ وجهة نظر ميرتون وكيت:

يرى ميرتون وكيت ضرورة إيجاد علاقة بين نظرية الجماعة المرجعية وعلم الإجتماع الوظيفى ، وربما تبدو قيم النظرية الاجتماعية متصلة كعامل من عوامل الامتثال . ويريان أنه فى نسق مفهومات علم الاجتماع فان الامتثال الاجتماعى يشير عادة إلى المعايير والتوقعات لدى الأفراد من جراء تأثرهم بعضويتهم لجماعة معينة . وفى الدراسة التى يعرضها المؤلفان لا يرجع الامتثال السابق إلى معايير الجماعة الأولية ، وإنما إلى معايير مختلفة موجودة فى التقليد الحربى ، وبلغة نظرية الجماعة المرجعية ، فان الاتجاهات نحو الامتثال للمعايير ، يمكن شرحها على أنها توجيه سلبى لمعايير عدم العضوية لجماعة تعطى إطاراً مرجعياً معيناً .

وعليه يعرض الباحثان دراستهما عن الجندى الأميريكى . مبينين عليه التوجيه السلبى Positive orientation للجماعات المرجعية التى ليست بها عضوية محددة كما ليست لها وظائف معينة ، كما أنهما يستخدمان مفهومى (سمنر) عن الجماعة الداخلة والجماعة الخارجة (٢) .

يرى (روبرت ميرتون) أن مفهوم الجماعة المرجعية يعالج بصفة رسمية فى علم النفس الاجتماعى ، ويركز هذا الميدان على استجابات الأفراد للبيئة الاجتماعية أو الشخصية ، ومع ذلك يأخذ مفهوم الجماعة المرجعية مـــكانه فى نظرية علم

(1) L. A. Coser & Rosenberg, Sociological Theory., N. Y., 1965. pp. 270–273.

(2) Reference Group (by : Merton and Kitt). Ibid., p. 276.

الاجتماع وذلك بتركيزها على بناء ووظيفة البيئة الاجتماعية التى فيها يوجد الأفراد. فنظرية الجماعة المرجعية فى علم النفس وعلم الاجتماع لا يمكن فصلها عنهما ، إذ أن ثمة تداخل بينهما فى معالجتها . بيد أن هناك مستويات للتحليل النظرى من ناحية النظرية يحدد الهدف المتميز بين مشاكل النظرية . وتعنى تلك النظرية ، فعل الأشخاص فى الاطار الاجتماعى المرجعى فى ضوء جماعات يعتبرون جزء منهـــا وتعتبر محتوية فى اطار نظرية الجماعة المرجعية . وهى مجرد لفظ جديد لفكرة قديمة فى علم الاجتماع تتمركز عادة حول تحديد الجماعة للسلوك (١)

(1) Robert K. Merton, Social Theory and Social structure, Revised and Enlarged edition, The Free Press; Glencoe, Illinios, Forth Printing, 1961: pp. 281–282.

الفصل السابع

سوسيولوجيا التنظيم

مقدمة

أولا : رواد دراسة التنظيم فى علم الاجتماع

ثانيا : التصورات النظرية فى دراسة التنظيم

مقدمة

اعتادت كثير من جامعات العالم اليوم على أن تطلق على الجهود التى بذلها المشتغلون بالعلوم الاجتماعية فى دراسة التنظيم الصناعى وسلوك الأفراد داخله، مصطلح علم الاجتماع الصناعى . ولكن يبدو أن كونراد ارنسبرج Arnesberg كان على حق عندما قرر أنه ليس من العدل أن نطلق على تلك الجهود هذه التسمية (1) . حيث لوحظ أن فوت هوايت Whyte عندما تناول هذه الجهود بالعرض والتحليل قد وضعها تحت عنوان علم الاجتماع الصناعى وأكد أن هذا العلم لم يكن قد ظهر إلى حيز الوجود كميدان للبحث قبل عشرين عاما . وأنه حصر جهود هذا الميدان فيما أسهم به أقطاب حركة العلاقات الانسانية فى الصناعة، إبتداء من بحوث شركة وسترن اليكتريك حتى دراسات جامعة ميتشجان (2) . وجاء ليونارد سيلز L.sayles فيما بعد ليقرر أن حركة العلاقات الانسانية هذه قد أفل نجمها وأصبح مصطلح العلاقات الانسانية نادر الإستخدام، وأضحى الباحثون يفضلون مصطلحات السلوك التنظيمى Organizational behavior أو الموارد الانسانية Human resources فى التعرف على العوامل التى تلعب دورها فى موقف العمل (3) . وكان كلا من مارش

---

(1) Arnesberg, C., Behavior and Organization, Industrial Studies, in Social Psychology in cross Roads, edt, Rohrer, & sherif, Harper & Brothers, N. Y, 1951, pp. 228–230.

(2) Whyte, W. F., Industrial Sociology; in : Review of Sociology, edt, Gitler, John wiley & sons, N. Y, 1957, pp. 289–315.

(3) Sayles. L.; Human Relations, in : Encyclopedia of Social Sciences, vol. 3, 1958, p. 295.

وسيمون أيضا قد أطلقوا على هذا الميدان من جانبهم ، مصطلح التنظيمـــات Organizations ، ثم نجد من ذهب إلى أن أفضل تسمية يمكن أن تطلق على هذا الميدان ، هى علم اجتماع التنظيمات Sociology of organization فقـرر ثيودور كابلاو T. Caplow أن ميدان التنظيم أصبح أكثر ترتيبا وتنسيقا من معظم فروع هذا العلم الاجتماعى (١).

وعلى الرغم من اتفاق الباحثين فى هذا الميدان على أن نمـــاذج السلطة والبيروقراطية عند ماكس فيبر تمثل نقطة الإنطلاق فى الدراسة السسيولوجية التنظيمات ، الا أن جولدنر A.Couldner يتخذ من إدراك سان سيمون Saint Simon لظهور الأنماط التنظيمية الحديثة وأهميتها بالنسبة للمجتمـــع ، وتعرفه على بعض سماتها المميزة ، وتلميحات كومت Comte نقطة البداية فى التحليل السسيولوجى للتنظيمات . فيذهب إلى أن سان سيمون يعتقد أن الطرق الإدارية فى مجتمع المستقبل لا تستلزم القوة power ولا الإلزام ، وأن السلطة الإدارية لم تعد تستند إلى الميلاد أو الخصائص الوراثية ، وانما تستند الإدارة الحديثة على المهارات العلمية والمعرفة الوضعية . كما أدرك سان سيمون وجـود إرتباط وثيق بين ظهور العلم الحديث أو ما نشأ حوله من مهـــن وبين تطور الوطنية العالمية Cosmopolitanism وتوقع سير هـذه المهن فى اتجاه العالميـة والقضاء على كل ولاء لشاغلى المهن المعنية إلى الجماعات المحلية أو القوميـة .... وينبغى أن تنهض القواعد الأساسية للتنظيم الحديث فى المجتمع على التخطيط حتى يمكن له أن يلعب دوره ،ذلك لأن هذا التنظيم يمثل قوة تعتق وتحرر الناس من

(1) Caplow T., Principles of Organization; Harcourt Brace and World, N. Y. 1964. pp. V-3.

عبودية التقاليد وترفع من الإنتاجية أو الكفاية . ولكن أوجست كومت A. Comte قد قرر أن التنظيم الذى يظهر تلقائيا يفوق دائما ذلك الذى تقيمه الجهود الإنسانية عن طريق التخطيط والتدبير .. ثم جاء ماكس فيبر ليقدم نظريته عن البيروقراطية ، التى تتفق مع ما أدركه سان سيمون فى وجهات النظر الخاصة بطبيعة التنظيمات والدور الأساسى الذى تلعبه المعقولية والعلم والخبرات الفنية فيها ، والطرق التى تؤثر بها هذه التنظيمات فى المجتمع ككل (١).

ويعتبر شستا برنارد Ch.Barnard من أوائل من وضعوا التصور السيسيولوجى للتنظيمات (٢) . بيد أن النظرية الحديثة للتنظيمات اعتمدت فى تقدمها على بعض المحاولات المبكرة الأخرى التى اهتمت بدراسة التنظيمات فى عدد مغاير من العلوم الإجتماعية حيث قدم روبرت ميشيل R.Michel ، رجـل السياسة دراسته الشهيرة للأحزاب الإشتراكية والنقابات ، وتنطوى على القانون الحـديدى لحكومة الأقلية الذى فسر بواسطته التحولات والتذبذبات فى هذه التنظيمات .. وأضاف تايلور نظرية التنظيم الفسيولوجى .. واهتمت النظرية الإدارية التقليدية التى ظهرت فيما بين الحربين مباشرة بالمبادىء التى تحكم التنظيمات المعقدة ، كما هو واضح فى اسهامات جوليك وزملائه من علماء الإدارة فى هذا الصدد (٣).

---

(1) Gouldner, A. W., Organizational Analysis; in : Sociology today : problems and prospects. (ed.) by Merton, R. (et al); Basic Books, Inc, Publishers, 1959, pp. 400-402.

(2) Scott, R.: Theory of Organizations; In : Handbook of Modern Sociology; (eds). by Faris, R. F. L.; Rand McNally & Copmany, Chicago, 1964. p. 486.

(3) Blau, P., Theories of Organizations; In International Encyclopedia of the social sciences, Vol. II, 1968, pp 297-300.

- وإذا أمعنا النظر فى مبحث التنظيمات أو النظرية الحديثة للتنظيمات،أو بعبارة أخرى فى علم اجتماع التنظيمات ، لا نجد هناك نظرية واحدة فى التنظيمات تحظى بقبول كل الباحثين فى هـذا الميدان ، وإنما ثمة عـدد من الأطر التصورية Conceptual Schemes حول الجوانب المتباينة فى التنظيمات .. وقدر وافر من الدراسات الوصفية للتنظيمات أو وحداتها الفرعية (١).

واستنادا إلى ما سبق ، يحاول الفصل الحالى تقديم صورة النظرية الحديثة فى التنظيمات . تميز الجهود الرائدة التى عملت على تقدمها ، وتشير إلى بعض الأطر التصورية التى تنطوى عليها .. ثم يحاول مناقشة هذه الجهود والتعقيب عليها .

أولا ـ رواد دراسة التنظيم فى علم الاجتماع

١ ـ ماكس فيبر :

وحين كان تايلور فى أمريكا مشغولا بالإدارة العلمية.كانت اسهامات ماكس فيبر فى علم الإجتماع وبخاصة كل ما تعلق منها بنماذج السلطة والبيروقراطية تأخذ مكانها فى ألمانيا (*) . وأجمعت الدراسات التى تناولت أعمال فيبر السيولوجية

---

(1) Scott. R., op. cit., p. 485.

* تعتبر البيروقراطية نموذجا من نماذج السلطة . فعلى الرغم من أن معناها اللفظى يوحى بهذا المدلول ، باعتباره كلمة مركبة من شقين Bureau بمعنى المكتب والثانى Cracy وهو مشتق من الأصل الأغريقى Kratia معناه to be strong أى القسوة ، بحيث تدل كلمة البيروقراطية فى مجموعها على قوة المكتب أو سلطته .

(درويش ، عبد الكريم ، (دكتور) ، وتكلا ، ليلى (دكتوره) أصول الادارة العامة، الأنجلو،القاهرة ، ١٩٦٨ ، ١٨٦) . الا أننا سنجد فيما بعد كيف أن تحليل ماكس فيبر لنموذج البيروقراطية يعبر إلى المعنى ذاته ، حيث نجده يعتبر نموذج السلطة الشرعية المعقولة هـو النموذج الأساسى والجماعة المناسبة لممارسة هذا النموذج للسلطة فى نظره وهو نموذج يتمثل فى الجماعة المنظمة على أساس بيروقراطى .

على أن نماذج السلطة والبيروقراطية عنده تحتل مكانة لا نظير لها بين كل ما أسهم به العلماء فى هذا الصدد ، فاعتبروه أول من وضع نظرية فى السلطة البيروقراطية قوامها الهيكل التنظيمى الرسمى والقواعد المحددة (١). فذهب كل من مارش وسيمون إلى أن كل دراسات البيروقراطية الحديثة تدين لماكس فيبر من حيث السبق الزمنى والفكرى (٢) . وقرر روبرت ميرتون R. Merton أن الصياغات التى قدمها ماكس فيبر والخاصة بالنموذج البيروقراطى تمثل المصدر الأصلى لكثير من البحوث الأمبيريقية والنظرية التى تدور حول البيروقراطية (٣). وأشار تمبسون V. Thompson إلى أن ماكس فيبر كان أول من وضع نظرية منظمة عن التنظيم البيروقراطى (٤) .

وكما أن فهم جوانب البناء النظرى السسيولوجى الذى أضافه فيبر إلى علم الإجتماع ، ينبغى أن يتم فى ضوء الموقف الفكرى السائد فى عصره (*) ، والذى

---

(١) درويش ، عبد الكريم ، (دكتور) ، وتكلا . ليلى ، (دكتوره)المرجع السابق.

(2) March, J. G., & Simon, H. A., organizations, John Wiley and Sons N. Y, 1958, p. 36.

(3) Merton, R. K., (et al); Reader In Bureaucracy, (eds) The Free Press of Glenco, (2 ed), 1960, p. 17.

(4) Thompson' V. A., Modern Organization, Alfred A Knopf, N. Y., 1961, p. 10.

(*) لم تقتصر الافكار السائدة فى عصره على موقف كل من دلثى Dilithy وريكرت Rickert وغيرهم من أقطاب الفلسفة الألمانية والمنهج التاريخى فى ذلك الوقت . بل كانت هناك أفكار أخرى من أبرزها ما نادى به كارل ماركس وكتب له الذيوع والانتشار وأثر فى أهم أعمال فيبر المتمثلة فى دراسته عن الروح الرأسمالية والعقيدة البروتستانتية .

نشأت فيه أفكاره (١) . فان إدراك جوانب بناء السلطة البيروقراطية عنده لا يتحقق إلا فى ضوء عناصر البناء السيولوجى الأكبر الذى أسهم به . فحاول فيبر أن يتوسط الآراء السائدة فى عصره ، واعتبر علم الاجتماع دراسة تبحث عن الأسباب ، وفى الوقت نفسه دراسة للمعانى ، وحصر أسس هذا العلم فى نسق من المقولات السيولوجية ، هى المقولات الخاصة بمعانى الأشياء والأفكار والأنماط المعيارية ودوافع الأشخاص من وجهة نظر أولئك الذين يخضع فعلهم للدراسة (٢).

ولقد ترتب على اهتمامه بالمعانى واتباعه لطريقة الفهم فى الدراسة السيولوجية وتأكيده فى الوقت ذاته ضرورة الوصول إلى تفسيرات سببية ، صياغته لنماذج مثالية ideal Types (*) يستعين بها فى تحقيق أهدافه (٣).

فاستعان فيبر بالنموذج المثالى فى وضع تصنيفات الفعل والعلاقات الاجتماعية والجماعة . وخص الجماعة المتضامنة corporate group بالمناقشة والتحليل المفصل، واعتبرها نموذجا تعد السلطة عنصرا جوهريا بالنسبة له . فنجده يشيد

---

(1) Parson, T., The introduction of the translation of, The Theory of Social & Economic Organization to Weber, M.; A Free paper back, New York, (3ed), 1966., p. 6.

(2) Ibid, p. 6,

(*) والنموذج المثالى باختصار هو نموذج تعميم يصف ما يطلق عليه فيبر نموذج الفعل الممكن موضوعيا . وهو أداة أساسية فى التحليل الاجتماعى يمكن أن نقارن بها مواقف الحياة ويا فيها من أفعال أثناء عملية البحث .

(Timasheff, N., op. cit, p, 171.)

(3) Becker, H., & Barnes, H. E., Social Thought from lore to Science, (2 ed), Haren press, washington, 1952, p. 894.

بناء أساسيا لهذه الجماعة ، يعتبره البناء القاعدى بالنسبة لكل الجماعات الأخرى ، مهما كان حجمها ودرجة تعقيدها فى كل ميادين الفعل الإنسانى المتكرر . وكانت السمة الأساسية لهذا البناء فيما يرى فيبر ، هى التمايز الداخلى للادوار والسلطة . فيفرق فيه بين أولئك الذين يحملون المسئولية ويقبضون على زمام السلطة ، أو بين رئيس يتمتع بالسلطة العليا ، وبين الأفراد الذين على الرغم من كونهم تحت سيطرة الرئيس إلا أنهم يمارسون سلطة على الأعضاء الآخرين فى الوقت نفسه ، وهؤلاء الأفراد يكونون الهيئة الإدارية [1].

ولقد صاغ فيبر هذا البناء القاعدى للجماعة المتضامنة على شاكلة النموذج الشائع فى المجتمع الغربى فى الوقت الذى عاش فيه ، واعتبره النقطة المرجعية point of reference ليحدد ويميز النماذج الأخرى للسلطة (*) ، على ضوء

---

(1) Parsons, T., op. cit; p. 56.

(*) حصر فيبر النماذج الأخرى للسلطة فى السلطة التقليدية traditional والسلطة الملهمة charismatic . وبدأ تحليله لنماذج السلطة المختلفة عنده ، بالتمييز بينها على ضوء الاختلاف فى طبيعة الادعاء بالشرعية ، بحيث يختلف نموذج الطاعة وأسلوب ممارسة السلطة ونوع الهيئة الادارية التى تقوم بمهامها اختلافا جوهريا من نموذج سلطة لآخر ، وفقا لنوع الشرعية المدعاة .

فالسلطة الشرعية تقوم على أسس معقولة أو رشيدة تستند إلى الاعتقاد فى شرعية القواعد المعيارية وأحقية أولئك الذين ارتقوا إلى مناصب السلطة فى ظل هذه القواعد ليصدروا الأوامر. وتقوم السلطة التقليدية على أسس كلاسيكية تعتمد على اعتقاد قائم فى قداسة الأعراف أو التقاليد القديمة ومشروعية مكانة أولئك الذين يمارسون السلطة فى ظلها . وترتكن السلطة الملهمة إلى أسس عظيمة ترتكز على الولاء إلى البطولة والقداسة الخاصة أو الاستثنائية أو الشخصية المثالية لأحد الأفراد أو للإنماط المعيارية أو النظام الذى يفرضه أو يرسم معالمه .
(Ibid, p. 324-328.)

اختلافاتها المحددة معه ، وأطلق على هذا النموذج القاعدى نموذج السلطة الشرعية المعقولة أو الرشيدة Rational legal – authority (١).

ويحدد فيبر المميزات الأساسية الجماعة المتضامنة التى تمارس فى ظلها السلطة الشرعية المعقولة أو الرشيدة فيما يلى :

١ — تنظيم مستمر للوظائف الرسمية التى تحكمها القواعد .

٢ — نطاق اختصاص محدد لكل منصب (أو وظيفة) وهو نطاق يشتمل على :

أ - التزامات بأداء واجبات وظيفية معينة إستنادا إلى مبدأ تقسيم العمل .

ب - سلطة لشاغل المنصب تقابل الواجبات والمسئوليات المنوط بها .

جـ - تحديد وسائل الإلزام الضرورية بوضوح والتى لا يحق إستعمالها إلا فى الحالات المنصوص عليها .

وتعرف الوحدة الممارسة للسلطة المنظمة بهذه الطريقة ، بالهيئة الادارية ، وتوجد هيئات إدارية بهذا المعنى فى التنظيمات الخاصة ذات الحجم الكبير ، كما توجد فى الأحزاب والجيوش ، بمثل ما توجد فى الدولة والكنيسة . ويكون الرئيس المنتخب ومجلس الوزراء وغيرهم من الأفراد الممثلين والمنتخبين ، هيئة إدارية بالمعنى السابق أيضا (٢).

٣ - ويقوم تنظيم المناصب على مبدأ التدرج الهرمى بمعنى أن يخضع كل

---

(1) Thompson, V. A. op. cit., p. 11.

(2) Weber, M, op. cit, p: 330.

منصب أقل لاشراف وضبط المنصب الأعلى منه ، كما يدل على توفر حق التظلم من المنصب الأدنى للمنصب الأعلى .

٤ - والقواعد التى تنظم سلوك المنصب قد تكون قواعد ومعايير فنيــــة ، والموظفون الذين يشغلون هذه المناصب يعرفون عليهم وهم مدربون على أدائه .

٥ - والعاملون فى ظل هذا التنظيم (أو المنظمة) لا يمتلكون وسائل العمل أو الانتاج ، وإنما يمدون بها فى صورة نقود وأدوات . وهم مسئولون عن رد عائدها ، وعن تعليل كيفية انفاقها واستخدامها ؛ وينبنى على هذا أيضا فصل تام بين ممتلكات التنظيم والمتعلقات الشخصية لشاغل الوظيفة .

٦ - لا يوجد أى حق فى تملك المنصب الرسمى أو ما فيه .

٧ - توضع جميع الاجراءات الاداريه والقرارات والقواعــد وتثبت كتابة ، حتى فى الحالات التى تعتبر المناقشة الشفهية لها هى القاعدة ، وينطبق هذا على المناقشات التمهيدية والمقترحات والقرارات النهائية وعلى كل أنواع القواعد والنظم . ومن مجموع الوثائق المكتوبة وتنظيم الوظائف الرسمية القائمة يتكون ما يسمى بالمنصب كشخص معنوى . . وهو محور كل نماذج الفعل المتضامن فى العصر الحديث .

٨ - ويمكن ممارسة السلطة الشرعية بطرق جد مختلفة . . وهى السلطة التى يمسك زمامها الرئيس الأرفع منزلة ، والمناسب لنسق السلطة الشرعية . وبالرغم من أن هناك نماذج بالغة الأهمية للسلطة تتمثل فى النموذج الوراثى العظيم كما تفسره الملكية الوراثية ، ونموذج عظيم خالص لرئيس يختار بواسطة الاستفتاء العام ، إلى جانب غيرها من النماذج التى تجمع بين عناصر عظيمة وبيروقراطية ،

إلا أن نموذج الهيئة الادارية الشرعى المعقول أو الرشيد هو النموذج الذى يمكن تطبيقه على كل سياق وموقف مها اختلف نوعه[1] ،

ومن هنا بدأ فيبر يرسم أبعادهذا النموذج الذى يعتبر من أكثرالميكانيزمات أهمية فى الإدارة ، والذى فيه يشغل رئيس التنظيم ذو المنزلة الرفيعـــة مكانة فى السلطة عن طريق الانتخاب أو التعيين، ويتم تعيين الهيئةالإدارية التى تحت إمرته بحيث تقوم بوظائفها وفقا للمعايير التاليه :

لا يخضع هؤلاء الموظفون للسلطة إلا فى حالة الالتزامات الرسميـــة ، فهم أحرار شخصياً . كما أنهم ينتظمون فى تدرج هرمى من مناصب محددة بوضوح، ولكل منصب مجال من الاختصاصات المحددة بالمعنى الشرعى . ويشغـــل المنصب بواسطة علاقة تعاقدية . فهناك إذن عملية انتقاء حرة[2] . ويتم إختيارالمرشحين للتعيين فى هذه المناصب على أساس الخصائص الفنية التى يتحقق منها بواسطـــة إختبارات أو بما يضمن أنهم قد تلقوا تدريباً فنياً ، مثل الدبلومات أو بكليهما . ويحصلون على مكافآتهمفى صورة مرتبات ثابتة ، كما يكونلهم الحقفىالمعاش. ويكون للسلطة القائمة فى ظل ظروف محددة ، وبخاصة فى التنظيمات الخاصة الحق فى الغاء التعيين ، كما تكون للموظف الحرية فى استقراره بالوظيفة أو عدمـــه ، وتحدد منزلته وفقاً لمكانته فى التدرج الهرمى، ويؤخذ فى الإعتباركل منالمسئولية التى تقع على مكانته فى التدرج ومتطلبات مكانته الاجتماعية ، ويعامـــل المنصب باعتباره مهنة فردية أو على الأقل مهنة أولية لشاغل المنصب ، وهى تشكل خطة عمل فى الحياة Career ، ويعتمد نظام الترقى فيه الأقدمية أو الانجاز أو كليهما،

---

(1) Ibid. pp., 331-332.

(2) Ibid; p. 333.

ووفقا لحكم الرؤساء. وينفصل الموظفون كلية عن ملكية وسائل الادارة ولا يملكون منزلاتهم . وهم يخضعون لنظام صارم وإشراف منظم فى قيامهم بأعباء مناصبهم (١) .

ويعدد فيبر المجالات المتباينة التى يمكن أن يطبق فيها هذا النموذج التنظيم ، فيحصرها فى : ميادين الأعمال التى تهدف الى تحقيق ربح ، أو المشروعات الخاصة التى تخدم أغراضا مادية أو مثالية . والتنظيمات الخيرية والدينية والسياسية والعسكرية (٢) .

وينتهى فيبر الى القول بأن هذا النموذج البيروقراطى يمثل أداة أكثر كفاية ومعقولية ورشد فى إدارة التنظيمات ذات الحجم الكبير، تلك التنظيمات التى ظهرت وأعتمد عليها النظام الإجتماعى الحديث فى مجالات متباينة (٣) .

وكان هذا الإستنتاج يستند إلى إدراكه للعالم باعتباره يسير فى اتجاه التقدم نحو المعقولية والرشد ، مع تغير مصاحب فى صور التنظيم . ومن هنا أصبح من الصعب ، على حد ادراكه ، بقاء النماذج الأخرى للسلطة التقليدية والعظيمة ، تلك النماذج غير المعقولة أوغير الرشيدة. الأمر الذى يمهد الطريق لظهور ذلك النوع الجديد القائم فى المجتمع الغربى حديثاً ، للسلطة والبناء الشرعى المعقول والرشيد الذى أطلق عليه التنظيم البيروقراطى (٤) . ويستند من ناحية أخرى إلى أن فيبر

(1) Ibid, p. 334.

(2) Ibid. pp. 334-336.

(3) Parsons, T.: p. 58.

(4) Thompson, V. A., op. cit., p. II.

كان يسلم وينظر إلى نسق السلطة الشرعية والتقليدية ٭ على أنها وســـائل التنظيم تناسب النسق الاجتماعي القائم . وهما نسقان على الرغم من خضوعهما للتغير مثل كل التنظيمات الانسانية الأخرى ، إلا انها من طبيعة متكررة ، أما نسق النموذج العظيم ٭ ، فنظر اليه باعتباره يزدرى كل ما له صلة بالنظام الاقتصـادى اليومى فى صورته المعقولة أو التقليدية ، وتحصيل الدخل المنتظم عن طريق النشـــاط الإقتصادى المستمر المكرس لهذا الهدف . ومن ثم يعارض النموذج العظيم نماذج

(٭) والجماعة التى تمارس السلطة التقليدية فى ظلها ، تتكون من رئيس بصفة شخصية يحتل فيها مكان السلطة العليا بفضل مكانته التقليدية ، ومن هيئة ادارية تنحصر فى التابعين الشخصيين وهم ليسوا موظفين ، وأنما هم يخضعون لسلطته ، وتحكمهم به علاقات الولاء الشخصى له دون الالتزامات غير الشخصية للمنصب ، فالرئيس هنا يتمتع بالحرية فى منح أتباعه الهبات على أساس السرور أو الحب أو الـكره ، وبطريقة تعسفية . وهناك مصادر وراثية وغير وراثية يتم عنها تعيين أو تجنيد أعضاء الهيئة الادارية ، مثل الأقرباء والعبيد أو أعزاء الرئيس واحبائه ، وهم يحصلون على أتعابهم فى صورة منح من الرئيس أو أرباح والتزامات. ويعتبر النموذج الاقطاعى مثالا للهيئة الادارية التى تعامل بهذه الطريقة .

(Weber, M, op. cit., pp. 342-351).

(٭) وفى الجماعة المتضامنة التى تخضـع للسلطة العظيمة ، لا تتكون الهيئـة الادارية من موظفين ، كما أن أعضاءها ليسوا مدربين فنيا ولم يتم اختيارهم على أساس الامتيـاز الاجتماعى ولابناء على الولاء الشخصى . وانما يختارون على ضوء خواصهم العظيمة . ولا يعرف هنا كل ماله صلة بنظم التعيين أو الرفت أو الترقية أو التدرج الهرمى ... الخ . وأنما تقدم الأتعاب فى صورة هبـات أو اكراميات أو استعطاف . ويعيش الاتباع مع قائدهم فى علاقـة مشاعية مستعينين بالوسائل التى يزودهم بها على أساس الهبة . وينظرون إلى أوامره على أنها مقدسة. والنموذج العظيم لايوجد الا فى عملية النشأة ونقطة البداية ، ونتيجـة لوجود دوافـع أساسية معينة تؤكد تحوله إلى النماذج الأخرى .

(Ibid, pp. 345-364).

السلطة المعقولة والبيروقراطية بخاصة والسلطة التقليدية بصورها المختلفة ، تلك الصور التى تتعلق بنظام الضبط اليومى المفصل . ذلك لأن السلطة العظيمة سلطة ثورية تنكر الماضى ولا تعترف بتملك أوضاع القوة سواء من جانب القائد أو اتباعه ، فهو نموذج لا يمكن أن يصبح أساساً لنظام الثابت بدون أن يطرأ عليه تغيرات بنائية عميقة ، حيث يتحول نتيجة لهذه التغيرات الى النموذج الشرعى المعقول أو الرشيد أو النموذج التقليدى [١] .

كما يستند اعتبار فيبر النموذج البيروقراطى أداة أكثر كفاية فى إدارة التنظيمات المختلفة من ناحية ثالثة، إلى تأثر فيبر فى هذا الصدد بعدد من الاتجاهات التى كانت سائدة فى عصره ، فنجده قد عاصر كمواطن ألمانى ذلك التضخم الذى طرأ على المؤسسات الصناعية فى ألمانيا واقتنع بأن التنظيم الرسمى المحكم له آثاره الإيجابية على الانتاج . ووجد فيبر عندما كان ضابطاً بالجيش الألمانى أن التنظيم العسكرى يدار بطريقة آمرة ويتحرك الأفراد بداخله وفق أوامر وتعليمات صارمة ومحددة سلفاً ومفروضة عليهم . فاعتقد أنه يمكن أن ينجح هذا التنظيم فى كل المجالات . ولكن جعلته خبرته كعالم اجتماع أهتم بدراسة المجتمعات والأفراد ، يشعر بعوامل الضعف فى العنصر البشرى ، وعدم إمكان الاعتماد الكامل عليه ومن ثم لم يهتم بالنواحى الانسانية [٢] . فانصرف اهتمامه إلى التعرف على مميزات الوحدة التى أطلق عليها البيروقراطية لوصف نموها وأسبابه ، ولمول التغيرات الاجتماعية المصاحبة لاكتشاف دور التنظيم البيروقراطى فى تحقيق الاهداف البيروقراطية — وهى أهداف السلطة السياسية فى الاصل [٣] .

(I) Ibid, p. 66.

(٢) درويش ، عبد الكريم ، (دكتور)، وتكلا ، ليلى ، (دكتوره) المرجع السابق من ص ١٨٨ إلى ص ١٩٠ .

(3) March, J. G; & Simon, H, A., op. cit., p; 36.

ولقد كان حظ النموذج الشرعي المعقول للسلطة أو بناء البيروقراطية من المواقف النقدية حظاً وافراً. وهي مواقف يتمثل أبرزها في المناقشات التي أدارها كل من بارسونز وجولدنر وفريدريك وأتزيوني وغيرهم للكشف عن مواطن الضعف والقوة في بناء السلطة البيروقراطية عند فيبر .

إذ يؤكد بارسونز أن صياغة فيبر لخصائص التنظيم البيروقراطي قد أثارت بعض المشاكل الجوهرية في تحليل البناء الاجتماعي وتنحصر هذه المشاكل في أن فيبر قد قدم لنا نموذجين مختلفين، وهما نموذجان على الرغم من تظلل كل منهما بالآخر، إلا أنهما أنفصلا عند التحليل . فكان فيبر يعلق من ناحية ، أهمية كبيرة على الكفاية الفنية كأساس للكفاية البيروقراطية ، ويؤكد من ناحية أخرى أنه يمكن أن تباشر الإدارة البيروقراطية ضبطها وإشرافها بواسطة المعرفة أو العلم . ونحن نجد أن مصطلحي الكفاية الفنية والعلم يشيران مباشرة إلى الخبرة المهنية كخبرة الطبيب الحديث مثلاً، ولكنا نجد فيبر يرى أن الممارسة الطبية مثل غيرها من الوظائف المهنية المتباينة الأخرى في العالم الحديث لم يأخذ تنظيمها صورة بيروقراطية وإنما أخذ صورة الممارسة الخاصة ، ذلك لأن الطبيب في نظر فيبر لا يشغل منصباً وتستند سلطته إلى الرضا والقبول ، بمعنى أن طاعة أوامره تعتمد على القبول الإرادي من جانب مريضه . أما السلطة في التنظيم البيروقراطي فتستند إلى الإلزام. ويقرر بارسونز أن تقديم مثل هذه الخدمات المهنية لا يمكن أن يتم إلا في ظل تنظيمات معقدة وليس على يد أفراد مستقلين . وبالرغم من ذلك تؤكد الشواهد أن الأبنية التي من هذا النوع تختلف أساساً عن البناء البيروقراطي الذي رسمه فيبر . فبدلا من التدرج الهرمي المحدد للمراتب والسلطة يوجد هناك مجموعة من الأفراد المتساويين في المراتب الرسمية ودرجة الكفاية الفنية . ومن الأمثلة على ذلك ما يحدث في

جامعات العالم الغربي الحديث والهيئات المهنية كالمستشفيات وغيرها من التنظيمات التي تجاهلها فيبر (١).

ويذهب جولدنر Gouldner من جانبه إلى أن النموذج البيروقراطي عند فيبر جاء خاليا من الاعتبارات المتعلقة بالزمان والمكان . فلقد مال تحليله إلى توضيح العناصر العامة التي قد تظهر في صور التنظيم البيروقراطي بغض النظر عن العصر والمنطقة التي تظهر فيها هذه الصور . وأغفل الاختلافات بين هذه الصور البيروقراطية والطريقة التي ترتبط بها العناصر العامة لها وتحددها بالأبنية الاجتماعية التي وجدت في المراحل التاريخية المتباينة (٢).

ويرى روبرت ميرتون R. Merton أنه ترتب على تأكيد فيبر النواحي المعقولة وغير الشخصية في البناء البيروقراطي أن جاء هذا البناء خاليا من الاشارة الى العلاقات الشخصية والاعتبارات غير المعقولة الأخرى في نظر فيبر كعلاقات الود والعداء وصور القلق وغيرها (٣).

وأكد كل من بلاو وسكوت Blau & Scott أن النموذج المثالي البيروقراطية كما قدمه فيبر وان كان يشير إلى البناء الرسمي فقط ، ألا أن الدراسات التجريبية

---

(1) Parson T.; The introduction of The Theory of Social & Economic Organization, op cit., pp 59-60.

(2) Gouldner, A., On Weber Analysis of Bureaucratic Rules, in Reader in Bureaucracy, op. cit., p. 48.

(3) Merton, R., Bureaucratic Structure and Personality, In Social Theory & Social Structure; Toward a Codification of Theory and Research, The Free press of Glenco, Illinios, 1944. p. 151.

الحديثة أكدت أن هذا البناء لايكون الا جانباً واحداً فى البناء الفعلى . فلقد وجد هناك أنماطا أخرى للسلطة — تتمثل فى القيادة الطبيعية أو غير الرسمية وغيرها من صور الصداقة والجوانب الدينامية والتى وجدت لكى تدعم المظاهر البنائية الرسمية للتنظيمات .(١)

وكان ادراك بعض الباحثين والعلماء للجوانب التى أغفلها البناء البيروقراطى كما عبر عنه فيبر بمثابة حافز قوى للبعض الآخر من حيث أنهم حاولوا اجراء دراسات مقارنة ومسوحا لدراسات أجريت بهدف التوصل إلى اطار نموذجى يجمع كل العناصر الممكنة للبناء البيروقراطى السليم ومن وجهة نظرهم .

تلقد أجــــرى فريدريك Friedrich بحثاً أمبيريقيا مقارنا استند فيه إلى دراسة الوثائق الخـــــاصة ببيئات إدارية فى كل من انجلترا وفرنسا وبروسيا والمستعمرات الأمريكية والولايات المتحدة . وانتهى إلى أن هنـاك ستة عناصر تكررت فى هذه التنظيمات البيروقراطية تنحصر فى : تمركز الضبط والاشراف والتدرج الهرمى — وتمايز الوظائف ومتطلبات المنصب والموضوعيـــة والدقة والاستمرار والتكتم . وتكون هذه العناصر نموذجا عاما تمثل فيه العناصر الثلاثة الأولى العناصر التنظيمية ، وتعتبر العناصر الباقية عناصر سلوكية .. وتعد عناصر النظام والروح المعنوية عناصر فرعية فى هذا النموذج العام .

وينظر فريدريك إلى هذه العناصر التى يتشكل منها نموذجه العـام إلى جانب العناصر الفرعية باعتبارها عناصر افتراضية ، بمعنى أن البحوث المستقبلة والتحليلات قد تـكشف عن ، أما وجود عناصر أخرى يجب اضافتها إلى النموذج أو حذف

---

(1) Blau, P., & Scott, R., Formal Organization: A Comparative approach, Routledge and Kegan paul, London, 1963. p. 35.

بعض العناصر الموجودة .(١) وهكذا حاول فريدريك اختيار عناصر التنظيم البيروقراطي في ضوء الشواهد الأمبيريقية ويقدم نموذجا فرضيا يحوي عناصر جديدة .

ويسير اتزيوني Etzioni في الطريق نفسه ، فيذهب إلى أن النموذج الفيبري لا يلائم التنظيم الذي درسه عدد كبير من الباحثين ، حيث أوضح جرانيك D. Graniak عام ١٩٥٤ في دراسته للادارة الصناعية في الاتحاد السوفيتي أن هذه الادارة لاتتبع النموذج الفيبري ، وتوصل كل من فالرز Fallers عام ١٩٥٦ وكابلاو Caplow عام ١٩٥٣ وجانوفيتز Janowitz عام ١٩٥٩ إلى النتيجة نفسها وذلك في دراساتهم لنماذج من الأبنية البيروقراطية ، مؤكدين الحاجة الى نموذج آخر . ومن هنا حاول اتزيوني أن يصيغ في كتابه « التحليل المقارن للتنظيمات المعقدة » نموذجا جديداً يتوسط بين النماذج التي تحوي الخصائص العامة وبين الملاحظات المفصلة للحالات الفردية ، وذلك من خلال دراسته لدور الضبط داخل التنظيم والمتغيرات المرتبطة بها (٢) .

ومن الجدير بالذكر أن النموذج البيروقراطي كما عبرت عنه تحليلات فيبرجاء ليدعم صورة السلطة الشائعة في ألمانيا في عصره في الجيش وفي الصناعة ، باعتباره الأسلوب المناسب لتحقيق أهداف السلطة القائمة على أمر هذه التنظيمات ، ولا يمكن أن نشك في ذلك الطابع الرأسمالي الذي تميزت به هذه السلطة .

---

(1) Friedrich, C. J., Some observations on weber's Analysis of Bureacracy, in Reader in Bureacracy, (ed.) by Merton, R, (et al), op. cit, pp. 29-30.

(2) Etzioni, A., A comparative Analysis of Complex organization, The Free Press of Glenco, Inc, 1960, pp. XI-XIII.

ومها كان من أمر هذه المواقف النقدية التى حاولت الكشف عن جوانب الضعف فى بناء السلطة فى التنظيم البيروقراطى عند فيبر وارتباطه بالايديولوجية القائمة، فان هــذا البناء قد انطوى على جوانب قوة أسست عليها الاتجاهات الحديثة اللاحقة كثيراً من تحليلاتها . وأنه على الرغم من اختلاف نموذج فيبر مع اسهامات الادارة العلمية من حيث الهدف والتحليل، الا أن ثمة عناصر مشتركة تجمع بين هذه النماذج الكلاسيكية، حيث أخذ كل نموذج فيها طابع الآلية والمعقــولية ، وأغفل العناصر الإنسانية ، وكل ما يرتبط بالعاملين داخل التنظيم . فظهــرت حركة العلاقات الإنسانية فى الصناعة لتوجه الأنظار إلى العناصر الإنسانية وكل ما يرتبط بالعاملين داخل التنظيم ، وتؤكد أهمية القيادة فى كفايته .

ب – روبرت ميشيل

ويشترك ميشيل مع فيبر فى القيام بدور الأب وتوجيه النظرية الحــديثة البيروقراطيــة ، حيث دخل القــانون الحــديدى للاوليجاركية The iron law of oligarchy عنده فى تحديد نقطة انطلاق البحوث الحديثة فى هذا الميدان(١) . ويعتقد ميشيل أن تنظيم الدولة يحتاج إلى بيروقراطية معقدة وهائلة ، لقد عاملا هاما فى تحديد القوى التى تقتنصها الطبقات المسيطرة سياسيا لتحمى بها سيطرتها وتمكن نفسها من القبض على دفة الأمور . فتؤدى غريزة الحفــاظ على الذات بالدولة الحديثة إلى أن تحشد وتضم لها أكبر عدد ممكن من المصالح . وتزداد هذه الحاجة مع زيادة عــدد السكان ومع الإعتقاد فى عــدم فعالية النظام الاجتماعى المعاصر ، وبالتالى مع زيادة ما تعتبره السلطات من قبيل الضجر والتبرم . وتشبع

---

(1) Coser. L. A., & Rosenberg, B., Sociological Theory: A Book of Readings; The Macmillan Company. New York; (5 prin), 1965, p, 464.

الدولة حاجتها إلى ضمان وجود جيش من المدافعين عن مصالحها عن طريق إيجاد وتكوين جماعات الموظفين والعاملين الذين يعتمدون عليها مباشرة . وجاءت نوازع الإقتصاد السياسى الحديث لتدعم الاتجاه المذكور . فمن ناحية تقـدم الدولة من جانبها عرضاً من الوظائف أو المناصب الرسمية ، ومن ناحية أخرى يظهر الطلب الزائد عليها بين المواطنين . ولقد تسبب هذا الطلب فى الحالة القلقة لوضع الطبقات المتوسطة (وصغار الصناع والتجار والفنانين ....) منذ ظهور الإتجاه الرأسمالى إلى حيز الوجود وإتساع مجاله ، من ناحية ، وتكوين الطبقات العاملة من ناحية أخرى ، نظراً لأن الطبقتين الرأسمالية والبلوريتارية تحاولان من جانبها أن تتحد التضرب بالطبقات المتوسطة سواء أرادت ذلك أو لم ترد . ويسعى أولئك الذين أحسوا أن كيانهم المادى تهدده التطورات الحديثة ، وراء العثور على المواقف الآمنة من أجل أبنائهم ليضمنوا لهم أوضاعاً إجتماعية تحميهم من فعل هذه التطورات . وكان الطلب على وظائف الدولة مع الحق فى المعاش بمثابة تعبير عما يسعون وراءه . وإزاء هذا الطلب تضطر الدولة من وقت لآخر إلى فتح قنواتها البيروقراطية لكى تقبل آلاف الطلبات الجديدة وتحول أصحابها من خصـوم خطرين فى طبقة العمال ، إلى مدافعين غيورين أو مشايعين ، بحيث يمكن أن نميز بين فئتين من أفراد الطبقة العاملة ، تضم الأولى أولئك الذين نجحوا فى ضمان وضع ومركز له شأنه فى نظر القائمين على شئون الدولة ، بينما تشمل الثانية أولئك الذين هاجموا القلعة بدون أن يتمكنوا من الدخول فى طريقها[1] . وتشبه الفئة الأولى جيش العبيد الذى يكون دائماً على إستعداد للدفاع عن الدولة التى تمده بالخبز ، يدفعه إلى ذلك حب الطبقة ذاتها من ناحية ، والخوف من فقد وضعه من ناحية

(I) Michels, R., Bureaucracy and Political parties; In Sociological Theory, (edt), by coser, L. & Rosenberg, B., The Macmillam Company, New York, (5 print.); 1965, pp. 473-474.

أخرى . وتماثل الفئة الثانية الأعداء المعادين للدولة . الذين يتميزون بالأرواح القلقة ويقردون المعارضة البورجوازية ويطلبون بقيادةالأحزاب الثوريةللطبقة العاملة . وثمة حقيقة أساسية فحواها ، أن تضخم بيروقراطية الدولة لا يتم بنفس السرعة التي تتضخم بها العناصر الضجرة فى الطبقـة المتوسطـة ، وإن كانت الزيادة المستمرة للبيروقراطية لا تقـل عن زيادة هذه العناصر ، حيث يكون نمـــوها (البيروقراطية) مناسباً للرفاهية العامة ويظل النظام البيروقراطى نظاماً جوهرياً، يمكن من خلاله وحده إشباع حاجة الجماهير إلى الأوضاع المضمونة . ويشـترك الحزب السياسى مع الدولة فى تميزه بكثير من هــذه السمات [١] . حيث تصبح الاحزاب السياسية وحتى نقابات العمال فيما يرى ميشيل ، بيروقراطيات ، بغض النظر عن الكيفية التى تتساوى فيها ايديولوجياتها ، ويرجع ذلك إلى أن الضبط المركزى إلى جانب الهيئة الادارية تعد أمورا جوهرية فى الانتخــابات أو المساومات . وما يكتسبة القادة من خبرة ويحققونه من انتصارات تجعـل منهم اشخاصاً ضروريين . ولما كان التنظيم القوى يلعب دورا هاما فى إنجاز البرنامج الراديكالى ، فان إهتمام القيادة ينصرف إلى تحصين وتدعيم هذا التنظيم وحمايته من هجمات القوى المحافظة ، وحتى إذا تطلب ذلك أن تتخلى عن المثل الراديكالية الاصلية والاخذ بمثل أكثر إعتدالا لتسكت صيحات المعارضة القوية . ويمكن القول باختصار أن ميشيل قد اعتقد فى ان عمليات التنظيم تحول الأحـزاب أو النقابات الى بيروقراطيات متمركزة أو مركزية تسودها الوظائف وتغير أهدافها الراديكالية إلى برامج اصلاح معقولة [٢] .

---

(1) Ibid. pp., 474–475.

(2) Blau, P., Theories of organization; op. cit., p. 300.

جـ ـ شستار برنارد :

ولكن إذا كان فيبر يعتبر أول من صاغ التصور السيولوجي الأصل للتنظيمات ، فان برنارد Ch. Barnard قد قاسمه هذه الصياغة. فنظر برنارد مثل فيبر إلى التنظيمات باعتبارها نموذجا فرعيا من مجموعة أكثر عمومية من الظواهر التي أطلق عليها النسق التعاوني. . بحيث يعد التنظيم نموذجا تعاونيا ونسقا لأوجه النشاط التعاونية والتنسيقية الهادفة . فتنحصر العناصر الرئيسية للتنظيم في الاتصال والرغبة في الاسهام والهدف المشترك . . وهي عناصر ضرورية لكي يظهر التنظيم إلى حيز الوجود وتعد كل من الفعالية effectiveness (بلوغ الهدف المشترك) والكفاية efficiency (أشباع حاجات المشتركين فيه) عناصر ضرورية لاستمرار وجوده ، وبحيث يتمثل جوهر هذا التنظيم الرسمي في إتخاذ القرارات الخاصة بالتطبيق واختيار الأهداف أو الوسائل البديلة والتنسيق بين العوامل المتباينة التي تكون معا النسق التعاوني الأكبر (١) . وتتكون التنظيمات المعقدة في نظره ، من مجموعة من التنظيمات البسيطة . . وتعد السلطة عنصراً أساسيا في التنظيم البسيط ، مهما كانت طبيعتها . . وقد تحدد السلطة باعتبارها تشير إلى طبيعة الاتصال في التنظيم والتي يفضلها ويقبلها عضو التنظيم على أنها تحكم كل سلوك يسهم به . ومن ثم فان السلطة تنطوي على جانبين :

أ ــ جانب ذاتي أو شخصي ، يعبر عن قبول الاتصال باعتباره ذي سلطة authoritative .

ب ــ وجانب موضوعي : ويشير إلى طابع الاتصال الذي بفضله تكون السلطة مقبولة .

---

(1) Scott, R., Theory of Organizations; op. cit., p. 485-487.

على أنه لا يمكن أن يقبل الشخص الاتصال باعتباره ذا سلطة إلا إذا تحققت أربعة شروط فى الوقت ذاته :

١ — إذا أمكن لهذا الشخص فهم الإتصال .

٢ — وأعتقد أن قراره لايختلف مع هـــدف التنظيم ، فى وقت إصدار هذا القرار .

٣ — وإذا أمكن له التوفيق بين هدف التنظيم ومصلحته الشخصية .

٤ — وكان قادرا على أن يستجيب ويذعن لهذا الهدف عقليا وفيزيقيا .

ولكن كما يتساءل برنارد، إذا كان هذا التحـــديد السلطة يعتمد على الفرد المرءوس أصلا ، فكيف تضمن تعاونه باستمرار ؟ وفى الرد على هذا التساؤل ، يشير برنارد إلى أن هـــذا التعاون ممكن ، لأن الفرد لايتخـــذ قراراته إلا فى ظل الظروف التاليـــة (١) :

أ — عادة ما تخضع الأوامر التى تصدر عمداً للابقاء على التنظيمات، للشروط الأربعة المذكورة سابقا .

ب — توجـــد لدى كل فرد منطقة القبـــول Zone of indefference يقبل داخلها الأوامر بدون أن يشك فى سلطتها .

ج — وتدفع مصالح الأشخاص الذين يسهمون فى التنظيم بهم إلى أن يؤثروا فى الفرد وإتجاهاته ليحافظ على منطقه قبوله هذه فى حالة ثبات .

وعلى الرغم من أن التنظيمات الجيدة تأخذ بالمبدأ القائل بأنه لا يمكن أن تصدر

— (1) Barnard, ch., The Thoery of authority: in Theories of Society, (edt., by Parsons, T., et al), op. cit., pp. 633-634.

الأوامر التي سوف لاتحظى بالطاعة . فان المنفذين executers وغيرهم من ذوى الخبرة يعرفون أن العمل به يقوض السلطة والنظام والروح المعنوية . ذلك لأن المبدأ ذاته لايمكن قبوله أو لا يعد مبدأ مؤكدا عند التطبيق .

وفى تفسير برنارد لمفهومه عن منطقة القبول تحليلا للزعم السابق ، حيث يعتقد أنه إذا أمكن تنظيم وترتيب كل أوامر السلوك التي يمكن تنفيذها وتحقيق امكانية قبول الفرد لها ، فقد ندرك وجود بعض الأوامر غير المقبولة ومن ثم سوف لاتحظى بالطاعة ، إلى جانب مجموعة ثانية من الأوامر قد تكون مقبولة أو غير مقبولة ، وثمة مجموعة ثالثة ليس هناك أدنى شك فى قبولها ، وهى تقع داخل منطقة القبول ، بحيث يقبل الشخص الأوامر التي تقع داخلها . وتضيق أو تتسع المنطقة المذكورة إعتمادا على الدرجة التي تفوق فيها الاغراءات على الأعباء والتضحيات التي تحدد تبعية الفرد للتنظيم . ولما كانت كفاية التنظيم تتأثر بدرجة قبول الأفراد للأوامر ، فان فى انكار سلطة الاتصال فى التنظيم تهديدا لمصالح كل الأفراد الذين لايحصلون على المزايا إلا من ارتباطهم بالتنظيم ، اللهم الا إذا كان قبولهم لهذه الأوامر مستحيلا . ووفقا لذلك ، يوجد دائما شخص فعال بين المساهمين يهتم بالحفاظ على سلطة كل الأوامر التي تقع داخل منطقة قبولهم . ومن وظيفة التنظيم غير الرسمى — اثارة هذا الاهتمام[1] . بحيث يؤثر الفهم المشترك أو الادراك الذى يصل إليه التنظيم على أساس غير رسمى فى إتجاهات الأفراد ويجعلهم يعزفون عن الشك فى كل سلطة تقع داخل أو بالقرب من منطقة القبول . ويتمثل التعبير الرسمى عن هذا الفهم المشترك فى التوهم بأن السلطة تجىء من أعلى إلى أسفل ومن العام إلى الخاص . وتسبب هذا الوهم فى أن سلم الأفراد بامكانية

---

(1) Ibid., pp. 634–635.

قبول أوامر الرؤساء ، ومكنتهم من إصـــدار قراراتهم بدون توقع تجشمهم الاحساس بعـدم صلاحيتهم الشخصية أو فقد مكانتهم بين زملائهم . وإذا كان التحليل السابق يتناول الجانب الذاتى للسلطة . فان الجانب الموضوعى لها يعبر عن طابع الاتصال الذى بفضله تقبـل السلطة . ذلك لأن الاتصال يفترض السلطة ، لأنه ينشأ عنها باعتبارها مصادر للمعلومات فى التنظيم ومراكز للاتصالات فيه ، وبحيث يفقد الاتصال هـذا الافتراض إذا لم يتم فى مجال هذه المراكز . ومن هنا يرجع الناس السلطة إلى الاتصالات الصادرة عن الأوضاع الأعلى، وهى اتصالات تتفق مع ما تتمـيز به الأوضاع المذكورة من سمات . وان كانت السلطة المبنيـة مستقلة عن القدرات الشخصية لشاغل الوضع، وعلى الرغم من أن البعض يسلمون بأن شاغل الوضع قد لايتميز بقدرات شخصية ، وإنما ينظر إلى تصائحه على أنها سليمة نتيجة لما يضفيه عليه وضعه من مميزات . فيطلق على هذا النوع من السلطة ، سلطة الوضع أو المنصب . ولكن لوحظ أن هناك بعض الأفـراد الذين يتميزون بقدرات سامية ، وبغض النظـــر عن وضعهم ، فان معرفتهم وفهمهم يستدعى الإحترام . وقد يرجع الأفراد فى التنظيم السلطة إليهم لهذا السبب ، بحيث يطلق على هذا النوع من السلطة ،سلطة القيادة . وعلى أنه إذا اندمجت سلطة الوضع مع سلطة القيادة ، فان أفـراد التنظيم سيقبلون أوامرها حتى إذا كانت خارج منطقة القبول . ولايمكن الاحتفاظ بهـذه السلطة الموضوعية الا إذا واصل القـادة أو شاغلو الأوضاع وإستمروا فى سعيهم وراء الالمام الكافى بالمعلومات . والخلاصة أن السلطة تعتمد على الإتجـاه الشخصى التعاونى من جانب أفـراد التنظيم من ناحية ، وعلى نسق الاتصال فى التنظيم من ناحية أخـرى ، وبدون نسق الاتصال لايمكن أن تضمن بقاء الإتجـــاه التعـاونى . ويمثـل نسق الاتصال موضوعا جـوهرياً فى التنظيم الرسمى بحيث نجـد أن كل مشكلة أخـــرى تمس الفعالية أو الكفاية ،

تعتمد عليه (١) .

ويحدد نسق الاتصال حجم التنظيمات أو الوحدات والجماعات فى التنظيمات البسيطة . وثمة مجموعة من العوامل تتحكم فى طابع نسق الاتصال باعتباره نسقا للسلطة الموضوعية :

أ — ينبغى أن تكون قنوات الاتصال معروفة بالتحديد أو بعبارة أخرى يجب أن تكون خطوط ومستويات السلطة موضوعة بالتحديد ،عن طريق تعيين كل فرد ، فى وضع محدد بواسطة الاعلانات العامة أو غيرها . .

ب — أن السلطة الموضوعية تتطلب قناة اتصال رسمية ومحددة بالنسبة لكل عضو فى التنظيم . أو بالعبارة الشائعة ، يجب أن يكتب كل شخص تقريره إلى شخص آخر (الاتصال فى أحد الإتجاهات) وأن يخضع كل فرد لسلطة غيره (الاتصال فى إتجاه آخر) .

جـ — يجب أن يكون خط الاتصال مباشراً وقصيراً بقدر الامكان .

د — ويجب أن يتم عادة إستخدام خط الاتصال بالكامل . بمعنى أن يمر الاتصال من الرئيس إلى القاعدة خلال كل مرحلة له فى خط السلطة وتسلسلها . وهو أمر ضرورى لتجنب الاتصالات المتعارضة ، والاضطلاع بالمسئولية .

هـ — ينبغى أن تكون كفاءة الأشخاص الذين يشغلون مراكز الاتصالات كالموظفين والرؤساء والمشرفين ، كفاءة عالية .

و — يجب ألا يعوق خط الاتصال أو يقطعه خط غيره إذا كان على التنظيم أن يقوم بوظيفته .

(I) Ibid., pp. 636-637.

ز — ينبغي أن يكون كل اتصال مصدق عليه .

وإذا كانت بعض المبادىء السابقة الخاصة بأنساق الاتصال، معروفة وواضحة في التنظيمات البسيطة والمعقدة ، فان مبدأ كفاءة القائد يمثل موضوعا شائكا في التنظيم البسيط دون الآخر (١) ..

وعند هذا الحـد يمكن القول مع (هوبكينس) Hopkins أن صياغات فيبر وبرنارد للتصور السيولوجى للتنظيم ، إلى جانب أنهما يمثلان محاولتين رائدتين في نظرية التنظيم ، فانهما يعبران عن وجهتى نظر متغايرتين لانساق السلطة البيروقراطية فى هذه النظرية الحديثة للتنظيمات . ففى وجهة النظر الأولى تعتبر أنساق السلطة البيروقراطية أبنية قوة تعمل بطريقة شبه قانونية وتضفى عليها القيم الرشيدة شرعيتها ويمارسها خبراء مدربون . ويحدد مبدأ التدرج الهرمى العلاقة بين مكانة الوحدة وقوتها كما يحدد شكلها . أما وجهة النظر الثانيـة فان أنساق السلطة البيروقراطية فيها تعبر عن عمليات الاتصال ، وتقوم بوظيفتها لتمد متخذى القرارات بالموضوعات والحقائق المناسبة وتجعـل من يقومون بتنفيذها على دراية بمسئولياتهم . بحيث أنه إذا كانت النظرة الأولى تشير إلى صورة الهرم ، فان النظرة الثانية تعبر عن فكرة العجلة ... ونادرا ما استخدمت الدراسات اللاحقة المفهومين أو النظرتين معا .. ولقد ترتب على الفصل بينهما أنه لم يسر تطور هذه التصورات في اتجاه النظرية المتكاملة حـول السلطة البيروقراطية ، بل ظل كل منهما على حالته الأصلية يفتقر إلى مجموعة مترابطة من المسلمات والمفاهيم والقضايا . ومن ثم ظهرت الحاجة إلى محاولة التوفيق بين وجهتى النظر المذكورتين . وأن تحليل فيبر وبرنارد وتفسيراتهما لثبات أبنية السلطة

---

(1) Ibid., pp. 637–639.

البيروقراطية قد يميط اللثام عن وجود أفكار متماثلة بين النظريتين (١).

فلقد إشترك كلا من فيبر وبرنارد فى النظر إلى مشكلة السلطة على أنهـا مشكلة إمتثال قبل كل شيء ، وفى تحديدها بالطريقة نفسها ، ومن ثم فى اهتمامها بمحددات الأبنية الثابتة لأوجه السلوك الممتثل .. واستخدامها المعايير ذاتهـا فى الحكم على فعالية أنساق السلطة البيروقراطية ، وتعنى إلى الحد الذى تخضع فيه هذه الأنساق لقواعد التنظيم الرسمية والأوامر . وتعتبر القيـم المشتركة موضوعات أساسية فى مفاهيم وتصورات العالمين المذكورين ، بحيث يطبق كلاهما النظرية العامة التى تعتقد أن العناصر الثقافية والدافعية للسلوك تتكامل كل منها الأخرى على مجموعة خاصة من صور السلوك وبخاصة إعطاء الأوامر وطاعتها .. والخلاصة أن ما بين الوجهتين النظر مشتركتين فيما يلى :ـ

يحدد كل منهما السلطة فى ضوء الإمتثال ، ووضع السلوك الممتثل داخـل الأنساق الاجتماعية التى تتسم بالمعقولية والرسمية ، وتعقيد التنظيم . وفى تحديدها فعالية أنساق السلطة فى ضوء إمتثال أعضاء التنظيم لقواعده ، وفى الاتفاق على أسس واحدة للامتثال (٢)

ولقد ثبتت فائدة كل من هذين التصورين فى تحليل التنظيمات ، وأصبح لكل منهما نصيبه من الاتباع . وإن كان البعض قد نظر إليهما على أنهما اتجاهان متعارضان فان البعض الآخر إعتبرهما يكملان بعضهما ، إستناداً إلى أن التنظيمات

(1) Hopkins, Bureaucratic Authority; The convergence of Weber and Barnard, In Sociological Theory; (ed). by, Coser, L., & Rosenberg, B., op. cit, pp. 159-160.

(2) Ibid., pp. 160-163.

تمثل أبنية قوة واتصال ويدفع المشتركين فيها المصلحة الذاتية كما تدفعهم القيمة المشتركة [1].

ثانيا ـ التصورات النظرية فى دراسة التنظيم :

واستناداً إلى هذه الجهود الرائدة ، نجد أنه على الرغم من أن دراسة التنظيم تمثل محورا مشتركا بين عدد من علماء الاجتماع والباحثين فى العلوم المتداخلة . إلا أن كل منهم قد وجه الأنظار إلى موضوعات محددة ووضع بعض القضايا حولها التى تطلبت تدعيما نظريا وامبيريقيا فيما بعد . ولعل هذه الاهتمامات المتباينة كانت سببا فى ظهور عدد من الأطر التصورية حديثا حول التنظيمات، ووجود ذلك القدر الوافر من الدراسات التى تتناول هذه التنظيمات وأبعادها المختلفة بالتحليل والوصف .

ففى هذا الصدد يقرر ماسون هير Haire أن كل الباحثين الذين تناولوا حديثا التنظيمات والكيفية التى تعمل بها ، قد بدأوا من أسس مغايرة نوعا ما ، ودارت فى رؤوسهم موضوعات متباينة تحتاج إلى تفسير . فبدأ أرجيريس C. Argyris بمسلمات عن دوافع الكائنات الانسانية وطريقة تكوينها وتعارضها مع حاجات ودوافع التنظيم . وانطلق وليم فوت هوايت Whyte من ناحية أخرى ، من نموذج وصفى للتنظيم قام على تفاعل ونشاط واحساسات أعضائه ، وهو نموذج مثمر فى تحليل سلوك الأفراد فى التنظيمات من وجهة نظره . أما باك Bakke فقد بدأ بتحديد مفهوم التنظيم الاجتماعى مركزا على طابعه الخاص وأوجه نشاطه وتكامله وموارده ، أو امكانياته . وكان يسعى كذلك إلى تحليل السلوك

(I) Scott, R., op. cit., p. 487.

التنظيمي وبخاصة العمليات التي تربط الفرد والتنظيم معا ، وحـــدود الكفاية والعوامل التي تهدد التنظيم[1] . وكان الموضوع الجوهري عند دابن R. Dabbin هو حالة عدم ثبات instability أنساق السلوك الفردية والتنظيمية ، وسعى وراء وضع خطط واقعية تنهض على إصلاح حالات عدم الثبات هذه ، ورفـع من شأن النظر إلى الجماعة كوحـــدة وظيفية . وبدأ ليكـرت R. Likert بالدوافع الانسانية كما فعل أرجريس ولكنه ركز على فشل التنظيم في إستخدام المعرفة الحاضرة حـول الدوافع وديناميانها . وحاول أن يضـع نظـرية معـدلة للتنظيم والادارة تفيد من هذه المعرفة في تحقيق الكفاية والانتاجيـة . وأنطلق هــير M. Haire من النمو الملحوظ للتنظيمات وشرع يبحث الشام عن العمليات الجوهرية في هذا النمو ، وركز على الضغوط الخارجية والداخلية التي تؤدي إلى الاعتماد المتبادل بين الحجم والشكل والوظيفة [2] . وأتفق شيرمان كروب مـع ماسون هير في هذا المعنى السابق ، حيث قرر كروب أن نظـرية التنظيم أتخـذت نقـاط إنطلاق مختلفة ، فكشفت الطريقة التي تربط بها ماري بيكر فوليت M. P. Follett بين الكل والأجزاء عن تحـيز علي وعضوي . بينما ركـز برنارد وسيمون C. Barnard & H. Simon على النسق الاجتماعي المتوازن الذي يحدد فيه التنظيم إتخاذ القرارات والعلاقات الداخلية . وجمع سيمون ومارش H. Simon & March في تنظيماتها الحديثة بين مفاهيم متباينة من علم النفس ونظرية الجماعة الصغيرة

---

(1) Haire. M., Modern Organization Theory; A Symposium of the foundation for research on Human Behavior; John Wiley & Sons, Inc, New York, 1959. p. 2.

(2) Ibid., p. 2.

والعلاقات الإنسانية فى الصناعة ونظرية إتخاذ القرار وعلم الاقتصاد [1] . والى جانب الملاحظة السابقة التى اتفق عليها كل من ماسون هير وكروب فيما يتعلق بإختلاف الأطر التصوريه فى ميدان التنظيمات نتيجة لاختلاف الأسس التى تبدأ منها نقط انطلاقها ، وأن ذلك الاختلاف قد ورثته نظرية التنظيم الحديثة عن المحاولات الرائدة التى أسهمت فى تقدمها كما أوضحنا ، يمكن أن نشير إلى ملاحظة ثانية اتفق عليها كلا من بلاو وسكوت فبغض النظر عن تلك الأطر التصورية المتباينه والاختلافات الغالبة فى المنظورات المنهجية والأساليب المستخدمة ، فثمة مستويات ثلاث للتحليل استند اليها الباحثون فى التنظيمات [2] .

ويمكن التمييز بينها على النحو التالى :

أهتم بعض الباحثين بتفسير سلوك الفرد داخل سياق التنظيمات ، بحيث نظر الى التنظيم عن هذا المستوى باعتباره بيئة ، ويشرع الباحث فى كشف أثرها على المتغيرات أو العمليات السيكوسسيولوجية كما تنعكس على سلوك الأفراد . وهذا المنظور أو المستوى فى التحليل أطلق عليه : المنظور السلوكى ، وتعد جهود مارش وسيمون ووليم فوت هوايت خير ما يمثله . واتخذ المنظور الثانى من تفسير السمات البنائية والعمليات الاجتماعية التى تميز التنظيمات موضوعاً لاهتمامانه . فقد يركز الباحث الذى يتبنى هذا المنظور على الوحدات الفرعية المتباينة التى يشتمل عليها التنظيم (من جماعات العمل والأقسام ومراتب السلطة ...... وغيرها) . أو قد يدرس متغيرات تحليلية معينة (مثل التخصص والاتصال والتدرج الهرمى) ويحاول فى كلتا الحالتين أن يفسر ميزاتها أو خصائصها

---

(1) Krupp, Sh., Pattern in organizational analysis, Halt & Rinehart& Winston, N. Y. 1964. pp. 86-141.

(2) Scott, R., op. cit., p. 489.

أو قيمها ويكشف عن العلاقات بينها . ويشار إلى هذا المستوى التحليل بإعتباره مستوى التحليل البنائى ، ويمكن أن نجد فى أعمال سيشور Seashore وأدى Udy الأمثلة المناسبة له . وفى المستوى الثالث التحليل يركز الباحث على التنظيم بإعتباره وحدة الدراسة ، وأنه وحدة أيضا فى نسق العلاقات الأكبر . وداخل هذا المنظور قد يختار المحلل ، إما دراسة العلاقة بين تنظيم معين وبيئته الثقافية أو التنظيمية ، كما حاول سيلزنيك فى دراسته السلطة فى تنسى فالى (T. V. A) أن يدرس العلاقات التى تنشأ بين عدد من التنظيمات التى ينظر اليها باعتبارها تكون نسقاً فى حالة اعتماد متبادل كما فعل ليبرسون Lieberson وهذا المنظور فى التحليل قد يطلق عليه المنظور الايكولوجى ecological [١] . وإذا كان بلاو P. Blau قد أدرك الملاحظة نفسها على مبحث التنظيمات الحديث كما ذهب سكوت ، إلا أن الاختلاف بينهما إنحصر فيما أطلقه كلا منهما على هذه المستويات التحليل من مسميات . فنجد بلاو يطلق على المستوى الأول فى التحليل ، تحليل الدور ، وعلى المستوى الثانى ، تحليل الجماعة ، وعلى المستوى الثالث ، تحليل التنظيم . ويشير إلى الموضوعات نفسها التى ضمنها سكوت تحت كل مستوى من المستويات التحليلية المعنية ويهتم بدراستها . وتعتبر الموضوعات التى يدرسها كل مستوى منها مرتبطة فيما بينها إرتباطا وثيقا ، ولا يمكن دراسة عوامل أو موضوعات أحد المستويات بدون الرجوع إلى الموضوعات التى تقف على المستويات الأخرى ، ولكن البحث المنظم لا يستطيع التركيز على كل هذه المتغيرات أو الموضوعات أو العوامل فى الوقت ذاته [٢] .

(I) Ibid, p. 489.

(2) Plau, p., Theories of Organizations; op. cit, p. 303.

ويمكن فى ضوء هاتين الملحوظتين أن نتناول بالعرض والتحليل بعض الأطر التصورية فى النظرية الحديثة للتنظيمات مع الأخذ فى الاعتبار أنه على الرغم أنه يبدو من التعسف فى التمييز بين المستويات الثلاثة فى التحليل ، إلا أنها مستويات يغلب عليها الوضوح ويمكن أن نفيد منها فى تصنيف الأطر التصورية المعنية وتنظيم عرضها .

أ ـ المنظور السلوكى :

إشـــترك بعض الباحثين الذين أسهموا فى النظرية الحـديثة للتنظيمات فى تركيز اهتمامهم على تحليل العمليات السيكوسيولوجية وبيان كيفية إنعكاسها على سلوك الأفراد داخـــل التنظيم . فانصرف إنتباه دوجلاس ماكيرجور D. Mc Greogor إلى دراسة موضـوع الاعتماد بين الرؤساء والمرؤسين داخـل التنظيم واعتقد أنه بناء على هذه العلاقة يشبع الطرفين كثيرا من حاجاتهم . وقدم أمرى Emery محاولة نظرية تشير الى طريقة فى القيادة الادارية تتيح الفرصة لظهور الدوافع تجاه تحقيق أهداف كل من الأفراد والتنظيم . واتخـذ كريس أرجريس C. Argyris من موضوع الصراع بين نسق حاجات الأفـراد ونسق حاجات التنظيم ، وما يترتب عليه من إحباط فى إشباع حاجات الفرد والتقليل من قيمة العمل على تحقيق أهداف التنظيم محورا أساسياً فى اسهاماته . ونظر كل من سيمون ومارش الى عملية اتخاذ القرار باعتبارها الوحدة المناسبة فى دراسة السلوك الانسانى داخل التنظيم ، وحاول وارن بنيس W. Bennis تقديم نموذج شرطى مثالى لتحليل العلاقة بين الرئيس والمرؤوس فى ضوء أنماط متباينه من التنظيمات، ووجه سكوت الانتباه الى ثلاث مجالات هى : دوافع الأفراد أو المشتركين فى التنظيم ، وتأثير الجماعة المرجعية والتنظيم ، على سلوكهم وشخصياتهم ، باعتبارها من أهم المجالات التى ترتبط بسلوك الأفراد داخل التنظيمات .

أ — ففى ضوء نتائج البحوث التى أجريت فى عدد من العلوم الاجتماعية التى تناولت موضوع القيادة ، يشير د. ماكجريجور D. Mcgregor إلى مجموعة من القضايا والمسلمات التى تدور حول النظر إلى القيادة داخل التنظيم باعتبارها علاقة بين خصائص أو سمات القائد واتجاهات وحاجات الاشباع وخصائص التنظيم (الهدف وطبيعة العمل) والوسط الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى توجد فيه . أو بعبارة موجزة تمثل القيادة فى نظره علاقة بين القائد والموقف وهى علاقة دائرية ، حيث تقوم الادارة العليا بانشاء التنظيم ووضع سياسته ، وعندئذ تفرض حدوداً معينة على أنماط القيادة التى يمكن أن تكون مقبولة داخل هذا التنظيم . ولكن من ناحية أخرى قد تؤدى أو يترتب على التأثيرات التى تمارسها المستويات العليا — من تغيير أفراد الإدارة العليا وفلسفتها ، والتأثيرات التى تحدثها المستويات الدنيا ، كتكوين نقابات العمال وحملات المساومة الجماعية ، أو تلك التأثيرات التى تجىء من خارج التنظيم ، كالتغير فى التشريعات الاجتماعية أو ما يطرأ على السوق من تغيرات ... قد يترتب على كل هذه التأثيرات بعض التغييرات فى خصائص التنظيم ، مما قد يتسبب فى إعادة تحديد أنماط القيادة المقبولة داخله ، واستناداً إلى هذه النظرة الموقفية للقيادة يوجه ماكريجور نظر الإدارة إلى بعض الحقائق الهامة فى هذا الصدد . فاذا استطاع التنظيم أن يضع قائمة بالوظائف التى يجب شغلها خلال فترت زمنية مستقبلة ، فلا يمكن تحديد الخصائص الجوهرية لأولئك الأفراد الذين سوف تحتاجهم هذه الوظائف ... ولذا كان على الادارة أن تعمل على توفير رصيد غير متجانس من الموارد البشرية ، بحيث يمكن أن تختار منهم بعد ذلك من يستطيع إشباع حاجاتها المتباينة إلى الوظائف المذكورة [1].

(1) McGregor, D, M.; An Analysis of Leadership; In Readings in industrial and Business Psychology; (ed.) by Karn, H. W, & Gilmer B. V., 2 ed , McGraw-Hill, Company, Inc, N. Y. 1962, pp. 317-320.

ثم ينتقل ماكريجور إلى تناول شروط القيادة الفعالة ، سواء أكانت قيادة رسمية يقوم بها المنفذون أو المشرفون أو ملاحظو العمال — أم كانت قيادة غير رسمية . فنظر إلى العلاقة بين الرؤساء والمرؤسين على أنها علاقة إعتماد متبادل . فيعتمد المرؤس على رئيسه فى إشباع كثير من حاجاته ، بين حاجته إلى الاستمرار فى العمل وإلى الترقية وزيادة الأجر وغيرها من الحاجات الاجتماعية ، مثل الحاجة إلى الأمن . وتمتد علاقة الاعتماد المتبادلة بين الرؤساء والمرؤسين من طبيعة واحدة بغض النظر عن مستوى الفرد فى التنظيم. فيعتمد العمال على ملاحظيهم والملاحظ على مشرف قسمه ، ويعتمد المشرف على مدير المصنع ، والمدير على المدير المساعد للشركة ، والمدير المساعد على مكتب المديرين ... وهكذا . ولكن لا تعتبر علاقة الاعتماد بين أى مرؤس ورئيسه مجرد رابطة وحيدة أو علاقة فى سلسلة العلاقات القائمة .

فاذا كان فى إعتماد المرؤس على رئيسه تحقيقا وإشباعا لحاجته إلى الأمن والطمأنينة على وضعه فى موقف العمل ... هذا إلى جانب كفاحه المستمر من أجل حماية نفسه من أى تهديد حقيقى أو متخيل، إلى جانب ما توفره كل من الإدارة والنقابة من ضمانات. فان للمرؤس حاجة أخرى تتمثل فى الاستقلال إذ يحاول أن يعتمد على نفسه فى الإفادة من مهاراته وقدراته ومن خلال هذه الجهود يشبع حاجته إلى الإستقلال، وتأكيد ذاته (selfe — assertion) . ويعتقد ماجريجور أنه يمكن للمرؤس أن يحقق ويشبع حاجته إلى الشعور بالأمن فى ظل ظروف ثلاثة ، الجو الاجتماعى الملائم ، والمعرفة ، والنظام الثابت . وإذا كانت هذه الظروف ضرورية فهى ليست ظروفا كافية لتحقيق الأمن. ذلك لأن هناك عوامل خارجية تهدد الفرد ، وضغوطاً إجتماعية ومالية ، أو عدم الاستقرار الانفعالى ، كلها قد تجعله يفقد الشعور بالأمن فى موقف العمل . ومن ثم فان الفرد المرؤس

الذى لا يشعر بالأمن فى علاقته برئيسه ، لا يمكن له أن يوفر الأمن لمرؤسيه فى دوره كرئيس . فلا يمكن للاحظ العمال الذى لا يشعر بالأمان أن يوفر الظروف الضرورية للأمان بالنسبة لعماله وهكذا (١) . ولقد مكنت التحليلات المذكورة ، ماكريجور من إعادة صياغة عدد من المبادىء التى تهدف اتجاها جديداً فى دراسة القيادة داخل التنظيم :

أولا : سلم ماكريجور بأن السلطة تمثـــل مبدأ جوهريا فى نظرية التنظيم ويقصد بها السلطة الشخصية أوحق الرئيس فى التمتع بالقوة من خلال قيامه بدوره فى الوظيفة التى يشغلها حتى يمكن له أن يحقق ما تتطلبها من أهداف .

ثانيا : إن علاقة الاعتماد المتبادل بين الرئيس والمرءوس تمثـــل حقيقة هامة أغفلتها النظريات الـكلاسيكية فى التنظيم .

ثالثا : يعد المرؤسون قادرون على تعلم كيفيـة ممارسة التحكم الفعال فى الذات وهذا التحكم يعتبر أحد المؤشرات الهامة إلى النضوج .

رابعا : إذا أمكن الرئيس أن يخلق ظروفا تتيح للمرؤسين فرصـــة اشباع حاجاتهم الخـاصة وتحقيق أهدافهم ، فانه سيدفعهم إلى العمل على تحقيق أهداف التنظيم وتحقيق التكامل اللازم بينهم (٢) .

ب ـــ وكان دافيـد امرى David A. Emery قـد صاغ إطـاراً تصوريا

---

(1) Ghiselli E. E., & Brown, C. W., Personnel and Industrial Psychology, McGraw-Hill Book Company, Inc, New York, 1955. pp. 475-477.

(2) Bennis, W., Leadership Theory & Administrative behavior, Administrative science quarterly, 1959, Dec, pp. 259-301.

يؤكد طريقة فى القيادة الإدارية تمد بالوسائل العملية الفعالة التى تساعد على بلوغ أهداف كل من تنظيم العمل والأفراد داخله. فوضع بعض المسلمات التى إعتبرها تساعد فى فهم هـــذا الإطار وبنائه . حيث نظـــر إلى قيم الأمن والتحصيل والاسهام والشعور بالانتماء ، التى يراها الأفراد متوفرة فى موقف العمـل على أنها تمثل العوامل الأوليـة التى تدفعهم إلى العمل وتحدد اتجاهاتهم نحـو موقف العمل فى جملته ، وقرر أنها قيم ديناميه بمعنى أن أهميتها النسبية قد تتغير من وقت إلى آخر لدى الفـرد ، كما أنها تختلف باختلاف الأفراد والجماعات ـــ وسلم بأن معظم الأفراد فى المجتمع الأمريـكى ـــ أكثر استعداداً لقبول واتباع قراراتهم الخـاصة من توصيات الآخرين ... وأن لـكل تنظيم عمـــل هدف أو أهداف صريحة أو مضمرة ـــ من تقديم خدمات أو توفير بضائع أو غيرها ـــ وهى أهداف دينامية قد تتغير فى محتواها وأهميتها نتيجة لتغير الظروف الداخلية أو الخارجية للتنظيم ، ويكون مدير أحـد أقسام التنظيم مسئولا عن الأهداف الخاصة بقسمه وعن عدم تعارضها مع أهداف التنظيم ككل(١). ثم يضع (إمرى) استناداً إلى هذه المسلمات ، قضية نظـــرية مؤداها « ان الأفراد سيبذلون أقصى جهدهم فى العمـل ، ويساهمون فى التنظيم كـكل . . بغض النظر عن مستوى أو نموذج العمل فيه إذا اعتـبروا الاسهام فى الأهداف العملية لقسمهم بمثابة وسيلة لتحقيق واشباع قيم عملهم الخاصة فى أى وقت ... ومن ثم يحتمل أن يندفعوا نحو تحقيق أعلى مستوى من الإنتاجية » ثم يقـدم طريقة فى القيادة الادارية تعمل على خلق موقف العمل والمناخ السيكولوجى الذى سوف يثير دافعية الأفراد ويحفزهم

---

(1) Emery, D. A., Managerial Leadership through Motivation by objectives; In Readings in industrial and Business Psychology; (edt.) by Karn, H. W. & Gilmer, B. V., Macgraw Hill Book Comp, N. Y., 1962. pp. 329–330.

على بذل أقصى جهد من أجل تحقيق هذا المستوى للانتاجية ، ومن ثم فى تحقيق الاتفاق بين أهداف قسم العمل وقيم العمل لدى الأفراد والجماعات داخله .

وتعتبر هذه الطريقة عملية توسيع دور غير المديرين عن طريق المشاركة فى اتخاذ القرارات والاحساس بالمسئولية ،عملية جوهرية فى تحقيق الضبط والتكامل اللازم بين الأقسام داخـــل التنظيم . حيث نظر إمرى إلى المشاركة فى تحديد الأهداف أو اتخاذ القرارات بشأن الأهداف الموضوعة على أنها ضرورية وتمثل أهم أسس الطريقة المقترحة فى القيادة . فيمكن للمدير أن يعتمد على التوصيات الفردية اوالجماعية لأفراد قسمه فى تحديد هذه الأهداف أو فى انجاز المسئوليات التى تحقق الأهـداف الموضوعة للقسم ، وذلك لأن الأفراد يسقطون قيم عملهم الخاصة على هـــذه التوصيات . وانهم غالبا ما يفضلون فهم وتأييد الأفكار التى ساعدوا فى صياغتها ، وانهم قد يقدمون كل ما يليق ويسهل فى تحقيق هذه الأهداف . وبناء على هذه المشاركة تزداد فرص الوصول إلى الفهم التام والعمل الجماعى الفعال . وثمة مجموعة أخرى من الأسس التى ترتكن اليها طريقة القيادة هذه تساعد فى تنظيم انتاجية الفرد وفريق العمل وترفع من شأنها — وتنحصر فى تقسيم واجبات العمل فى القسم إلى أنصبة تتناسب مع إمكانيات كل شخص حتى يمكن أن يسهم فيها ، ويؤديها على أكمل وجه ، وإلى أنصبة يمكن قياسها فى ضوء معايير محددة ومفهومة لكل من الفرد والقائد ، وتسمح بامكانية المقارنة بين انجاز عمل الفرد وعمل فريقه... وتقويم مدى التقدم تجاه الأهداف. ويعتقد إمرى أن لهذه الطريقة فى القيادة نتائج تنعكس على الانتاجية والاتجاهات الودية للأتباع تجاه قائدهم ، وتجاه التنظيم ككل . ذلك لأن توسيع دور التابع ليشمل المشاركة فى تخطيط وتنظيم وتقدير عمله يعمل على توفير المثير القوى والمناخ المثالى

النمو الشخصي وتحقيق كل من قيم العمل وأهداف التنظيم (١) .

جـ - ويعرض أرجريس C. Argyris نموذجا نظريا يسلم بوجود علم جديد يدرس السلوك الانساني في التنظيمات ويحاول فهمه ، يطلق عليه السلوك التنظيمي Organizational Behavior . ويستند النموذج إلى حقيقة مؤداها أن معظم التنظيمات الاجتماعية تشتمل على عنصرين أساسيين على الاقل، وهما الفرد والتنظيم الرسمي . ويترتب على وجودهما معا ، ظهور مايعرف بالتنظيم الاجتماعي . وإذا رغبنا في تحديد آثار التفاعل بينهما ، لابد من معرفة خصائص كل عنصر منهما . ولهذا بدأ النموذج بتحليل ومناقشة الخصائص الاساسية للشخصية الإنسانية والتنظيم الرسمي ، وترتب عليه استنتاجا فحواه ، تميل حاجات الافراد الاصحاء Healthy في مجتمعنا الامريكي إلى أن تكون غير متفقة مع متطلبات التنظيم الرسمي ، وتمثل المتطلبات الاخيرة مجموعة من الخطط الرسمية . بحيث أنه سوف تشبع كل حاجات التنظيم وفقها ، وبخاصة إذا لم توجد مظاهر للمعارضة ، ولكن هذه الخطط الرسمية ذاتها ، تخلق لسوء الحظ مظاهر معارضة الافراد ، نتيجة لما تتطلبه من سلوك يميل إلى قمع جهود الشخص الصالح سيكولوجيا ويعمل على فشله وهو شخص إذا كان عليه أن يحافظ على حد أدنى من هـــذه الصلاحية ، يحاول أن ينشأ مجموعة خاصة من الخطط غير الرسمية توفر له الفرص التي تقلل من مشاعر الاعتماد والخضوع والتبعية والسلبية لديه تجاه الادارة ، وتقلل من احتمال خضوعه لأى سلوك جائر يبدر عن أحد ممثلي السلطة ، فيزيد من إحتمال وجود الفرصة التي تجعله مسئولا ذاتيا ، ويعتبر عن مشاعره المكبوتة ، ابتداء من العدوان والعداوة حتى التوتر السلبي التي يتسبب فيها التنظيم الرسمي، والقيادة

(I) Ibid., pp. 330–336.

الموجهة ، وتحكمات الادارة وبرامج العلاقات الانسانية غير الصحيحة . . ومن ثم يخلق عالمه غير الرسمي وثقافته وقيمه الخاصة التي يمكن أن يجد فيها مأوى سيكولوجيا ، وسندا ثابتا ، يبقى على امكانية توافقه المستمر وتكيفه مع التنظيم الرسمي والقيادة الموجهة في حالة ثبات . ومن هنا يساعد التنظيم غير الرسمي في أن يخفض من الأسباب الأساسية للصراع والاحباط والفشل . . واستنادا إلى هذا التحليل يمكن أن نستخلص نتيجة مضمونها ، أن السلوك الذي يفرضه التنظيم غير الرسمي على العاملين يعد سلوكا ضروريا ، إذا كان على الافراد الاصحاء أن يحافظون على مستوى أدنى من هذه الصحة ، وإذا كان لابد ان يشبع التنظيم الرسمي متطلباته ، أو بعبارة أخرى ، إذا لم يوجد تنظيم غير رسمي ، قد يجد العاملون أنفسهم مفعمين بالتوتر غير المعلن عنه ، ومن ثم يفقدون كفايتهم الانسانية ، ويصبحون أقرب إلى الأطفال . بحيث أنهم عندما يبلغون هذا الحد ، فانهم لايفقدون مقدرتهم على الانتاج بكفاية نسبية فقط ، وانما يصبحون مشحونين بالتوتر وميالين إلى العدوان ، ويصبح من الصعب فهمهم وتوجيههم . فالتنظيم غير الرسمي ضرورة لابد منها ، ولكن إذا كان فحص التراث قد أدى بنا إلى أن نكشف عن تقدير كثير من المديرين السلوك غير الرسمي ، باعتباره سلوكا غير سليم . وحاولوا التخلص منه من خلال القيادة الموجهة وتحكمات الادارة وبرامج العلاقات الانسانية غير السليمة . فانهم يفعلون ذلك لانهم يميلون بهذا إلى أن يزيدوا من مشاعر الاعتماد لدى العاملين ، والخضوع والتبعية . ولكن يستجيب العاملون إلى سلوك الاداره هذا ، بأن يزيدوا ويقووا من تنظيمهم غير الرسمي ، الامر الذي قد تظهر معه عملية دائرية ؛ إذ يحاول ممثلو التنظيم الرسمي أن يقللوا من شأن التنظيم غير الرسمي . وهذا سلوك يزيد في نظر العاملين من حاجتهم إلى تقوية وتحديد التنظيم غير الرسمي . وبناء على هذا التحليل أيضا ، تظهر نتيجة

أخرى فحواها ، أنه فى كل تنظيم رسمى (وقيادته الموجهة وتحكمات ادارته وبرامج العلاقات الانسانية غير السليمة) تكمن جذور التفكك ، وبينما يحاول التنظيم غير الرسمى أن يكف جزئيا من عملية التفكك هذه . فان التحليل يشير أيضا إلى أنه يمكن باستخدام طرق توسيع مجال الدور والوظيفة Role enlargment وطريقة القيادة المهتمة بالعاملين والقيادة الواقعية يمكن أن يكف من عملية التفكك المقصودة لأن هذه الطرق تميل إلى التقليل من مشاعر الإعتماد والخضوع والتبعية ، وتزيد من قدرات كثير من العاملين الأصحاء فى بداية حياتهم المهنية [1].

د — وقدم مارش وسيمون March & simon فى كتابهما المعنون ، التنظيمات Organizations ، نسقا نظريا يمثل صياغة جديدة للنسق التصورى الذى اشترك برنارد Barnard وسيمون فى بلورته من قبل ، وبخاصة مفاهيمها المتعلقة باتخاذ القرار وحل المشاكل والدوافع السيكولوجية والرضا [2] . واستهلا هذه المحاولة باستعراض التراث المتعلق بالسلوك التنظيمى الذى رداه إلى مصادر عديدة ، أبرزها جهود الادارة العلمية ، ونماذج السلطة عند فيبر واتجاه العلاقات الانسانية فى الصناعة ، وجهود علماء السياسة والاقتصاد ، واستطاعا تجميع القضايا التى أثارتها هذه الجهود فى ثلاث مجموعات :

١ — القضايا التى تسلم بأن أعضاء التنظيم بمثابة أدوات سلبية ، قادرين على أداء العمل وقبول التوجيهات ، ولكنهم لا يبادأون بالفعل ، أو يمارسون التأثير .

---

(1) Argris, C., Personality & Organization: The conflict Between system and the Individual, Harper & Brothers: New York, 1957, pp. 229–232.

(2) Krupp, S., op. cit., p. 140.

٢ — القضايا التى نظرت إلى أعضاء التنظيم باعتبارهم يجلبون معهم إلى تنظيماتهم ، الاتجاهات والقيم والأهداف .

٣ — القضايا التى تسلم بأن أعضاء التنظيم هم الذين يتخذون القرارات ويحلون المشاكل(١).

وهذه القضايا خاصة بالسلوك الانسانى داخل التنظيم وتمثل مجموعة من المسلمات تدور حول سمات الكائنات الانسانية والتى يجب أخذها فى الاعتبار عند تفسير سلوكهم فى التنظيم ، وهى قضايا تحرر ثانية تلك المفاهيم الأساسية التى وضعها برنارد أصلا وضمنها كتابه : « وظائف المنفذ » ، وبلورها سيمون فيما بعد فى كتابه « السلوك الادارى » . ولقد أدرك سيمون ومارش هذا المعنى ، عندما ذهب إلى أن نظرية برنارد وسيمون عن حالة التـــوازن فى التنظيم Organization Epuilebrim ، تعبر عن نظرية فى الدوافع ، وعن تقرير الشروط التى يمكن التنظيم فى ظلها أن يدفع أعضائه إلى الإستمرار فى مشاركتهم فيه ، ومن ثم فى ضمان بقاء التنظيم . وعبـــر كل من سيمون وسميثبرج Smithburg وثمبسون Thompson عما تسلم به هذه النظرية جـــدلا فيما يلى :

١ — يمثل التنظيم نسقا من أوجه السلوك الاجتماعية المعتمدة فيما بينها يقوم بها عـــدد من الأشخاص سوف نطلق عليهم المشاركين participants فى التنظيم .

(I) March, J. G., & Simon, H. A., organizations, op. cit., pp. 5–7.

٢ - يقدم التنظيم لكل مشترك اغراءات أو حوافز inducements فى مقابل ما يضيفه إلى التنظيم من اسهامات contributions

٣ - وسوف يستمر كل مشترك ويواصل مشاركته فى التنظيم طالما كانت الاغراءات المقدمة له تفوق الاسهامات المطلوب منه تقديمها .

٤ - تمثل الاسهامات التى تقدمها جماعات المشاركين المتباينة مصدر ينظم أو يحدد التنظيم على أساسها ما يقدمه للمشاركين من اغراءات .

٥ - ومن ثم سوف يستمر التنظيم فى الوجود طالما أنه يتلقى الاسهامات الكافية التى تغطى الاغراءات التى يجب أن يقدمها .

واعتقد كل من سيمون ومارش أن هذه النظرية تطلبت حتى تتخلص من الثرثرة واللغو - وضع مقاييس مستقلة ، لسلوك المشاركين كما يتصلون ويظلون مرتبطين بالتنظيم أو يتركونه ، ولعملية التوازن بين الاغراءات والاسهامات كما يدركها كل مشترك فى ضوء منافعها (utilities) ، فشرعا فى تحديد مفاهيم إسهام المشاركين والاغراءات ومنافعها ، كما إستخدموها فى إطارهما المقترح .. ثم يتقدمان نحو تحليل موضوع المشاركة على مستوى العمال أولا(١) ، فيعتقدان أن هذه المشاركة تنطوى على نموذجين متباينين من القرارات ، القرارات التى يتخذها العمال للمشاركة فى التنظيم ، وقراراتهم الخاصة بالإنتاج ، ويعكس هذان النموذجان من القرارات صورا سلوكية متباينة ودوافع وإدراكات وتأثيرات . حيث يلتحق الأفراد بالتنظيمات وكل منهم قد قرر أن ينتج بالمعدل الذى يتطلبه التنظيم أو على خلافه ، ولقد إستخدما عبارات سيكولوجية التعبير

---

(1) Ibid., pp. 85-93.

عن سلوك إتخاذ القرارات ، مثل المثيرات والاستجابات والموقف والهدف . وذهبا إلى أنه إذا كان لهذه المثيرات نتائج متوقعة ، فلها أيضا نتائجها غير المتوقعة التى تتمثل فى العمليات الباثولوجية . وأعادا جل اهتمامهما إلى تأثير هذه العمليات على التنظيم وأهداف الإدارة العليا ، وأخذا فى إعتبارهما عمليات الضبط والروح المعنوية وعلاقتهـــا بالانتاجية [1] . وهى إهتمامات يضيق المجال هنا عن تناولها بالتفصيل .

ﻫ — ويهمنا أن نشير إلى النموذج المثالى الذى قدمه وارن بنيس Bennis فى دراسة القيادة داخل التنظيم فى ضوء تناوله بالتحليل والنقد للاسهامات التى أضافها عدد كبير من العلماء إلى نظرية التنظيم ، إبتداء من تايلور وفيبر واورويك من ناحية ، واتجاه العلاقات الانسانية ثم جهود ماكوري McMurry وأرجريس C. Argyris وماكريجور Mc Gregor باعتبارهم قد أدخلوا تعديلات عـــلى النماذج النظرية الكلاسيكية وغيرها من ناحية أخرى . واشتركوا فى تبنى إتجاهاتهم للمنظور السلوكى فى دراسة التنظيمات فحاول بنيس رد المشاكل التى واجهت هذه الاتجاهات فى دراسة القيادة إلى خمسة أنماط هى : الاختلاف على أساس وظائف السلطة ، ومصادر القوة ، والأهداف فى مقابل العلاقات ، والطريقة العامة أو الوثيقة فى القيادة ، واتخاذ القرار ، ثم تقدم نحو صياغة نموذجه ، فبدأ بتحديد لمفهوم القيادة باعتبارها العملية التى يشير فيها الفاعل للمرؤوس ، بألا يخرج سلوكه عن الطريقة المرغوبة . واستخلص من هذا التحديد عناصر خمسة هى : يوجد هناك فاعل قد يكون شخصا ذا مكانة محددة أو جماعة ، وتعتمد عملية إشارة الفاعل للمرؤوس إلى سلوك معين ، على مقدرته على التحكم فى الوسائل المناسبة لاشباع حاجاتهم ، أى على نماذج الجزاءات التى يوقعها ومصادر وشرعية

---

(1) Krupp, S., op. cit , pp. 143–145.

هذه الجزاءات. ويمثل المرؤوسون موضوعات عملية الاشارة إلى الطريقة المناسبة، على أن المرؤوسين لا يقبلون هذه الاشارة إلا إذا تحقق شرطـــان ، أن يدرك الفاعل بدقة متطلبات إشباع أو رضا المرؤوسين ، وأن يكون قادرا على التحكم فيها ، وإدراك المرؤوس لهذه القدرة ، وعلى ألا تختلف الطريقة المشار إليها فى السلوك مع عملية التأثير التى يقبلها المرؤوس . وتتعلق الطريقه المرغوبة ببعض الأهداف التى يمكن تحقيقها أو تتمشى مع ما يجب تحقيقه من أهداف . ثم يرد (بنيس) هذه العناصر إلى ثلاثة فقط ، فى تحديده لمفهوم القيادة وهى : الفاعل والذى قد يطلق عليه مفهوم « القائد » . ثم عملية الاشارة أو المقدرة على توقيع الجزاءات ، ويطلق عليها هنا ، « القوة » والسلوك المشار اليه الذى سوف يعبر عنه بمصطلح التأثير . ثم يتقدم نحو نموذجه المثالى : فيفرق بين أنماط أربعة من التنظيمات ويصف ظروفها ، فى ضوء وظائفها الرئيسية ومعيار الكفاية فيها . ثم إختار نمطـــين منها : هما تنظيم حـــل المشاكل والتنظيم المعتـــاد habit and problem solving لبساطتهما وتناقضهما . وحدد بالنسبة لهما الشروط التى يجب أن تتوفر فيما يتعلق بعناصر القيادة الثلاثة المذكورة ، حتى يمكن تحقيق معايير الكفاية المناسبة ، باعتبار هذه الشروط تكون أبعاد النموذج المثالى المقترح ، والتى يمكن الاستفادة منها فى حل المشاكل التى واجهت النماذج النظرية السابقة فى دراسة القيادة داخل التنظيم ، أو باعتبارها إطارا لاختبار الفروض المتعلقة بهذا الموضوع. ووضع بنيس هذه الشروط فى الجدول التالى (١).

---

(1) Bennis, W., Leadership Theory and administrative behavior: the problem of authority; op. cit., pp. 259–300.

القيادة وعناصرها	القـــائد			القوة		التأثير	
نموذج التنظيم	الوظيفة	المسافة	الفاعل	الأساس	الجزاء الموقع	العملية	نموذج الاشباع المتحقق
حل المشـاكل	خلق الظروف التي توفق بين أهداف الفرد والتنظيم	—	دور وشخص	المعونة والخبرة	المعلومات	تحكم في الذات	تقدير الذات
المعتـــاد	وضع وتدعيم معيار الأداء لتحقيق أهداف الجماعة	—	شاغل الدور	شغل الدور والمكانة	الجزاء الاقتصادي	طاعة القائد	اشباع الحاجة الاقتصادية

و — ثم تناول ريتشارد سكوت R. Scott مجالات دوافع المشاركين وتأثير الجماعات المرجعية والتنظيم على سلوكهم وشخصياتهم ، فأشاروا إلى أن مفهوم المشاركين Participants يغطى عددا متباينا من علاقات الارتباط بالتنظيم ، وحدد أربع فئات من هذه العلاقات يختلف فيها المشاركون فى طبيعة إرتباطهم بالتنظيم هم العمال والملاك أو المديرون ، وعملاء التنظيم والجمهور عامة .. وهؤلاء المشاركون يسهمون فى التنظيم فى مقابل ما يقدمه لهم من اغراءات أو جزاءات مباشرة أو غير مباشرة . ثم ينتقل إلى بيان دور الجزاءات فى رضا العاملين (أو المشاركين) . وينتقد (سكوت) التحليل الذى قدمه (بلونر) Blauner الذى يعتبر أن العمال الذين يتمتعون بهيبة كبيرة ، وبعض حقوق التحكم فى ظروف العمل ، ويحظون بالعضوية فى الجماعة المتكاملة ، ويعقدون علاقات طيبة مع زملائهم خارج العمل ، هم أكثر العمال رضا من غيرهم . فينظر إلى هذه الأنماط من المميزات كما حددها بلونر على أنها مضللة . ذلك لأن جزاءات الهيبة والتحكم قد تكون مجزية فقط بالنسبة للفرد الذى يشعر بأنه يستحقها ، وقد يشعر غيره بالذنب وعدم الراحة . ثم يدخل عنصراً آخرا فى العلاقة بين الجزاءات والرضا ، فيشير إلى نتائج دراسة كشفت عن العلاقة بين الحوافز أو الجزاءات ورضا المشاركين والإنتاجية ، أجريت فى إحدى أقسام الانتاج فى تنظيم صناعى صغير الحجم ، حيث كشفت التحليلات السسيومترية عن فروق بين جماعة متماسكة وجماعة من المنعزلين داخل القسم . فقرر أن أعضاء الجماعة الأولى يتلقون جزاءات مواتية ، وهم أكثر رضا ، ويتفق إنتاجهم مع معايير الاداة فى الجماعة . بينما تلقى أعضاء الجماعة المنعزلة جزاءات غير مواتية ، وكانوا أقل رضا كما قل إنتاجهم أو زاد عن المعيار المتفق عليه . وإذا كان الباحثون قد أرجعوا هذه الفروق إلي الإختلافات في الاتجاهات نحو العمل والسلطة بين الجماعتين ، والتى

ترتبط بالاختلافات فى الخلفية الإجتماعية ، فان ثمة نتيجة هامة أشار إليها سكوت تتمثل فى عدم وجود علاقة بين الجزاءات الخارجية - كالصداقة والاستحسان - وبين إنتاجية العاملين فى القسم [1] . ثم يذهب سكوت إلى أن المفتاح الهام لفهم سلوك أى مشارك فى التنظيم يتمثل فى معرفة الجماعة التى يقارن نفسه بها ويسمى إليها كمعيار محدد ، أو بمعنى آخر معرفة الجماعة المرجعية له . فاذا أمكن تحديد إهتمام ملاحظ العمال بالإدارة أو بروقسيه ، فمن ثم تسهل دراسة آثار هذه الاهتمامات المتباينة على سلوكه كمشرف .... وفى تحديد (سكوت) لآثار التنظيمات على شخصيات المشاركين فيها ، ميز بين نوعين من التأثيرات ، تأثيرات تحدثها التنظيمات على أساس شعورى ، أطلق عليها عملية التنشئة الظاهرة ، وتأثيرات تحدثها على أساس غير شعورى وهى ما عبر عنها بمفهوم ، التنشئة الكامنة [2] .

٢ - المنظور البنائى :

ولقد غطى الباحثون الذين اتخذوا من تحليل وتفسير السمات البنائية والعمليات الاجتماعية التى تميز التنظيمات موضوعا لإهتماماتهم ، كثيرا من الجوانب التى أغفلتها الجهود الكلاسيكية فى دراسة التنظيمات . فيرى (سكوت) أنه إذا حددت التنظيمات باعتبارها تجمعات أو أبنية قامت لتحقيق أهداف محددة ، فإنه يمكن أن نميز على ضوء هذا التحديد بين جوانب ثلاثة ممكنة ، أستخدمت فى البحث السسيولوجى لبناء التنظيم ، حيث ينظر الجانب الأول إلى التنظيم بإعتباره أداة لبلوغ الأهداف المحددة ، وإنصرف الإهتمام هنا إلى دراسة معقولية أو فعالية

---

(1) Scott, R., op. cit., pp. 514-651

(2) Ibid, pp. 516-518.

rationality بناء التنظيم ، بمعنى إلى أى حد يكون التنظيم فعالا كوسيلة لتحقيق هذه الأهداف ؟ وكان الجانب الثانى يعتبر التنظيم بناء مهتما بتحقيق هدف goal directed وأن هذا الهدف يحدد بناءه ، ونظر الجانب الثالث إلى التنظيم باعتباره نسقا إجتماعيا يصبح الحفاظ عليه هدفاً فى حد ذاته . وهذه جوانب لا يمكن التوفيق بينها فيما يرى سكوت ، وإنما ينبغى أخذهاما فى الإعتبار ،حتى يمكن فهم التنظيم ، ويسهل وضع نظرية متماسكة حول بنائه (١) . وكانت التحليلات التى أسهم بها ماكس فيبر قد غطت الجانب الأول ، ما أشرنا اليه بالتفصيل سلفا،وإذا كان الجانب الثانى قد نظر إلى التنظيم باعتباره بناء يهتم بتحقيق هدف ، وإن هذا الهدف يحدد بناءه ، ويضطر الباحث أو المحلل إلى أن يعير بعض انتباهه إلى دراسة العلاقة بين التنظيم والبيئة التى يوجد فيها ، الأمر الذى تجاهلته النماذج الكلاسيكية، فإن الجانب الثالث الذى نظر إلى التنظيم باعتباره نسقا إجتماعيا،قد أنطوت تحليلاته على كشف آثار هدف النسق على بنائه،من ناحية،وعلى النظر الى التنظيم باعتباره نسقا فرعيا داخل النسق الإجتماعى الأكبر من ناحية أخرى. تلك النظرة التى جاءت حركة العلاقات الإنسانية فى الصناعة لتضع اللبنات الأولى لها ، ولكنها أغفلت النسق الأكبر ودوره فى تحليلاتها . هذا وكانت النماذج الحديثة التى أعتبرت التنظيم نسقا إجتماعيا ، تنظر اليه على أنه وحدة لها حاجاتها المحددة والتى يجب إشباعها إذا كان لا بد من استمرارها فى الوجود . وتشبع الحاجات بواسطة مجموعة من العناصر التى تعد فى حالة اعتماد متبادل فيما بينهما لدرجة أن التغير فى واحدة منها يحدث تغيرا فى الأخرى . ونظرت إلى إنجاز الهدف كموضوع اهتمام فى الجانب الثانى ، باعتباره أحد حاجات النسق الهامة إلى جانب الحاجة إلى الأبقاء عليه واستمراره فى الوجود . ولقد أضاف هذا

---

(1) Ibid., p. 490.

الجانب فى التحليل البنائى ودعم العناصر غير المعقولة التى أغفلتها الإتجاهات الكلاسيكية ، واصبح هو النموذج السائد فى التحليل السسيولوجى للتنظيمات . ومن هنا كان الإقتصار على عرض المحاولات النظرية والأطر التصورية التى أرتبطت بهذا الجانب الذى ينظر إلى التنظيم باعتباره نسقا اجتماعيا كافيا فى تقديم صورة للمستوى البنائى فى تحليل التنظيمات . فلقد صاغ كل من سيلزنيك Selznick وبارسونز نماذج صريحة تعتبر التنظيم نسقا إجتماعياً . وكان نموذج سيلزنيك ضيقاً بعض الشىء عن نماذج بارسونز ، من حيث تركيز الأول على جوانب التكيف غير المعقولة ، وإستبعاده للجوانب الإقتصادية المعقولة ، وإحاطة نموذج بارسونز لكلا الجانبين [1] . ولقد أطلق جولدنر Gouldner على هذه النماذج ، نموذج النسق الطبيعى The natural system فى مقابل النموذج المعقول فى تحليل التنظيم كما عبر عنه فيبر [2] . أ - ويمكن أن نشير إلى العناصر الجوهرية التى إنطوى عليها الإطار التصورى الذى قدمه سيلزنيك فى دراسة التنظيمات على الوجه التالى :

ثمة قوى جوهرية تشكل الأبنية المنظمة لكل التنظيمات الرسمية على أساس معقول وفعال وأهداف محددة [3] . ويقصد بالتنظيمات الرسمية ، نقابات العمال الحكومات والشركات والأحزاب السياسية وما شابهها ، وهى تنظيم لأفراد من أجل بلوغ الهدف المتفق عليه من خلال تحديد الوظائف والمسئوليات ، ومن ثم

(1) Ibid., pp. 490-510.

(2) Gouldner, A., op. cit., p. 404.

(3) Selznick, P., A Theory of organizational commitments, In Reader in Bureaucracy, (ed. by *Merton* R., (et al), op. cit., p. 104.

فهى نسق من أوجه النشاط المتناسقة أو بمثابة تعبير بنائى عن الفعل المعقول[1]. ويحاول التنظيم الرسمى تعبئة كل موارده أو إمكانياته الإنسانية والفنية فى سبيل تحقيق أهـدافه . ويميل الأفراد داخل هذا النسق إلى مقاومة كل معـاملة لهم باعتبارهم وسائل . وهم يتفاعلون كجماعات ، ويعملون على تحقيق أهدافهم وحل مشاكلهم ، وأكثر من ذلك ينخرط التنظيم فى سياق تنظيمى أكبر ، ومن ثم فهو يخضع لضغوط البيئة التى يجب أن يتكيف معها . ونتيجة لهذا ينظر إلى التنظيم على أنه بناء إجتماعى متكيف ويواجه ما قد ينشأ من مشاكل فى بيئته التنظيمية ، بطريقة مستقلة عن أهدافه الخاصة التى وجد من أجلها .

ويترتب على ذلك أنه قد يظهر هناك بناء غير رسمى داخل التنظيم يعكس الجهود أو أوجه النشاط التلقائية للأفراد والجماعات الفرعية ويتحكم فى ظروف وجودها . وقد ينشأ أيضاً خطوطاً للاتصالات غير رسمية [2] . ويبنى سيلزنيك هذه القضايا على نتائج دراسات وتحليلات روثلسبرجر وديكسون ، وبرنارد C. Barnard وولكر Walker وهندرسون Henderson . وأشار إلى ما يميز هذا البناء غير الرسمى من سمات ، بأنه ينشأ تلقائياً ، وتقوم العلاقات داخله على أسس شخصية وتنطوى على عوامـل الهيبة والقبول داخل الجماعـة ، وروابط الصداقة ، وتهتم العلاقات القائمة فيه على القوة ، بأساليب الضبط [3] .

---

(1) Selznick, Ph. Foundations of the Theory of organization, in, Ame, Soc, Rev., 1948. Vol XIII, No. I, pp. 25-35.

(2) Selznick, P., A Theory of organizational commitments, op. cit., p. 195.

(3) Selznick, P., An approach to A Theory of Bureacracy., in Sociological Theory, edt. by, Coser, L., & Rosenberg, op. cit., p. 478.

ومن ثم سوف يكون البناء غير الرسمى ضروريا وجوهريا فى النسق الرسمى من أجل عمليق التفويض delegation والضبط ذاتيا ، ونتيجة لها . ولما كان من المرغوب فيه أن يتحكم التنظيم فى إستجابات الأفراد ، فإن دراسة التنظيم التلقائى للولاء والمصالح أمر لا مناص منه . ذلك لأن معرفة أبعاد البناء غير الرسمى يفيد القيادة عند التطبيق باعتبارها وسيلة فعالة للاتصال والإقناع .

على أن يتم تحليل هذه الأبنية الاجتماعية التكيفية على ضوء المفاهيم الوظيفية البنائية Structural functional بمعنى ربط السلوك بنسق ثابت من الحاجات والميكانزمات ، بحيث تظهر فى كل بناء مجموعة من الحاجات الأساسية وتنشأ وسائل منظمة للدفاع عنها ذاتيا — ومن ثم يفسر السلوك داخل التنظيم باعتباره استجابة لهذه الحاجات والتكيف مع ما تدخله ميكانزمات الدفاع من تحولات بنائية على التنظيم ذاته . والحاجات المقصودة هنا تنحصر فى حاجات التنظيم وليست حاجات فردية ، وتضم ، حاجة التنظيم ككل إلى الامن فى علاقته بالقوى الاجتماعية والبيئية ، وثبات مستويات السلطة والإتصال والعلاقات غير الرسمية داخلة ، وإستمرار نظامة وإنسجام أدواره .

وأتخذ من تحليل الإنسجام الداخلى فى السلوك داخل التنظيم محورا للدراسة ، فضلا عن كشف أثر تنفيذ السياسة على التنظيم نفسه ، وعلاقتها بالسياسات الاخرى ، كما تركز إنتباهه على الظروف البنائية التى تؤثر السلوك . . . . الخ[1] .

ب — وقدم بارسونز (T. Parsons) نموذجاً آخر لحالة التوازن فى التنظيمات ، التى نظر اليها على أنها أنساق اجتماعية طبيعية ، وهو نموذج يخالف

---

(1) Selznick, Ph., A Theory of Organizational Commitments, op. cit., pp. 195-196.

النموذج المعقول لدى فيبر ، ونموذج سيمون الذى يهتم بالفرد [1] . فــيرى بارسونز أن ميدان التنظيمات يمثل مجالا ممتازا لاختبار نظريته العـامة . ومن ثم حاول أن يطبق إطار هذه النظرية العامة على ميدان التنظيمات . وجاء تحـــديد بارسونز للتنظيمات ليوجز المشاكل الثلاث التى تواجه كل الانساق الاجتماعية فتنطوى التنظيمات الرسمية فيما يرى بارسونز على وحـدات فرعية (أفـــراد وأقسام ووظـائف . . وجماعات مهنيــــة) . ويمكن النظـر إلى التنظيمـات بدورها على إنها وحدات فرعيـة داخـل الانســـاق الاكـبر (كنسق التعليم أو الإقتصــاد) . والمشكلة الاساسيـة هنـا تتمثـل فى الـكشف عن الوسائل التى يمكن بها أن تتفق أوجـــه نشاط الوحدات على أحد هـذه المستويات مع أوجه نشاط الوحدات على المستويات الاخرى وإلى أى حد يتحقق التكامـل بينهما ؟ ونظر بارسونز إلى أوجه نشاط هذه التنظيمات الرسمية بإعتبارهـــا موجهة نحو إنجاز هدف محدد . والمشكلة التى تظهر هنا تنحصر فى تحديد المدى الذى تتفق فيه أهداف نشاط الوحـدات على المستويات المتباينة فيما بينهـا أو تتكامل ؟ ثم قرر (بارسونز) أن التنظيمات يتوفر فيها دون غيرها من الابنية الاخرى ، وسائل لحل المشـاكل ذات الجانبين ، والتى تواجهها فى المحافظـة على أنماط العلاقات الداخلية التى تقيمها من ناحية ، وفى أن تحصل من بيئتها فى الوقت ذاته على كل مايحتاجه بقاؤها واستمرارها من تدعيم وتأييد من ناحية أخرى [2].

---

(1) Plan, P., Theories of organization; op. cit., p. 302..

(2) Landsberger, H. A., Parsons Theory of Organization : In The Social Theories of T. Parsons, (ed.) by Black, M, Prentice-Hall inc, cornell univer, 1961. pp, 214-216.

ولكى نفهم التفصيلات التى انطوى عليها تحديد ووصف بارسونز التنظيمات، من الضرورى أن نشير باختصار إلى مجموعتى المفاهيم الأساسية التى استخدمها فى هذا التحديد والوصف، ونعنى مفاهيم المشاكل الأربع النسق والأزواج الخمسة من متغيرات النمط five pairs of pattern Variables وتنحصر مشاكل النسق فى، التكيف Adaptation (A)، وانجاز الهدف Goal Implemrentation (G)، والتكامل Integration والكمون Latency ويعتقد بارسونز أن الجهود المتزايدة لحل أحد هذه المشاكل تزيد من المشاكل الأخرى، فيزيد حل مشاكل التكيف من مشاكل التكامل والعكس صحيح. وتختلف متغيرات النمط كما عن مشاكل النسق، باعتبارها تمثل مقياسا Scale لقياس المدى الذى يجب أن يكون فيه فعل الوحدة (act) - سواء كان دور فى جماعة صغيرة، أوجماعة صغيرة فى بناء أكبر - فى صالح النسق الأعلى. فاذا كان كل ما هو صالح القسم يوجه أستاذ الجامعة ويساعده على انجاز دوره، فمعنى هذا أن البناء أو النسق هو الذى يوجه دوره. وإذا كان من المتوقع أن يناضل رئيس القسم من أجل قسمه متخليا عن مصالح الجامعة ككل، فان الذات Self هى التى توجه دوره، وليس القسم أو الدور أو الفرد. وفى اللحظة التى يكون فيها هذا الدور موجها فى صالح أى من هذه الانساق، فانه يمكن تحليل هذا الدور فى ضوء المتغيرات الأربعة الأخرى النمط (1).

والواقع أن لهذه المفاهيم كما استخدمها بارسونز عدة ميزات، حيث أنه لم ينظر إلى المشاكل الاربع للنسق باعتبارها تواجه كل الانساق فقط، وانما اعتبرها أيضا أبعادا dimentions يمكن استخدامها فى وصف العلاقات بين الانساق

(I) Ibid, pp. 219-220.

والأنساق الفرعية داخلها. فنجده ينظر إلى العقد المهنى occupational contract والذى من خلاله تحصل التنظيمات على مواردها الانسانية ، على أن له مكوناته التكيفية والتكاملية، وينطوى كل واحد منها عقدفرعى منفصل كما نجد أن حل المشاكل الأربع يأخذ فى نظره صورة التعاقب الزمنى Temporal Sequence ، حيث يؤكد حل أحد هذه المشاكل فى وقت معـين ، دون غيرها ، ثم يركز على حل الأخرى ... وهكذا ، حتى تعود المشكلة الأولى ثانية . واعتقد بارسونز أن الأنساق تنشأ أبنية فرعية تتخصص كل منها فى حل أحد هذه المشاكل ، وكل بناء منها ينطوى على أربعة قطاعات فرعية ... ولقد استخدام بارسونز مفاهيم متغيرات النمط ليس فقط فى وصف وتصنيف العلاقات القائمة، وانما أيضاً فى وصف المعايير التى تحكم العلاقات ، ومن ثم نماذج الإنحراف deviance عن هذه المعايير. فتصف أربعة دوافع أساسية ، والحوافز والجزاءات التى يمكن أن تستخدم فى التحكم فى الاشخاص ...

وحاول بارسونز أن يعيد صياغة نظرية التنظيم فى ضوء هذه المفاهيم ،وبخاصة مفاهيم مشاكل النسق الأربعة. فقرر أن مشكلة المكون (L) تتعلق بتكامل التنظيم مع أنماط قيم الثقافة الأعلى. ويتحقق هذا من خلال تفسير هدف التنظيم تفسيراً يتفق مع قيمة معينة من قيم النسق الإجتماعى الأكبر ، بحيث تدخل قيم النسق الأكبر ضمن عناصر القيم الثقافية لهذا النسق الأصغر (التنظيم) . لأن هذا يحقق شرعية دور التنظيم ومكانته فى النسق الأعلى . وتساعده هذه الشرعية فى ادارة شئونه الداخلية ، وتمكنه من تأكيد أولوية هدفه الخاص على الأهداف الأخرى إذا واجهته ضغوط خارجية [١] .

---

(1) Ibid, pp. 221-228.

وتتعلق مشاكل تكيف التنظيم (A) بتعبئة الموارد وكسبها من البيئة. ويقصد بالموارد، عوامل الانتاج الأربعة، وهي رأس المال والعمل والمقدرة على تنظيمه والاشراف عليه، والأرض. وهي موارد يحصل عليها أساسا من خلال الاتفاقات أو العقود contracts . وتشير هذه العقود إلى الكيفية التي يربط بها بارسونز بين الانساق. بحيث نجد بارسونز يربط بين القطاعات الفرعية للتكيف والقطاع الأكبر للتنظيم، ومن ثم بالمجتمع الأكبر، على أساس القيم .. ويطلق بارسونز على قطاع انجاز الهدف في التنظيم (G) أسلوب الانجاز. ولما كان قطاع الانجاز يشير إلى قطاع القوة في نسق المجتمع الأكبر. فانه يشير في التنظيم إلى قوة power تعبئة الموارد من أجل انجاز الهـــدف. بحيث يتعلق قطـاع انجاز الهدف في التنظيم (Gg) بوضع السياسة الرئيسية الخاصة بكيفية انجاز الهدف وبطبيعة ونوعية المنتج وبالتغير في معدلات التشغيل ومشاكله. ويحتاج التنظيم لانجاز هدفه، وضع سياسة واتخاذ قرارات خاصة بطبيعة التوزيع الداخلي للقوة فيه. أما انجاز أهـــداف التكيف (Ga) فتعالجها قرارات المستويات الدنيا الخاصة بتحديد المسئوليات والموارد المالية بين الأفراد. ويتناول قطاع انجاز أهداف التكامل (Gi) - القرارات المنسقة - الأفراد بخاصة وهم على خلاف الموارد المادية يتميزون بدوافع معينة. ومن ثم يواجه تنسيق أوجه نشاطهم صعوبة أساسية. وهناك وسائل لتحقيق التنسيق تتمثل في صور العقاب والجزاءات والعلاج. وينطوي انجاز هدف الكمون (GL) على القيم بحيث تنطوي هذه القيم عليـــة تحقيق شرعية وسلطة الوسائل والقرارات المتضمنة في القطاعات الثلاثة الفرعية الأخرى لانجاز الهدف.

ويتناول قطاع التكامل (I) الأساليب التي يتكامـــل التنظيم عن طريقها مع التنظيمات الأخرى ونماذج الأبنية المغايرة في النسق الإجتماعي الأكبر. وفي قطاع

التكامل التكيفى (Ia) أشار بارسونز إلى المشاكل التى تنشأ عن وجوب انحياز الأفراد لالتزامات أدوارهم . ويعالج قطاع انجاز الهدف التكاملى (Ig) الحدود المفروضة على القوة والسلطة حتى يبقى على التكامـــل والاتفاق مع الالتزامات الخارجية (١) .

جـ - وازاء هذه الثنائية فى دراسة التنظيمات ، والتى تمثل النظرية الكلاسيكية لدى فيبر طرفها الأول ، وتدور نظـــرية النسق الإجتماعى الطبيعى - كما بدأها كومت وطورها (ميشيل) و (سلزنيك) و (وبارسونز) حول طرفها الآخر . على إعتبار أن الطرف الأول يركز على الجوانب المعقولة فى بناء التنظيم ، وأغفل الطرف الثانى هـذا الجانب ليركز على الجانب غير المعقول فى التنظيم . أو بعبارة أصح ، ليؤكد دراسة التنظيم غير الرسمى . نجد جولدنر Gouldner يحاول أن يتخذ موقفا متميزاً من هـذه النماذج الكلاسيكية والحديثة ، فيحاول أولا التوفيق بينها ، ثم يناقش جوانب القصور التى انطوى عليهـــا كلا النموذجين لينتقل إلى تقديم نموذج جديد ينظر إليه على أنه وسيلة كافية لتحليل ودراسة التنظيمات(٢) . فيقرر أن علماء الاجتماع قد انشغلوا حديثا بدراسة الاستجابات التلقائية وغـير الرسمية داخـــل التنظيم ولم يهتموا إلا قليلا بدراسة أنماط الادارة الرسمية . فلا تزال كثيرا من الدراسات الجـارية والتى استرشدت بنموذج النسق الطبيعى ثابتة عند المستوى الكومتى Comteian .

وينظر هذا النسق إلى تلك السمات المميزة للتنظيم مثل تقسيم العمل والقوانين الرسمية والاعتماد على الخبرات الفنية والمهنية والاستعادة من الهيئات العلمية المنظمة ،

---

(1) Ibid, pp. 229-231.

(2) Gouldner, B., Organizational Analysis; op. cit. p. 404.

باعتبارها سمات طبيعية فى التنظيم ولا تمثل مشكلة . بينما يركز المحلل الذى يأخذ بهذا النسق على دراسة القوى التى تقوض مبادىء التنظيم غير الرسمى وأهدافه ، أكثر من اهتمامه بدراسة القوى التى تدعم الأهداف الرسمية والأبنية البيروقراطية. ولقد سرى فى النسق الطبيعى الاتجاه المحافظ لدى كومت . ولكن على الرغم من أن تركيز النسق الطبيعى على دراسة الميكانزمات التلقائية قد مكنته من أن يقدم اضافته الهامة فى دراسة التنظيمات ، وما سهل فى اكتشاف وتحليل ما أطلق عليه التنظيم غير الرسمى - إلا أن هذا الاكتشاف يشوبه قدر من الغموض(١) . فاذا كان معنى هذا المفهوم (التنظيم غير الرسمى) قد أشار إلى بعض الأنماط مثل أنماط المعتقدات والعواطف والمعايير التى تحددها ويتفق عليها الأفراد على أساس غير تنظيمى ، فضلا عن أنماط أخرى من الأبنية الإجتماعية مثل الشلل cliques التى يكونها من يعملون معا وغيرها . وان المصطلح ذاته قد يستخدم للاشارة إلى العلاقات الأولية . الا أننا نقرر أن كل الأنماط غير الرسمية لاتشتمل على علاقات المودة والصداقة الوثيقة ، وإنما قد تستلزم هـــذه العلاقة بعض صور العداوة والصراع . وقد تحـــدد القيم التقليدية فى المجتمع الأكبر بعض هذه الأنماط ، ويسلم بلياقتها داخل التنظيم ، مثل صور الرعاية التى قد يختص بها المشرف العامل القديم . وقد تحدد القيم التقليدية فى التنظيم ذاته بعض هذه الأنماط غير الرسمية، وقد يشتق بعضها الآخر من التنافس والحصول على السلع أو المعلومات النادرة ... وهذه صور للانماط غير الرسمية التى تجاهلها نموذج النسق الطبيعى . وقد يعزى هـــذا الاغفال إلى ندرة البحوث التى أجريت حول آثار البناء التكنولوجى والإدارى على العلاقات الاجتماعية داخله،وإلى تركيز الجهود على دراسة الادوار

(1) Ibid, pp. 405–409.

المتخصصة الواضحة داخل التنظيم ، بحيث أضحى هذا التركيز يمثل مخاطرة تعرض لها النموذجين المعقول والطبيعى ، وان كان النموذج الأخير قد خفف من هذه المخاطرة بأن اهتم بعض علمائه ببيان الطريقة التى تؤثر فيها الخصائص الاجتماعية للأفراد على قيامهم بأدوارهم وسلوكهم داخل التنظيم . الا أن هناك ثغرة يمكن الإشارة إليها فى هذا الصدد ، تتمثل فى اغفال الطرق التى تؤثر بها الخصائص الدينية والعنصرية والجنسية فى سلوك الأفراد داخل التنظيم ، وما يمكن أن نطلق عليه بالخصائص الكامنة . ومن ثم يحتاج الأمر إلى دراسة هذه الخصائص إلى جانب الخصائص الاجتماعية الظاهرة والأدوار داخل التنظيم لما لها من أهمية فى الكشف عن مشاكل التوتر داخل التنظيم ، وأثرها على حالة الموازنة (1) . وبناء على ما سبق تقدم جولدنر نحو تناول المشاكل التى قد تترتب على التفاعل بين سمات التنظيم باعتباره نسقاً للادارة المعقولة ، وحاجاته إلى وجود تنظيم تلقائى داخله. فاذا كانت سلطة الإدارى تستند فى شرعيتها على الخبرة التخصصية حديثاً ، فان المشاكل تظهر عندما يكون ذلك الادارى على خبرة تخصصية مغايرة لخبرة من يتحكم فيهم من مرؤسين . ومن ثم لايسلم المرؤسين الذين إتسموا بالخبرة فى الهندسة الميكانيكية والكيماوية بسلطة مدير مصنعهم الذى تخصص فى الالكترونيات فقط . . هذا وقد تنشأ مشاكل أخرى عن الصراع القائم بين سلطة رجال التنفيذ والهيئة الاستشارية داخل التنظيم . ويشير (جولدنر) إلى وسيلة التغلب على هذه المشاكل ، بأن يتنازل المدير عن ممارسة الضبط على العمليات الفنية لمرؤسيه ، ويتخذ من نجاح المرؤسين أو فشلهم فى تحقيق أهداف التنظيم محور اهتمامه . . ولكن هذا الأسلوب قد يترتب عليه مشاكل أيضاً ، نتيجة لضغط الرئيس من ناحية على

---

(1) Ibid, pp 410–412.

تحقيق النجاح وإصرار المرؤسين ذوى الخبرة من ناحية أخرى على الأسلوب الفنى المناسب . وإذا لجأنا إلى أسلوب آخر لحل هذه المشاكل ، يشير إلى إهتمام الادارة بالعلاقات الإنسانية فقط، فانه تواجهنا صعوبة أخرى تتمثل فى أن بعض الاداريين ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم خبراء فى العلاقات الإنسانية بالفطرة والميلاد(١) . ويستطرد جولدنر فى بيـــان جوانب القصور فى النموذجين الكلاسيكى والنسق الطبيعى ، ثم يقدم وجهة نظره فى دراسة التنظيمات ، على نحو مفصل ، الأمر الذى يضيق به المجال هنا.

د ـ وكان اميتاى اتزيونى Amitai Etzioni قد حاول تقديم نموذج نظرى يتناول القيادة المزدوجة فى التنظيمات الرسمية ، محققا فكرة طالما راودت كثيراً من الباحثين فى ميدان التنظيمات وخاصة أريك جوزيفسون Josefson ووليم فوت هوايت W. F. Whyte مؤداها أنه لابد من الافادة من نتائج بحوث الجماعة الصغيرة فى دراسة الجماعات داخـــل التنظيمات الرسمية . وكان موضوع القيادة هو الموضوع المشترك بينهم الذى حاولوا تحقيق هـــذا الهدف على ضوء دراساته . فنجد فوت هوايت يعتقد أنه يمكن الإفادة من بحوث الجماعة الصغيرة فى دراسة مشاكل التنظيمات المعقـدة ، حيث بدأ بالاشارة إلى التشويش والخلط الذى ترتب على النتائج المتراكة والمتباينة فى دراسة القيادة أو العلاقات بين الرئيس والمرؤس فى ميدان الجماعة الصغيرة . فاستطاع أن يميز بين بعض الإتجاهات فى هذا الصدد، تلك التى تربط بين القيادة والشهرة التى تعتبر القادة هم الممثلون المسلم بهم فى الجماعة ، أو الموهوبون فنيا . ويقرر أنه لايجب أن تختلط دراسة القيادة على هذه الأسس بالاتجاه الذى يدرس القيادة الاجرائية operational والتى يمكن

(1) Ibid, pp. 413-414.

إستخدام أساليب الملاحظة فى مكان الجماعة وتحليل التفاعل والاستبار فى التعرف عليها . وفى ضوء هـذا التحديد التصورى والمنهجى يتقدم تجاه بيان الطريقة التى يمكن بها الإفادة من نتائج دراسات القيـادة الاجرائية فى الجماعات الصغيرة فى إعادة تصميم بناء التنظيم المعقد . فيرى أنه أمكن لبعض التنظيمات أن تتخذ من القضية القائلة بأن الأفراد يميلون إلى الاستجابة لمن يتفاعلون معهم بصورة متكررة والرموز التى يرونها مراراً ، أساساً لبناء تنظيمها . وضرب مثالا على ذلك ، حيث حاولت شركة سيرز الأمريكية sears أن تعتمد على الأسلوب اللامركزى فى إدارة تنظيمها ، والذى يتوفر فيه للأفراد مزيدا من الحرية فى العمـــل ويكون الرئيس أكثر إهتماما بالأفراد ومساعدتهم فى حـــل مشاكلهم ويمنعهم من ارتكاب الأخطـــاء ويبينهم على كشف مواقف الضعف والقـــوة فى أعمالهم . . . . وهكذا [1] .

أما (أريك جوزيفسون) فقد وجه النظر إلى أهمية دراسة القيادة غـــير الرسمية فى التنظيم ، وإتخذ من تأكيد روثلسبرجر وديكسون وبرنارد وهوايت للوضع الوظيفى والبنائى للقيادة غير الرسمية داخل التنظيمات نقطة انطلاقه . ثم أشار الى قصور التراث من حيث أن دراسة هذا النوع للقيادة لم يعره الباحثون إلا قدرا ضئيلا من اهتمامهم . فقد درس لاسول Laswell التأثير المتبـادل بين شخصية القائد والمنصب ، ودرس كل من مرفى Murphy وماكورى McMurry وماكريجور أثر القيادة التسلطية فى سلوك الأفراد داخل التنظيم وجاء برنارد ليؤكد صورة التنظيمات التعاونية . وظهرت اتجاهات أخرى ودراســـات حالة

(I) Whyte, W, F., Small groups and large organization : In Social psychology at the cross roads (Ed.) by, Rohrer, J., & Sherif, M., Harper & Brothers, Pub, N. Y., 1951, pp. 297–312.

القيادة تكشف عن أثر نماذج معينة من شخصيات القادة فى عمليات وثبات الجماعة والتنظيم .. فاتجهت جهود ليفين وليبيت وهوايت إلى أجواء الجماعة الديموقراطية والاستبدادية . واهتمت دراسات سبيجل Spiegel وجرايتكر Greaker بالقيادة فى الفرق الجوية . ثم أجرى ميلتز Meltzer تجربة تأثير القيادة فى التنظيم . وتناول كل من جولدسون Goldsen ولو low أثر القيادة فى العلاقة بين الإدارة والعمال . وكان لقيادة هتلر تأثيرا على عمليات الجيش الألمانى . وقد قرر جوزيفسون على ضوء هذه الاسهامات ، أن الوصف الكلاسيكى للبيروقراطية والدراسات الميدانية للسلوك فى الجماعة ، قد تجاهلت أثر القيادة غير الرسمية . نتيجة لمبالغة الجهود الأولى فى الاهتمام بالسلوك المعقول ، وتركيز الجهود الثانية على دراسة لنشاط المرؤسين غير الرسمى . وتنطوى هذه الجهود على نتائج ضمنية تتعلق بالقيادة غير الرسمية ولكن لم تتم الافادة منها (١) .. وبناء على اشارة كل من هوايت وجوزيفسون إلى هذه الثغرة حاول اتزيونى أن يقدم تحليلا نظريا شاملا يغطى الجوانب الادائية والتعبيرية للقيادة كما عبرنا عنها بمفهوم القيادة المزدوجة معتمداً على نتائج بحوث الجماعة الصغيرة فيذهب إلى أنه إذا كانت هناك جهوداً أخرى سبقته فى الربط بين دراسة الجماعات الصغيرة والتنظيمات الأكبر ، فان هذا الموضوع واسع ويصعب استنفاده عن طريق توجيه النظر إلى أحد جوانبه فقط . ومن ثم وجد من المناسب تقديم وتحليل متكامل يربط الجماعة الصغيرة بالتنظيمات الكبيرة ، وأضاف عنصراً جديداً فى هذا الربط يتمثل فى الإفادة من الدراسة المقارنة للتنظيمات . وانطلاقا من تحليل بارسونز وبالز parsons — Bales الذى استند إلى نتائج الدراسات التجريبية للجماعات الصغيرة فى المعامل وبعض المواقف الطبيعية ، أشار اتزيونى إلى حقيقة هامة مؤداها أنه لكى تقوم الجماعات الصغيرة

(1) Josafson, E., Irrational Leadership in formal Organization; In Social Force, Dec., 1952, Vol. 31, No. 2, pp. 109–117.

المهتمة بعمل معين بأداء هذا العمل بكفاية ، فإنها تحتاج إلى نوعين من القيادة، على أن يكون هذين النوعين فى حالة تعاون متبادل ... » وهما القيادة المعبرة expressive ذات الاتجاه الاجتماعى الانفعالى ، والتى حققت درجات عالية فى فئات تفاعل معينة مثل اظهار التضامن والسعى وراء المقترحات ، والقيادة الأدائية instromental وتتميز بالاهتمام بالعمل وكانت درجاتها على بنود تقديم المقترحات وإظهار عدم الموافقة ، درجات عالية ... » ومعنى هذا أنه يتوفر لدى الاتباع عموما والقادة بوجه خاص نوازع تعبيرية أو أدائية . وسواء أصبح القائد تعبيرياً أو أدائيا ، فان ذلك جزئيا يعتمد على ميول أعضائه الآخرين ، وفى جزء آخر ، على نوع القياده الذى يكتسبه القائد عندما يشغل دوراً معينا ، ويتفاعل مع قادة من النوع الآخر . وثمة بعض التحديدات قدمها أتزيونى ، قبل أن يشرع فى تطبيق نظرية القيادة المزدوجة على دراسة الجماعات فى التنظيمات المعقدة، فيذهب إلى أن القيادة تعبر عن المقدرة المستندة إلى السمات الشخصية القائد فى تحقيق امتثال الاتباع له . وان القيادة تختلف عن القوة power فى أنها تستلزم التأثير (١) . ويقصد أتزيونى بالتنظيمات الوحدات الاجتماعية المكرسة لتحقيق أهداف معينة . وتحمل التنظيمات المعقدة كثيرا من الخصائص التى حددها فيبر مثل البيروقراطية . وإذا كان البعض قد استخدم مصطلح منشأة establishment للاشارة إلى نفس الظاهرة واستخدم البعض الآخر مفهوم النظام institution للاشارة اليها ، فقد يترتب على هذه المفاهيم قدرا من الغموض ، ولهذا نعتبر مفهوم التنظيم الرسمى يعبر عن قطاع واحد فقط من

---

(1) Etzioni. A., Daul Leadership in complex Organizations." in : American Sociological Review Vol. 30, No. 4; pp. 688-691.

أوجه نشاط التنظيم مثل اللوائح والاتصالات الرسمية ، ومن ثم لا يتساوى مع مفهوم التنظيم ككل . كما يدل مفهوم التنظيم الاجتماعى على مجموعة مغايرة من من الظواهر السسيولوجية تجمع كل أوجه السلوك الانسانى المنظم على أساس اجتماعى.ومن ثم فالتنظيم الاجتماعى يعتبر ميزة أوخاصية للوحدات الاجتماعية (١) وتختلف القوة فى التنظيمات عن نظيرتها فى التجمعات الأخرى حيث تقوم على أساس النظم ، وتتركز فى يد شاغلى الأوضاع أو مراتب الصفوة المسلم بها رسميا وتكمن رموز المكانة والضبط ومن ثم تختلف القوة عن القيادة ، الأمر الذى لانجده فى الجماعات الصغيرة. بحيث أن الفرد الذى يتمتع بقوة مكانته فقط يشار اليها على أنه موظف official وقد يكون قائدا غير رسمى أو كلاهما إذا كان هو القائد الرسمى . وإذا لم يكن موظفا أو قائدا رسميا أو غير رسمى ، فهو يعد تابعا فقط.

ثم ينتقل (اتزيونى) إلى توضيح نقاط ثلاثة ، وصفها بمثابة افتراضات تشير إلى أن الأوضاع التنظيمية للقيادة الأدائيــة والتعبيرية تؤثر فى درجة ضبط التنظيم الجماعة ، وفى درجة التعاون والمشاركه بين نوعى القيادة ، وفى علاقات القـوة بينهما ، فاذا كانت القيادة تستند إلى أوضاع التنظيم فقـــد يسهل هذا من التحكم فى جماعات المشاركين . حيث أن ميل القادة غير الرسميين إلى الولاء التنظيم أقل من ميل القادة الرسميين . ومن ثم كان التنظيم الذى يشغل فيه القادة الادائيون والتعبيريون أوضاعا رسمية يحقق مزيداً من الضبط بين جماعات المشاركين عن غيرهم . أو حتى إذا كان أحد هؤلاء القادة رسميا والآخر غير رسمى ، نتيجة لما يترتب على طبيعة العلاقة بينهما من نتائج غير موائمة وكذلك إذا كان القائدان

---

(1) Etzioni, A., A Comparative analysis of complex Organization; The Free Press of Glenco, Inc, 1960, p. Xi,

يشغلان الأوضاع الرسمية ، فان المشاركة والتعاون بينهم ستكون كبيرة ، عنه إذا شغل أحدهما مثل هذا الوضع دون الآخر ، أو عندما لا يشغل كلاهما الأوضاع التنظيمية ، حيث تدعم المشاركة فى الحالة الأولى بواسطة أساليب التنظيم الخاصة بالإجراءات والقواعد والنظم الداخلية (١). ثم يشير اتزيونى إلى أن العلاقات بين القادة التعبيريين والإداتيين تتأثر بامكانياتهم النسبية التى تعتمد على أوضاعهم فى التنظيم ، والتى تتأثر بدورها بأهداف وبناء الامتثال فى التنظيم . فاذا كانت القوة ومصادرها فى الجماعة الصغيرة لا تؤثر فى العلاقة بين النوعين من القادة ، فان الأمر يختلف فى التنظيم المعقد ، حيث تؤثر القوة التنظيمية الزائدة لواحد من القائدين فى أهداف الجماعة — فاذا تفوق القائد الأداتى يحتمل أن تكون الجماعة مهتمة بالعمل وأدائه وإذا تفوق القائد التعبيرى ، تهتم الجماعـــة بالعلاقات الاجتماعية والانفعالية . وبناء على هذا التحليل يشير (اتزيونى) إلى حقيقة هامة تربط بين تحليل الجماعة الصغيرة وتحليل التنظيم ، مؤداها ، أنه لكى يرفع التنظيم من كفايته لابد أن يمسك قادته زمام السلطة والضبط فى الجماعة ، ويحدد أوضاع القوة حتى يضمن تفوق نوع القيادة المرغوب فيه على الاخر ، بأن يمنحه رموز المكانة الأعلى . ومن ثم ينتقل اتزيونى إلى بيان آثار التنظيمات المختلفة على العلاقات بين القادة التعبيريين والاداتيين . وفى ضوء تصنيف هذه التنظيمات وفقا لأهدافها وحاجاتها إلى تحقيق الامتثال بين المشاركين فيها ، يحاول عن طريق المقارنة بينها أن يكشف عن هذه الآثار . فيقرر أن التنظيمات التى تهدف إلى عزل المنحرفين عن المجتمع — كالسجون والمؤسسات الإصلاحية والمستشفيات العقلية — تتطلب درجـــة امتثال

---

(1) Etzioni, A., Dual Leadership in Complex Organizations, op. cit., pp. 691–692.

منخفضة نسبيا بين نزلائها . وتكون فرصة تحقيق التحكم والضبط فى جماعاتها عن طريق القـادة الذين يشغلون أوضاعا رسمية فيها ، فرصة ضئيلة نتيجـــة للميول العدوانية الكبيرة التى تميز هؤلاء النزلاء تجـــاه التنظيم . الأمر الذى يجعلهم يرفضون كل قيادة عن طريقه . حيث يؤدى الموظفون أدوارهم اعتماداً على القوة.

وإذا نظرنا إلى التنظيمات التى ترمى إلى إعـادة إدماج الأعضـاء فى المجتمع resocialize كالمدارس ومراكز التأهيل ومستشفيات العلاج النفسى وغيرها، نجد أنها تتطلب درجـة امتثال متوسطة . أما التنظيمات التى تهدف إلى انتاج سلع أو تقديم خدمات أو تبادلها ، كالمصانع وعمـال العمل والبنوك ، فانها تستلزم مزيداً من الامتثال من جانب المشاركين فيها . وسواء كانت القيادة فى تنظيمات الإنتاج مقبولة من جماعاتها أم غير مقبولة فانها يمكن أن تقوم بأداء عملها بكفاية . ويخدم تفوق القيادة الأدائية على التعبيرية فى هذه التنظيمات فى تحقيق كفايتها ، وتصـبح الحاجة إلى القيادة التعبيرية فيها حاجـة ثانوية . وبناء على ذلك كله يمكن القول أنه يتميز كل نوع من التنظيمات المذكورة بحاجة مغايرة إلى الضبط بين المشاركين، وفقا لأهدافه ودرجـة الامتثال التى تتطلبها هذه الأهداف ، وبعلاقة مغايرة بين القادة الادائيين والتعبيريين فيها [1] .

هـ ـ ولم يختلف (ليكرت) R.Likert عن أتزيونى عندما اعتمد على نتائج بحوث الجماعة الصغيرة من ناحية ونتائج دراسات أقطاب حركة العلاقات الانسانية روادها ومحدثوها من ناحية أخرى ، فى وضع نظرية مغايرة وجديدة فى التنظيم والادارة. فانطلق ليكرت من تعميمين أساسيين أو مبدأين من المبادىء والطرق التى ينتهجها القادة الذين يحققون نتائج أفضل ، ليعرض ويحلل ويفصل أبعاد

(1) Ibid., pp. 692–695.

نظريته الجديدة . حيث ذهب الى أن نتائج البحوث قد أتاحت لنا فرصة اشتقاق مبدأين :

يتبع المديرون والمشرفون الذين يحققون أعلى انتاجية وأقل تكاليف وأدنى معدل فى تغيير العمل والتغيب وأعلى مستويات الرضا بين العاملين ، نمطاً من القيادة يختلف عما يتبعه المديرون الآخرون .

لم تبذل أية جهود بعد ، تحاول تعميم المبادىء التى تحكم أساليب هؤلاء المديرين ذوى الانتاج المرتفع بصورة متكاملة ، وهذا ماتحاوله النظرية الجديدة.

ويمكن أن نشير بناء على هذين التعميمين ونتائج البحوث المعنية ، إلى نمط عام القيادة التى تحقق أعلى إنتاجية ، يحمل السمات التالية :

رجحان الاتجاهات المؤيدة لأفراد التنظيم تجاه الآخرين والرؤساء والعمل والتنظيم ككل . وهى اتجاهات تعكس درجة ثقة عالية واطمئنان بين الجميع ، وتعبر عن الارتباطات بالمنظمة وأهدافها والاضطلاع بمسئولية تحقيقها .

وتنشأ هذه الاتجاهات عن إشباع دوافع الأنا ، وتمثـــل الرغبة فى تحقيق الاحساس بالقيمة والأهمية الشخصية ، والحاجة إلى الأمن والابتكار وتحقيق الدوافع الاقتصادية ، لدى كل عضو فى التنظيم .

ويكون التنظيم الذى تسوده هذه الاتجاهات نسقاً اجتماعيا تتماسك جماعاته ، ويسمح بالمشاركة فى اتخاذ القرارات الخاصة بالمشاكل المشتركة. ويساعد الاتصال الفعال وتدفق المعلومات المناسبة فى اتخاذ هذه القرارات .

ويتخذ هذا النسق من قياس مستويات الأداء فى التنظيم أساساً للارشاد الذاتى وتحقيق الاتجاهات المؤيدة ، أكثر مما يستخدم فى الرقابة وممارسة السلطة ،

ويستعين فى ذلك بالامكانيات الفنية — من دراسة الوقت والحركة والميزانية والرقابة المالية (١) .

ويرى ليكرت أنه يمكن فى ضوء نتائج البحوث أن نحدد مبدأ يستند اليه هؤلاء القادة فى تكوين مثل هذه التنظيمات المنسجمة . ويتمثل المبدأ المذكور فى أن القادة ينظرون إلى مرؤسيهم على أنهم كائنات إنسانية أكثر منهم أشخاصا يؤدون عملا أو تروسا فى ماكينة، بحيث ينظر المرؤسون إلى قائدهم على أنه صديق متعاون عطوف حازم لايلجأ إلى التهديد ، يهتم برفاهيتهم ويعدل فى معاملتهم ، ويثق فيهم ، ويعلق نتيجة لذلك كله آمالا كبيرة على مستوى آدائهم ويتوقع منهم أكثر مما يستطيعون . فيعنى برفع مستوى مهاراتهم فى العمل ، ويعاونهم فى الترقية (٢) .

ثم يستطرد (ليكرت) فى بيان تفاصيل سمات نمط القيادة التى تحقق أعلى إنتاجية ، وما تستند إليه من مبادىء فى تحقيق النسق الاجتماعى المتكامل ، منتقيا الامثلة والنتائج التى تدعم وجهة نظره . ثم ينتهى إلى أن نتائج البحوث المستقبلة يمكن أن تكشف عن حقائق قد تعدل من جوانب النظرية الجديدة . ويتناول بعض الاختبارات التجريبية لها .

٣ ـ المنظور الايكولوجى :

ولقد أثار المنظور الايكولوجى فى تحليل التنظيمات جل اهتمامه لبعض المتغيرات التى ميزته عن المنظورين السلوكى والبنائى . ولكن كانت بعض الأطر

---

(١) ليكرت ، أنماط جديدة فى الادارة ، ترجمة عربية اعداد ابراهيم البرلسى ، سجل العرب ، ١٩٦٦ ، من ص ١٨٩ إلى ص ١٩٥ .

(٢) ليكرت ، المرجع السابق ، ص ١٩٥ ، ص ١٩٧ .

التصورية التي استعانت بالتحليل السلوكي أو البنائي قد طالعت بدورها متغير أثر البيئة في التنظيم الذي انفرد بدراسة المنظور الايكولوجي . فأكدت الأطـــر التصورية التي تناولت التنظيم باعتباره أداة معقولة rational على أهميـة العزلة الاجتماعية ، حتى تضمن عـدم تأثير الارتباطات الخارجيـة لأعضائه في سلوكهم داخل التنظيمات (١) . وقررت الأطـر التصورية التي تناولت التنظيم باعتبـاره نسقاً إجتماعياً ، على مستوى التحليـل البنائي ، بأهمية تكيف التنظيم مع بيئته . . وهكذا . بيد أن المنظور الايكولوجي اختص بإبراز جوانب أخرى في تحليـل التنظيمات . فنجد جولدنر في دراسته عن أنمـاط البيروقراطية الصناعية ، يقارن في مصنع الجبس بين المنجم والمصنع . حيث وجد أن العاملين بالمنجم تمكنوا من مقاومة محاولة مدير المصنع إحكام تطبيق القواعد الرسمية وأنه على الرغم من استياء العمال والمشرفين في المصنع إلا أنهم قد استسلموا لمحاولة المدير الأخذ بهذه الأساليب البيروقراطية . وأرجع جولدنر هذه الفروق إلى عوامل عديدة داخل وخارج نطاق العمل . . . فقرر أن عمال المناجم كانوا يعيشون معاً في منشآت متقاربة ويكونون جماعات صغـــيرة من الأصدقاء ، يشربون ويقامرون معـاً ويشتركون في تدعيم قيم مجتمعهم المحلي . أما عمال المصنع فكانوا مبعثرين في كل أرجاء المكان ، ويمثلون لقيم الطبقة المتوسطة . ويقل التفاعـل بينهم في المجتمع المحـلي . وهكـذا أشار جولدنر إلى أثر البيئة المحليـة في سلوك الأفـراد داخل التنظيم . ولكـن جاءت دراسة فيليب سيلزنيك لسلطـة في تنسي فالى Tennsy Valley Authority لتشير إلى علاقة أخرى ، حيث أوضح كيف أن بناء المجتمع يمكن أن يؤثر في أهداف التنظيم فكان مشروع تنس فالى T . V . A يهدف إلى رفع مستوى المعيشة في منطقة عم بهـا الكساد ، عن طريق التحكم في

---

(1) Scott, R., op. cit., p. 520.

الفيضان وتوليد القوة الكهربائية وتشجير المنطقة وتطوير الأساليب الزراعية.. .. واعتبر سلزنيك المشروع تنظيم وضع لتحقيق أهداف محددة ، وإتجه تحليله إلى تكيف هذا التنظيم الجديد مع الظروف المحيطة به . فقرر أن محاولة التكيف مع الضغوط المحلية التى واجهها ترتبت عليها نتائج غير متوقعة ، مما اضطره إلى تغيير أهدافه الأصلية (١) .

مناقشة وتعقيب :

لم توجه المواقف النقدية نظرها تجاه النظرية الحديثة التنظيمات فى حد ذاتها، ذلك لأنه ليس هناك نظرية واحدة حظيت بقبول الباحثين فى هذا الميدان كما أوضحنا سابقا . وإنما إتخذ النقاد مواقفهم من الاطر التصورية التى تناولناها بالتحليل ، وبخاصة اسهامات ارجريس وسيمون ومارش وبارسونز باعتبارهم الاقطاب البارزين فى النظرية الحديثة التنظيمات .

فنجد أن أرجريس Argyris أعتقد فى شخصية كلية تتميز ببعض الحاجات الأساسية التى يمكن وضعها على متصل . وأن الشخصية الصحية ترقى بالمتصل نحو تحقيق الذات . وكانت مفاهيم الشخصية الكلية وتحقيق الذات ،مفاهيم غير واضحة ولقد أعترف (أرجريس) نفسه بهذا الغموض فى تحديدها . بيد أنه غموضا يعيب بناء اسهاماته(٢) .

ويشير (كروب) إلى مجموعة من الصعوبات التى ينطوى عليها إطار الاسهامات والحوافز أو الإغراءات عند سيمون ومارش . فيقرر أنه حتى إذا أمكن قياس الاسهامات والإغراءات من حيث المبدأ ، فان قياسها تطبيقياً قد يترتب عليه

(1) Whyte, W. F., Industrial Sociology; p. 296.

(2) Bennis, W., op. cit., pp, 276–279.

بالضرورة دخول ظروف معينة . وتحدد هذه الظروف مجال الملاحظة . وقد لاتتفق موضوعات الملاحظة مع تصورات الإغـــراءات والاسهامات . فهناك نوعان من الصعوبات التي قد تظهر في قياس أو إختبار قضايا النظرية ، قد تترتب على ما يمكن ملاحظاته في حد ذاته، أو ما يستحيل عزله من ملاحظات في التطبيق وقد تعكس المشاكل التي تنشأ في القياس صعوبات تصورية في النظرية ذاتهـــا. وان المفاهيم عندما لا تكون واضحة فان القياس يكون غير كاف بالضرورة مهما كانت مهارة المجرب . فلقد ظهرت بعض المشاكل عندما حاول مارش وسيمون وضع أساليب لقياس قضايا نظريتها . فنجد أن الإغراءات بإعتبارها أموالا ، يمكن قياسها في وحدات مستقلة عن منفعتها للمشاركين . ويمكن تقدير قيمة المنفعة أيضا بالنسبة لكل مشارك في موقف الإغراءات. ويمكن أيضاً إخضاع الإسهامات القياس . ويتمثل التحديد المعقول لمنفعة الاسهام في قيمة ما يتنازل عنه لفرد من بدائل لكي يقدم إسهامه ، ومن هنا يمكن وضع الاسهامات والإغراءات على محور منفعة مشتركة . ومن هذا التحديد نجد أن البدائل السلوكية المتاحة أمام المشارك وحل المشكلة تعبر عن أمور اقتراحية . . ويرى كروب أن معاييرها لقيـــاس مستوى الرضا ليست لها أي شاهد موضوعي، . . وأعترض على طريقتها في وضع المسلمات الخاصة بوظائف المنفعة . . وهكذا . ثم يؤكد أن نظريات سيمون ومارش ، شأنها شأن نظريات العلاقة الإنسانية في الصناعة والجماعات الصغــيرة تركز على وظيفة الإنسجام في العلاقات داخل التنظيم . فيصف التوازن بين الاغراءات والإسهامات ، حالة التوازن القوية في التنظيم [1]

ويذهب (فوت هوايت) إلى أنه يمكن أن نشير إلى ثلاث ثغرات رئيسية

---

(1) Krupp, S., op. cit., pp. 147-166.

تأخذ على جهود (بارسونز) فى ميدان نظرية التنظيم . فلقـــد أهتم بارسونز بالعلاقات الحدية Bondary relatians ، ويعنى العلاقات بين التنظيم والمجتمع ولم يكن إهتمامه بالسلوك داخل التنظيم اهتماماً كبيراً، ولا ترتبط مفاهيمه بالظواهد التى يمكن ملاحظاتها ، وحذف عدد من العناصر التى يبدو انها جوهرية لبناء نظرية عن التنظيم . . ويضيف فوت هوايت أن جهود بارسونز هذه لم تحقق نجاحاً كبيراً ، حيث لا نجد فيها نظرية عن التنظيم يمكن قبولها . كما أن الأسس التى يجب أن تنهض عليها نظرية التنظيم المعروفة لم يكن لها وجود ، ولكن ليس معنى هذا أن أعمال (بارسونز) لم يكن لها قيمة وانما قدم بارسونز عددا من الأفكار المفيدة للغاية والتى يمكن أن يستخدمها كثير من الباحثين مهما كانت اهتماماتهم النظرية [1] ، فيرجع إلى اطار بارسونز الفضل فيما أشارت اليه مفاهيمه من ظواهر هامة فى نظرية التنظيم ، وعينت مشاكل جديدة للبحث ، والواقع أن اطار بارسونز قد جمع بين ثلاثة مجالات للبحث فى التنظيم لا يجب الفصل بينها هى المجتمع والجماعة والفرد . ولم يغفل على خلاف كثير من علماء الاجتماع أفكار النظرية الإدارية التقليدية كما صاغها أورويك وزملاؤه ، وأخذ بها وضمنها تحديداته القطاع الفرعى الخاص بإنجاز الهدف التكيفى (Ga) ويمثل تركيزه على تأثير البيئة على البناء الداخلى التنظيمات وتأثير طبيعة أهدافها عليه — وتمييز التنظيمات بإنجاز الهدف — وعلى بعض المظاهر الشخصية وغير الرسمية والرسمية للتنظيم بعض سمات اتجاه بارسونز الشمولى فى نظرية التنظيم والذى يستحق كل تقدير.

وعلى الرغم من هذا لم يغطى الاطار الشمولى عند بارسونز بعض الجوانب

---

(1) Whyte, W.F., Parsonian Theory Applied to Organizations, In: The Social Theories of T. Parsons, (ed.) by Black, M., op. cit., pp. 250–262

الجامدة فى التنظيم ، منها التكنولوجيا، حيث لم يتناول تأثير التكنولوجيا على العلاقات فى التنظيم . وإن كان (بارسونز) قد قدم أمثلة لتأثير التكنولوجيا على بناء السلطة فانها كانت إشارات من هنا وهناك ولم يستنتجها من نسقه . ولكن واجه إطار بارسونز الصعوبة نفسها التى واجهت كل علماء النظرية الاجتماعية عندما حاولوا أن يجمعوا المتغيرات الإنسانية سواء كانت تكنولوجية أو جغرافية أو مناخية . وإن المتغيرات التى من هذا النوع يجب أن تحول أولا الى متغيرات اجتماعية قبل أن تعالج بطريقة منظمة فى النظرية الاجتماعية . ويعاب على هذا الاطار أيضاً ، عدم وضوح هدفه الجوهرى ، فهل يعتبر تفسيريا أو وصفياً . أو هو اطار يضع شروطاً لحالة الثبات أم يعد نموذجاً مثالياً ؟ . وكان هناك غموضاً فى تحديد مفاهيم مثل ، القطاع وغيرها . . وعدم وجود رابطة بينها وبين المؤشرات الامبيريقية ، مثل مفهوم التكيف . وجاءت النظرية خالية من العلاقات الوظيفية الافتراضية ، وتركتها على مستوى مجموعة من الفئات والوسائل أكثر منها تنبؤات (١).

---

(1) Landsberger, H. A., Parson's Theory of organizations, op. cit., pp. 232-248

الفصل الثامن

سوسيولوجيا الحراك

مقــدمة

أولا : مفهوم الحراك الاجتماعى.

ثانيا : طبيعة الحراك وأنواعه .

ثالثا : عوامل الحراك الاجتماعى .

مقدمة

عرضنا فى الفصلين السابقين الى أهم مكونات البناء الاجتماعى ، وهما الجماعات والتنظيم . هذين المكونين اللذين استقل كل منها بموضوعه ومجالات دراساته حتى أصبح يمثل واحداً من فروع علم الاجتماع المعاصر ، هما سوسيولوجيا الجماعات ، وسوسيولوجيا التنظيم .

وإذا كان هذين المكونين ينظران الى البناء الاجتماعى فى ثباته وتوازنه وتكامله ، ولكى نعطى صورة متكاملة لبعض جوانب علم الاجتماع المعاصر . علينا أن ننظر إلى الجانب الدينامى فى هذا البناء . وذلك الذى يتمثل فى اتجاهين أساسيين من اتجاهات دراسة المجتمع ، وهما دراسة ديناميات المجتمع عن طريق مايحدث فى بنائه (وجماعاته) من حراك أو تنقل فردى أو جماعى أو طبقى ، ودراسة ديناميات المجتمع - أيضا - عن طريق مايحدث فى مكوناته من صراع أو ثورة .

حتى أصبح كل من الحراك والثورة يمثل أحد فروع علم الاجتماع المعاصر ، وهما سوسيولوجيا الحراك وسوسيولوجيا الثورة . وانطلاقا من هذا التصور ، نعرض فى الفصل الراهن إلى سوسيولوجيا الحراك من حيث تحديد المفهوم فى فى ضوء علم الاجتماع العام وتوضيح طبيعة الحراك وعوامله ثم نعرض فى الفصل الأخير لسوسيولوجيا الثورة .

أولا : مفهوم الحراك الاجتماعى :

من المسلم به أن الانسان كان ولايزال فى تغير مستمر . والحراك الاجتماعى

هو التغير الذى يحدث فى اتجاه محدد . ولكى تكون ثمة امكانية للحراك يجب ملاحظة الحالة التى يمكن أن تتضمن حركة ، وذلك وفقا للزمن والانتقال من مكان إلى آخر . حيث أن الحراك الاجتماعى شىء متوارث فى الحياة الاجتماعية فكل شخص يتحرك خلال حياته ويتغير من الناحية الفسيولوجية ، كما يتغير من حيث علاقاته الاجتماعية . وعموماً يقال أن أى تغير فى المكانة الاجتماعية يمكن أن يطلق عليه مصطلح « الحراك الاجتماعى » (١) . بحيث يتضمن هذا التحرك انتقال الناس الى أعلى أو أسفل الوضع الاجتماعى ، وذلك لأن كل منهم ينتمى إلى طبقة اجتماعية تسمح لاعضائها بالخروج منها ، كما تسمح لغيرهم بالدخول فيها ، مما ينجم عنه تغير فى المراكز والأوضاع الاجتماعية للافراد (٢).

وفى هذا يذهب ميلر S.M. Miller إلى أن الحراك يتضمن الحركة ذات المعنى فى الوضع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى للفرد أو الطبقة (٣) . ويرى كيرت ماير K. Mayer أن الحراك الاجتماعى عبارة عن « الوضع الذى يشير إلى إمكانية تحرك الأشخاص إلى أسفل أو الى أعلى الطبقة أو المكانة الاجتماعية على هرم الترتيب الطبقى » (٤).

وهذا يعنى أن الحراك الاجتماعى ظاهرة اجتماعية ترتبط بظاهرة أعم وأشمل،

---

(1) Thomas E. Lasswell, class & stratum; N. Y, 1965; pp. 98 – 99

(2) G. Lundberg, Sharsy & Larson, Sociology; N.Y., 1958; p. 508

(3) International Sociological Association; Transaction of the third world corgress of sociology, Vol. III;1956, p. 144

(4) Kurt Mayer; class & seciety, N.Y., 1955, p.32

وهى ظاهرة التغير الاجتماعى Social change التى يتعرض لها الأشخاص أو الجماعات أو الموضوعات الاجتماعية أو القيم الاجتماعية، حيث تنتقل أو تتحول من وضع اجتماعى معين إلى آخر، ومن مكانة اجتماعية معينة الى أخرى، وذلك حسب اختلاف المكان والزمان (١).

ويذهب يونج وماك إلى أن الحراك الاجتماعى يعنى الحركة داخل البناء الاجتماعى، بمعنى تغيير الوضع الاجتماعى فى البناء الطبقى. وقد تكون هذه الحركة فى مكانة الفرد أو الجماعة أو الفئة الاجتماعية ككل. وبصورة أخرى فإن الحراك الاجتماعى ما هو إلا عملية اجتماعية Social Process تشير إلى الحركة داخل البناء الاجتماعى (٢).

أما بيترم سوروكين فيعرف الحراك الاجتماعى بأنه «أى تحول للفرد أو للموضوعات الاجتماعية أو لأى شىء يخلقه أو يكفيه النشاط البشرى، من وضع إجتماعى معين إلى آخر»(٣). بمعنى أنه هذا المصطلح يطلق على قسم من التطور الاجتماعى العام الذى ينحصر — عادة — فى نطاق زمنى معين ولنظام اجتماعى خاص.

وبالإمكان أن نضع تعريفا للحراك الاجتماعى مؤداه أنه: «ظاهرة اجتماعية مرتبطة بظاهرة التغير الاجتماعى، حيث يتعرض لها الأفراد أو

---

(١) د. غريب سيد أحمد، الطبقات الاجتماعية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٢، ص ص ٧٩—٨٠.

(2) Young & Mack, Sociology, p. 213.

(3) Sorokin; Contemporary Sociological theories; N. Y. 1928, p. 748. & also: Social Mobility; N. Y, 1927; p. 133,

الجماعات أو الموضوعات الاجتماعية أو القيم أو السمات الثقافية . ويشير إلى الإنتقال أو التحول من وضع اجتماعى إلى آخر . ومن مكانة Status إجتماعية إلى أخرى . ولكونه ظاهرة إجتماعية فإنه يختلف باختلاف الزمن والمكان، بحيث تتطابق تلك الظاهرة فى المجتمعات المتشابهة ».

ثانيا : طبيعة الحراك الاجتماعى وأنواعه :-

يرى جورج لندبرج أن البناء الاجتماعى فى الولايات المتحدة الأمريكية نظام متفاعل الجماعات مؤقتة على عكس النظام السائد فى كثير من بلاد أوروبا الغربية،حيث توجد فعلا طبقات مستقلة ترمز أو تشير إلى وجود نماذج متباينة من التطور خلال العصور التاريخية . وفى الولايات المتحدة يعتبر الاعتقاد الحر الغير محدود نحو النمو أو التطور فى المجال الاجتماعى واحد من الأسس التقليدية. وقد شهدت هذه البلد باستمرار أكثر الحركات التاريخية ، إذ أتى من أوروبا ملايين الأشخاص كزارعين مبتدئين إرتقوا فى المجال الاجتماعى أو ارتقى أبناءهم . وتعرف عملية الارتقاء هذه بالحراك الاجتماعى ، أو بتعبير أكثر دقة هى عملية حراك رأسى يشير إلى حركة الفرد إلى أعلى أو أسفل فى البناء الاجتماعى مما ينجم عنه تقدم المركز أو المكانة الاجتماعية أو تخلفهما (1).

وإذا تعمقنا وجهة النظر الاشتراكية إلى الحراك الاجتماعى ، فإننا نجد أن علماء الغرب يرون أن كل حراك إجتماعى يحدث فى المجتمعات بالنسبة للأفراد أو الجماعات ، كان حراكا أفقيا ، فهم يفهمون أن الحراك عبارة عن إنتقال من مكان لآخر ، وبذلك يبتعدون عن فهم المعنى الحقيقى للحراك الاجتماعى الذى

(1) Lundberg el. al.; Sociology, p. 323

يشير إلى الصعود والهبوط فى المكانات الاجتماعية بقصد تقريب الفوارق بين الطبقات ، وذلك على أساس تكافؤ الفرص المتاحة .

إن الحراك الاجتماعى الحقيقى يعبر عن دينامية المجتمع ويستجيب لكل التغيرات التى تحدث نتيجة لتغير أبعاد العلاقات وتقريب الفوارق والتمايزات الطبقية .

ولهذا يذهب كثير من علماء الغرب إلى أن الحراك الاجتماعى هو حركة الأفراد أو الجماعات من وضع إجتماعى إلى آخر مع عدم وجود إختلاف فى الدرجات بين الوضعين. فالذى يترك مهنة كهربائى ليعمل ميكانيكيا، يعبر عن حركة أفقية .حيث أن الوضعين يحتاجان نفس الجهد تقريبا، وينالان نفس الأجر ويحملان نفس القدر من المكانة والاعتبار داخل بناء المجتمع المحلى[1]. وبذلك فقد يحدث الحراك الاجتماعى وتكون هناك عملية تغير فى وضع الفرد ، مع أن هذا التغير عبارة عن حركة أفقية داخل نفس الطبقة الاجتماعية .

وليس من الغريب أن كثيراً من الظروف والبناءات الاجتماعية نفسها تحمل كل المظاهر الاستاتيكية والديناميةلأنساق التدرج الطبقى . وربما يكون ذلك داعيا لما ذهب إليه سوروكين حينما أوضح أن« قنوات » الحراك الاجتماعى بمثابة مصفاة لضبط عملية الحراك ذاتها [2]. ويحدد سوروكين بعض الأشكال أو الصور الهامة للحراك الاجتماعى فى كتابه « النظريات الاجتماعية المعاصرة » وكتابه « الحراك الاجتماعى » على هذا النحو :ـ

---

(1) Young & Mack, Sociology & Social life, p. 213.

(2) Bernard Barber, Social Stratification, N. Y.; 1957; pp. 358–359.

١ ـ الحراك الاقتصادي		Economical Mobility
٢ ـ « المهنى	«	Occupational
٣ ـ « السياسى	«	Political
٤ ـ « الثقافى	«	Cultural
٥ ـ « اللغوى	«	Languistic
٦ ـ « الدينى	«	Religions
٧ ـ « العقلى	«	mental
٨ ـ « الايكولوجى	«	Ecological
٩ ـ « الصناعى	«	industrial

وقد يكون الحراك أفقيا بمعنى إنتقال الظاهرة الثقافية من الشخص أو الجماعة إلى شخص أو جماعة أخرى متشابهين أو متطابقين . وقد يكون رأسيا إذا مرت هذه الظاهرة الثقافية من أعلى إلى أسفل أو العكس . وقد يكون توسطيا إذا ظلت مراكز الناس وأوضاعهم عند الحراك غير محدودة (١).

ويذهب سوروكين إلى نفس الشيء تقريبا حيث يرى أن الحراك الاجتماعى قد يكون للأفراد أو للموضوعات الاجتماعية ، وهو على شكلين أفقى ورأسى . أما الشكل الأفقى فقد يكون اقليميا أو دينيا أو انتماء إلى حزب سياسى معين أو أسرة معينة أو مهنة معينة دون أى تغيير فى الوضع الرأسى . أما الشكل الرأسى فقد يكون صاعدا أو هابطا . وقد يكون ذلك الصعود والهبوط للفرد

---

(١) د. محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ ، ص ٤٤٦ .

أو الجماعة كـكل ، من حيث أشكال التدرج الطبقي الاقتصادى والمهنى والسياسى (١) ويرى سوروكين أن المقصود بالحراك الأفقى تحـول الفرد أو الموضوع الاجتماعى من جماعه اجتماعية إلى أخرى تقع على نفس المستوى (٢).

ويرى أرنولد جرين أن الحراك الأفقى يشير إلى التغير فى المهنةأو الإقامة دون أن يحدث تغييراً فى المكانة الإجتماعية،ومثال ذلك إنتقال عامل النسيج من مصنع إلى آخر مماثل . بينما يشير الحراك الرأسى إلى التغير والحركة من طبقةأو من مهنة أو مركز قوى إلى غيره (٣) . كما يشمل الحراك الأفقى انتقال الظواهر الثقافية ، والموضوعات المادية ، والعادات ، والقيم ، من اقليم إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى على نفس المستوى من المرتبة الاجتماعية . ومثال ذلك إنتشار موضات (هوليود) بين الطبقات المتوسطة فى كاليفورنيا وأقاليم أخرى (٤).

ويعتبر الحراك الاجتماعى الرأسى الأكثر عمقاً سمة أكثر وضوحا فيمـا يطلق عليه، المجتمعات الديمقراطية، وذلك بمقارنتها مع المجتمعات غير الديمقراطية، فنى المجتمعات من النوع الأول لا يتحدد وضع الفرد الاجتماعى بالميلاد ، حيث تكون ، كل الأوضع الاجتماعية مفتوحة لـكل فرد ، كما أن ليس ثمة التزامات أو قيود دينية أو عقائديه مفروضة عليه . وقد يبدو من ذلك أن هذا الحراك ذا المدى الواسع يحمل المرء يعتقد فى عدم تدرج البناء الاجتماعى لهذه المجتمعات ـ ولـكن هذا المعتقد غير مطابق للواقع (٥) .

---

(1) Sorokin; Social Mobility, p. 136 & also Sorokin, Contemporary Sociological Theories, p. 750.

(2) Sorokin, Contemporary Sociological Theoris, p. 748.

(3) Arnold W. Green, Sociology; Tokyo; 1964, p. 211.

(4) Fairchild; Dictionary of Sociology; pp. 195-196.

(5) Sorokin, Social Mobility, p.138.

ويضع سوروكين بعض الأسس العامة للحراك الاجتماعي الرأسي متمثلة فيما يلي :—

١ - نادراً ما يكون ثمة مجتمع تكون فيه الطبقات مغلقة إغلاقاً محكماً ، أو لا يوجد فيه حراك متخذاً أشكاله الثلاث : إقتصادى وسياسى ومهنى .

٢ - لا يمكن أن يوجد مجتمع يكون فيه الحراك الاجتماعى الرأسى حــــراً بصورة مطلقة . ويكون التحرك من طبقة إجتماعية إلى أخرى غير مجابة بعقبات وصعوبات .

٣ - يختلف عمق وعمومية الحراك الاجتماعى الرأسى من مجتمع لآخر .

٤ - يتحول عمق وعمومية الحراك الاجتماعى الرأسى فى نفس المجتمــــع باختــلاف الزمن .

٥ - يبدو عدم وجود إتجاه دائم ومحدد نحو صعود أو هبوط عمق وتركيز الحراك (١).

ولذلك يعنى سوروكين بتركيز الحراك الإجتماعى إرتباط البعد الاجتماعى الرأسى أو عددالطبقات-اقتصاديا أو مهنيا أوسياسيا - بالفرد من خلال حركته إلى أعلى أو إلى أسفل خلال فترة زمنية محددة . أما عمومية الحــراك الرأسى فتعنى عدد الأفراد الذين يغيرون من وضعهــم الاجتماعى فى إتجاه رأسى خــلال فترة زمنية محددة . كما أن عدد الأفراد المطلق يعطى عمومية مطلقة للحراك الرأسى لدى السكان ، تلك العمومية تناسب بعض الافـراد مع العدد الكلى للسكان الذين يرتبطون بعمومية الحراك الرأسى (٢).

---

(1) Sorokin, Social Mobiltiy, pp. 139–152.
(2) Sorokin, Social Mobility, pp. 136–137.

ثالثا : عوامل الحراك الاجتماعى : -

يتحدد مدى الحراك الاجتماعى فى أى مجتمع عن طريق الأيديولوجية التى تسوده ، وإمكانية التوصل إلى مكانة معينة فى وقت ما ، كما يتحدد - كذلك - عن طريق تغير بناء المكانة خلال الزمن . وقد تعتمد الحركة الاجتماعية على ظروف بيئية أو طبيعية ، وقد تعتمد - كذلك - على ظروف إنسانية، بحيث تبدو وكأنها سلسلة من الجهود الموجهة نحو الوصول إلى هدف محدد .

لذلك فإن الحراك الاجتماعى ، فى إرتباطه الوثيق بالطبقة والمكانة الاجتماعية يتأثر بشدة عوامل تسهله أو تعوقه فى الحدوث . ويمكن أن نحدد هذه العوامل فى الطبقة والتدرج الطبقى ، والمكانة والدور الاجتماعى ، والتحولات السياسية، والآثار الاقتصادية ، والحروب والثورات الاجتماعية . على أن هذه العوامل ليست جامعة مانعة لأسباب الحراك ومعوقاته ، ولكنها أهم العوامل .

(١) الطبقة والتدرج الطبقى :

توجد فى كل مجتمع فئات إجتماعية لا تقوم على روابط الدم مثلما هو الحال فى الأسرة ، كروابط المهنة كالطوائف والنقابات أو الروابط الايكولوجيـــة والمورفولوجية كأهل الحى والقرية والمدينة ، وإنما تقوم على إعتبارات يصطلح عليها « المجتمع » ، وهـــذه الفئات هى ما تسمى بالطبقات الاجتماعيـــة ؛ وتتمايز هذه الطبقات فيما بينها وتختلف فى مستوياتها الاجتماعية ووجودها الطبقى [١] .

فالطبقة الاجتماعية Social Class إذن جزء من المجتمع يتميز عن غيره بطابع

---

(١) د. مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثانى ، ص ٢٧٣ .

المركز الاجتماعي الخاص . أو هي أشكال تلقائية تعبر عن إتجاهات اجتماعية معينة، ونحن نصف الناس لا كأفراد وإنما كطبقات ، ذلك لأن مطالب المدنية الحديثة إنما تقتضي القرارات السريعة بالإضافة إلى القدرات المحدودة للانسان . فالناس يتصرفون بعضهم إزاء الآخر كطبقات أكثر من كونهم أفراداً ، سواء أرادوا ذلك أو لم يردوا . حيث أنه التقدير الاجتماعي المتمايز للادوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد هو الذي أدى إلى ظهور فكرة المركز الاجتماعي (المكانة الاجتماعية) ، أما العملية التي عن طريقها ترتب الجماعات أو الأفراد في سلسلة متدرجــــة من المراكز فهي ما تسمى بالترتيب الطبقي Stratification أو التدرج الطبقـي [1].

ومن ناحية أخرى فان الطبقة عبارة عن مجموعة من الناس تشترك في فئة دخل محددة ،وتتميز بوضع مهني في نظام الانتاج ، وعلى مستوى تعليمي متقارب ، لها أسلوب حياة خاص . وينظر إلى المهنة والتعليم والدخل كمنـــطلق كلي لتحديدها [2].

وفي المجتمعات غير المتطورة ، توجد بين الطبقات حدوداً لا يمكن أن يتعداها الشخص مهما عمل . فثمة مجتمعات يسودها نظام الفئات المهنية أو ما يسمى Regime de castes وقد وجد هذا النظام في بعض جهات الهند وعند المصريين والفرس واليونان والرومان القدامى.ويتلخص انقسام الجماعة إلى فئات مهنية مستقلة بعضها عن بعض بحيث لا تسمح لأبن النجار - مثلا - أن يعمل إلا

---

(١) د. محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ ، ص ٤١٩-٤٢١ .

(٢) د. غريب سيد أحمد ، الطبقات الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧

فى حرفة والده ، كذلك إبن الحداد . والزواج بين هذه الفئات المختلفة محرما تحريماً باتاً . والحراك الاجتماعى فى مثل هـــذه المجتمعات مقيد بل هو صعب وعسير (١) .

هذا ، وتلعب المعتقدات الدينية دوراً أساسياً فى تعويق الحراك الاجتمـاعى وكان هذا واضحا فى بلاد الهند ، حيث كانت البلاد مقسمة إلى طبقات دينية ، هى : —

١ - طبقة البراهمة : وهى طبقة رجال الدين وتمثل رأس الإله .

٢ - الكشاترية Kshatryas وهى طبقة المحاربين وتمثل ذراع الإله براهما .

٣ - الفياز Viayas وهى طبقة التجار والصناع وتمثل فخذ الإله .

٤ - السودرا Soudras العبيد والأرقاء وتمثل قدم الإله .

وعلى أساس التقسيم الطبقى المشار إليه يتفاوت أفراد المجتمع فى الثراء وفى المكانة الاجتماعية والحرية الشخصية والسياسية بمعنى أن الكهنة والبراهمة هم أكثر أفراد المجتمع إمتيازا وهم الذين يستأثرون بالسلطة والنفوذ والجاه معتمدين فى ذلك على أفراد الطبقة الثانية الذين يدافعون عنهم ويشدون أزرهم ويحافظون على هيبتهم الإجتماعية . ووظيفة الطبقة الثالثة فلاحة الأرض وتربية الماشيـــة ومزاولة التجارة والصناعة . أما الطبقة الرابعة فليس لها من وظيفة اجتماعية إلا الأخذ من الطبقات السابقة لا سيما الطبقة الأولى . وقد حرمت الطبقتان الثـالثة والرابعة من الحرية السياسية وليس من حقها الوصول إلى كرسى الحكم أو التمتع بأية سلطة إجتماعية ولا سيما أفراد الطبقة الرابعة ، أى طبقـة العبيـــد والأرقاء

---

(١) د . حسن شحاته سعفان ، أسس علم الاجتماع ، ص ٣٠٤ .

الذين يحرم عليهم وضعهم الإجتماعى مزاولة أى حق سياسى أو مدنى . وبرز العامل الدينى فى تقسيم الطبقات فى مستهل الدعوة المسيحية والإسلامية وفى قيام الخلافات المذهبية والطائفية (١) .

لقد ساد التقسيم المهنى مجتمعات كثيرة ، وبمقتضاه ينقسم المجتمع إلى فئات مهنية مستقلة ومتمايزة . ويحتم هذا النظام وراثه الوضع الإجتماعى ووراثة المهنة. ومع ذلك فقد إختفى هذا النظام نظراً لانتشار الحريات الفردية . مع أن هذا العامل كان سائدا فى العصور القديمة عند بعض الشعوب. كما أن التزايد الغير متوازى للطبقات العليا فى كثير من المجتمعات ، قد أوجد فراغاً فى الأوضاع العليا ، يبرر ضرورة ملء هذا الفراغ بأفراد من الطبقات الدنيا . كما أن ظهور أفراد موهوبون فى الطبقات الدنيا يشغلون بجدارة واستحقاق أعلى المكانات الإجتماعية، وفشل أبناء الطبقات العليا فى ذلك ، لهو من عوامل الحراك الرأسى الأساسية (٢) ولهذا لا يمكن أن يوجد مجتمع ذو طبقات ولا وجود فيه لحركة اجتماعية صاعدة أو هابطه ولايوجد فيه أفـــراد متطلعون الى الصعـود . حيث يتعلق (يرتبط) كل فرد بالطبقة الاجتماعية التى ولد فيها . وهذا النوع من الطبقـات يمكن اعتباره مغلقاً إغلاقا محكما ، ويتسم المجتمع حينذاك بالثبات والاستقرار . وعلى الطرف المناقض فهناك مجتمع تصبح الحركة الرأسية فيــــه ذات صفة عامة وقوية ، ومن هنا يكون الفارق بين كل طبقة وأخرى فارق رقيق جداً ، بحيث يمكن وصل كل طبقة بالتى تليها أو تعلوها . ويمكن اعتبـار هذا النوع من الطبقات الاجتماعية بأنه مفتوح . وبين النوع المغلق والنوع المفتوح من الطبقات

---

(١) د. مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الجزء الأول ، ص ٢٣ .

(2) Young & Mack, Sociology & Social life; pp. 213-227.

الاجتماعية يمكن أن توجد أنواع أخرى عديدة. (١)

هذا ، ويعتبر الوضع الإجتماعي من أهم العوامل التي تعوق الحراك الاجتماعي وتحول دونه والاستمرار والتقدم. وهو أساس بارز في تقسيم المجتمع إلى طبقات متمايزة في درجاتها وأوضاعها . ويرجع هذا العامل إلى الإعتبارات المتعلقة بالحسب والنسب والعصبية والانتماء الأسرى أو الانحدار من طبقات لها أوضاع معترف بها قبلا .

٢ ـ المكانة والدور الاجتماعي:-

إن العلاقات التي تقوم بين الأشخاص تخضع لنظام معين ، ومعنى هذا أن كل شخص يرتبط بالآخر بطرق لها مستويات محددة ، تعتمد في تحديدها على أوضاعهم النسبية . وفكرة الوضع Position التي نستخدمها بصورة منتظمة في حديثنا عن الناس في المجتمع ، بحيث يمكن إعتبار النسق الاجتماعي Social System بأنه مجموعة متسلسلة من الأوضاع المحددة التي تربط جميع أعضاء المجتمع (٢) .

والمكانة ببساطة هي الوضع الذي يشغله الفرد في مجتمع أو في جماعة، بحيث أن كل مجتمع أو جماعة يشتمل على عدة أوضاع ، وكل فرد يشغل أوضاعا عديدة في نفس الوقت الذي لا يقتصر انتماءه إلى جماعة واحدة فقط. كما أن مكانته تختلف وفقاً لنوع الجماعة التي ينتمي اليها . إذ أنه قد يشغل مكانة معينة في جماعة ما غير تلك التي يشغلها في جماعة أخرى . وعلى أي حال فإن المكانة تكتسب عن طريق

---

(1) Sorokin, Contemporary Sociological Theories, p. 749.

(٢) د. محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥٩ .

الانتماء أو العضوية فى جماعات أو مجتمعات [١] . كما يتضمن مفهوم المكانة لدى بروم وسلزنيك معنى أو تصور « الأعلى Higher » و « والأدنى Lower » إذ أن هذين المفهومين يستخدمان لتحديد مكانة شخص ما فى نسق المراتب الاجتماعية ومثال ذلك أن الرقيب فى الجيش له مرتبة أرقى من الجندى، ولذلك يبدو المظهر الكلى للمراتب كما لو كان نسقاً للمكانة Status system ، وهذا التصور يركز على فكرة المرتبة Rank [٢] .

وتحتم المكانات الاجتماعية على شاغليها حقوقا وواجبات يجب أن يمتثلوا لها جميعا . ومثال ذلك الحقوق والواجبات المرتبطة بمكانات الآباء والأبناء والأمهات والعمال والموظفين ومن اليهم . وفى هذا يجب التمييز بين المكانة الرسمية والمكانة المكتسبة ، فالأولى هى تلك التى يحصل عليها الفرد من خلال ظروف فرضت نفسها عليه كسنه أو جنسه أو انتسابه لطبقة معينة ، أما المكانة المكتسبة فهى تلك التى يحصل عليها الفرد بمجهوده الخاص وأعماله وانجازاته . ويطلق البعض لفظة «العوامل السلبية» على الظروف التى تحدد المكانة الرسمية ، ولفظة «العوامل الايجابية» على الظروف التى تحدد المكانة المكتسبة . ومن الملاحظ اختلاف المجتمعات فى درجة تحديدها للمكانات الرسمية أو المكتسبة . إذ تتميز بعضها بازدياد المكانات الرسمية عن المكتسبة ، فكل شخص يولد فى عشيرة أو طبقة يحتل مكانة معينة .

إن التمييز بين المكانة Status والدور Role كما يذهب تالكوت بارسونز

---

(1) Robert Bierstedt, Social Order : an introduction to Sociology; N. Y.,1957., p. 218.

(2) Broom & Sleznick, Sociology, N. Y., 1963, p. 42.

Parsons فى كتابه « النسق الاجتماعى » يشير إلى التمييز بين الادراكات المتبادلة بالفطرة فى التفاعل الاجتماعى بين الأفراد والجماعات . . وكل أهمية للموضوع Object (أى الفرد) تشتق من وضعه فى داخل النسق الاجتماعى . ومن هنا نلاحظ أهمية المكانة بحيث تعبر عن وحدات Units النسق الاجتماعى (١) .

ويعتبر الدور الاجتماعى المظهر الدينامى السلوكى للمكانة . والدور هو الطريقة التى ينجز بها الفرد مستلزمات المكانة أو ما يجب أن يقوم به من سلوك وفعل ، ويتمتع به من إمتيازات وحقوق (٢) . ويمكن أن يساعدنا تصور الدور الإجتماعى فى ادراك العلاقات الاجتماعية كجزء من البناء الاجتماعى للمجتمع .حيث يعرف بأنه نمط السلوك a Pattern of behavior ، مرتبط بوضع اجتماعى معين ومثال ذلك دور الأب أو الموظف أو المدرس ، إذ تحدد الأدوار والواجبات والحقوق عن طريق الوضع الاجتماعى (٣) .

وتعتبر الأدوار مكملة أو متبادلة Reciprocal . فدور الرئيس يتمم أو يكمل دور المرؤوس ، ودور المدرس يكمل دور الطالب . وكلما تحددت الأدوار بوضوح كلما تأكد التآزر والاتساق فى سلوك الأفراد والجماعات . ومن هنا كانت الأدوار ذات صلة وثيقة بتقسيم العمل ، فالمسئولية محددة لكل شخص ، وكلما تعقدت المجتمعات ، كلما ازدادت وتباينت الأدوار فيها (٤) .

٣ ـ التحولات السياسية :

---

(1) Talcott Parsons, The Social System, pp. 25, 26.

(2) Bierstedt, Social order, p. 218.

(3) Broom & Sleznick, Sociology; p. 16.

(4) Broom & Slezniek, Sociology, p. 17.

يرى سوروكين أن التحول السياسي يتركز بصفة خاصة فى فترات الاضطراب الاجتماعي مثل الحـــرب والثورة وحركات الاصلاح . ويضحى التحول السياسي متدرجاً فى الفترات العادية حيثما يكون الصعود خطوة بخطوة، وقد يستمر خلال جيلين أو ثلاث . فلقد كان توارث المكانة الاجتماعية والسياسية من الآباء إلى الأبناء قبل الحرب العالمية ، بيد أن ذلك التوارث لا يظهر فى المجتمعات ذات الطابع الجمهورى (١) ، كما قد يشغل الطفل مستقبلا طبقة سياسية تختلف عن طبقة أبيه ، وتبدو عملية الحراك السياسي من خلال النشاط الذى يقوم به الفرد داخل الأحزاب السياسية (٢) .

ولقد ظل عامـــل « السياسة » أساساً للتقسيم الطبقى فى كثير من المجتمعات القديمة ، حيث كانت مدن اليونان ـ مثلا ـ مقسمة إلى أربعة طبقات : الأحرار والمواطنون والأجانب ثم الارقاء . وكانت الحريتان السياسية والمدنية عاملين بارزين فى السلم الطبقى . وهكذا كان الحال فى زمن الرومان ، إذ لعب هذا العامل دوراً رئيسياً فى تقسيم طبقات المدن التجارية التى ازدهرت فى العصور الوسطى وفى صدر العصور الحديثة . وكان ذلك أكثر وضوحا فى انجلترا (طبقة النبلاء والفرسان ورجال الكنيسة وعامة الشعب) .

ومن الملاحظ أن الدول الرأسمالية قد رسمت لنفسها سياسة ترتكز على التطور التدريجى البطىء ، وتنأى عن عوامل الهدم والطفرة والعنف . وتهدف هـذه السياسة إلى تنفيذ برامج ومشروعات ضخمة سواء كانت طويلة الأجل أو قصيرة، لتخفيف حدة التفاوت الطبقى ، وتضييق المسافة الاجتماعية الواسعة التى تفصل بين

(1) Sorokin, Social Mobility, pp. 481–386.
(2) Ibid., pp. 487–488.

مختلف الطبقات ، والعمل على التقريب بين الدخول المكتسبة ، والاعتراف بضرورة ضمان مستوى معيشة مناسب ، وإتاحة الفرص أمام المواطنين للتثقيف والتعليم والارتقاء الذاتى . ولا شك أن هذه الأمور وما إليها تعتبر أسبابا مواتية للتقدم الاجتماعى .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه السياسة صادفها التوفيق وأخذت الدول تخطو خطوات حثيثة وجريئة نحو تخفيف حدة الفوارق الطبقية وطعمت تنظيماتها السياسية بكثير من عناصر الاشتراكية المعتدلة ، وأصدرت التشريعات الاقتصادية والاجتماعية المحققة لرغبات الطبقة العاملة ، وبذلك حققت قدراً من العدالة الاجتماعية . وقربت المفاهيم والمستويات الطبقية ، وحالت دون انتشار النزعات الهدامة ، وانقذت النظرية الديمقراطية من الانهيار ، وأبقت على أهم مقوماتها وهى الحريات بصفة عامة والحرية السياسية بصفة خاصة . وكان لهذه السياسة فى مجملها دعائم الفضل فى تقدم الحياة الاجتماعية ، بحيث غدا الارتقاء الاجتماعى والانتقال من طبقة إلى أخرى أكثر يسراً ، وأصبح الحراك الاجتماعى أكثر يسراً عن ذى قبل (١) . حيث تتميز المجتمعات الديمقراطية بشدة حراكها الرأسى إذا ما قورنت بغيرها من المجتمعات . فى المجتمعات الديموقراطية لا يحدد وضع الفرد بمولدة ، بل تترك كل الأوضاع الاجتماعية مفتوحة لكل فرد ، بحيث يستطيع الحصول عليها وشغلها ، ولا توجد عوائق شرعية أو دينية للارتقاء أو الهبوط (٢) .

ولقد استوعبت جميع أنواع الفلسفات الاجتماعية فى البلاد الديموقراطية

---

(١) د. مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الجزء الثانى ، ص ٢٧٩-٢٨٠ .

(2) Sorokin; Social Mobility, pp. 137-138.

جانباً كبيراً من تعاليم ماركس.فالمصلحون الاجتماعيون على مختلف المذاهب ، حاولوا الوصول إلى وضع مثل أعلى للمساواة الاجتماعية يمكن أن يكون قابلا للتطبيق العملى ، ويقوم هذا المثل الأعلى على مبدأ اشتراك جميع المواطنين فى حقوق واحدة يتمتعون بها دون تفرقة بينهم . ويدين هذا المثل الأعلى إلى حد كبير إلى تحديد ماركس تحديداً دقيقاً للشكلة الاجتماعية ، وإلى تحليله للجماعة الإنسانية . ومن ثم تظهر المساواة كما تظهر عدم المساواة ، كل منها فى الصورة الحقيقية ، بحيث يكافح الناس فى سبيل تحقيق الفكرة الأولى أو تحقيق الفكرة الثانية (١) .

٤ - الآثار الاقتصادية :

ويقصد بالعامل الاقتصادى تقسيم الطبقات على أساس الثروة والدخل. وكان لهذا العامل أصول بعيدة فى النظم القديمة . كما كان سائدا فى اسبرطة وظهر أثره فى دستور سولون المشرع اليونانى . وقوى شأنه فى العصور الوسطى (عصر الاقطاع) ثم فى بعض القوميات الحديثة، كما كان سائدا فى فرنسا قبيل ثورتها التاريخية ،وبلغ أقصى تركزه فى المجتمعات الصناعية الحديثة لدرجة أن معظم العلماء أصبحوا يضغطون على هذا العامل دون غيره.(٢)

ويلاحظ الحراك الاجتماعى أثناء الأزمات الاقتصادية ، ففى أزمة ١٩٢٩ ، ١٩٣٦ أدى سوء الحالة الاقتصادية إلى إفلاس كثير من أصحاب الأعمال وتحولهم

---

(١) ت. ب . بوتومور ، الطبقات فى المجتمع الحديث ، ترجمة وهيب مسيحه ، ص ٩٤-٩٥ .

(٢) د مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثانى ، ص ٢٧٥ .

إلى طبقة العمال ، وبالعكس تمكن بعض العمال عن طريق الصبر والمثابرة والعمل المتواصل من التحول من طبقة العمال إلى طبقة أصحاب الأعمال (١) .

وترتبط التغيرات فى بناء الأسرة إرتباطا وثيقا بعمليات التصنيع والتحضر . ويرى علماء الاجتماع أن الأسرة النووية هامة وضرورية فى المجتمع الصناعى . ويحدث الحراك الاجتماعى الجغرافى منه بصفة خاصة فقط إذا كانت الأسرة نووية بمعنى عزلتها عن تجمعات القرابة الواسعة وعلاقات الانحـــدار والنسب . وهى كذلك تساعد فى إحـــداث حركة أعضائها من مهنة لأخرى . كما يتجه علماء الاجتماع الامريكان إلى النظر إلى الطبقة الوسطى فى مجتمعهم على أنها نتاج المجتمع الصناعى (٢) .

ان الصناعة فى المجتمع الحديث هى محور النشاط الاجتماعى لأن أغلبية السكان تعمل فيها من ناحية الإنتـــاج . كما أن أغلب إشباع حاجات الناس فى المجتمع يعتمد عليها إعتماداً كلياً من حيث الإستهلاك. فكل فرد فى المجتمع فى حاجة ماسة إلى وظيفة يشغلها ويكتسب منها ، وبفضلها يكون عضوا فاعـــلا له أهميته فى البناء الاجتماعى ، وأن هذه الوظائف كثرت وتعددت تبعا لتقدم الصناعة لأن هـــذا التقدم يقوم على التخصص وعلى قانون تقسيم العمل الذى يكفل المهارة والاتقان فى الانتاج ، وكذلك لايمكن لكل فرد أو لكل هيئة فى المجتمع أن تشبع كل حاجاتها بنفسها وإنما لابد من تجزئه الاعمال ليقوم كل فرد وكل هيئة بجزء معين فقط ولاتتعداه . ومن هنا قال دور كايم إن المجتمعات الصناعية الكبيرة

---

(١) د. حسن شحاته سعفان ، أسس علم الاجتماع ، ص ٣٠٢.

(2) P. C. Lloyed, Africa in Social Change, Penguin Books; Cox & Wymen Ltd, 1967, pp. 171-173;

الوحدة الاجتماعية فيها وحدة عضوية ، أى أن الجماعة الاجتماعية يتكامل فيها النشاط فى تشعباته المختلفة وكل فرد يعمل لاشباع حاجات الآخرين ، وبهذا يقوم التضامن الاجتماعى والتماسك الكلى بين الافراد والهيئات فى المجتمع الحديث باعتباره مجتمعاً كبيراً يتشعب إلى هيئات مهنية متعددة لكل منها تخصصه وهـذا على العكس من المجتمعات المتأخرة فالوحدة والتماسك فيها آلى باعتبار أن المجتمع كله مجتمع صغير فى حجمه لاينقسم إلى هيئات تخصصية ، وإنما هو مجتمع واحد متعدد وظائفه فكل الأفراد فيه ينتجون معا ويستهلكون معا . (١)

وتتمثل أهم مظاهر التصنيع فى تغير وسائل الإنتاج من الشكل اليدوى إلى الشكل الآلى . من المعمل الصغير الذى تسوده روابط عائلية ممثلة فى علاقة المعلم بالصناع وعلاقة هؤلاء جميعا بالصبيان . . . إلى المصنع الكبير الذى تصبح العلاقات فيه بين الأفراد رسمية إلى حد بعيد . ذلك نظراً لما يشيع فيه من تنظيم رسمى : مدير وموجه وجهة ترمى إلى النظام وزيادة الإنتاج بالطريقة التى تبتدعها إدارة المصنع ، وتراها كفيلة لتحقيق أهدافها (٢) .

٥ ـ الحروب والثورات الاجتماعية : ـ

وتعتبر الثورات عاملا فعالا فى الحراك الاجتماعى ، لأنها تضع نظاما سياسيا محل غيره . وتأتى بأناس كانوا من الدرجة الثانية أو الثالثة وتضعهم على رؤوس الأمم ، فيصبحوا بهذا قادتها وزعمائها . كما تعمل الحروب والانتفاضات الاجتماعية والثورات السياسية والصناعية والاقتصادية والدينية وكافة الانتفاضات الاجتماعية

---

(١) د. عبد العزيز عزت ، الاجتماع الصناعى ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٥ .

(٢) د. حسن الساعاتى ، التصنيع والعمران ، ص ٥ .

الأخرى، على سرعة الحراك.[1] وفى أثناء الحروب نلاحظ أن أشخاصا من ذوى الدخل المحدود تهوى بهم تلك الحروب إلى الحضيض ، وينتقلون إلى طبقة الفقراء أو الطبقة الدنيا بعد أن كانوا من الطبقة العليا أو الأثرياء . ونجد عكس ذلك تماما يحدث عند بعض الطبقات التى تفيد من الحروب وتثرى على حسابها وتنتقل من الطبقة الدنيا إلى العليا . ومنهم من يسمون « بأغنياء الحرب » . وهذا هو ماحدث تقريبا فى كل المجتمعات التى اشتركت فى الحربين العالميتين .[2]

وتتميز الثورة عن التطور بأنها عنيفة ، فهى نوع من التغيير الذى ينتاب الجماعة فى حالة ما إذا حدثت ظروف غير منظورة تؤدى إلى حدوث تغيرات عميقة فى نظام أو أكثر من النظم الاجتماعية . كما تتميز الثورة أيضا عن التطور بأنها تحدث فجأة ، إذ لا تتبع الطريق التدريجى الذى يسير فيه التطور . كما تتميز أخيراً بأنها لاتراعى قواعد ولاقوانين ولاتعترف بما فى المجتمع من معايير ومقاييس. ومن هنا جاء اسمها « ثورة » لأنها بمثابة خروج على النظم الاجتماعية السائدة . ونحن نجد شهرة الثورة الفرنسية ترجع فقط إلى ما أدت به من مبادىء سامية جعلتها كل الدول والثورات اللاحقة كمبادىء ومثل يجب تحقيقها، ذلك أن هذه الثورة كانت إنتصاراً للمذهب الفردى individualism ، وكانت الثورة الفرنسية إنتصاراً لمبادىء الحرية والاخاء والمساواة .[3]

---

(1) Encyclopaedia of the social sciences, p. 555.

(٢) د.حسن شحاته سعفان ، أسس علم الاجتماع ، ص ٣٠٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩٨ .

الفصل التاسع

سوسيولوجيا الثورة

مقدمة

أولا : مفهوم الثورة

ثانيا : التفسير النفسى للثورة

ثالثا : التفسير البنائى الوظيفى للثورة الاجتماعية

رابعا : المادية التاريخية وظاهرة الثورة الاجتماعية

خامسا : بعض أسباب انتكاسة الثورة فى العالم الثالث

مقدمة

يعد موضوع الثورة الإجتماعية ميداناً رحباً تلتقي عنده طرق ومسالك كثير من التخصصات الفكرية والعلمية والعملية . فعلى مستوى الفكر يمكن أن يكون نقطة إلتقاء الفلسفة ، ولفلسفة السياسة، والعلوم الإجتماعية . وعلى مستوى الممارسة يمثل أرضية تلتقي عندها العلاقات الدولية والسياسات الدولية . وحتى على مستوى علم الإجتماع ، يمكن أن يكون هذا الموضوع بؤرة تلتقي عندها التحليلات السوسيولوجية بعدد من الظاهرات الإجتماعية الهامة ، كالطبقات ، والصراع الطبقي ، والحرب ، والدولة ، وحتى سوسيولوجيا العلاقات الدولية والتنظيمات العالمية.

وتكاد تلخص لنا بعض الأقوال التاريخية أهمية هذه الظاهرة الإجتماعية ، وأحقيتها بالدراسة والتحليل . فلم يزل العالم يتذكر صيحة « إبراهام لنكولن » الشهيرة التي ذهبت إلى « أن الحق في الثورة هو أكثر الحقوق قدسية» كما لا يزال الباحثون والمشتغلون بالسياسة يتذكرون عبارة « توماس جيفرسون » التي أكد من خلالها على أن الشعب كل الحق في أن يطيح بحكومته إيا كان شكلها ، بمجرد أن يصبح وجودها تهديداً لمبادىء الحياة والحرية والعمل لتحقيق السعادة[1]

وإذا كانت ظاهرة الثورة قديمة من الناحية التاريخية ، لأن الانسان عايشها منذ قرون طويلة ، وما زال يعايشها حتى الآن ، فإن القرن العشرين يمكن أن يطلق عليه عصر الثورة ، نظراً لتعدد الثورات فيه كما ونوعاً ، خاصة في تلك

---

(١) يلينا مورد جينكايا ، مسألة الأمة ، ترجمة رفعت السعيد ، دار يوليو للنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٧٧ .

المنطقة التى يقع بين أحضانها مجتمعنا المصرى — أقصد منطقة العالم الثالث ، التى شهد لها القرن الراهن ثورات متعددة، تراوحت بين ثورات سلمية وأخرى عنيفة، وثورات محلية ، وأخرى تخطت النطاق المحلى إلى القومى ، وربما إلى العالمى ، الأمر الذى أثر فى العلاقات الدولية وموازين القوى فى العالم المعاصر.

كل هذا يبرز وبجلاء أهمية دراسة الثورة وتحليلها ، وفهمها بقصد تحقيق بعض الأهداف الأكاديمية السوسيولوجية ، والمجتمعية ، التى يمكن أن تلقى ولو بصيص ضوء على التطبيق ، خاصة ما يتعلق بقضايا التحول الإشتراكى فى العالم الثالث . فعلى المستوى الأكاديمى والمجتمعى تفيد دراسة الثورة فى الوصول إلى استخلاصات وتعميمات حول السلوك الجمعى ، والفعل الجماهيرى الإرادى الواعى، تلك التعميمات التى يأتى أخطر ما فيها من إمكانية الإفادة منها فى إحداث التنمية الاجتماعية فى مجتمعنا، ومجتمعات العالم الثالث ، لأن التنمية إن لم تعتمد على عمل ثورى جماهيرى واع ، لن يكتب لها النجاح ، وأمثلة النجاح فى الصين بعد روسيا ، وكوبا بعد يوغسلافيا يمكن أن تبرهن على ذلك وتدلل عليه.

وليس ما تشير اليه السطور السابقة بالأمر الجديد على علم الاجتماع ،وإنما هو أمر وارد ومعروف ، ومسلم به ، بدليل إهتمام الاتجاهات النظرية الاساسية للعلم بموضوع الثورة، وبدليل تخصيص مؤتمر بأكمله لموضوع الثورة فى علم الاجتماع وأقصد بذلك المؤتمر الدولى الثامن للعلم الذى انعقد أخيراً فى تورنتو فى الفترة ما بين ١٩ — ٢٤ أغسطس ، والذى جعل موضوعه الرئيسى « علم الاجتماع والثورة».

وايجازاً لهذه المقدمة يركز الفصل الراهن صفحاته وسطوره ، فى موضوع الثورة محاولا أن يلقى بعض الضوء على مفهومها ، وما يثيره من نقاط اختلاف

بين الدارسين ، وإبراز أهم إتجاهات دراستها فى علم الاجتماع ، وذلك بقصد تقديم قدر من المعرفة المبسطة للطلاب والدارسين ، حتى يكون أمامهم خيط أولى يستطيعون بعده أن يواصلوا - لو شاءوا - البحث والتعمق فى هذا الموضوع الذى أرجو ألا أكون مبالغا إذا قلت إن معظم المؤلفات العربية فى علم الاجتماع لم يستوفها هذا الموضوع الهام ، أو لم ينل منها إهتماما كافيا .

أولا: مفهوم الثورة :-

يعد اصطلاح الثورة من أكثر الاصطلاحات شيوعا فى كتابات الساسة والمفكرين والباحثين ، ومع ذلك فهو من المفهومات التى لم تحدد تحديداً دقيقاً نظراً لتباين إستخدامه ، بتباين التخصصات والاغراض والموضوعات . فكثيرا ما نسمع كلمات مثل: الثورة الفرنسية الكبرى ، والثورة الامريكية ، والثورة الصناعية ، والثورة الاجتماعية ، فنحن نستخدم الاسم «الثورة revolution» وما زلنا نستخدم أيضا الصفة revolutionary لكى نشير إلى أنواع متباينة من التغيرات [1] وسوف نأتى بأمثلة على هذا التباين بعد الاشارة إلى نشأة المفهوم وتطوره.

لقد أستخدم مفهوم الثورة فى معناه السياسى الحديث ، فى دولة المدينة الإيطالية فى أواخر العصور الوسطى ، ودخلت الكلمة إلى اللغة الإنجليزية حوالى سنة ١٦٠٠ ،وأصبحت تعنى تبديل النظام القائم أو النظام القديم بآخر جديد .[2]

---

(1) Crane Brinton, The Anatomy of Revolution, Prentic - Hall, N. Y., 1952., p. 4.

(2) Walter Lequeur "Revolution" in International Encyclopidia of The Social Sciences, ed. by D. Shills, The Free press, London, 1968, pp. 501-507.

وإذا تتبعنا المحاولات المختلفة لتحديد معنى المفهوم خاصة فى مجال علم الاجتماع فسوف يمكن لنا الكشف عن النقاط المشتركة ، والأخرى التى تمثل إختلافاً بين الباحثين :ـ

١ ـ يشير « جوستاف لوبون » فى مؤلفه « روح الثورات والثورة الفرنسية » إلى أن المفكرين كثيراً ما يطلقون على الإنقلابات السياسية ، معنى الثورة ، مع أن الأمر يقتضى أن تعبر هذه الكلمة عن جميع التحولات الفجائية للمعتقدات والافكار والمذاهب[1].

٢ ـ يرى فرنسيس ميرل F.Merrill أن الثورة حركة إجتماعية يتم خلالها إحلال فكرة أو شىء أو شخص جديد بالقوة محل القديم ، وهى مثال على السلوك الجمعى الناجح والفعال [2].

٣ ـ يستخدم المفهوم لدى روبرت بارك R.Park على إعتبار أن الثورة حركة جماهيرية تهدف إلى تغيير الاعراف mores وتحطيم النظام الاجتماعى القائم [3].

٤ ـ ينظر بيترم سوروكين P.sorokin إلى التغيرات الثورية بإعتبارها

---

(١) جوستاف لوبون ، روح الثورات والثورة الفرنسية ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، الطبعة الثالثة ، المطبعة العصرية بمصر ١٩٥٧ ، ص ١٩ .

(2) Francis Merrill, Society and culture – An Introduction to Sociology, Prentic-Hall, inc., Englewood cliffs, N. Jersey, 1961, p. 496.

(3) Ibid , p. 496.

تغيرات سريعة وعنيفة فى القانون الرسمى للجماعة أو فى النظم ونسق القيم (١) .

٥ — يعرف القاموس الفلسفى الذى وضعه « روزنتال ، يادين » الثورة الإجتماعية ، بإعتبارها نقطة تحول فى الحياة الاجتماعية تتميز بالقضاء على النسق العتيق القديم، وإقامة نسق إجتماعى تقدمى جديد. وفى هذا ترى الماركسية ـ اللينينية أن الثورة الاجتماعية نتيجة ضرورية طبيعية لتطور المجتمع الطبقى . فحقيقة الثورة الإجتماعية تتم عملية الإرتقاء evolution ، وتحل التناقضات بين قوى الانتاج الجديدة ، وعلاقات الانتاج القديمة ، من خلال تحطيم علاقات الانتاج القديمة وإفساح الطريق وتمهيده أمام المزيد من التطور للقوى المنتجة، وعلى هذا فتحقيق الثورة الاجتماعية يعد تحقيقا وتتمة لمتطلبات قانون توافق وتواؤم علاقات الانتاج مع القوى المنتجة . (٢)

٦ — يركز قاموس العلوم الاجتماعية الذى وضعه « جولد وكولب » معنى الثورة فى إستخدامين : الأول ويستخدمه المؤلفون المحدثون ، ليشيروا به إلى التغيرات الجذرية المفاجئة التى تحدث فى الظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية، تلك التغيرات التى يتم من خلالها إستبدال حكومة قائمة أو نظام شرعى أو إجتماعى، بالقوة وبسرعة . وأما الاستخدام الثانى فيشير إلى التغيرات التى ليس لها طابعاً سياسياً ، والتى يمكن أن تحدث ببطء وبدون عنف كالثورة العلمية والفنية والثقافية (٣) .

---

(1) J. Gould & W. Kolb, Adictionary of the Social Sciences The Free Press, N. Y., 1964, p. 604.

(2) M. Rosenthal & P. Yadin, op. cit., pp: 390–391.

(3) Gould & Kolb, op. cit., p. 602.

وهذه الأمثلة على إيجازها تجلى لنا بعض النقاط الهامة التى تمثل ركائز فى مفهوم الثورة من الممكن أن يسترشد بها الباحث عند دراسة هذا الموضوع ، أو بعض مصاحباته الاجتماعية فى المجتمع :ـ

١ ـ تتفق معظم التعريفات على تضمن الثورة عملية تغيير أساسياً ، والتغيير هنا يميل لكى يكون جذرياً وسريعاً.

٢ ـ يمكن أن يفهم من المحاولات السابقة أن كل ثورة تتضمن تغييراً فى الحكم أو ما يسمى بالانقلاب السياسى ، فى الوقت الذى لا يفضى فيه كل إنقلاب إلى ثورة بالمعنى الاجتماعى .

٣ ـ هناك شبه إتفاق على وجود مسألة العنف ، أو القوة فى الثورة بالمعنى الإجتماعى.

٤ ـ يستنتج مما سبق أن الثورة سلوك جمعى موجه نحو غايات محددة ،أبرزها محاولة تغيير النسق الاجتماعى إلى الأفضل .

وإذا كانت هذه النقاط توضح بعض المحاور التى تلقى الضوء على معنى الثورة الاجتماعية ، من خلال ما هنالك من نقاط إتفاق أو شبه إتفاق عليها ، فان ثمة خلافات جوهرية وهامة تتعلق بجوانب أساسية هى :ـ

الأول : ويتعلق بالمضمون الإجتماعى للثورة ، فهل هو مضمون ثقافى ؟ كما يتضح ذلك من تعريف بارك وسوروكين وحتى جوستاف لوبون ، أم أنه مضمون إقتصادى اجتماعى كما فى المادية التاريخية ؟

---

(١) لوبون ، ص ٤٩ .

الثانى : ويتعلق بوظيفة الثورة ومدى هذه الوظيفة . فهل مداها إحداث تغييرات فى الافكار والاعراف والسنن ، أم فى علاقات الانتاج التى هى فى جوهرها علاقات الملكية كما مذهب إلى ذلك جان بول سارتر (١).

الثالث : ويتعلق بأوضاع الشعب والطبقات فى الثورة ، فهل الثورات الإجتماعية بطبيعتها ثورات شعبية ، أم أن الذى يقوم بها ويدفعها طبقة أو طبقات إجتماعية معينة . وحول دور الشعب فى الثورة يشير « جوستاف لوبون » إلى أن سنن روح الجماعات تثبت لنا أن الشعب لا يسير من غير زعماء ، وأن عمله - الشعب - وإن كان عظيماً فى الثورات ، إلا أنه لا يقود ما ينجزه من الحركات أبداً ... وهذا يعنى أن « لوبون » يرفع القيادة فوق الشعب ، ويرى أن هناك قادة وزعماء الثورات يختارهم الشعب . ويدلل على موقفه إنتقاده لمن أبرزوا دور الشعب فى الثورات ، فهو يقول بأن الظاهرات خدعت بعض المؤلفين من أمثال « ميشله وأولار » فظنوا أن الشعب هو الذى قام بالثورة الفرنسية الكبرى. وإذا كان هذا هو موقف « لوبون » فهناك من الكتاب فى موضوع الثورة من رأى بوجوب توفر عنصرين أساسيين لها :- أن تكون الثورة من الشعب ، وأن تهدف إلى إحداث تغييرات جذرية فى الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية (٢)

الرابع : ويتعلق بتفسير الثورة وتحديد عواملها . فالبعض يرجعها إلى أسباب دينية كما فعل سيرل جاربيت Cyril Garbatte فى كتابه In An age of revolution، الذى

---

(١) جان بول سارتر ، الماركسية والثورة ، ترجمة عبد المنعم الحفنى ، مطبعة الدار المصرية ، القاهرة ، ص ٥٤ .

(٢) د. عائشه راتب ، ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٨ .

إعتبر فيه نقطة بدء الثورة، من بدء الثورة على الدين. أو كما أشار «هيوستن واتسن» بأن الثورة ترجع إلى ضعف الإيمان بالدين والقيم العليا[1] أو كما أصر «لوبون» على أن الثورات الكبرى هي ثورات الطبائع والأفكار [2]، هذا فضلاً عن تركيز المادية التاريخية على الأبعاد الاقتصادية الاجتماعية، وبهذا نجد أن بعض المفكرين في دراستهم لظاهرة الثورة، قد أرجعها إلى عوامل سياسية فحسب، والبعض الآخر أرجعها إلى أسباب عميقة وكامنة في طبيعة النظم الاجتماعية، وتتناول كل أو بعض مناشط الحياة الإجتماعية [3].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، لماذا هذا الخلاف حول بعض القضايا والأبعاد المتعلقة بالثورة؟ الإجابة باختصار تأتي من تباين إتجاهات دراسة الثورة سواء على مستوى العلوم الاجتماعية، أو على مستوى علم الاجتماع.

فقد إستطاع «جولد وكولب»، أن يقدما تصنيفاً لاتجاهات تفسير الثورة الاجتماعية حين أوضحا أن أكثر التفسيرات إنتشاراً يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ - التفسير التقدمي الذي ساد خلال القرن التاسع عشر بين مفكري اليسار، والذي لم يزل سائداً حتى الآن من خلال النظرية الديموقراطية الراديكالية Radical Democratic والنظرية الماركسية. ووفقاً لهذه الوجهة من النظر تعد

---

(١) هيوستون واتسن، ثورة العصر، بحث في فلسفة السياسة والاجتماع، ترجمة محمد رفعت، الانجلو المصرية، من مقدمة عباس محمود العقاد، ص ص: ١٨-١٩.

(٢) لوبون، السابق، ص ٢٠.

(٣) د. مصطفى الخشاب، دراسة المجتمع، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٤٢.

الثورات السياسية والاجتماعية الكبرى ، وسائل لإحداث التقدم الضرورى للبشرية نحو مجتمع تسوده الحرية والمساواة والعدل الاجتماعى .

٢ - هناك مدارس محافظة أسسها المفكرون السياسيون للاقطاع والمنظرون التقليديون ، وهى مدارس سادت فى النصف الثانى القرن التاسع عشر ، وكانت آراء رواد هذه المدارس محملة بالتفسير السيكلوجى من أمثـال « جوستاف لوبون » . ويذهب رواد هذه المدارس وأنصارها إلى أن الثورات من سمات البربرية ، وهى أعمال هدامة . وأحيانا ما يقع السيكلوجيون فى هـذا التفسير للثورة كتعبير عن علم نفس الجماهير mass Psychology ، ومقارنين الثورة بالعدوان لدى العقول البدائية [1] . وإذا كان هذا التصنيف يعكس اتجـاهين أساسيين ، فسوف ندلل على كل ببعض الأعمال ، مبتدئين بالتفسير النفسى ، ثم البنائى الوظيفى باعتباره تفسيرا إجتماعيا نفسيا ، وأخيراً التفسير المادى التاريخى بإعتباره تفسيراً سوسيولوجيا علمياً .

ثانيا : التفسير النفسى للثورة

ويمثل هذا الاتجاه على نحو واضح « جوستاف لوبون » فى كتابه الواسع الصيت « روح الثورات والثورة الفرنسية » والذى يمكن من خـلال صفحاته إستخلاص عناصر إطاره التصورى فى المحاور التالية : -

١ - يعرف الثورة على أنها مجموعة التحولات الفجائية فى المعتقدات والأفكار والمذاهب . وفى هذا الصدد يميز أيضاً بين الثورات السياسية والثورات العلمية . وبشأن النوع الأول يشير « لوبون » إلى أن المشاعـر والعواطف هى دعائم

---

(1) Gould & Kolb, op. cit., p. 603.

المعتقدات السياسية والدينية . وعن نتائج هذا النوع من الثورات يرى أنه بعد أن يتم الحزب النصر ، فان هذا الحزب يقوم بتنظيم المجتمع حسب ما تقتضيه مصالحه ، ومن ثم يسن القوانين ويضع النظم فى ضوء منافعه ومنافع الطبقات التى ساعدته على تحقيق النصر والغلبة . وإذا تم النصر الغالبين بعد صراعات عنيفة كما حدث أيام الثورة الفرنسية ، فإنهم يقوضون دعائم الحكومة القديمة ، مع إضطهادهم ، أنصار النظام الساقط وإخراجهم من ديارهم وإبادتهم . وأما النوع الثانى من الثورات ، وهو الثورات العلمية فيراها أكبر الثورات أهمية ، والأجدر أن تدعى هذه الثورات بالتطور بطىء وقوعها ، بيد أن هناك بعضا منها ما يحدث بسرعة وتستحق أن تسمى بالثورات . ومثال ذلك نظرية « شارلس دارون » فى النشوء والإرتقاء والإنتخاب الطبيعى . ومجال هذه الثورات عالم الافكار وليس المشاعر (١) .

وأما عن تفسيره للثورة ، وتحديده لعواملها ، فيرى لوبون أن الثورة مهما كان مصدرها لا تصبح ذات معنى إلا بعد هبوطها إلى روح الجماعة . فالجماعة تتم الثورة ولا تكون مصدرها ، والجماعة لا تقدر على شىء ولا تريد شيئا إن لم يكن عليها رئيس يقودها ... إن الثورات السياسية الفجائية التى تحسب المؤرخين ، هى أقل أهمية من غيرها فى بعض الأحيان ، فالثورات الكبيرة هى ثورات الطبائع والأفكار . وفى الغالب تتم الثورات الحقيقية التى يتوقف عليها مصير الأمم بالتدريج . وهذا ما يجعل المؤرخين يلقون مصاعب فى تعيين نقطة إبتدائها ، ولذلك يرى « لوبون » أن كلمة التطور أصح فى التعبير عن المقصود بكلمة الثورة (٢).

---

(١) لوبون ، السابق ، ص ص ٢٠–٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ١٩–٢٠ .

٣ - يبرز البعد النفسي في تفسيره للثورة من تحليله للثورات التي يسميها الثورات الفجائية . وفي هذا الصدد يبرز دور العدوى النفسية في حدوث هذا النوع من الثورات ، حيث نجده يستشهد ببعض الأمثلة عن بعض الثورات التي عايشتها بعض المجتمعات . فثمة أمم حديثة كفرنسا وأسبانيا وبلجيكا واليابان وتركيا والبرتغال ، حدثت فيها ثورات قلبت الحكومات بسرعة بسبب العدوى النفسية الناشئة عن طريق النشر والإذاعة . وهو في هذا الصدد يبرز دور التقليد والمحاكاة ، كما سبق وفعل « تارد » في تفسيره للظاهرات الاجتماعية[1] .

٤ - هناك نقطة يمكن أن تلقى لنا بعض الضوء على تفسيره ، بل وصلى النظرية البنائية الوظيفية ، التي يحتل فيها كل من مفهوم الثبات والتوازن مكانة هامة ورئيسية . فتحت عنوان « ثبات روح الأمة ومرونتها » في الفصل الرابع من كتاب « لوبون » السابق الإشارة إليه ، نجده يشير إلى أن عناصر روح الأمة لا تتوطد وتتكامل إلا إذا كانت على شيء من الثبات . الذي يسهل من مرونة روح الأمة مع ملاحظة أن شدة المرونة تفضى في النهاية إلى القيام بثورات متتالية ، بعكس شدة الثبات التي تقودها إلى « الجمود »[2] . وهذا يعني أن شكل البناء الاجتماعي وجموده أو مرونته يلعب دوراً هاماً في حدوث الثورة . وبهذا ركز « لوبون » على الأبعاد النفسية في تفسير الثورة ، وإبراز دور القادة فيها ، ومن ثم كثيراً ما يوسم تفسيره - شأن كل أعماله - بالتفسير النفسي للواقع الاجتماعي .

ثالثا : التفسير البنائي الوظيفي للثورة الاجتماعية

لو قلبنا في صفحات الوظيفية وكتاباتها ، ربما ما وجدنا مثالا يمثلها ، أصدق

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

تمثيل ، من كتابات «بارسونز» أكثر الوظيفيين إنتاجاً وأوفرهم كتابة ، والذى يمكن لنا إستخلاص وصف الثورة وتحليلها لديه على النحو التالى :-

١ - يعتبر «بارسونز» الثورة حركة إجتماعية ، أو عملية إجتماعية من عمليات التغير الواسعة المدى ، أو الكبيرة النطاق فى النسق الاجتماعى .

٢ - قبل أن يحلل«بارسونز» الحركة الثورية رأى أنه من المفيد أن نضع فى أذهاننا الحقيقية التى مؤداها : أنه حتى فى المجتمع الثابت نسبياً ، تكون عمليات التغير البنائى عمليات مستمرة، فى عديد من الأنساق الفرعية للمجتمع . وهذا يعنى أن الثبات والتغير دائمان الحدوث فى النسق الاجتماعى ، مع ملاحظة أنه ليس ثمة نسقاً ثابتاً دائما ، أو متغيرا دائما ، لأن الثبات والتغير يحدثان دائما فى الأجزاء والمكونات المختلفة للنسق الإجتماعى .

٣ - يميز بارسونز بين نموذجين أو نوعين من أنواع الحركات الثورية: الحركة الثورية الملهمة Charismatic Revolutionary movement ، والتحول التوافقى للحركة الثورية The Adoptive transformation of a Revolutional movement يشير النوع الأول إلى التبدل الفجائى فى معظم تعادل التوازن الاجتماعى Balance of Equilibrium للنسق ، عن طريق سطوة حركة ثورية ملهمة تمثل نوعا من الاتجاهات orientation الدافعية المغتربة ، بالنسبة للنظام الأساسى المصاغ من خلال النظم الاجتماعية . وأما النوع الثانى فيشير إلى العملية التى يتم بواسطتها توافق الحركة الثورية على المدى البعيد .

٤ - يرى بارسونز ، أننا سواء كنا أمام النوع الأول أو الثانى ، فلا بد من توافر أربعة شروط أساسية لازمة وكلية الحضور ، حتى يتسنى إنتشار الحركة الثورية وسيطرتها . وهذه الظروف الأربع تمثل تحليلا أو تفسيرا

«بارسونيا» الحركة الثورية :ـ

(أ) يتمثل الظرف الأول فى وجود عناصر واقعية مغتربة Alienative mativational elements ، منتشرة على مستوى كبير ، وموزعة بين السكان توزيعاً كافياً . وهذه العناصر تكون بمثابة تجسيدات للتوتر الذى يأتى من مصادر متعددة . على أن هذا التوتر لا يكون توتراً عشوائيا ، أو يأتى من العدم، وإنما يقيم تحـــولا أو إغتراباً أو انحرافا عن الأنماط السائدة والرموز المرتبطة بهذه الأنماط. وهذه الدوافع الغريبة لا تتوزع عشوائيا بين أجـزاء النسق، وإنما تتجمع حول نقاط خاصة من نقاط وعناصر التوتر ، ذلك التجمع والتوزع الذى تعتمد عليه متضمنات وتجسيدات وجود التوتر بالنسبة لثبات Stability النسق. وبعبارة موجزة تمثـــل الدوافع المغتربة alienative motivitions ضرورة بنائية Prerequirite للحركة الثورية . على أن هذا الدافع ، لا يمثل فى حد ذاته إلى مكنه أو إحتمالا لحدوث التغير ، لأنه قد يتبدد ويتشتت ويتوزع من خلال طرق ومسالك عدة ، كالخيالات والجريمة والمرض العقلى ، والمرض النفسى الجسمى . وهذه المسالك والطرق ترتبط جميعا بميكا نيزمات الضبط الاجتماعى.

(ب) وإذا فشلت هذه الضرورة من ضروريات الحركة الثورية ، فإن هذا الفشل يسمح بتطور الضرورة الثانية التى تتمثل فى تنظيم ثقافة فرعية منحرفة للجماعة أو الحركة الثورية . وهذا التطور من شأنه أن يقوى الميل نحو الثورة ويجعله قادراً على تحقيق استقلال الدافع المغترب . ونشير هنا إلى تضامن الجماعة الذى يساعد الدافع المنحرف على التخلص من كثير من الجزاءات المفروضة عليه ، الأمر الذى يقوى الانحراف ويقدم له توقعات بديلة.

(ج) ويزداد التضامن قوة وتأثيراً لو أن هناك قيادة فعالة متطورة ، تجعل

التضامن منظماً وله رموزه الثقافية والقيمية . على أن الثقافة الفرعية الجديدة ، لو بقيت عند حدود الثقافة الفرعية المنحرفة والمضادة للثقافة العامة ، كما هو الحال فى ثقافة العصابة الجانحة ، فإنه يكون من الصعب عليها أن تجد المعايير والمسالك التى تساعدها على التأثير فى نطاقات أوسع . ومن هنا لزم عليها أن تجد فى تطوير أيديولوجية أو معتقدات تساعدها على أن تكتسب صفة الشرعية .

(د) وأما الشرط أوالظرف الرابع والأخير فيتمثل فى تنظيم نسق القوة(١)

فكأن شروط أوظروف وجود الحركة الثورية تتمثل فى وجود: دافع منحرف عن الأنماط السائدة ، ثم يشكل هذا الدافع ثقافة فرعية خاصة به من خلال جماعة، ثم تصوغ الجماعة أيديولوجية ، ثم تحقق لنفسها من أسباب القوة ما يساعدها على على تحقيق متطلباتها .

ما سبق ليس إلا مثالا من فكر أبرز الرواد الوظيفيين ، وهو مثال يقدم لنا صورة وصفية للكيفية التى يحدث بها الفعل الثورى ، أو الحركة الثورية ، والكيفية التى تنتشر بها بين أجزاء النسق الإجتماعى ومكوناته . لكن يظل هناك سؤال يلح فى طلب إجابة : ما هى أسباب حدوث الدافع المنحرف ؟ هذا ما لم يقدم « بارسونز» عليه إجابات ، اللهم الا وجود قوى خارجية وافدة على النسق . كما يلاحظ على التحليل السابق ما يلى : -

- أن بارسونز يعتبر الحركة الثورية إنحرافاً إجتماعياً .

- أن الثورة لديه ذات مضمون ثقافى وقيمى ، محمل بالدوافع المنحرفة ، فى الوقت الذى يفرغها من أى مضمون اجتماعى إقتصادى .

---

(1) T. Parsons, The Social System, Amerind Publishing, Co., PVT. LTD., New Delhi, 1972, pp. 52(-525

ـ أنه يركز على ظروف ومصاحبات الفعل الثورى وإنتشاره بين أجزاء النسق الاجتماعى ومكوناته ، مع التركيز على : القيادة والأيديولوجية من بعد ابرازه الدوافع وليت فهمه للقيادة هنا يبرز لنا أهمية وجود القائد الاجتماعى الذى يمثل الطبقات المضطهدة ويعبر عن مصالحها ، لأنه يقصد بالقادة الصـــفوة المختـــارة المسيطرة إقتصادياً وطبقياً ، وكأنما لا توجد ثورات إلا الثورات البورجوازية فقط.(١). وهذا يعنى أن تحليله الثورة الإجتماعية فى جملته ، تحليل نفسى ثقافى لا يبرز تناقضات البناء الاجتماعى ، ودورها فى حدوث الثـورة ، هذا فضلا عن عدم ابراز الوظيفة الاجتماعية للثورة ، باستثناء الإشارة العابرة إلى التبدل أو التحول الفجائى ، ولكن فى ماذا هذا التبدل وذلك التحول ، هـذا ما لم يشر اليه بارسونز أو يوضحه . وبجملة مختصرة يركز بارسونز على العوامل الذاتية ويهمل الثورة بالمضمون العاطفى والدافعى، على حساب إجهاض المضمون الإجتماعى . ويتبين هذا أيضا من تحليله الحركة الفاشية فى كتـــابه مقالات فى النظرية السوسيولوجية (٢).

رابعا : المادية التاريخية وظاهرة الثورة الاجتماعية :

يحتل موضوع الثورة مكانة فريدة وهامة فى المادية التاريخية ، لا نبـالغ إذا قلنا أن مكانتها فى هذه النظرية تبلغ ذروة لم تبلغها فى أى إتجاه من إتجاهات الفكر السوسيولوجى . وباعتبار الثورة ظاهرة أساسية فهناك ملامح نظرية تكاد تصل بها إلى مستوى النظرية الاجتماعية للثورة . وهذا الموضوع من وجهة النظر المادية التاريخية ، يمثل إلتقاء لكثير من موضوعات الدراسة فى هذه النظـرية ، خاصة

(I), (2) T. Parsons, Essays in Sociological Theory, The Free Press, Glencoe, Illinois 1958, p. 125.

سوسيولوجيا الطبقات والصراع الطبقى وسوسيولوجيا الدولة . ويمكن لنا إبراز أهم ملامح الإطار التصورى لدراسة المادية التاريخية لظاهرة الثورة فى النقاط التالية :ـ

١ ـ تضطلع نظرية الثورة الاجتماعية بالشروط والقوانين التى تحكم الإنتقال من تكوين إجتماعى إقتصادى إلى تكوين آخر من خلال سياق عملية التطور الاجتماعى ومسارة (١).

٢ ـ تنظر المادية التاريخية الثورة الاجتماعية بإعتبارها التحول الأكبر فى الحياة السياسية والإقتصادية والايديولوجية للمجتمع ، ويترتب عليها تحول وتبدل فى الطبقات المسيطرة وأنواع العمل ، وتصفية العلاقات الانتاجية القديمة ، وتعميق جذور العلاقات الجديدة. والثورة فى ضوء هذه الوجهة من النظر ليست ظاهرة عفوية أو إنحرافاً وإنما ظاهرة طبيعية ناشئة وناتجة عن تطور ظروف المجتمع المادية(٢) .

٣ ـ ترتبط نظرية الدولة فى المادية التاريخية بنظرية الثورة ، وذلك لأن الثورة بمعناها الحرفى هى إنتقال سلطة الدولة من طبقة إلى طبقة أو طبقات أخرى (٣) .

٤ ـ تتحدد الثورة بالقوانين الموضوعية التى تحكم تطور أسلوب الإنتاج الاجتماعى ، وذلك من خلال الانتقال من أسلوب للانتاج إلى آخر .ولعل أبرز

(1) V. Kell & M. Kovalson, Historical Materialism, op. cit, p. 191.

(2) V. Afanasyev, op. cit., p. 304.

(3) V. Kell & Kovalson, op. cit. p. 192.

القوانين الموضوعية فى المادة التاريخية التى تأتى الثورة نتيجـــة له ، قانون التوافق الضرورى بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . فالأساس الاقتصادى لأى ثورة إجتماعية يتمثل فى الصراع بين القـــوى الانتاجية الجديدة ، وعلاقات الانتاج القديمة ، ومن هنا كان من مهام الثورة الاجتماعية حل هذا الصراع أو ذلك التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . ويتم ذلك من خلال القضاء على علاقات الانتاج القديمة ـ علاقات الملكية ـ وتمهيد الطريق لإقامة علاقات جديدة . لقد كتب « ماركس » حول هذا القانون ـ التوافق بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ـ يقول : عند مرحلة معينة من مراحل تطور القوى الانتاجية للمجتمع ، تقع هذه القوى فى صراع مع علاقات الانتاج القائمة ، أو مع علاقات الملكية التى كانت هـــذه القوى ذاتها تتطور من خلالها (١) .

ه ـ وأما عن طابع الثورة وقواها المحركة ، فهذا أمر يتعلق بنوعية الطبقة التى جاءت للسلطة ، وبنوعية علاقات الانتاج الجديدة التى تم إفساح الطريق لها . فالثورة التى إستبدلت فيها سيطرة الإقطاعيين ، بسيطرة البورجوازية وترسخت ـ بناء على ذلك ـ علاقات الانتاج الرأسمالية ، محل علاقات الانتاج الاقطاعية ، هى فى طابعها ثورة بورجوازية . هذا عن طابع الثورة ، وأما عن القوى التى تحرك الثورات فهى الطبقات الاجتماعية التى تقوم بها . وإذا أردنا أن نحـــدد من هى القوى المحركة للثورة ؟ ومن الطبقات التى تتزعم الثورة ؟ نجد أن الإجابة على هذين السؤالين تتحدد بطابع الثورة وبالظروف التاريخية التى تتم فيها هذه الثورة ، ففى الثورات البورجوازية فى الغرب خلال مرحلة صعود الرأسمالية وتطورها إبتداء من القرن السابع عشر وحتى النصف الأول من القرن

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

التاسع عشر ، كانت القوى المحركة للثورة هي الفلاحين والحرفيين ، أما زعيمها فكان البورجوازية التي قادت وراءها جميع المناضلين الآخرين ضد الاقطاع [1] .

٦ — لو أريد للثورة أن تنجز مهامها التاريخية ، فثمة حاجة التغلب على مقاومة الطبقات الحاكمة Ruling classes في المجتمع القديم،وهي تلك الطبقات التي تكون ممثلة في الدولة القوية ، التي تحتاج قوتها إلى قوة منظمة من الطبقات المناضلة حتى يتسنى لهذه الطبقات المناضلة أن تتخلص من سيطرة الطبقات الحاكمة، وتستطيع القوى الثورية أن تحقق الجديد إنتصاره على القديم لو أنها استطاعت أن تحوز على سلطة الدولة من الطبقات الحاكمة . وهذا يبرز سبب كون مسألة السلطة ، تمثل مبدأ أساسياً وهاماً في أي ثورة من الثورات . وبمجرد أن ترسى القوى الاجتماعية التقدمية الجديدة ،دعائم القوة الثورية الجديدة ، فإنها تستخدم هذه القوة في تحقيق التغييرات الضرورية في إقتصاد المجتمع [2] . ولعل ذلك ما يبرر ، ويجد له تدعيما ، من أن أول عمل قامت به ثورة ١٩٥٢ في مصر اتجه إلى الاقتصاد الزراعي المصري ، بتحديد الملكية الزراعية في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، أو بعبارة أخرى ، اتجهت حكومة الثورة بعد الاستيلاء على السلطة السياسية الى محاولة تصفية العلاقات الاقطاعية التي كانت مسيطرة على الاقتصاد الزراعي المصري .

٧ — تحمل كل الثورات السابقة للاشتراكية ، في داخلها تناقضاتها ،وذلك لأنها كانت ثورات أقلية لاستغلال الأكثرية . أو بعبارة أخرى كانت الثورات

---

(١) أفاناسيف ، مصدر مذكور ، ص ٣٠٧ .

(٢) كيل . كوفالزوف . مصدر سابق . ص ١٩٢ .

السابقة للاشتراكية ثورات ملكية خاصة ضد ملكية خاصة ، وهذا عكس الثورة الإشتراكية التي تعد ثورة أكثرية ضد أقلية مستغلة (١).

٨ — تتركز الوطنية الاجتماعية الثورة في أنها عمل تقدمي يساعد على تطور المجتمع وتقدمه ، فالثورات كما يقول ماركس ، هي القوة المحركة التاريخ . وكما يقول لينين ، هي عيد المستغلين .

٩ - يلخص لينين القانون الأساسي الثورة الاجتماعية على النحو التالي : «ليس كافيا للمضطهدين أن يدركوا أن الحياة بالطريقة القديمة أضحت مستحيلة ... لأن الثورة تحدث عندما لا تريد الطبقات الدنيا أن تعيش بالطريقة القديمة» . وهذا القانون في جوهره يضم العوامل الموضوعية والذاتية الثورة الإجتماعية . حالة قوى وعلاقات الإنتاج ، والوعي الاجتماعي . وهنا علينا أن نتذكر تحليلات « لينين » الثورة التي تذهب إلى أن ظهـور الموقف الثوري يدلل على أن كل الضرورات الاجتماعية السياسية الموقف الثوري قد وصلت إلى النضج ، غير أن التحول أو الانتقال إلى الفعل الثوري المفتوح لا يحدث تلقائيا ، فليس كل موقف ثوري يفضي بالضرورة إلى ثورة ، لأن ذلك يعتمد على قوة الطبقات الثورية ، ومستوى نضج العوامل الذاتية . وهـذا يعني أن هناك تغيرات ذاتية وأخرى موضوعية من الضروري أن تحدث في الحياة السياسية والاجتماعية . وكلا النوعين من التغيرات مترابط ومتداخل . وتعد السياسة مجالا من المجالات التي تترابط وتتداخل فيها التغيرات الذاتية والموضوعية . فالعلاقات السياسية بين الطبقات وبعضها ، وبينها وبين الدولة ، علاقات موضوعية ، ولكن كما أشار « لينين » أن

---

(١) السابق ، ص ١٩٣ .

هذه العلاقات ليست مادية بالصورة التي تكون عليها العلاقات الاقتصادية ، لأن العلاقات الايديولوجية ترتبط بالوعى . وبهذا تترابط الظروف الذاتية والموضوعية فى حدوث الثورة [١] والوعى هنا يقصد به إدراك الطبقة الثورية ، وتنظيم شئونها ، ويزداد الأمر وضوحاً إذا فحصنا الموقف الثورى كما وافانا به « لينين » على النحو التالى : ـ

ا ـ عدم قدرة الطبقات الحاكمة على أن تعيش وتحكم بالطريقة القديمة ، أو ما يسمى بالأزمة فى المستوى الأعلى من جانب ، وتذمر الطبقات المستغلة التى لاتريد العيش بالطريقة القديمة ، أى الأزمة فى المستوى الأدنى من جانب آخر . وفى هذا كتب « لينين » إن الثورة غير ممكنة دون أزمة وطنية عامة تمس المستغلين والمستغلين .

ب ـ تفاقم البؤس والحرمان بين الطبقات المستغلة ، ووصوله إلى الذروة .

جـ ـ إشتداد فعالية الجماهير بدرجة كبيرة واضحة . فإذا ماسكنت الجماهير فى الأوقات العادية إلى الهدوء النسبي ، فإن الأزمة تدفعها نحو نشاطات وفعاليات ثورية مستقلة . [٢]

١٠ ـ هناك قضية على جانب كبير من الأهمية ، تفاوتت الآراء ، حول وجودها وأهميتها بين منظرى الثورات . ألا وهى قضية العنف الثورى . وفى

---

(1) Y. Krasin, Lenin, Revolution and The World Theory, Progress publishers, Moscow, 1971.

(٢) أفاناسيف . المصدر المذكور . ص ٣٠٦ .

هذا يذكر مؤسسوا المادية التاريخية وأنصارها ، أن العنف الثورى عنصر كبير وأساسى فى التطور الاجتماعى ، إلا أنه لايمكن أن ينظر إليه فى ذاته على حده . فلو أخذ العنف بعيداً عن إرتباطه بالظروف الموضوعية الاقتصادية وغيرها ، لاصبح« لعباً » بالثورة ومغامرة خطيرة . ولقد كانت فى ذهن « ماركس » مثل هذه الظروف حين سمى العنف « قابلة » تطور المجتمع .إذا كان المجتمع حاملا بالثورة . أما إذا لم تكن الظروف الموضوعية ناضجة فإن قدراً من العنف فى ذاته لايمكن أن يحل التناقضات .(١) والجدير بالذكر أن المادية التاريخية لاتنكر الانتقال السلمى للاشتراكية ، فقد أبرز « ماركس » هذه المسكنة فى خطابة الذى ألقاه فى «أمستردام »بعد مؤتمــــر الدولية الأولى فى « لاهاى » . كما لم يستبعد « لينين » هذه المسكنة أيضا فقد قدم بعد ثورة فبراير ١٩١٧ فى روسيا شعار التطور السلمى للثورة ونقل السلطة إلى الطبقة العاملة (٢) . وبهـذا فالعنف ليس غاية فى ذاته وإنما هو ضرورة تفرضها ظروف التناقضات القائمة فى المجتمـع ، أما إذا أمكن انتقال السلطة بالوسائل الدستورية ، فلا بأس من استخـــدام الأساليب السلمية.

على أن قضية العنف الثورى تذكرنا هنا بنظرية « فرانز فانون » عن الثورة فى العالم الثالث ، وموقف العنف الثورى فيها ، الذى رآه « فانون » وسيلة حتمية أساسية وفعالة لانبعاث الثورة وتحديد العمل الاجتماعى وتحديد النضال . (٣)

---

(١) مارك روزنتال . تناقضات عصرنا الراهن . وكالة نوفستى للانبـاء ، ودار المنا للطباعة . ص ص . ٢٤-٢٥ .

(٢) السابق . ص ص ٢٦-٢٨ .

(٣) دافيد كوت . فرانز فانون . ترجمة عدنان كيالى . المؤسسة العربيـة للدراسات والنشر . بيروت . ١٩٧١ . ص ص ١٤٧-١٤٨ .

إن « فانون » بتركيزه على الدور الحاسم للعنف ، قد تمثل أمام ناظريه الثورة الجزائرية المسلحة ضد المستعمر الفرنسي ، بجانب تمثله لحركات التحرر الوطني في العالم الثالث ، وهي حركات إقتضت ظروفها الموضوعية حتمية القتال المسلح .

ومما سبق يتضح لنا : ١ - أن المادية التاريخية قدمت لنا فكراً متماسكاً متكاملاً عن « الثورة » الاجتماعية يرقى إلى مستوى النظرية المتسقة الكاملة (١) ، وفسرتها تفسيراً موضوعيا وسوسيولوجيا في وقت واحد . فهو موضوعي لأنه لم يركز على عوامل ذاتية كالانفعالات والدوافع ، وهو سوسيولوجي لأنه ربط الثورة بالمضمون الاجتماعي الاقتصادي للبناء الاجتماعي للمجتمع . وتلك نقطة يركز عليها حتى بعض الكتاب الغربيين . ففي هـــذا الصدد يشير ألفريد ميوسل A' messel إلى أن طبيعة التغير الذي يطلق عليه ثورة لا يمكن الالمام به دون أن نضع في الاعتبار نوع المجتمع الذي يحدث فيه. ويمكن تحديد ذلك بالتناقضات الداخلية في المجتمع ، بين الطبقات العليا الصغيرة العدد التي تمتلك كل مصادر الدخل ، وبين الطبقات الدنيا المقهورة (٢).

٢ - أبرزت لنا المادية التاريخية أن الثورة الاجتماعية ليست إنحرافاً أو مرضاً ، أو إعاقة أو تعطيلا لمسيرة المجتمع ، وإنما هي شكل أو صورة ضرورية لانتقال المجتمع وتطوره . ألم يقل « لينين » بأن الثورة هي عيد المضطهدين !

---

(١) د. عائشة راتب . المصدر السابق . ص ٣١ .

(2) Alfred Messel Revolution and Counter Revolution " in Encyclopidia, of The Social Science, ed. by E. Seligman & A. Johnson, The Macmillan Company, N. Y. 1934, pp. 367–375.

٣ - أكدت المادية التاريخية على أن الثورات لاتأتى أو تصنع نتيجة رغبات الأفراد كما ذهب « لوبون » أو إنفعالات ودوافع الجماعات وثقافاتها الفرعية كما ذهب « بارسونز » تحدث الثورات عند نضج الشروط والظروف الموضوعية المادية الملائمة .

٤ - أوضحت المادية التاريخية المضمون الاجتماعى الاقتصادى للثورة من خلال إبراز دور التناقضات الداخلية ، بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وبين الطبقات الاجتماعية وبعضها ، خاصة الطبقات المستغلة والمستغلة .

خامسا : تحليل لبعض أسباب إنتكاسة الثورة فى العالم الثالث :

من بين أهم الدراسات التى يمكن أن تستوقف الباحث فى هذا الصدد ، دراسة منشورة « للدكتور سامى منصور » عنوانها « إنتكاسة الثورة فى العالم الثالث » . قام فيها الكاتب بإستقراء بعض تجارب بلدان العالم الثالث ، فى إفريقيا وآسيا ، وحلل فيها بعض الأمثلة عن الهند وغانا ، تحليلا تاريخياً ومعاصراً ، وتوصل إلى بعض النتائج التى تفيد فى دراسة موضوع الثورة والثورة المضادة ، بإعتبارها إعاقة مقصودة للتغييرات الأساسية التى تهدف إليها الثورات الإجتماعية . وحتى تفيد الدراسة الراهنة من دراسة هذا الكاتب نأتى بمثال على تحليله ، ثم أهم النتائج التى طرحها فى كتابه ، وأخيرا بعض الضمانات التى عرضها لدعم الثورة وإستمرارها فى العالم الثالث :-

١ - حلل الباحث تجربة « غانا » وإنتكاستها بذلك الإنقلاب الذى أطاح بحكم « نكروما » . وفى هذا الصدد أشار تحليله إلى مايلى :

« إن الدائرة التى إلتفت حول « نكروما » إستطاعت أن تقوم بعمل مزدوج : فأولا كونت طبقة عازلة بين الزعيم وبين جماهير الشعب .

وأستطاعت ثانيا أن تسطو على ثمرات الجهد الشعبى وتمتصه لمصالحها الذاتية الخاصة . وربما كان واحداً من أشهر الأمثلة المعروفة ، حادث شراء زوجة وزير الصناعة « كروبوا دوس » فى فبراير سنة ١٩٦٢ سريراً من الذهب ثمنه ثلاثة آلاف جنية »

لقد أنشأ « نكروما » المعهد القوى للطلبة الاشتراكيين ، كانت مهمته إعداد كوادر سياسية ، تتولى المناصب القيادية ، لكن حدث أن أدت التجربة بجملتها إلى بعض النتائج التى من بينها :—

أ — أن الدائرة المغلقة حول « نكروما » والمستفيدون من ثمار العمل الوطنى، هى نفسها التى سطت على العمل السياسى والحزبى ، وهى طبقة جديدة جمعت الثروات بوسائل غير مشروعة ، وجعلت من العمل الحزبى درعا يحميها ،وعملت بكل الوسائل على إبعاد العناصر التى تتصدى لها .

ب — إن الفئة المستفيدة من السلبيات كان لابد أن تحافظ على علاقتها بالزعيم مما جعلها تتمادى فى مدحه وتبجيله إلى حد بلغ درجة التأليه . وجعلت أسلوب التعامل مع « نكروما » هو ، أشبه بعبادة الفرد . وقد تبلور ذلك فى تماثيل « نكروما » فى كل مكان ، بجانب الشعارات التى رفعت بإسمه .

جـ — حدوث صراع بين خريجى المدرسة العقائدية وبين الذين فى السلطة .

د — لقد خلق كادر الحزب الذى أعده المعهد الإشتراكى ، دوائر من الأعداء ، أكثر إتساعا من دوائر أصدقاء النظام . (١)

٢ — توصل الباحث إلى بعض النتائج وإعتبرها أسباباً لإنتكاسة الثورة فى العالم الثالث . وأهم هذه الأسباب ما يلى :—

---

(١) د. سامى منصور . إنتكاسة الثورة فى العالم الثالث . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٧٢ . ص ص ١٠٨—١١٢ .

أ ـ عدم تجدد القيادة فى مواقع العمل الوطنى المختلفة .

ب ـ أن أغلب قيادات العالم الثالث كانت من الطبقة الوسطى ، التى تعلمت على أيدى الإستعمار ومفكروه ، مما وسم عملها بالضعف .

جـ ـ كان للقيادات ، نتيجة لإنتماءاتها الطبقية ، تطلعات إلى إمتيازات طبقية ، والتى كان لها ـ القيادات ـ فى أغلب الأحيان علاقات مع الاستعمار .

د ـ هناك قيادات إفتقدت إلى الرؤية الشاملة لمشكلة أوطانها ، وفى هـذا يقرر الكاتب أن ثورة بلا ايديولوجية تعنى وجود جيل الثورة بلا مقومات لمواجهة الواقع والمستقبل [١] .

٣ ـ وأما عن الضمانات التى يطرحها لإستمرار الثورة فى العالم الثالث فيمكن إيجازها فيما يلى :ـ

ا ـ أن العنصر البشرى كان ولا يزال المدخل الطبيعى والسليم لإستمرار ثورة العالم الثالث . وتكوين الإنسان وبنائه ، أصعب مهمة ، لكنها فى النهاية ضمان لتغيير الواقع .

ب ـ ضرورة السيطرة الوطنية على مصادر الثروة فى العالم الثالث ، ويقصد بذلك أن تكون ثروة الدولة فى خدمة شعبها وليست مسألة تحويل الملكية من مجموعة من الأفراد أو الشركات ، إلى طبقة أو مجموعة أكثر عدداً ، لأن المهم فى الأمر هو نقل المنفعة من الملكية إلى الجماهير .

جـ ـ ضرورة إدراك أن الديموقراطية وحرية التعبير ، ليست مجرد شعارات ولكنها واقع يجب أن توضع كل الضمانات والإمكانات لتحقيقه وإستمراره ،

(١) السابق . ص ص ١٩٨-١٩٩ .

لأن القدرة على الخلق والابتكار ، وهى أكثر ما يحتاجه العالم الثالث ، لا يمكن أن تنمو فى مناخ مغلق وفكر مكبوت .

د ـ ادراك مـــدى التغير الواقعى فى المجتمع الدولى وفى العلاقات الدولية المحيطة بمجتمعات العالم الثالث[1] .

وكخلاصة الفصل الراهن يمكن الإشارة إلى النقاط التاليـة ، والتى تعتمد فى جوهرها ، على تحليل المادية التاريخية ، الثورة ، لا لشىء إلا لأنها ، أقرب وجهات النظر إلى مهمة علم الاجتماع وطابعه المتميز بين العلوم الإجتماعية :ـ

١ ـ الثورة حقيقة إجتماعية تشير إلى عمل جماهيرى إرادى وواعى ، موجه نحو إحداث تغييرات جذرية أساسيه فى البناء الاجتماعى للمجتمع ، من أجل مصلحة المشاركين فى هذا البناء .

٢ ـ أن التفسير السوسيولوجى الحقيـقى هو الذى يضع ما هو إجتماعى فى إعتباره ، حتى يحفظ لعلم الاجتماع طابعه وشخصيته بين العلوم الاجتماعية . فنحن لا ننكر التفسيرات النفسية ، لـكن علينا أن ندرك أنهـــا من صميم عمل الباحث السيكلوجى . ولذلك فالتفسير السوسيولوجى الحقيقى هو الذى يبرز المضمون الإجتماعى والإقتصادى الثورة .

٣ ـ أن التفسير العلمى الدقيق هو الذى يحدد لنفسه تكتيكا واستراتيجية . أو بعبارة أخرى يحدد نقطة معينة محددة لبدء التفسير والتحليل ، ويعين أكثر العوامل أهمية فى إحداث الظاهرة وما يتلوها من عوامل . فحشد أكبر قدر من العوامل فى تفسير أى ظاهرة ليس إلا ضـــرباً من ضروب الإخلال بالتفسير .

---

(١) السابق ، ص ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

العلمى ، وجعله تفسيراً دارجا . فالمهم فى علاج مشكلة ، أو فهم ظاهرة ، أن نفهم أهم عواملها ، ونحـدد نقاط العمل والتحليل والحل . فالذين يقـولون أن الثورة مصدرها كل البناء الاجتماعى ، لا يقدمون شيئاً ، لأن الأجدى أن تحـــدد أى مكونات البناء أكثر أهمية من غيرها ، وأيها أكثر إرتباطا بالظاهرة موضوع الدراسة عن غيرها .

٤ ـ أنه بالإمكان تلخيص الفعل الثورى من خـــلال مؤشرات تتمثل فى وجـود : تناقضات داخلية ، ثم إدراك هذه التناقضات والوعى بهما ، ثم رسم خطى حل هذه التناقضات من خلال أيديولوجية للثورة ، تحـــدد الأهداف والوسائل ، وتعين القـــادة الذين عليهم تحريك الثورة ، وإباحة فرصة العمل والمشاركة لأكبر عـدد من الجماهير العريضة ، التى تعمل الثورة من أجـل تحقيق مصالحها ودرء الإستغلال عنها .

٥ ـ أن العـالم الثالث وهو يسلك طريق الثورة عليه أن يضع فى حسبانه الثورة المضادة التى تشكل خطة دفاع الطبقات التى قامت الثورات من أجل الحـد من سيطرتها وإستغلالها .

٦ ـ أن وضوح الرؤيـا الأيديولوجية أمام مجتمعات العـــالم الثالث ، مسألة ضرورية ، تيسر منـاخ إتخـاذ القـرارات الثورية التى تخدم مصالح الجماهير .

٧ ـ أنه إذا كان على عـــلم الاجتماع فى العالم الثالث أن يركز على موضوع الثورة ،فهو فى ذاته فى حاجة إلى ثورة تحرره من آسار الفكر الغربى ، وتحدد له المسالك والدروب ، التى تجعل منه علماً ملتزما بقضايا المجتمع وبقضايا الجماهير الكادحة من العمال والفلاحين .

المراجع

قائمة ببليوجرافية

Bibliography

اولا : مراجع باللغة العربية :-

١ ـ د. ابراهيم أبو لغد و د. لويس كامل مليكه ، البحث الاجتماعي : مناهجه وأدواته ، مركز التربية الأساسية فى العالم العربى ، سرس الليان ، ١٩٥٩

٢ ـ د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعي ، جـ ١ : المفهومات ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠

٣ ـ د. أحمد الخشاب ، التفكير الاجتماعي : دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠

٤ ـ د. ثروت أنيس الأسيوطى ، الصراع الطبقى وقانون التجـــار ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٥

٥ ـ د. جمـــال زكى والسيد يس ، أسس البحث الاجتماعي ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٢

٦ ـ د. سامى منصـور ، انتكاسة الثورة فى العالم الثالث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢

٧ ـ د. عبد الباسط محمد عبد المعطى ، فى نظرية علم الاجتماع ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٣

٨ ـ د. عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعي ، مطبعة لجنة البيان العربى ، ١٩٦٦

٩ ـ د. عبد العزيز عزت ، « تطور المجتمع البشرى عند ابن خلدون فى ضوء البحوث الاجتماعية الحديثة » ، أعمال مهرجان ابن خلدون ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٦٢

١٠ ـ د. عبد الكريم اليافى، تمهيد فى علم الإجتماع، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٧

١١ ـ د. عبد الكريم درويش و د. ليلى تكلا، أصـــول الإدارة العامة، مكتب الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨

١٢ ـ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، نشرها وضبطها د. على عبد الواحد وافى، الطبعة الأولى، لجنة البيان العربى، ١٩٥٧

١٣ ـ د. على عبد الواحد وافى، « ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع» أعمال مهرجان ابن خلدون، مرجع سابق

١٤ ـ د. على عبد الواحد وافى، عبد الرحمن بن خلدون، أعلام العرب، العدد الرابع، وزارة الثقافة.

١٥ ـ د. غريب سيد أحمد، الطبقات الاجتماعية، ج ١ : النظرية والقياس، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٢

١٦ ـ د. غريب سيد أحمد، الجماعات الاجتماعية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٣

١٧ ـ د. غريب سيد أحمد و د. عبد الباسط محمد عبد المعطى، البحث الاجتماعى ج ١ : المنهج والقياس، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٤

١٨ ـ د. محمد عاطف غيث، علم الاجتماع، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣

١٩ ـ د. محمد عاطف غيث، علم الاجتماع، ج١ : النظرية والمنهج والموضوع، دار المعارف، ١٩٦٦

٢٠ ـ د. محـــمد عاطف غيث، الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٢

٢١ ـ د محمد عبد المعز نصر، « فلسفة السياسة عند ابن خلدون »، أعمال مهرجان ابن خلدون، مرجع سابق.

٢٢ ـ د. محمد فؤاد شكرى ، الصراع بين البورجوازية والإقطاع ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٨

٢٣ ـ د. محمد طلعت عيسى ، تصميم وتنفيذ البحوث الاجتماعية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧١

٢٤ ـ د. محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة.

٢٥ ـ د. مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الأول: تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦

٢٦ ـ د. مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثالث : المدارس الاجتماعية المعاصرة ، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦

٢٧ ـ د. مصطفى الخشاب، دراسة المجتمع، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨

٢٨ ـ د. مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مكتبة الأنجلو المصرية.

٢٩ ـ د. لويس كامل مليكه ، سيكولوجية الجماعات والقيادة ، ج ١: أصول وأسس علم ديناميات الجماعة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣

٣٠ ـ د. نجيب اسكندر ابراهيم و د. لويس كامل مليكة و د. رشدى فام منصور، الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعى، مؤسسة المطبوعات الحديثة، ١٩٦٠

ثانيا : مراجع مترجمة

٣١ ـ آرون (ريمون) ثمانية عشر درساً حول المجتمع الصناعى ، ترجمة ماهر نسيم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٨

٣٢ ـ أوسيبوف، قضايا علم الاجتماع ، ترجمة د. سمير نعيم ود. فرج أحمد، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠

٣٣ - أيكن (هنرى) ، عصر الايديولوجية ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣

٣٤ - باريون (يا كوب) ، ما هى الأيديولوجية ، ترجمة د. اسعد رزوق ، الدار العلمية ، بيروت ، ١٩٧١

٣٥ - بوبوف (س.ى.) ، نقد علم الاجتماع البورجوازى المعاصر ، ترجمة نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٣

٣٦ - بوتول (جاستون) ، تاريخ علم الاجتماع ، ترجمة غنيم عبدون، الدار القومية للطباعة والنشر .

٣٧ - جارودى (روجيه) ، كارل ماركس ، ترجمة جورج طرابيش ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٠

٣٨ - جينسكايا (بيلينا موذر)، مسألة الأمة ، ترجمة رفعت السعيد ، دار يوليو للنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦

٣٩ - دور كايم (اميل) ، علم اجتماع وفلسفة ، ترجمة د. حسن أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٦

٤٠ - روزنتال (مارك) ، تناقضات عصرنا الراهن،وكالة نوفستى للانباء ودار الهنا للطباعة.

٤١ - سارتر (جان بول) ، الماركسية والثورة ، ترجمة عبد المنعم الحفنى، مطبعة الدار المصرية ، القاهرة

٤٢ - شاف (آدم) ، ماركس والمذهب الإنسانى المعاصر ، ترجمة ماهر شفيق ، مصباح الفكر ، ١٩٦٨

٤٣ - الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمة فؤاد كامل وجلال العشرى وعبد الرشيد صادق ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣

٤٤ - كوت (دافيد) ، فرانز فانون ، ترجمة عدنان كيالى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧١

٤٥ - كوفيليه (أرمان) ، مقدمة فى علم الاجتماع ، ترجمة د. السيد محمد بدوى وعباس الشربينى ، دار المعارف ، ١٩٦١

٤٦ - ماركس (كارل) ، مخطوطات ١٨٤٤ ، تقديم وترجمة إميل بوتيغلى منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ١٩٧٠

٤٧ - ماركيوز (هربرت) ، العقل والثورة ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٠

٤٨ - ماكيفر (روبرت) وبيج (تشارلز) ، المجتمع ، ترجمة د. على أحمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١

٤٩ - لوفيفر (هنرى) ، فكر لينين ، ترجمة د. كمال الغالى ، دمشق ، ١٩٦٩

٥٠ - لوبون (جوستاف) ، روح الثورات ، ترجمة عادل زعيتر ، المطبعة العصرية بمصر ، ١٩٥٧

٥١ - ليكرت ، أنماط جديدة فى الإدارة ، ترجمة ابراهيم البرلس ، سجل العرب ، ١٩٦٦

٥٢ - لينين ، ماركس - انجلز - الماركسية ، دار التقدم بموسكو ، ١٩٦٨

٥٣ - واتسين (هيوستيون) ، ثورة العصر : بحث فلسفة السياسة والاجتماع ، ترجمة محمد رفعت ، مكتبة الأنجلو المصرية

ثالثاً : مراجع أجنبية

54 – Abraham, J; Origins and Growth of Sociology, Penguin Books, 1973.

55 – Afanasyev, V.; Marxist philosophy : A popular out line, progress publishers, Moscow, 1963.

56 – Argris, C.; Personality & organization; Harper & Brothers, N. Y. 1957.

57 – Barber, B.; Social Stratification, N. Y., 1957.

58 – Barron, M.; Contemporary Sociology, Dodd, Mead & Company, N. Y., 1963.

59 – Becker, H. & Barnes, H. E.; Social thought from lore to Science: Haren Press, Washington; 1952.

60 – Becker, H., & Boskoff (eds.), Modern Sociological theory, in continuity and change, The Dryden Press, N. Y., 1957.

61 – Bennet, John W. & Melvin M. Tumin; Social life; Alfred A. Knopf; N. Y.; 1952.

62 – Bennis W., Leadership theory & administrative behavior, Administrative science quarterly; 1959.

63 – Bierstedt, Robert; The Social order, Mac Graw – Hill Book, Company, inc.; N. Y; 1957.

64 – Bereison, Bernard (ed.); The behavioral Sciences to day; Basic Books, inc; N. Y.; 1963.

65 – Berghe P. Van Den; Dialectic & Functionalism, American Sociological Review; 1963.

66 — Black, M (ed.), The theories of T. Parsons; Prentic-Hall, 1961.

67 — Blau, P. & Scott, R.; Formal organization: A Comparative approach; Routledge & Kegan Paul; London, 1963.

68 — Blau, P.; Theories of organizations; in: international Encyclopedia of the Social sciences; Vol. II; 1968,

69 — Bogardus, Emory; Sociology. MacMillan Company, N. Y.: 1954,

70 — Bogardus ,Emory.; The development of Social Thought, David McKay Company, inc.; N. Y.; 1964.

71 — Borgatta, Edgar F. & Meyer, Henry J. ; Sociological Theory : present – day Sociology from the Past; (ed.) Alfred A. Knopf, N. Y. ; 1956.

72 – Brinton; Crave; The Anatomy of Revolution; Prentic — Hall, N. Y.; 1959.

73 — Broom, L ; Selznick. P ; Sociology : A. Text with adopted Readings, Harper & Row, Publishers, N. Y.; 1963.

74 — Caplow, T.; Principles of organization, Har court Brace & world, N. Y., 1964.

75 — Catgrove, S. ; The Science of Society ; An introduction to Sociology, George Allen & LTD., London: 1969.

76 — Cohen, P.; Modern Social Theory ; Heimman, London, 1968.

77 — Cooley, Charles H.; Social organization; A study of the large Mined ; The Free Press, N· Y.,1956.

78 — Cooley, Charles H. ; Human Nature & The Social order; The Free Press ; N. Y. ; 1956.

79 — Coser, L.; The Functions of Social conflict, The Free Press of Cleneo, Illinoe, 1956.

80 — Coser, Lewis A. : Makers of Modern Social Science : George Simmel; Prentice – Hall, inc. ; N. Gersey, 1965·

81 — Coser; L. ; Masters of Sociological thought – Ideas in Historical and Sociological context; Harcourt Brace, Jovanavich, Inc., N. Y.; 1971.

82 — Coser, Lewis A. & Rosenberg, B., Sociological Theory ; The MacMillan com. ; N. Y.; 1965.

83 — Davis, K. ; Human Society, The Macmillan company., N. Y., 1969.

84 - Davis, K., The Myth of functional analysis as a special Method in Sociology & Anthropology, American Sociological Review ; vol 24, 1959.

85 — Etzioni, A.; Daul Leadership in complex organization, American Sociological Review ; vol. 30, 1965.

86 — Etzioni, A. ; A Comparative analysis of complex organization ; The Free Press of Clencoe ; 1960.

87 — Fallding, H., The Sociological Task; Prentice-Hall, inc., N. Y., 1968.

88 — Faris, R, (ed.) : Handbook of Modern Sociology; Rand Mc Nally & com.; Chicago, 1964.,

89 — Fircher, G. ; "Current Soviet warks in Sociology" in Paul Hollander (ed) American and soviet Soeity : A Reader in comparative Sociology and Perception, Prentic - Hall, inc., N. Jersey, 1969:

90 — Friedrichs, R. W., A Sociology of Sociology; the Free. Press: N. Y., 1970.

91 — Ghiselli, E. E. & Brown, C. W. ; Personnel and industrial psychology ; Mc Graw - Hill Book com. ; N. Y.; 1955

92 — Glezerman, G. ; The Laws of Social development; Foreign Language Publishing House ; Moscow.

93 — Goode, W. J. & Hatt, P. K. ; Methods in Social Research ; Mc Graw - Hill Book com. ; N. Y. ; 1952.

94 — Gould, J. & Kolb, W. ; A dictionary of the Social Sciences ; The Free press ; N. Y. ; 1964.

95 — Gouldner, A. ; The Coming Crisis of western Sociology;

Heimman; N. Delhi, 1971.

96 — Green, A. ; Sociology; Mc Grow – Hill Book Gom., N. Y., 1960;

97 — Hagood, M. J. & Price, D. O. ; Statistics for Sociologists; Holt, Rinehart & winston; N. Y.; 1960.

98 — Haire, M. ; Modern Organization Theor y, Jehn wiley & Sons ; N. Y. ; 1959.

99 — Hollander, P. ; Americen & Soviet Society (ed.) ; Prentice Hall, inc. ; N. j. ; 1964.

100 — Homans. G. C. ; The Human Group ; Routledge & Kegan Paul, London ; 1959.

101 — Homans, G. C.; Social Behavior ; Routledge & Kegan Paul ; London ; 1960.

102 — International Sociological Association, Transaction of the Third world congress of sociology ; Vol III , 1956.

103 — Jandy , E. C. ; Charles Horton Cooley : his life and his Social theory ; The Norwood press; N. y. ; 1942.

104 — Johnson, H. M. ; Sociology; Routledge & Kegan paul, London, 1961

105 — Josafson, E. , irrational leadership in formal Organization ; Social Force. Vol. 31 ; 1952.

106 — Karn, H. & Gilmer, B. ; Readings in industrial & Business Psychology ; Mc Graw – Hill Book Com., N. y., 1962

107 — Kell, V. & Kovalson, M.; Historical Materialism : an outline of Marxist theory of Socity ; Progress Pub., Moscow 1973.

108 — Koenig, S.; Sociology: an introduction to the Science of Society ; Barnes & Noble, inc. ; N. y.; 1964.

109 — Konstantinov, F. & Kell, V. ; Historical Materialism Marxist Sociology ; trans in Current Digest of Soviet Press ; Vol. 17 ; No. 8 ; 1965

110 — Krasin, Y. ; Lenin, Revolution & the world theory ; Progress Pub., Moscow ; 1971.

111 — Krupp, Sh. ; Pattern in Organizational analysis ; Halt & Rinehart & Winston, N. y., 1961

112 — Laqueur ; W., "Revolution" ; In international Encyclopidia of the Sosial Science, ed. by; D. Shills ; The Free press, London, 1968.

113 — Lasswell, T. E. ; Class & Stratum; an intrduction to Concepts Research ; Houghton Mifflin Com. ; N. y. ; 1965.

114 — Lazarsfeld, P. F. & Rosenberg, M. ; The Language of Social Research: A Reader in the Methodology of social research; The Free press of Glencoe (ed.) ; 1964.

115 — Levy, M., "Structural Functional Analysis"; in International Encyclopidia of the Social Sciences ; op. cit.

116 — Lockwood, D. ; Some remarkes on the Social System, British Journal of Sociology ; 1956.

117 — Loomis, ch. p. & Loomis, Z. K. ; Modern Social Theories ; D. Van Nostrand Com., N. y.; 1963.

118 — Lundberg, G. ; Social Research ; Longmans ; Green & Com. ; N. y., 1942.

119 — Lundberg, G ; Schrag, C. & Larson, O. ; Sociology ; Harper & Brothers ; N. y. ; 1958.

120 — MacIver, R. M. & Page, ch. H. ; Society; Rinehart & Com. ; N. y. ; 1949.

121 — Menis, T. & Meltzer, B ; Symbolic interaction; Allyn & Bacon ; Boston ; 1969.

122 — Mannheim, K. ; Ideology & Utopia : An introduction to Sociology of Knowledge : Kegan Paul. Trench & Com. ; London ; 1940.

123 — Mannheim, K. ; Systematic Sociology : An Introduction to the study of Sociology; Routledge & Kegan Paul; London 1954.

124 — March J. C. & Simon, H. A. ; Organizations ; John wiley & sons, N.y. ; 1958.

125 — Martindale, Don: The Nature and Types of Sociological Theory ; Boston, 1960.

126 — Mayer, K. ; Class & Society ; Doubleday; N. y., 1955

127 — Marx, K. & Engles, F. ; Selected works; vol. I ; Foreign Language Pub. House ; Moscow ; 1962.

128 — Mckinney, J. & Tiryakian, E. (ed.) ; Theoretical Sociology : perspectives & developments: Meredith Corporation, N. y., 1970.

129 — Merrill, F. ; Society & Culture : An introduction to Sociology : Prentic — Hall : N. J. , 1961.

130 — Merton, R.(ed.) , Sociology today ; Basic Books, 1959.

131 — Merton, R., et al. : Reader in Bureaucracy; The Free Press of Glencoe ; 1960.

132 — Merton, R., Social Theory and Social Structure ; The Free Press of Glencoe, Illinios, 1961

133 — Mensel, A. ; "Revolution & Counter Revolution", in Encyclopidia of the Social Sciences, ed by : E. Seligman & A. Johnson; The Macmillan Com., N. y., 1934.

134 — Mills, C. W. ; The Marxists ; Bell Pub. Com., N. Y., 1962.

135 — Moser ; C. A. Survey Method in Social investigation, Heimman Educational Books, London, 1969.

136 — Muzumdar, H., The Grammer of Sociology: Man in Society, Asia Pub. House, N. Y., 1966.

137 — Nelson, L. ; Ramsey, ch. & Verner, C. ; Community structure and change, The MacMillan Com, N. Y., 1964.

138 — Nisbet, R. ; "Conservatism & Sociology" ; American Sociological Review ; vol. 58 ; 1952.

139 — Nisbet, R. ; The Sociological Tradition; Basic Books; N. Y., 1966.

140 — Novikov, N. ; organizational Society ; Social mechanisms & Ideology ; Novosti Press : Moscow ; 1972.

141 — Olmsted, M. S., The Small Group ; Random House, inc. ; N. Y. ; 1959.

142 — Osipova, G., "Lenin and Marxist Sociology" ; Social Sciences today ; No. 3 ; 1970.

143 — Parsons, T. ; Evolutionary Universals in Sociology ; American Sociological Review ; 1964.

144 — Parsons, T.; The Social System ; Amerind pub. ; N. Delhi ; 1972.

145 — Parsons, T. ; Essays in Sociological Theory ; The Free Press : N. Y. ; 1958.

146 — Parsons , T. & Bales , R. (ed.) ; Family, Socialization & Interaction Process , Illinois ; 1955.

147 Rohrer, J. & Sherif, M. (ed) ; Social Psychology at the Cross Roads : Harper & Brothers ; N. Y. , 1951;

148 — Rosenthal, M. & Yudin, P. ; A dictionary of Philos — ophy ; Progress Pub.; Moscow ; 1967.

149 — Sayles , L. ; Human Relations ; in Encyclopidia of the Social Sciences; Vol. 3; 1958.

150 — Sellew, G. ; furfey, R. P. & Gaughan, W. T.; An introduction to Sociology, Harper & Row Pub.; N. Y.; 1958.

151 — Selltiz, G. et al. ; Research Methods in Social Rela-tions ; Holt Rinehart & Winston ; N. Y. 1961.

152 — Selznick, ph.; Foundation of the theory of organization; American Sociological Review; Vol. XIII; 1948.

153 — Smelser, N.; Toward A General Theory of Social change ; in : Essays in Sociological explanation.

154 — Smith, D., "Sociology & the Rise of corporate capit-alism" , Science & Society; Vol. 29, No. 4; 1956.

155 — Sorokin, P. ; Social Mobility ; Harper & Brothers, N. Y. ; 1927.

156 — Sorokin, P. ; Contemporary Sociological theories , Harper & Row, N. Y., 1928.

157 — Sutherland, R. L.; Woodward, J. & Maxwell, A., introductory Sociology, N, Y., 1961.

158 — Thompson, V. A., Modern organization, Alfred Knopf, N. Y., 1961.

159 — Timasheff, N., Sociological Theory, Random House, N. Y., 1964.

160 — Turner, R. H. & Killian, L. M., collective Behavior, Prentic – Hall, inc., N. J., 1957.

161 — Valdes, D. M. & Dean, D. G., Sociology in use, The MacMillam Com., N. Y, , 1965.

162 — Warnley, P. et al., introducing Sociology, Penguin Books, London 1972.

163 — whyte, W. F., industrial Sociology, in : Review of Sociology, ed. by : Gitler, Jhon wiley & sons, N. Y., 1957.

164 — Wilson, L. & Kolb, W. L., Sociological analysis : an intordactory text and case Book, Harcourt, Brace & Com.; N. Y. 1949.

165 — Young, P., Scientific Social Surveys & Research, Prentis – Hall of india, N. Delhi, 1973.

166 — Zeitlin, I., Ideology & the development of Sociological theory, Prentic – Hall of India, N. Delhi, 1969.

167 — Znaniecki, F., The Method of Sociology, Farrar & Rinehart, inc., N. Y., 1934.

تم طبع الكتاب بحمد الله وتوفيقه

رقم الايداع بدار الكتب ٤٢٩٣ / ١٩٧٤

دار الكتب الجامعية
الإدارة
١٨ شارع سيزوستريس
تليفون ٨٠٥٨٢٠ الإسكندرية

مكتب القاهرة
١٣ شارع الدكتور عبد الحميد سعيد
قصر النيل تليفون ٩٠٠٠٤١ - ٥٠٩٠٩

توكيل الإسكندرية
مكتبة هواة الكتب
٣٤ شارع سعد زغلول ت - ٨٠٨٠١٣